

إيزابيل الليندي

دفتر مايا

رواية

ترجمة : صالح علماني

إيزابيل ألليندي

دفتر مايا

رواية

ترجمة

صالح علماني

دفتر مايا

المؤلفـــة : إيزابيل الليـنـدي

الترجمـة : صالح علمـــاني

الروايـــة : دفتـــر مــــايـــا

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعـــة الأولــــى 2012

الناشـر :

دال للنشـر والتوزيع

سـورية - دمشـق - ص.ب 29170

هاتف : 30 48 46 944 00963

إيميل : n_hammdan@yahoo.com

العنوان الأصلي للكتاب
Isabel Allende
EL CUADERNO DE MAYA

إلى مراهقي قبيلتي :
أليخاندرو، أندريا، سابرينا،
أريستوتاليس وأتشيّكاس

قل لي، ما المزيد الذي كان عليّ عمله؟
ألا ينتهي كل شيء إلى الموت في النهاية، وبسرعة؟
قل لي، ما الذي تخطط فعله
بحياتك الثمينة، الوحشية، الوحيدة؟

ماري أوليفر، **يوم الصيف**

صيف

كانون الثاني، شباط، آذار

منذ أسبوع عانقتني جدتي، بلا دموع، في مطار سان فرانسيسكو وكررت القول لي بأنني إذا كنتُ أثمّن حياتي بشيء، عليّ ألا أتصل بأحد أعرفه إلى أن يتأكد لنا يقيناً أن أعدائي قد توقفوا عن البحث عني. فجدتي نيني مصابة بوسواس هذياني، مثل جميع أهالي جمهورية بيركلي الشعبية المستقلة الذين تلاحقهم الحكومة والكائنات الفضائية، ولكنها لم تكن تبالغ في حالتي. فكل إجراء احترازي يبدو قليلاً. سلّمتني دفتراً من مئة ورقة كي أسجل يوميات حياتي، مثلما فعلتُ منذ الثامنة حتى الخامسة عشرة من عمري، عندما انحرف مصيري. وقالت لي: «سيكون لديك وقت إلى حدّ الملل يا مايا. استغليه في كتابة الحماقات التي اقترفتِها، لعلك تُقدّرين ثقل حجمها». توجد عدة دفاتر ليومياتي، مختومة بشريط لاصق صناعي، كان جدي يخبئها وراء قفل في منضدة مكتبه، وتحتفظ بها الآن نيني في علبة حذاء تحت سريرها. سيكون هذا الدفتر هو دفتري رقم 9. وتعتقد جدتي نيني أن هذه الدفاتر ستفيدني عندما احتاج إلى علاج نفساني، لأنها تتضمن مفاتيح فك عُقد شخصيتي؛ ولكن لو أنها قرأتها لعرفت أنها تتضمن ركاماً من الخرافات القادرة على تضليل فرويد نفسه. وجدتي لا تثق، من حيث المبدأ، بالمهنيين الذين يكسبون أجورهم بالساعة، لأن التوصل إلى نتائج سريعة لا يناسبهم. ولكنها تستثني مع ذلك المعالجين النفسانيين، لأن أحدهم أنقذها من الاكتئاب ومن حبائل السحر عندما خطر لها التواصل مع الموتى.

وضعتُ الدفتر في جعبتي كيلا أُغضبها، دون أن يكون في نيتي استخدامه، ولكن الوقت هنا يتمدد طويلاً في الحقيقة، والكتابة هي طريقة لشغل ساعات الفراغ. وقد كان هذا الأسبوع الأول من النفي طويلاً جداً بالنسبة إلي. إنني في جزيرة صغيرة تكاد تكون غير مرئية على الخريطة، تعيش

في أوج العصور الوسطى. أجد تعقيداً في الكتابة عن حياتي، لأنني لا أعرف ما هو مقدار الذكريات في ما أكتبه، وكم منه هو نتاج مخيلتي؛ فالتزام الحقيقة الصارمة قد يبدو مُملاً، ولهذا، ودون انتباه مني، أُحوّر الحقيقة أو أُبالغ فيها. لكنني قررت تصحيح هذا العيب والتقليل قدر الإمكان من الكذب في المستقبل. أنا أكتب بيدي، مثلما هي الحال الآن، بالرغم من أن أبناء قبيلة اليانوماني في الأمازون صاروا يستخدمون الكمبيوتر. لهذا أتأخر كثيراً، ولا بد أن كتابتي تبدو سيريلية[1]، لأنني أعجز أنا نفسي عن حل رموزها، ولكنني أفترض أنها ستأخذ بالاستواء صفحة بعد صفحة. فالكتابة هي مثل ركوب الدراجة: لا تُنسى حتى لو أمضى أحدنا سنوات دون ممارستها. أحاول التقدم وفق نظام تسلسل زمني، ذلك أنه لا بد من إتباع نظام ما، وقد فكرت في أن هذا النظام يسهّل عليّ، ولكنني أفقد خيط التسلسل الزمني أحياناً، وأمضي نحو التفرعات أو أتذكر شيئاً مهماً، بعد أن أكون قد تقدمت عدة صفحات، ولا أجد مفراً من إقحامه. فذاكرتي تتحرك أثناء الكتابة في دوائر، بحركة حلزونية، وبقفزات بهلوانٍ من لاعبي العقلة.

❖ ❖

أنا مايا بيدال، تسعة عشر عاماً، الجنس أنثى، عزباء، وليس لي حبيب، لانعدام الفرص وليس لأني متطلبة، ولدتُ في بيركلي بكاليفورنيا، جواز سفر أمريكي، لاجئة بصورة مؤقتة في جزيرة بجنوب العالم. أطلقوا عليّ اسم مايا لأن جدتي نيني معجبة بالهند، ولأنه لم يخطر لأبويّ اسم آخر، على الرغم من أنه كان لديهما تسعة شهور ليفكرا في اسم لي. ***ومايا*** بالهندية يعني «سحر، وهم، حلم». وهي أمور ليس لها أية علاقة بطبعي. اسم آتيلا يناسبني أكثر، لأنني حيث أضع قدمي لا ينبت العشب أبداً. قصتي

[1] سيريلية (cirílica) أبجدية سلافية قديمة تُنسب إلى مخترعها القديس سيريل.

تبدأ في تشيلي مع جدتي، نيني، قبل أن أولد بزمن طويل، لأنها لو لم تهاجر لما كانت أحبت بوبو ولما كان استقر بها المقام في كاليفورنيا، ولما كان أبي قد تعرف إلى أمي ولما كنت أنا ما أنا عليه، وإنما كان يمكن لي أن أكون فتاة تشيلية مختلفة تماماً. كيف أنا؟ طول قامتي متر وثمانون سنتمتراً، ووزني خمسون كيلوغراماً عندما ألعب كرة قدم، وعدة كيلوغرامات أكثر عندما أهمل نفسي، ساقان عضليتان، يدان خرقاوان، عينان زرقاوان أو بنيتان، حسب ساعات النهار، وأظن أنني شقراء، لكنني لست متأكدة، لأنني لم أرَ شعري الطبيعي منذ سنوات عديدة. لم أرث مظهر جدتي الاكزوتيكي ببشرتها الزيتونية وبتلك الدوائر المزرقة حول العينين التي تضفي عليها ملمحاً من الفسق. أو مظهر أبي المتين كمصارع ثيران بقدر ما هو معتد بنفسه. ولستُ أشبه كذلك جدي ـ بوبو العظيم ـ لأنه لسوء الحظ ليس جدي البيولوجي، وإنما هو الزوج الثاني لجدتي نيني.

إنني أشبه أمي، على الأقل في الحجم واللون. وهي لم تكن أميرة من لابونيا[2]، مثلما كنت أظن قبل بلوغي سن الرشد، وإنما هي مضيفة طيران دالمركية أحبها أبي، الطيار التجاري، في الجو. كان لا يزال شاباً فتياً في سن غير مناسبة للزواج، ولكنه وضع بين حاجبيه فكرة أن تلك هي امرأة حياته، ولاحقها بعناد إلى أن تنازلت بفعل التعب، أو ربما لأنها كانت حبلى. وما جرى أنهما تزوجا ثم ندما على ذلك خلال أقل من أسبوع، ولكنهما ظلا معاً إلى أن ولدتُ. بعد أيام من ولادتي، وبينما كان زوجها يطير في رحلة جوية، أعدّت أمي حقائبها، ولفتني ببطانية صغيرة وذهبت في سيارة أجرة الى بيت حمويها. كانت جدتي نيني تشارك في مظاهرة في سان فرانسيسكو

---

[2] لابونيا (Laponia): المنطقة الشمالية العليا من أوروبا، تضم أجزاء من النرويج والسويد وفنلندا وروسيا.

ضد حرب الخليج، ولكن جدي بوبو كان في البيت وتلقى الحزمة التي سلّمته إياها أمي، دون أن تقدم له الكثير من التفسيرات، قبل أن تعود راكضة إلى سيارة الأجرة التي ظلت تنتظرها. وقد كانت الحفيدة خفيفة الوزن إلى حدّ يمكن معه أن تتسع لها راحة يد واحدة من يدي الجد. بعد قليل من ذلك أرسلت الدنمركية بالبريد وثائق الطلاق، وتخليها عن حضانة ابنتها. كان اسم أمي مارتا أوتير وقد تعرّفتُ إليها في صيف السنة الثامنة من عمري، عندما أخذني جداي إلى الدنمرك.

إنني الآن في تشيلي، بلد جدتي نيديا بيدال، حيث يأكل المحيط اليابسة بقضمات كبيرة ويتفكك جنوبي القارة الأمريكية الجنوبية إلى جزر. ومن أجل مزيد من الدقة، أنا موجودة في تشيلوي، وهي جزر من منطقة لوس لاغوس، بين خطي العرض 41 و43 جنوباً، وهذه منطقة أرخبيل تقارب مساحتها تسعة آلاف كيلومتر مربع، وتضم نحو مئتي ألف نسمة، جميعهم أقصر قامة مني. وتشيلوي بلغة مابودونغون، لغة سكان المنطقة الأصليين، تعني أرض الكاهويلات، وهذا جنس طيور من فصيلة النوارس شديدة الزعاق ورأسها أسود، ولكن كان يجب تسميتها أرض الخشب والبطاطا. ففضلاً عن الجزيرة الكبرى، حيث المدن الأكثف سكاناً، يوجد الكثير من الجزر الصغيرة، العديد منها غير مأهولة بالسكان. وبعضها مجتمعة في ثلاث أو أربع جزر متقاربة إلى حد يمكن لها عند انخفاض المد البحري أن تتواصل في ما بينها براً، ولكن الحظ لم يحالفني في الذهاب للاستقرار في إحدى تلك الجزر. فأنا أعيش على بُعد رحلة من خمس وأربعين دقيقة، في زورق ذي محرك وبحر هادئ، عن أقرب قرية.

❖ ❖

رحلتي من شمال كاليفورنيا إلى تشيلوي بدأت بسيارة جدتي الفوكسفاغن الصفراء النبيلة، والتي تعرضت لسبعة عشر حادث اصطدام

منذ العام 1999، ولكنها تنطلق كأنها سيارة فيراري. خرجتُ في أوج الشتاء، في أحد تلك الأيام ذات الرياح العاصفة والأمطار التي تجعل خليج سان فرانسيسكو يفقد ألوانه ويبدو المشهد كما لو أنه مرسوم بريشة: أبيض، أسود، رمادي. كانت جدتي تقود السيارة بأسلوبها، بحشرجات، متشبثة بالمقود كما لو أنه إطار نجاة، وعيناها مصوبتان إليّ أكثر مما إلى الطريق، مشغولة بتوجيه آخر التعليمات إليّ. لم تكن قد أوضحت لي إلى أين سترسلني بالضبط؛ «تشيلي» هو كل ما قالته وهي تضع خطة تدبر أمر اختفائي. وفي السيارة كشفت لي عن التفاصيل، وأعطتني كتيباً سياحياً بطبعة رخيصة.

ـ تشيلوي؟ أي مكان هو هذا؟ ـ سألتها.

ـ هناك ستحصلين على كل المعلومات الضرورية ـ قالت مشيرة إلى الكتيب.

ـ يبدو مكاناً بعيداً جداً...

ـ كلما ذهبتِ أبعد يكون أفضل. لدي في تشيلوي صديق، اسمه مانويل ارياس، إنه الشخص الوحيد في هذا العالم، فضلاً عن ماك أوكلي، الذي اتجرأ على الطلب منه أن يخبئك لسنة أو سنتين.

ـ سنة أو سنتان! أنت خرِفة يا نيني!

ـ انظري أيتها الصغيرة، هناك أوقات لا يكون للمرء أي قدرة على التحكم بحياته... الأمور تمر عليه وتنقضي وحسب. وهذا واحد من تلك الأوقات ـ قالت لي وأنفها يكاد يلتصق بزجاج السيارة الأمامي وهي تحاول تحديد مكان وجودنا، بينما نحن نمضي في العماء في شبكة الطرق السريعة المتشابكة.

وصلنا متعجلين إلى المطار وافترقنا دون مشاعر متكلفة، والصورة الأخيرة التي أحتفظ بها عنها هي صورة الفوكسفاغن تبتعد وهي تعطس تحت المطر.

سافرتُ عدة ساعات حتى دالاس، محشورة بين نافذة الطائرة وامرأة بدينة تعبق برائحة الفول السوداني المُحمَّص، ثم في طائرة أخرى لمدة عشر ساعات إلى سنتياغو دي تشيلي، مستيقظة وجائعة، أتذكر، وأفكر، وأقرأ في كتيب تشيلوي الذي يشيد بمحاسن المناظر الطبيعية والكنائس الخشبية والحياة الريفية. أصبتُ بالذعر. وطلع صباح هذا اليوم، الثاني من كانون الثاني عام 2009، بسماء برتقالية على جبال الأنديز البنفسجية، النهائية، الأبدية، الهائلة، عندما أعلن الطيار عن الهبوط. وسرعان ما ظهر وادٍ أخضر، وصفوف من الأشجار، ومروج خضراء، وفي البعيد ظهرت سنتياغو، حيث ولدت جدتي، وكذلك أبي، وحيث يوجد جزء غامض من قصة أسرتي.

❖ ❖

أعرف القليل جداً عن ماضي جدتي، لأنها نادراً ما تأتي على ذكره، كما لو أن ماضيها قد بدأ عند تعرّفها إلى جدي بوبو. ففي العام 1974، مات في تشيلي زوجها الأول فيليبه بيدال، بعد شهور قليلة من الانقلاب العسكري الذي أطاح بحكومة سلفادور ألليندي الاشتراكية، وأقام دكتاتورية في البلاد. وحين وجدت نفسها أرملة، قررت أنها لا تريد العيش تحت نظام قهر واضطهاد فهاجرت إلى كندا مع ابنها أندريس، أبي. ولم يكن بمقدور هذا أن يضيف الكثير إلى القصة، لأنه لا يتذكر إلا القليل عن طفولته، ولكنه مازال يوقر أباه الذي لم تبق منه سوى ثلاث صور فوتوغرافية. «لن نرجع أبداً، أليس كذلك؟»، قال أندريس في الطائرة التي حملتهما إلى كندا. لم يكن سؤالاً، وإنما اتهام. كان عمره تسع سنوات، وكان قد نضج فجأة خلال الشهور الأخيرة، وصار يطالب بتفسيرات، لأنه لاحظ أن أمه تحاول حمايته بنصف حقائق وأكاذيب. فقد تقبل بنزاهة خبر السكتة القلبية المفاجئة التي أصابت أباه، وخبر أن الأب قد دُفن دون أن يتمكن هو من رؤية جثمانه

وتوديعه. وبعد قليل من ذلك وجد نفسه في طائرة متوجهة إلى كندا. «سنرجع بالطبع يا أندريس»، أكدت له أمه، ولكنه لم يصدقها.

احتضنهما في تورينتو متطوعون من لجنة اللاجئين، قدموا إليهما ملابس مناسبة ووفروا لهما شقة مفروشة، الأسرّة فيها مرتبة والثلاجة ممتلئة. وبعد الأيام الثلاثة الأولى، واستهلاكهما المؤن المتوفرة، ظلت الأم وابنها معتكفين في الشقة، يرتجفان من الوحدة، ولكن زائرة اجتماعية تتكلم الإسبانية ظهرت في اليوم الرابع، وأخبرتهما بالمنافع والحقوق التي يتمتع بها جميع سكان كندا. تلقيا قبل كل شيء دروساً مكثفة بالإنكليزية وتم تسجيل الصبي في المدرسة المناسبة. حصلت نيديا بعد ذلك على وظيفة سائق لتتجنب مذلة تلقي صدقة من الدولة دون عمل. وقد كانت تلك الوظيفة هي الأقل ملاءمة لجدتي نيني. فإذا كانت قيادتها للسيارة اليوم بالغة السوء، لا بد أنها كانت أسوأ بكثير آنذاك.

انتهى الخريف الكندي القصير مفسحاً المجال لشتاء قطبي رائع بالنسبة لأندريس الذي صار اسمه الآن آندي، والذي اكتشف سعادة التزلج على الجليد، ولكنه كان شتاء لا يطاق في نظر نيديا التي لم تجد الدفء ولم تتحمل حزن فقدانها زوجها وبلادها. ولم يتحسن مزاجها بمجيء ربيع متردد ولا بالزهور التي برزت كسراب، في ليلة واحدة، حيث كان يوجد ثلج متصلب من قبل. كانت تشعر أنها بلا جذور وتحتفظ بحقيبتها جاهزة، بانتظار فرصة العودة إلى تشيلي فور انتهاء الدكتاتورية، ولكن تلك الدكتاتورية ستستمر مع ذلك ستة عشر عاماً.

❖ ❖

ظلت نيديا في تورينتو نحو سنتين، تعد الأيام والساعات، إلى أن تعرّفت إلى بول ديستون الثاني، جدي بوبو، الأستاذ في جامعة كاليفورنيا ببركلي الذي ذهب إلى تورينتو لتقديم سلسلة محاضرات حول كوكب

متهرب، يحاول هو إثبات وجوده من خلال حسابات شعرية وطفرات مخيلة. لقد كان بوبو أحد الفلكيين الأفروأمريكيين القلائل في مهنةٍ الأغلبية الساحقة ممن يعملون فيها من البيض، وكان عالماً لامعاً في مجاله ومؤلف عدة كتب. لقد أمضى في شبابه سنة في بحيرة توركانا في كينيا يدرس آثاراً تعود إلى ما قبل التاريخ في المنطقة، وطوّر، بالاستناد إلى الاكتشافات الأثرية، نظريةَ أن تلك الأعمدة البازلتية كانت مراصد فلكية وأنها استُخدمت قبل ثلاثمئة عام من التقويم المسيحي من أجل تحديد تقويم بورانا القمري الذي مازال استخدامه شائعاً بين رعاة أثيوبيا وكينيا. وفي أفريقيا تعلّم مراقبة السماء دون أحكام مسبقة، وهكذا بدأت شكوكه حول وجود الكوكب اللامرئي الذي بحث عنه في السماء بعد ذلك دون طائل، بالاستعانة بأضخم التليسكوبات.

وفرت جامعة تورينتو لإقامته جناحاً مخصصاً للأكاديميين الزائرين، واستأجرت له سيارة من وكالة لتأجير السيارات. وهكذا كان من نصيب نيديا فيدال مرافقته خلال إقامته هناك. وحين عرف أن سائقته تشيلية الأصل، أخبرها أنه زار مرصد لاسيّا في تشيلي، وأنه في فضاء النصف الجنوبي من الكرة الأرضية تُرى مجموعات نجوم مجهولة في النصف الشمالي، مثلما هي مجموعة نوبي تشيكا دي ماجلان، ونوبي غراندي دي ماجلان، وأن الليل في بعض المناطق شديد النقاء والمناخ بالغ الجفاف، بحيث تشكل أمكنة مثالية لرصد القبة السماوية. وهكذا اكتُشف أن المجموعات الشمسية تجتمع في تصميم شبيه بشبكات العناكب.

وفي واحدة من تلك المصادفات الروائية، كان قد أنهى زيارته إلى تشيلي في اليوم نفسه من عام 1974 الذي غادرت فيه مع ابنها إلى كندا. ويخطر لي أنه ربما كان كلاهما في المطار في الوقت نفسه ينتظر كل منهما طائرة رحلته، دون أن يعرف أحدهما الآخر، وهذا الاحتمال في نظرهما ليس مستحيلاً، فقد أمعن النظر إلى تلك المرأة الجميلة وهي أيضاً رأته، لأن وجود

رجمي يلفت الانتباه في تشيلي تلك الأيام، وبخاصة إذا كان طويل القامة ومتانقاً مثلما هو بوبو.

صباح يوم واحد من قيادة سيارتها في تورينتو كان كافياً لأن تدرك نيديا أن لدى زبونها الجالس في المقعد الخلفي توافقاً نادراً يجمع بين عقل لامع ومخيلة حالم، ولكنه يخلو تماماً من الحس السليم الذي تتباهى به. لم تتمكن جدتي نيني قط أن تفسر لي كيف استطاعت التوصل إلى تلك النتيجة وهي وراء مقود السيارة وفي أوج حركة المرور، ولكن الواقع أنها أصابت لب الحقيقة. فالعالم الفلكي كان يعيش تائهاً مثل الكوكب الذي يبحث عنه في السماء؛ فهو قادر على أن يحسب في أقل من رفة جفن كم من الوقت تحتاج سفينة فضائية للوصول إلى القمر إذا كانت تنطلق بسرعة 28286 كيلومتراً بالساعة، ولكنه يقف حائراً أمام ماكينة كهربائية لصنع القهوة. لم تكن جدتي قد أحست بخفق الحب منذ سنوات، وهذا الرجل المختلف جداً عن الآخرين الذين عرفتهم خلال سنوات عمرها الثلاث والثلاثين، يفتنها ويجتذبها.

وكان جدي بوبو، المذعور من جرأة سائقته في قيادة سيارتها، يشعر كذلك بالفضول تجاه المرأة المتخفية في بدلة السائقين الكبيرة على مقاسها، وتعتمر قبعة صياد دببة. لم يكن بالرجل الذي يتنازل بسهولة لدوافع العاطفة، وإذا كانت قد مرت بذهنه فكرة إغوائها، فقد استبعد الفكرة على الفور لكونها متعبة. أما نيني بالمقابل، ولم يكن لديها شيء تفقده، فقررت أن تعترض طريق الفلكي قبل أن تنتهي محاضراته. كانت معجبة بوجاهة لون جسده الذي بلون خشب المهاغوني ـ ورغبت في أن تراه كاملاً ـ وراودها هاجس بأن هناك الكثير من الأشياء المشتركة بينهما: هو يهتم بالفلك وهي بالتنجيم، وهما الشيء ذاته كما بدا لها. وفكرت في أنهما كلاهما قد جاءا من بعيد ليلتقيا في النقطة ذاتها من الكوكب ومن قدريهما، لأن ذلك مكتوب

في النجوم. وكانت جدتي نيني تعيش في ذلك الحين متعلقة بالأبراج، ولكنها لم تترك كل شيء للحظ. فقبل أن تتخذ المبادرة في مهاجمته بغتة، تحرت وعرفت أنه أعزب، وفي وضع مادي جيد، سليم ومعافى ولا يكبرها إلا بأحد عشر عاماً، وإن كان يمكن لها، للوهلة الأولى، أن تبدو ابنته لو أنهما من العرق نفسه. وسوف يقول بوبو بعد سنوات من ذلك، وهو يضحك، لو أنها لم تُسقطه بالضربة القاضية منذ الهجمة الأولى، لكان لا يزال يمضي مغرماً بالنجوم.

في اليوم التالي جلس البروفيسور في المقعد الأمامي كي يرى سائقته بصورة أفضل، ومن أجل أن تمنحه الوقت لفعل ذلك، قامت هي بعدة جولات غير ضرورية في شوارعٍ المدينة. وفي تلك الليلة بالذات، بعد أن قدمت الطعام لابنها وتركته نائماً، خلعت نيديا زي السائق، واستحمت، وطلت شفتيها، ومثلت أمام طريدتها بحجة أنها تريد أن تعيد إليه حافظة أوراق ظلت في السيارة، مع أنه كان يمكن لها أن تقوم بتسليمها إليه في اليوم التالي. لم تتخذ قط من قبل قراراً غرامياً بمثل تلك الجرأة. وصلت إلى المبنى متحدية هبة رياح جليدية، وصعدت إلى الجناح، ورسمت إشارة الصليب كي تمنح نفسها الحماسة، ثم طرقت الباب. كانت الساعة الحادية عشرة والنصف عندما دخلت نهائياً في حياة بول ديتسون الثاني.

❖ ❖

كانت جدتي قد عاشت في تورينتو كحبيسة معزولة. تتشوق في الليل إلى يد ذكورية تحيط بخصرها، ولكن كان عليها توفر متطلبات حياتها وأن تربي ابنها في بلاد ستظل فيها أجنبية على الدوام. لم يكن لديها متسع من الوقت للأحلام الرومانسية. والشجاعة التي تسلحت بها في تلك الليلة للوصول إلى باب الفلكي تبخرت فور فتحه الباب لها وهو بالبيجاما وبمظهر من كان نائماً. تبادلا النظرات خلال نصف دقيقة، دون أن يدريا ما يمكن لهما قوله، لأنه

لم يكن ينتظرها، ولم تكن لديها هي بدورها أية خطة، إلى أن دعاها للدخول متفاجئاً من الاختلاف الذي تبدو عليه وهي بلا قبعة زي السائق. أعجب بشعرها الأسود، وبوجهها ذي التقاطيع غير المنتظمة، وابتسامتها الملتوية قليلاً، وهي أمور لم يكن قد رآها من قبل إلا بنظرات مختلسة. وفوجئت هي بفارق الحجم بينهما، وكان يبدو أقل بروزاً في السيارة: بالوقوف على رؤوس أصابعها يمكن لها أن تشم صدر ذلك المارد. وانتبهت على الفور إلى الفوضى الكارثية التي تعم الجناح الضيق، واستنتجت أن هذا الرجل بحاجة جدّية إليها.

لقد أمضى بول ديتسون الثاني الشطر الأكبر من حياته في دراسة السلوك الغامض لأجساد الأجرام السماوية، ولكن معارفه كانت ضئيلة جداً بالأجساد الأنثوية، ومعدومة تماماً بالنزوات الغرامية. لم يكن قد وقع في الحب قطّ، وأحدث علاقة له كانت مع زميلة في الكلية، يلتقي بها مرتين في الشهر، وهي يهودية جذابة وبهيئة جيدة بالنسبة لسنوات عمرها، تصر دوماً على دفع نصف فاتورة حساب المطعم. أما جدتي نيني فكانت قد أحبت رجلين فقط، زوجها وعشيقاً انتزعته من رأسها وقلبها منذ عشر سنوات. كان زوجها رجلاً نزقاً، مستغرقاً في عمله وفي الممارسة السياسية، يسافر دون توقف ويمضي ذاهلاً دون التفات إلى حاجاتها، بينما كان الآخر علاقة سابقة مقطوعة. لقد كانت نيديا بيدال وبول ديتسون الثاني جاهزين للحب الذي سيجمع بينهما حتى النهاية.

سمعتُ القصة مرات كثيرة، وربما هي قصة روائية مختلقة عن غراميات جدي، وتوصلت إلى حفظها كلمة كلمة عن ظهر قلب، مثلما تُحفظ قصيدة. لست أدري طبعاً تفاصيل ما حدث في تلك الليلة وراء الباب المغلق، ولكنني أستطيع أن أتخيله بالاستناد إلى معرفتي بكليهما. أتكون الشكوك قد راودت جدي بوبو حين فتح الباب لتلك التشيلية، وأحس أنه يقف عند

تقاطع حاسم وأن الطريق الذي سيتخذه سيقرر مستقبله؟ لا ، بكل تأكيد، لا يمكن لمثل هذا التكلف أن يكون قد خطر له. وماذا عن نيني؟ إنني أراها تتقدم كالمنومة بين الملابس المبعثرة على الأرض ومنافض السجائر الممتلئة بالأعقاب، تجتاز الصالة الصغيرة، وتدخل حجرة النوم، وتجلس على السرير، لأن الأريكة والكراسي مغطاة بأوراق وكتب. يجثو هو إلى جانبها ليحتضنها ويظلان على تلك الحال لبعض الوقت، محاولين التكيف مع ذلك الوضع الحميم المفاجئ. ربما بدأت هي بالاختناق من حرارة التدفئة المركزية، وساعدها هو على التخلص من المعطف والجزمة، وعندئذ بدأا تبادل المداعبات بتردد، والتعرف أحدهما على الآخر، وتلمس روحيهما للتأكد من أنهما غير مخطئين. «إنكَ تعبق برائحة التبغ والحلوى. وأنت ناعم الملمس وأسود مثل فقمة». ستكون جدتي قد علقت. فقد سمعتها تردد هذه الجملة مرات كثيرة.

لستُ بحاجة إلى اختلاق الجزء الأخير من الأسطورة، لأنهما روياه لي. فمع تلك المعانقة الأولى، توصلت نيني إلى أنها قد عرفت ذلك الفلكي في حيوات أخرى وأزمنة أخرى، وأن الذي جرى بينهما هو إعادة لقاء وأن رموزهما الفلكية وأسرار التاروت الخاصة بهما تتكامل. «لحسن الحظ أنك رجل يا بول. تخيل لو أنه كان من نصيبك أن تكون أمي في هذا اللقاء المعاد...»، تنهدت وهي جالسة على ركبتيه. فرد عليها: «بما أنني لست أمك، ما رأيك في أن نتزوج؟».

بعد أسبوعين من ذلك وصلت إلى كاليفورنيا تجر معها ابنها الذي لم يكن راغباً في الهجرة مرة ثانية، ومزودة بتأشيرة عروس مدتها ثلاثة أشهر، عليها أن تتزوج قبل انتهائها أو تغادر البلاد. وقد تزوجا.

❖ ❖

أمضيت يومي الأول في تشيلي أجول في سنتياغو وأنا أحمل خريطة،

تحت حرّ ثقيل وجاف، لتمضية الوقت حتى موعد السفر في حافلة إلى الجنوب. إنها مدينة حديثة بلا أي شيء إكزوتيكي أو طريف. فليس هناك هنود بملابس تقليدية ولا أحياء استعمارية ذات ألوان جريئة، مثل ما رأيته مع جديَّ في غواتيمالا أو مكسيكو. صعدت في التلفريك إلى قمة جبل، وهذا مشوار إجباري للسياح، واستطعت التوصل إلى تكوين فكرة عن حجم العاصمة التي تبدو بلا نهاية، وعن التلوث الذي يغطيها بسحابة ضباب غباري. وعند الغروب ركبت حافلة مشمشية اللون للسفر نحو الجنوب، إلى تشيلوي.

حاولت عبثاً أن أنام مستفيدة من اهتزاز الحافلة الخفيف وخرخرة محركها وشخير مسافرين آخرين، ولكن النوم لم يكن سهلاً عليَّ على الدوام، وخاصة في تلك الساعة، حيث مازالت بقايا آثار من الحياة السيئة في أوردتي. عند الفجر توقفنا للتمكن من الذهاب إلى دورة المياه وتناول فنجان قهوة في استراحة، وسط مشهد رعوي لتلال خضراء وأبقار، ثم واصلنا بعد ذلك لعدة ساعات أخرى حتى مرسى بدائي، حيث استطعنا تحريك عظامنا وشراء فطائر جبن وثمار بحر من نساء يرتدين أرواب ممرضات بيضاء. صعدت الحافلة إلى عبارة من أجل اجتياز قناة تشاكاو: نصف ساعة من الإبحار الصامت في بحر مضيء. نزلتُ من الحافلة لأُطل من الحافة مثل بقية المسافرين الذين أصابهم التنميل بعد أن أمضوا، مثلي، ساعات طويلة محتجزين في مقاعد الحافلة. وبتحدٍ للرياح القاطعة، استمتعنا برؤية أسراب السنونو، كأنها مناديل في السماء، ومراقبة التونينات، وهذه دلافين ذات بطون بيضاء ترافق العبارة متراقصة.

تركتنا الحافلة في أنكود، بالجزيرة الكبرى، وهي ثاني مدن الأرخبيل أهمية. ومن هناك كان عليّ أن أركب حافلة أخرى للذهاب إلى القرية، حيث ينتظرني مانويل آرياس، ولكنني انتبهت إلى فقدان محفظة نقودي. لقد حذرتني جدتي نيني من نشالي تشيلوي ومهارتهم التي تحاكي مهارة

المشعوذين: إنهم يسرقون روحك بكل لطف. لحسن الحظ أنهم تركوا لي صورة جدي بوبو وجواز سفري، وكنت أضعهما في جيب آخر من جيوب جعبتي. كنت وحيدة، بلا قرش واحد، في بلاد مجهولة، ولكن إذا كانت مغامراتي المشؤومة في العام السابق قد علمتني شيئاً فإنما هو عدم التخاذل أمام العقبات الصغرى.

في إحدى دكاكين المشغولات التقليدية في الساحة، حيث يبيعون منسوجات تشيلوي اليدوية، كانت تجلس ثلاث نساء في دائرة، يتبادلن الحديث وينسجن، توقعتُ أن يساعدنني إذا كنَّ مثل جدتي نيني. فالتشيليات يسارعن إلى مساعدة أي شخص في ضيق، ولاسيما إذا كان غريباً. شرحت لهن مشكلتي بإسبانيتي المتعثرة فأفلتن على الفور أسياخ الحياكة من أيديهن وقدمن لي كرسياً ومشروباً غازياً بطعم البرتقال، بينما هن يناقشن حالتي وكل منهن تنتزع الكلام من الأخرى لإبداء رأيها. قمن بعدة اتصالات بهاتف محمول وحصلن لي على وسيلة نقل مع ابن عم لهن يسافر في الاتجاه نفسه الذي سأتوجه إليه، ويمكنه أن يأخذني معه بعد حوالي ساعتين، ولا مانع لديه في أن ينحرف عن طريقه قليلاً ليوصلني إلى وجهتي.

انتهزت فترة الانتظار لأقوم بجولة في البلدة وأزور متحفاً لكنائس تشيلوي الخشبية، صممها مبشرون جزويت قبل ثلاثمئة عام، وشيّدها لوحاً فلوحاً أناس تشيلوي الذين هم معلمو خشب مهرة وبناة سفن. هيكل الأبنية يتماسك بتعشيقات بارعة دون استخدام مسمار واحد، والسقوف المقببة عبارة عن زوارق مقلوبة. لدى الخروج من المتحف التقيت بكلب. كان متوسط الحجم، أعرج، فروه صلب ومزيت وذيله في حالة يرثى لها، ولكن له ملامح وقورة لحيوان من سلالة نبيلة. قدمت إليه الفطيرة التي في جعبتي، فالتقطها بأنفةٍ بين أسنانه الصفراء الكبيرة، ووضعها على الأرض ونظر إليّ كمن يقول بوضوح إن جوعه ليس إلى الخبز، وإنما إلى الرفقة. لقد كانت

زوجة أبي سوزان مدربة كلاب، وقد علمتني ألا ألمس حيواناً قبل أن يقترب مني، وأن هذه إشارة إلى أنه يشعر بالطمأنينة، لكنني تجاوزت البروتوكول مع هذا الكلب وبدت علاقتنا جيدة منذ البدء. قمنا معاً بجولة سياحية، وعندما حان الموعد المتفق عليه رجعتُ إلى حيث النساجات. ظل الكلب خارج الدكان، وإحدى قوائمه عند العتبة، بصورة مهذبة.

❖ ❖

تأخر ابن العم في المجيء ساعة إضافية عن الموعد، ووصل في شاحنة صغيرة ممتلئة حتى سقفها، ترافقه زوجته وطفل رضيع. شكرت السيدات اللواتي أحسنّ إليّ وسمحن لي فوق ذلك باستخدام الهاتف النقال لأتصل بمانويل ارياس، وودّعت الكلب، أما هو فكانت لديه خطط أخرى: أقعى عند قدميّ وهو يكنس الأرض بذيله ويبتسم ابتسامة ضبع. لقد أحسن إليّ بتميزي باهتمامه وصرت الآن كائنه البشري المحظوظ. بدّلت تكتيكي وصرخت به بالإنكليزية: «*Shoo! Shoo! Fucking dog*». لم يتحرك، بينما كان ابن العم يراقب المشهد بأسى، وقال أخيراً: «لا تقلقي يا آنسة، يمكننا حمل كلبك فاكن معنا». وهكذا اكتسب ذلك الحيوان الرمادي اسمه الجديد، وربما كان يدعى في حياته السابقة أمير. وبمشقة اتسعت لنا السيارة المزدحمة، وبعد ساعة من ذلك وصلنا إلى القرية التي سألتقي فيها بصديق جدتي الذي اتفقت معه على اللقاء في الكنيسة، قبالة البحر.

القرية التي أسسها الإسبان عام 1567 هي الأقدم في الأرخبيل ويعيش فيها ألفا نسمة، ولكنني لا أدري أين هم، لأنني كنت أرى دجاجاً وأغناماً أكثر من البشر. انتظرت مانويل لوقت طويل جالسة على أدراج كنيسة مطلية بالأبيض والأزرق، وبرفقتي «فاكن»، ويراقبني عن مسافة غير بعيدة أربعة صبية صامتين وجديين. لم أكن أعرف عنه سوى أنه كان صديقاً لجدتي وأنهما لم يلتقيا منذ عقد السبعينيات، ولكنهما ظلا على اتصال بصورة

متباعدة، من خلال الرسائل أولاً، مثلما كانت الحال في عصور ما قبل التاريخ تلك، وبعد ذلك من خلال البريد الإلكتروني.

أخيراً ظهر مانويل آرياس وتعرف إليّ من أوصافي التي قدمتها إليه جدتي بالهاتف. ما الذي قالته له عني؟ أنني مسلة ذات شعر مصبوغ بأربعة ألوان أولية وأضع قرطاً في أنفي. مدّ إلي يده واستعرضني بنظرة سريعة مقدراً بقايا الطلاء الأزرق على أظفاري المقضومة، وبنطال رعاة البقر المكحوت، وجزمة القومندان المطلية ببخاخ وردي والتي حصلت عليها من دكان لجيش الخلاص عندما كنتُ متسولة.

ـ أنا مانويل آرياس ـ قدم الرجل نفسه بالإنكليزية.

ـ مرحباً. أنا يلاحقني مكتب التحقيقات الفيدرالي والانتربول ومافيا إجرامية من لاس فيغاس ـ أخبرته وأنا أضع يدي حول فمي لتفادي أي سوء تفاهم.

ـ تهانينا ـ قال.

ـ لم أقتل أحداً، وبصراحة، لا أظن أنهم سيزعجون أنفسهم بالمجيء للبحث عني هنا في طيز العالم.

ـ شكراً.

ـ المعذرة، لم أقصد شتم بلادك يا رجل. الحقيقة أنها بلاد جميلة، كثيرة الخضرة وكثيرة المياه، ولكن يجب رؤية كم هي بعيدة!

ـ بعيدة عن أي شيء؟

ـ عن كاليفورنيا، عن الحضارة، عن بقية العالم. جدتي لم تخبرني أن الجو بارد هنا.

ـ إنه الصيف ـ قال لي.

ـ صيف في كانون الثاني! أين رُئي هذا!

ـ في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية ـ أجابني بجفاء.

أمر سيئ، فكرتُ، هذا شخص يفتقر إلى حس السخرية. دعاني لتناول

الشاي بانتظار شاحنة ستأتيه بثلاجة كان يجب أن تصل قبل ثلاث ساعات. دخلنا بيتاً عليه قطعة قماش بيضاء مثبتة إلى عصا، كأنها راية استسلام، ولكنها إشارة إلى أنهم يبيعون هناك خبزاً طازجاً. في الداخل أربع مناضد خشنة مغطاة بقماش مشمع وكراسٍ مختلفة الأنواع، ومنضدة كونتوار ومدفأة يغلي عليها إبريق أسود من السناج. توجهت امرأة بدينة، لها ضحكة معدية، بالتحية إلى مانويل آرياس وأرفقتها بقبلة على خده، وتأملتني قليلاً بارتباك قبل أن تحسم أمرها وتقبلني أيضاً.

ـ أميركية؟ ـ سألتْ مانويل.

ـ ألا يبدو عليها ذلك؟ ـ قال لها.

ـ وما الذي حدث لرأسها؟ ـ أضافت المرأة مشيرة إلى شعري المصبوغ.

ـ ولدتُ هكذا ـ أخبرتها بمكر.

ـ هذه الغرينغيتا تتكلم المسيحية! ـ هتفت المرأة مفتونة ـ اجلسا، وسأتيكما بالشاي فوراً.

أمسكت بي من ذراعي وأجلستني بتصميم على أحد الكراسي، بينما كان مانويل يشرح لي أن «غرينغو» هو أي شخص أشقر يتكلم الإنكليزية، وعندما تستخدم الصفة مصغرة «غرينغيتو» أو«غرينغيتا» فهي تعبير عن المحبة.

❖ ❖

جاءتنا صاحبة المحل بالشاي ومعه هرم من خبز يعبق برائحة عذبة وخارج لتوه من الفرن، وزبد وعسل، ثم جلست معنا لتراقب أننا نأكل مثلما يجب. وسرعان ما سمعنا ضجة الشاحنة وهي تتقدم متعثرة على الطريق غير المرصوف الذي تتخلله الحفر، والثلاجة تتأرجح في صندوقها الخلفي. أطلت المرأة من الباب وأطلقت صرخة، وسرعان ما اجتمع عدة شبان للمساعدة في إنزال الجهاز، وحمله مرفوعاً عن الأرض حتى الشاطئ، ونقله على جسر ألواح خشبية إلى زورق مانويل ذي المحرك.

كان طول الزورق حوالي ثمانية أمتار، مصنوع من ألياف زجاجية، ومطلي بالأبيض والأزرق والأحمر، ألوان العلم التشيلي ـ كما هي ألوان علم تكساس تقريباً ـ الذي يرفرف في المقدمة. وعلى جانب الزورق اسمه: ***كاهوبّيا***. ثبتوا الثلاجة بالحبال بأفضل طريقة ممكنة في وضع عمودي، وساعدوني في الصعود إلى الزورق. لحق بي الكلب بعدوهِ المثير للشفقة، فإحدى قوائمه نصف منكمشة، وهو يمشي مائلاً.

ـ وهذا؟ ـ سألني مانويل.

ـ إنه ليس لي، لحق بي في آنكود. لقد قيل لي إن الكلاب التشيلية ذكية جداً، وهذا كلب من سلالة جيدة.

ـ لا بد أنه هجين من كلب رعاة ألماني وفوكس تيرير. فجسده جسد كلب كبير بينما قوائمه قوائم كلب صغير الحجم ـ قال مانويل.

ـ بعد أن أغسله سترى أنه كلب راقٍ.

ـ ما اسمه؟ ـ سألني.

ـ *Fucking dog* بالتشيلية.

ـ ماذا؟

ـ **فاكن**.

ـ آمل أن يظل **فاكن** هذا على علاقة جيدة مع قطتيَّ. عليك أن تقيديه ليلاً كيلا يخرج ويقتل أغناماً ـ نبهني.

ـ لن تكون هناك حاجة لأن أقيده، سوف ينام معي.

التصق **فاكن** بأرضية الزورق وأنفه بين قائمتيه الأماميتين، وظل هناك بلا حراك، ودون أن يزيح عينيه عني. إنه ليس حنوناً، ولكننا تفاهمنا بلغة عالم النبات والحيوان: اسبرانتو التخاطر.

كانت تتقدم من الأفق موجات من الغيوم الكثيفة، وهب هواء جليدي، ولكن البحر كان هادئاً. أعارني مانويل عباءة بونتشو صوفية ولم

بعد إلى التكلم معي، كان يركز على دفة القيادة وأجهزة قيادة المركب: الفرجار، الـ جي.بي.اس GPS، وجهاز الاتصال ذي الموجة البحرية وما أدراني أية أجهزة أخرى، بينما كنت أراقبه من بعيد. لقد أخبرتني جدتي نيني بأنه سوسيولوجي، أو شيء من هذا القبيل، ولكن يمكن له، في مركبه الصغير، أن يُعتبر ملاحاً: قامة متوسطة، نحيل، قوي، أوتار وعضلات، مدبوغ برياح مالحة، مع تجعد في الوجه، وشعر قاس وقصير، وعينان لهما لون الشعر الرمادي نفسه. من غير الممكن تقدير أعمار كبار السن، وهذا الرجل يبدو بحالة جيدة من بعيد، لأنه مازال يمشي بخطوات سريعة ولم تظهر له بعد تلك الحدبة التي تظهر للمسنين، ولكنه يبدو عن قرب أكبر سناً من جدتي نيني، يمكننا القول إن له من العمر بضعةً وسبعين عاماً. وقد سقطتُ مثل قنبلة في حياته. لا بد لي من التنقل كمن تمشي على بيض، كيلا يندم لتقديمه الضيافة إليّ.

❖ ❖

بعد نحو ساعة من الإبحار، والمرور بالقرب من عدة جزر صغيرة غير مأهولة في الظاهر، وإن كانت ليست كذلك، أشار مانويل إلى بروز بدا من بعيد مجرد لطخة قاتمة، وتبين عن قرب أنه جبل محاط بشاطئ رمال ضاربة إلى السواد وصخور، حيث تقبع أربعة زوارق خشبية مقلوبة الكروش إلى أعلى. رسا بمركبه *كاهوبّيا* عند رصيف مرسى عائم، وألقى ببعض الحبال الثخينة إلى صبية جاؤوا راكضين، فربطوا المركب بمهارة إلى بعض الأعمدة. «أهلاً بك في حاضرتنا»، قال مانويل مشيراً إلى ضيعة ذات بيوت خشبية مشيدة على أوتاد قبالة الشاطئ. هزتني قشعريرة، لأن تلك القرية ستكون منذ الآن عالمي كله.

نزلت جماعة إلى الشاطئ لتفحصي. كان مانويل قد أخبرهم بأن أمريكية ستأتي لتساعده في أعماله البحثية، وإذا كان هؤلاء الناس ينتظرون

شخصية محترمة، فقد أصيبوا بخيبة أمل، لأن البلوزة التي كنت أرتديها وعليها صورة أوباما، وقد أهدتها إليّ جدتي نيني في أعياد الميلاد، لم تكن تغطي سُرَّتي.

إنزال الثلاجة دون إمالتها كانت مهمة عدة متطوعين يمنحون أنفسهم الحماسة ببعض القهقهات، ويتعجلون لأن الظلام بدأ يخيم. صعدنا إلى القرية في موكب، الثلاجة في المقدمة، وبعد ذلك أنا ومانويل، ووراءنا جمع من حوالي اثني عشر صبياً صاخباً، وفي المؤخرة مجموعة كلاب متنوعة تنبح بغضب على **فاكن**، ولكن دون أن تقترب كثيراً، لأن سلوكه الازدرائي المترفع يشير بوضوح إلى أن أول من سيقترب منه سيتحمل النتائج. يبدو أنه من الصعب إخافة **فاكن**، وهو لا يسمح بأن يشموا مؤخرته. مررنا قبالة مقبرة، حيث كانت ترعى بعض الماعز ممتلئة الضروع وسط أزهار بلاستيكية وبيوت دمى موزعة على القبور، في بعضها أثاث من أجل استعمالات الموتى.

في القرية تتصل الأكواخ المشيدة على أوتاد بعضها ببعض بجسور خشبية، وفي الشارع الرئيسي، إن كانت تصح له هذه التسمية، رأيتُ حميراً، ودراجات هوائية، وسيارة جيب عليها شعار البندقيتين المتقاطعتين، شعار قوات الدرك أو الشرطة التشيلية، وثلاث أو أربع سيارات قديمة، وهي سيارات يمكن لها أن تكون في كاليفورنيا مرغوبة لهواة جمع السيارات، لو أنها أقل تشوهاً. وقد أوضح لي مانويل أنه بسبب عدم استواء الأرض والطين الذي لا مفر منه في الشتاء، كانت وسيلة التنقل الثقيلة في الماضي تقوم على عربات تجرها الثيران، أما وسيلة النقل الخفيفة فهي البغال، وكان الناس يتنقلون على الخيول أو مشياً على الأقدام. بعض اللوحات متحللة الطلاء تشير إلى دكاكين متواضعة، ومتجرين كبيرين، والصيدلية، وعدة حانات، ومطعمين يضم كل منهما منضدتين معدنيتين قبالة مناضد لعرض السمك،

ومحل لخدمات الانترنت، حيث يبيعون بطاريات، ومشروبات غازية، ومجلات وترهات تباع للسياح الزائرين الذين يأتون مرة كل أسبوع، تقتادهم وكالات سياحة بيئية لتذوق أفضل «كورانتو» في تشيلوي. وسوف أصف الكورانتو في ما بعد، لأنني لم أتذوقه بعد.

خرج بعض الأشخاص لتأملي بحذر، بصمت، إلى أن تجرأ رجل أفطس، وممتلئ مثل خزانه، على تحيتي. مسح يده بالبنطال قبل أن يمدها إليّ مبتسماً بأسنان ملبسة بالذهب. إنه أوريليو نيانكوبيل، المتحدر من قرصان مشهور، والشخص الأكثر أهمية في الجزيرة، لأنه يبيع الخمر بالدين، ويقلع أضراساً، ويملك جهاز تلفاز بشاشة مسطحة، يستمتع به زبائنه عندما تكون هناك كهرباء. ولحانته الاسم المناسب جداً لـ «حانة الميت» ؛ وبسبب موقعها القريب من المقبرة، تشكل المحطة الإجبارية للأقارب من أجل التخفف من أحزان الجنازة.

لقد تحول نيانكوبيل إلى الطائفة المورمونية بنية الارتباط بعدة زوجات، ولكنه اكتشف بعد فوات الأوان أن أتباع هذه الطائفة قد تخلوا عن تعدد الزوجات بناء على إيحاء رسولي جديد، وليس توافقاً مع الدستور الأمريكي. هكذا قدّمه إليّ مانويل آرياس، بينما المعني يتلوى من الضحك وهو محاط بالفضوليين. وقد عرفني مانويل على أشخاص آخرين، لم أستطع حفظ أسمائهم، وقد بدوا لي مسنين بحيث لا يمكن أن يكونوا آباء ذلك الحشد من الأطفال ؛ وصرت أعرف الآن أنهم أجدادهم، ذلك أن الجيل الوسيط يعمل بعيداً عن الجزيرة.

في هذه الأثناء تقدمت في الشارع امرأة خمسينية ذات هيئة آمرة، متينة البنية وجميلة، لشعرها ذلك اللون الأبيض الذي للشقراوات الشائبات، مربوط في عقيصة غير منتظمة على رقبتها. إنها بلانكا شناك، مديرة المدرسة التي يدعوها الناس، احتراماً، العمة بلانكا. قبّلت وجه مانويل، مثلما هي العادة هنا، ورحبت بي رسمياً باسم مجتمع القرية، فأذاب تصرفها توتر الجو

وضاقت حلقة الفضوليين حولي. دعتني العمة بلانكا لزيارة المدرسة في اليوم التالي ووضعت تحت تصرفي المكتبة وجهازي كمبيوتر وألعاب فيديو، يمكنني استخدام ذلك كله حتى شهر آذار، موعد عودة التلاميذ إلى المدرسة، وعندئذ تصبح هناك محدودية في التوقيت. وأضافت أنهم يعرضون في أيام السبت في المدرسة الأفلام نفسها التي تُعرض في سنتياغو، ولكن مجاناً. قصفتني بوابل من الأسئلة، فاختصرتُ، بإسبانيتي الأولية، رحلتي ليومين من كاليفورنيا وسرقة محفظتي، مما أثار قهقهات الأطفال، غير أنهم أُسكتوا بسرعة بنظرة جليدية وجهتها إليهم العمة بلانكا. «غداً سأُعدّ لكما بعض الرخويات البحرية على طريقة بارما، كي تبدأ الغرينغية بالتعرف على المأكولات التشيلية. سأنتظركما في حوالي الساعة التاسعة»، قالت لمانويل. وعلمتُ بعد ذلك أن التصرف الصحيح هو الوصول بتأخير ساعة عن الموعد. فتناول الفطور هنا يجري متأخراً.

أنهينا الجولة القصيرة في القرية، وصعدنا إلى عربة تجرها بغلتان، حيث كانوا قد وضعوا الثلاجة، وقفلنا راجعين عبر الدرب الترابي الذي لا يكاد يظهر تحت العشب، يلحق بنا **فاكن**.



يعيش مانويل آرياس على بعد حوالي ميل واحد ـ أي قرابة كيلومتر ونصف الكيلومتر ـ عن القرية، قبالة البحر، غير أنه لا سبيل إلى الوصول بالمركب بسبب الصخور. بيته نموذج جيد لهندسة المنطقة المعمارية، هذا ما قاله لي بنبرة متفاخرة. لقد بدا لي البيت مشابهاً لغيره من بيوت القرية: فهو يقوم أيضاً على أوتاد، ومبني من الأخشاب، ولكنه أوضح لي أن الاختلاف يكمن في الأوتاد والعوارض المشذبة بفأس، وفي قطع القرميد «ذات الرؤوس المدببة» المرغوبة جداً لقيمتها التجميلية، وخشب السرو الذي كانت متوافرة بكثرة في المنطقة في ما مضى، ولكنه صار نادراً الآن. فأشجار السرو في

تشيلوي يمكنها أن تعيش لأكثر من ثلاثة آلاف عام، وهي أطول أشجار العالم عمراً بعد أشجار الباوباب الأفريقية وأشجار السيكويا في كاليفورنيا.

يتألف البيت من صالة عامة ذات أرضية بمستويين، تدور الحياة فيها حول مدفأة حطب، سوداء ومهيبة، تُستخدم في تدفئة الجو والطبخ. وفيه حجرتا نوم، إحداهما متوسطة الحجم يشغلها مانويل، والأخرى أصغر حجماً، هي حجرتي، وحمام فيه مغسلة ودوش. ولا وجود في البيت لأي باب داخلي، غير أن المرحاض مزود ببطانية صوفية مخططة معلقة على عتبته، من أجل توفير الخصوصية. وفي الجزء المخصص للمطبخ من الصالة الكبيرة توجد منضدة ثقيلة، وخزانة، وصندوق بغطاء لتخزين البطاطا التي تستخدم في كل وجبة في تشيلوي، ومن السقف تتدلى باقات أعشاب وجدائل فلفل أحمر وثوم، وسجق مجفف وقدور حديدية ثقيلة، تتناسب مع نار مدفأة الحطب. أما العلية، حيث يحتفظ مانويل بمعظم كتبه وأرشيفه، فيتم الوصول إليها عبر سلّم يدوي. لا تُرى على الجدران لوحات، ولا صور، ولا زينات، لا شيء شخصي، وإنما خرائط للأرخبيل فقط، وساعة سفينة بديعة لها إطار من خشب المهاغوني مع براغٍ برونزية، تبدو كأنها مستخرجة من السفينة *تيتانك*. وفي الخارج، ارتجل مانويل جاكوزي بدائياً من برميل خشبي ضخم. أما أدوات العمل، والحطب، والفحم، وصفائح البنزين للمركب ومولد الكهرباء فتُحفظ في مستودع في الفناء.

حجرتي بسيطة مثل بقية البيت. تضم سريراً ضيقاً مغطى ببطانية مماثلة لستارة المرحاض، وكرسياً، وصواناً بثلاثة أدراج، وعدة مسامير في الجدار لتعليق الملابس. وهي كافية لممتلكاتي التي تتسع لها جعبتي براحة. تروقني هذه الأجواء المتقشفة والذكورية، الشيء الوحيد المحير هو التنظيم والترتيب المهووس لدى مانويل آرياس، بينما أنا شديدة التهاون في النظام.



وضع الرجال الثلاجة في المكان المناسب لها، ووصلوها بالكهرباء واستقروا بعد ذلك ليتقاسموا تناول زجاجتي نبيذ وسمكة سلمون كان قد دخَّنها مانويل الأسبوع السابق، في صفيحة معدنية، بحطب شجرة تفاح. وبينما هم يتأملون البحر من خلال النافذة، شربوا وأكلوا صامتين، والكلمات الوحيدة التي تلفظوا بها هي سلسلة من عبارات تبادل الأنخاب بمصطلحات طقوسية: «صحة!». «فليكن صحة عليك!». «وبالمثل أتمنى لك». «فلتعش عمراً مديداً». «فلتحضر جنازتي». وكان مانويل ينظر إليَّ بطرف عينه بقلق إلى أن استدعيته جانباً لأقول له أن يطمئن، وأنني لن أنقض على زجاجات الشراب. فلا بد أن جدتي قد أخبرته، وأنه يفكر في تخبئة المشروبات مني. ولكن ذلك سيكون سخيفاً، فالمشكلة ليست في الكحول، وإنما فيَّ أنا.

في أثناء ذلك تفحص كل من فاكن والقطين بعضهما بعضاً بحذر، متقاسمين الميدان. القط المخطط يدعى «القط الأبله»، لأن المسكين غبي تماماً، والذي بلون الجزر هو «القط الأديب»، لأن مكان جلوسه المفضل هو فوق الكمبيوتر؛ ومانويل يؤكد أنه يحسن القراءة.

انتهى الرجال من تناول سمكة السلمون والنبيذ، وودَّعوا وانصرفوا. أثار استغرابي أن مانويل لم يحاول التظاهر بدفع أجر لهم، وهو ما فعله كذلك مع الآخرين الذين ساعدوا من قبل في نقل الثلاجة، ولكن سؤاله عن ذلك سيكون تهوراً مني.

تفحصت مكتب مانويل المؤلف من منضدتين وخزانة أرشيف، ورفوف كتب، وجهاز كمبيوتر حديث بشاشة مزدوجة، وفاكس وآلة طابعة. ويوجد انترنت، ولكنه ذكّرني ـ كما لو أنني يمكن أن أنسى ـ بأنني في حالة عدم تواصل. وأضاف، بحسم، أن عمله كله محفوظ في ذلك الكمبيوتر، ويفضل ألا يلمسه أحد.

ـ ماذا تعمل؟ ـ سألته.

ـ أنا أنثروبولوجي. (Antropólogo)

ـ آكل لحم بشر؟ (Antropófago?)

ـ أَدرُسُ البشر، وليس آكلهم ـ أوضح لي.

ـ كنت أمزح يا رجل. فأكلة لحوم البشر لم تعد تتوافر لهم المادة الأولية اليوم. فحتى آخر متوحش في هذا العالم صار لديه جهاز هاتف نقال وتلفزيون.

ـ لست متخصصاً بالمتوحشين. إنني أكتب كتاباً عن الميثولوجيا في تشيلوي.

ـ هل يدفعون لك مقابل هذا؟

ـ لا شيء تقريباً ـ أخبرني.

ـ يُلاحظ أنك فقير.

ـ أجل، ولكنني أعيش بنفقات رخيصة.

ـ لم أكن أرغب في أن أكون عبئاً عليك ـ قلتُ له.

ـ ستعملين لتغطية نفقاتك يا مايا، هذا أمر اتفقنا عليه أنا وجدتك. يمكنك أن تساعديني في الكتاب، وفي شهر آذار ستعملين مع بلانكا في المدرسة.

ـ أنبهك إلى أنني جاهلة جداً، لست أعرف شيئاً من أي شيء.

ـ ما الذي تحسنين عمله؟

ـ البسكويت والخبز، السباحة، لعب كرة القدم، وكتابة أشعار ساموراي، ولكن بالإنكليزية. لا أظن أن شيئاً من هذا ينفعك.

ـ سنرى. مسألة البسكويت لها مستقبل ـ وبدا لي أنه يداري ابتسامة.

ـ هل كتبتَ كتباً أخرى؟ ـ سألته متثائبة. فإرهاق الرحلة الطويلة وفرق الساعات الخمس في التوقيت بين كاليفورنيا وتشيلي كانا يثقلان عليّ مثل كيس أحجار.

ـ لا شيء يمكن أن يجعل مني كاتباً مشهوراً ـ قال وهو يشير إلى عدة كتب على منضدته: عالم أحلام سكان استراليا الأصليين، طقوس تدريب الفتيان لدى قبائل وادي أورينوكو، وصف العالم المابوتشي في جنوبي تشيلي.

ـ حسب ما تقوله جدتي، تشيلوي منطقة ساحرة ـ قلت معلقة.

ـ العالم بأسره ساحر يا مايا ـ أجابني.

❖ ❖

أكد لي مانويل آرياس أن روح بيته قديمة جداً. جدتي نيني تؤمن أيضاً بأن للبيوت ذاكرة ومشاعر، فهي قادرة على التقاط الاهتزازات: تعرفُ إن كان هواءُ مسكنٍ محملاً بطاقة خبيثة لأن نكبات قد حلت فيه، أو إن كانت الطاقة فيه إيجابية. ومنزلها في بيركلي يمتلك طاقة حميدة. عندما نستعيده سيكون لابد من إصلاحه ـ فهو يتهاوى من القِدم ـ وأفكر في أن أعيش فيه عندئذ إلى أن أموت. لقدر ترعرعتُ هناك، على قمة رابية، مع إطلالة على خليج سان فرانسيسكو، والمشهد من هناك سيكون رائعاً لولا وجود شجرتي صنوبر وارفتين تحجبان الخليج. لم يسمح جدي بوبو بقطعهما قط، فهو يقول إن الأشجار تتألم حين تُقطع، كما تتألم الخضرة كلها أيضاً في منطقة محيطها ألف متر، لأن كل شيء متواصل تحت الأرض؛ وسيكون إجراماً قتل شجرتي صنوبر من أجل رؤية بركة ماء يمكن الاستمتاع برؤيتها كذلك من الطريق السريع.

لقد اشترى ذلك البيت بول ديتسون الأول عام 1948، العام نفسه الذي أُلغي فيه التمييز العنصري بشأن شراء العقارات في بيركلي. وكان آل ديتسون هم أول أسرة ملونة في الحي، والأسرة الوحيدة طوال عشرين عاماً، إلى أن بدأت بالمجيء عائلات أخرى. وكان قد بناه في العام 1885 أحد كبار منتجي البرتقال الذي تبرع عند موته بثروته كلها للجامعة مخلّفاً أسرته في

العوز. ظل البيت مهجوراً لوقت طويل، ثم انتقل بعد ذلك من يد إلى يد، وكان يتردى أكثر فأكثر مع كل انتقال، إلى أن اشتراه آل ديتسون وتمكنوا من إصلاحه، لأن هيكله متين وركائزه راسخة. وبعد وفاة أبويه، اشترى بوبو حصص إخوته وظل وحده في تلك اللقية الفيكتورية التي تضم ست غرف نوم، والمتوجة ببرج أجراس لا تفسير له، حيث نصب منظاره التلسكوبي.

عندما وصلت جدتي نيني وابنها آندي فيدال، لم يكن بوبو يستخدم سوى حجرتين: المطبخ والحمام، وما تبقى يظل مغلقاً. اندفعت نيني مثل إعصار تجديد، ألقت ترهات إلى القمامة، وراحت تنظف وتعقم، ولكن شراستها في مكافحة الخراب لم تفلح مع فوضى زوجها المستوطنة. وبعد مشاجرات كثيرة توصلا إلى أنه يمكنها أن تفعل كل ما ترغب فيه في البيت ما دامت ستحترم حجرة مكتبه وبرج النجوم.

وجدت جدتي نيني نفسها على هواها في بيركلي، تلك المدينة القذرة، الراديكالية، غريبة الأطوار، بمزيج أعراقها وألوانها البشرية، بعباقرتها وحاملي جوائز نوبل فيها أكثر من أي مدينة أخرى في العالم، والمترعة بالقضايا النبيلة، وغير المتساهلة في ما يتعلق بمظاهر تدينها. لقد تبدلت جدتي نيني، فقد كانت من قبل أرملة شابة حذرة ومسؤولة، تحاول أن تمر دون أن تلفت الانتباه، ولكن طبعها الحقيقي تكشف في بيركلي. لم يعد عليها أن ترتدي زي السائق، كما في تورينتو، ولا أن تستسلم للنفاق الاجتماعي، كما في تشيلي. فلا أحد يعرفها، ويمكن لها أن تعيد اختراع نفسها. تبنت جماليات الهيبيين الذين يسترخون في جادة التلغراف، حيث يبيعون مشغولاتهم اليدوية وسط روائح البخور والماريجوانا. صارت ترتدي الجلابيب وتنتعل الصنادل وتضع عقوداً عادية من الهند، ولكنها كانت بعيدة جداً عن أن تكون هيبية. فهي تعمل، تتحمل مسؤولية بيت وحفيدة، تشارك في حياة المجتمع، ولم أرها تترنح يوماً مترنمة بترتيلات سنسكريتية.

وأمام استنكار جيرانها، ومعظمهم زملاء زوجها، بمنازلهم القائمة، الإنكليزية بصورة غامضة، والمغطاة بنباتات متسلقة، قامت جدتي نيني بطلاء منزل آل ديتسون بألوان مبهجة نفسياً، مستوحاة من شارع كاسترو في سان فرانسيسكو، حيث بدأ المثليون بالاستقرار وتعديل البيوت القديمة. جدران البيت البنفسجية والخضراء، وأفاريزه الصفراء وأكاليل أزهار الجبس الاصطناعية، استثارت تقولات وتسببت بمذكّرتيّ تنبيه من السلطات البلدية، إلى أن ظهر البيت مصوراً في مجلة معمارية، فتحول إلى نفحة سياحية في المدينة، وسرعان ما قامت بمحاكاته مطاعم باكستانية، ودكاكين شبابية، ومحترفات فنانين.

وضعت نيني لمستها الشخصية كذلك على الديكور الداخلي. فإلى جانب الأثاث الاحتفالي، والساعات المكورة واللوحات المريعة ذات الأطر المذهبة التي اقتناها ديتسون الأول، أضافت جدتي لمستها الفنية: فيض من المصابيح ذات الهدب والحواشي، وسجاجيد مشعثة، ودواوين تركية. في حجرتي المطلية بلون المنجا توجد فوق سريرها مظلة من قماش هندي مطرزة بقطع مرايا صغيرة، وتنين مجنح معلق في الوسط، يمكن له أن يقتلني إذا ما سقط عليّ. وقد وضعت جدتي على الجدران صوراً لأطفال أفارقة مصابين بسوء التغذية، كي أرى كيف أن تلك المخلوقات التعيسة تموت من الجوع بينما أنا أرفض الأكل. وقد كان التنين وأطفال بيافرا أولئك هم السبب في أرقي وضعف شهيتي.

❖ ❖

بدأت أحشائي تعاني هجمة مباشرة من الميكروبات التشيلية. ففي اليوم التالي لوجودي في هذه الجزيرة، سقطتُ في الفراش متلوية من آلام المعدة ومازلتُ أعاني نوبات القشعريرة، أُمضي ساعاتٍ قبالة النافذة وأنا أضع قربة ماء ساخن على بطني. لو كانت جدتي معي لقالت إنني أمنح الوقت لروحي

كي تصل إلى تشيلوي. فهي تعتقد أن الرحلات في الطائرات النفاثة ليست مناسبة، لأن الروح تسافر أبطأ من الجسد، وهي تتأخر أحياناً أو تضيع في الطريق. وهذا هو السبب في أن قباطنة الطائرات، مثل أبي، لا يكونون حاضرين بالكامل: إنهم ينتظرون روحهم التي تمضي بين السحاب.

هنا لا تُؤجَّر أقراص DVD ولا ألعاب فيديو، والسينما الوحيدة هي الأفلام التي تُعرض مرة كل أسبوع في المدرسة. ومن أجل تسليتي لا تتوافر لي سوى روايات الحب المحمومة التي تملكها بلانكا شناك وكتب حول تشيلوي بالإسبانية، وهي مفيدة جداً من أجل تعلم اللغة، لكنني أجد صعوبة في قراءتها. لقد أعطاني مانويل مصباحاً ببطارية يُثبت على الجبين مثل مصباح عمال المناجم، وهكذا نقرأ عندما يقطعون الإنارة. لا يمكنني أن أقول إلا أقل القليل عن تشيلوي، لأنني نادراً ما خرجتُ من هذا البيت، ولكنني أستطيع أن أملأ صفحات عديدة عن مانويل آرياس، وعن قطِّيه والكلب، فهؤلاء هم أسرتي الآن، وعن العمة بلانكا التي تأتي في كل وقت، بحجة زيارتي، وإن كان واضحاً أنها تأتي من أجل مانويل، وعن خوانيتو كوراليس، وهذا صبي يأتي كل يوم أيضاً ليقرأ معي وليلعب مع فاكن. صحيح أن الكلب انتقائي جداً في مسألة علاقاته، ولكنه يتسامح مع الصبي.

تعرفتُ يوم أمس على جدة خوانيتو. لم أرها من قبل لأنها كانت في مستشفى كاسترو، عاصمة تشيلوي، برفقة زوجها الذي بتروا له إحدى ساقيه في شهر كانون الثاني ولم يشفَ جيداً. إدوفيخيس كورّاليس، لها لون فخاري، ووجه سعيد تقطعه تجاعيد، وجذع عريض، وساقان قصيرتان. إنها تشيلويية نموذجية. تجدل شعرها في جديلة رفيعة تلفها فوق رأسها، وتلبس كمبشرة: تنورة سميكة وجزمة حطاب. تبدو في الستين من العمر، ولكنها لم تتجاوز الخامسة والأربعين. فالناس هنا يهرمون باكراً ويعيشون طويلاً. جاءت حاملة قدراً حديدية، ثقيلة كمدفع، وضعتها على الموقد

لتسخينها بينما هي توجه إليّ خطبة متسرعة، شيء أشبه بتقديم نفسها بالاحترام اللازم. إنها إدوفيخيس كوراليس، جارة السيد وقيّمة المنزل. «يا يسوع! يا لها من صبية جميلة هذه الغرينغا! فليحفظها يسوع لي! لقد كان السيد ينتظرها، وكذلك جميع من في القرية، عسى أن يعجبك الفروج الذي حضّرته لك مع البطاطا.» لم تكن تتكلم بلهجة المنطقة، هكذا فكرت، وإنما بإسبانية متعجلة. وقد استنتجتُ أن مانويل آرياس هو السيد المعني، على الرغم من أن إدوفيخيس تتكلم عنه بضمير الغائب، كما لو أنه غير موجود.

أما أنا، بالمقابل، فقد تعاملت معي إدوفيخيس بالنبرة الآمرة نفسها التي تعاملني بها جدتي. تأتي هذه المرأة لتنظيف البيت، تأخذ الملابس المتسخة وتعيدها مغسولة، تقطع الحطب بفأس ثقيلة لا يمكنني أن أرفعها، وتزرع الأرض، وتحلب بقرتها، وتجز صوف الأغنام، وتتقن التعامل مع الخنازير، ولكنها أخبرتني بأنها لا تخرج لصيد السمك أو لجمع الصدف البحري بسبب التهاب المفاصل. وتقول إن زوجها ليس من طبيعة سيئة، مثلما يظن الناس في القرية، ولكن داء السكري أفسد طباعه، ومنذ فقدانه ساقه لم يعد يرغب إلا في الموت. ومن أبنائها الخمسة الأحياء لم يبق لديها في البيت سوى ابنة وحيدة، أثوثينا، في الثالثة عشرة من العمر، ولديها حفيدها خوانيتو، في العاشرة من العمر، وهو يبدو أصغر من ذلك «لأنه ولد روحانياً»، مثلما أوضحت لي. وكلمة روحاني هذه يمكن أن تعني الضعف العقلي أو أن لدى المعنيِّ من الروح أكثر مما لديه من المادة. وفي حالتنا هذه لا بد أن يكون خوانيتو من النوع الثاني، لأنه لا أثر للحماقة فيه.

تعيش إدوفيخيس على ما ينتجه حقلها، وما يدفعه لها مانويل مقابل خدماتها وما ترسله إليها واحدة من بناتها ـ أم خوانيتو ـ التي تعمل في مؤسسة لإنتاج أسماك السلمون جنوبي الجزيرة الكبرى. فصناعة تربية السلمون في تشيلوي هي الثانية في العالم، بعد النرويج، وقد رفعت من

اقتصاد المنطقة، ولكنها لوثت العمق البحري، ودمرت الصيادين الحرفيين وشتت شمل العائلات. هذه الصناعة آخذة بالانهيار الآن، أوضح لي مانويل، لأنهم صاروا يضعون أعداداً كبيرة من الأسماك في الأقفاص، ويقدمون إليها الكثير من المضادات الحيوية، إلى حدّ أنهم لم يتمكنوا من إنقاذها عندما هاجمها فيروس. هنالك عشرون ألف عاطل عن العمل ممن كانوا يعملون في شركات إنتاج السلمون، معظمهم من النساء، ولكن ابنة إدوفيخيس مازالت تعمل.

جلسنا إلى المائدة فوراً. وما كدنا نرفع الغطاء عن القدر حتى وصل إلى أنفي عبق الطبخ المكمور، وعدت إلى الشعور بأنني في مطبخ طفولتي، في بيت جديّ، فاغرورقت عيناي بدموع الحنين. لقد كانت وجبة فروج إدوفيخيس المطبوخ هي أول طعام صلب أتناوله منذ عدة أيام. فقد كان المرض الذي أصابني محرجاً، لم يكن بمقدوري معه مواراة نوبات التقيؤ والإسهال المتتالية في بيت بلا أبواب. سألتُ مانويل عما حدث للأبواب فأجابني بأنه يفضل الفضاءات المفتوحة. إنني واثقة من أن المرض قد أصابني بسبب الرخويات البحرية وتورتا الريحان التي أعدّتها بلانكا شناك. في البدء تظاهر مانويل بأنه لم يكن يسمع الدوي الآتي من المرحاض، لكنه سرعان ما اضطر إلى الاهتمام بالأمر، لأنه رآني واهنة وخائرة القوى. سمعته يتكلم بالهاتف المحمول مع بلانكا ليطلب منها بعض التعليمات، ثم بادر من فوره إلى تحضير حساء رز، واستبدال ملاءات سريري، وجاءني بقربة ماء ساخن. كان يراقبني بطرف عينه دون أن يقول شيئاً، ولكنه يظل متأهباً لتلبية احتياجاتي. ولدى أدنى محاولة مني للإعراب عن شكري له، يأتي رد فعله في دمدمة غير مفهومة. لقد استدعى كذلك ليليانا تريفينو، ممرضة المحلة، وهي امرأة شابة، قصيرة القامة، صلبة، ذات ضحكة مُعدية ولها شعر طويل مجعد وجامح، قدمت إليّ أقراص كربون ضخمة، سوداء اللون وحريفة المذاق

ومن الصعب ابتلاعها. ولأن تلك الأقراص لم تؤدِ إلى أية نتيجة، استعار مانويل شاحنة محل الخضروات الصغيرة لينقلني إلى القرية كي يفحصني طبيب.

في أيام الخميس يمر من هنا زورق خدمات الصحة الوطنية الذي يجوب الجزر. بدا الطبيب كأنه صبي في الرابعة عشرة، حسير البصر وأمرد، لكن نظرة واحدة منه كانت كافية كي يُشخّص حالتي: «إنها مصابة بداء تشيلينتيس، المرض الذي يصيب الأجانب القادمين إلى تشيلي. ليس بالأمر الخطير»، أعطاني أقراصاً في قمع ورقي. وحضّرت لي إدوفيخيس مغلى أعشاب، لأنها لا تثق بأدوية الصيدلية، وتقول إنها تجارة للشركات الأمريكية. تناولت المغلى بانضباط، وبهذا بدأت أتماثل للشفاء. تروقني إدوفيخيس كورّاليس، إنها تتكلم وتتكلم دون توقف مثل بلانكا، أما بقية الناس في هذه الأنحاء فميالون إلى الصمت.

❖ ❖

أبدى خوانيتو كوراليس فضولاً لمعرفة أشياء عن أسرتي، فأخبرته أن أمي أميرة من لابونيا. كان مانويل في مكتبه ولم يعلق بشيء، ولكنه أوضح لي، بعد أن غادر الصبي، أنه لا ملكية عند الساميين، سكان لابونيا. كنا قد جلسنا إلى المائدة، هو قبالة سمكة موسى مع زبد وكزبرة وأنا قبالة حساء شفاف. أوضحتُ له أن ذلك الكلام عن أميرة لابونيا قد خطر لجدتيَ نيني في لحظة إلهام، حين كنتُ في حوالي الخامسة من عمري وبدأت أشعر بالغموض الذي يحيط بموضوع أمي. أتذكر أننا كنا في المطبخ، وهو الحجرة الأكثر ألفة في البيت، وكنا نخبز البسكويت الأسبوعي لمتعاطي المخدرات وجانحي مايك أوكلي، أفضل صديق لجدتي نيني، والذي تولى المهمة المستحيلة بإنقاذ الشباب الضالين. إنه أيرلندي حقيقي، مولود في دبلن، شديد البياض، وبشعر شديد السواد، وعينين شديدتي الزرقة، حتى إن بوبو لقبه بياض

الثلج، نسبة إلى تلك البلهاء التي تأكل تفاحات مسمومة في فيلم والت ديزني. لست أعني أن أوكلي أبله، بل على العكس، يمكن اعتباره ذكياً: إنه الشخص الوحيد القادر على إبقاء نيني صامتة. في تلك الأثناء كان هناك رسم لأميرة لابونيا في أحد كتبي. فقد كنت أمتلك مكتبة جدية، لأن جدي بوبو يرى أن الثقافة تُكتسب بالارتشاح ومن الأفضل البدء بذلك في وقت مبكر، غير أن كتبي المفضلة كانت كتب الحوريات. كان جدي بوبو يرى أن حكايات الأطفال تنطوي على عنصرية، فكيف لا توجد حوريات في بوتسوانا أو غواتيمالا، ولكنه لم يكن يفرض رقابة عليّ، بل يكتفي بتقديم رأي بهدف تطوير تفكيري النقدي. أما جدتي نيني، بالمقابل، فلم يكن يروقها تفكيري النقدي بأي حال، وقد اعتادت على إخماده بضربات من أصابعها على رأسي.

في رسمٍ لأسرتي رسمتُه وأنا في روضة الأطفال، وضعتُ جدي بالألوان الكاملة في منتصف الصفحة، وأضفت ذبابة في أحد الأطراف ـ إنها طائرة أبي ـ، وتاجاً في تجسيد آخر لدماء أمي الزرقاء. ولإبعاد أي نوع من الشكوك، حملت في اليوم التالي كتابي الذي تظهر فيه الأميرة بمعطف من فرو قاقُم ممتطية صهوة دب أبيض. ضحك أطفال الفصل مني في كورال. وفي ما بعد، عند عودتي إلى البيت، دسست الكتاب في الفرن إلى جانب قالب حلوى الذرة الذي كان يُطهى في حرارة 350 درجة مئوية. وبعد أن غادر رجال المطافئ وبدأت سحب الدخان بالانقشاع، عنفتني نيني بصراخها المعهود من نوع «يا صغيرة الخراء!» بينما كان بوبو يحاول إنقاذي قبل أن تفك رأسي. ووسط شهقاتي ومخاطي، أخبرتُ جدتي أنهم أطلقوا عليّ في المدرسة لقب «يتيمة لابونيا». عندئذ، وفي أحد تبدلات مزاجها المفاجئة، ضمتني نيني إلى ثدييها اللذين كثمرتي بابايا وأكدت لي أنني لست يتيمة بأي حال، فلي أب وجدّان، وأن أول سفيه يتجرأ على شتمي سيكون عليه أن يتدبر

أمره مع المافيا التشيلية. وهذه المافيا مؤلفة منها هي وحدها، ولكننا أنا ومايك أوكلي نخشاها كثيراً، حتى إننا نطلق على نيني اسم **دون كورليوني**.

أخرجني جدّاي من روضة الأطفال وصارا يعلماني لبعض الوقت في البيت قواعد التلوين وتشكيل ديدان من عجينة البلاستيك، إلى أن رجعٍ أبي من إحدى رحلاته وقرر أنني بحاجة إلى علاقات مناسبة لعمري، فضلاً عن جماعة أوكلي من مدمني المخدرات، والجدّين الهيبيين، والمناضلات النسويات العنيدات اللاتي يترددن على جدتي. كانت المدرسة الجديدة مؤلفة من بيتين قديمين متصلين بجسر يربط أحدهما بالآخر في الطابق الثاني، كتحدٍ هندسي لا يستند في الفضاء إلا بفضل انحنائه، مثل قباب الكاتدرائيات كما شرح لي بوبو، بالرغم من أنني لم أسأله عن ذلك. يعلمون الصغار فيها وفق نظام تربية إيطالي تجريبي، نقوم بموجبه نحن الأطفال بما يروقنا، ولا وجود في قاعات الدروس لسبورات ولا منصات للمعلمات. نجلس على الأرض، والمعلمات لا يلبسن حمالات صدر ولا أحذية، وكل تلميذ يتعلم حسب إيقاعه وقدرته. ربما كان أبي يفضل مدرسة ذات نظام عسكري، ولكنه لم يتدخل في قرار جدّيَّ، لأنهما هما من عليهما التفاهم مع أساتذتي ومساعدتي في كتابة واجباتي المدرسية.

«هذه الصغيرة متخلفة»، قالت جدتي حين تأكدت من مدى بطئي في التعلّم. فمعجمها ملطخ بعبارات غير مقبولة سياسياً، مثل: متخلف، بدين، قزم، أحدب، مخنث، مسترجلة، صيني آكل رز، وعبارات أخرى كثيرة يحاول جدي أن يبررها بقصور معرفة زوجته للغة الإنكليزية. وهي الشخص الوحيد في بيركلي الذي يقول «زنجي» بدلاً من قول «أفروأمريكي». أما حسب رأي جدي بوبو، فلم أكن قاصرة ذهنياً، وإنما تخيلية، وهذا أقل خطورة، وقد أظهر الزمن أنه كان محقاً، لأنني ما كدتُ أتعلم الأبجدية حتى صرت أقرأ بنهم وأملأ دفاتر بأشعار مزعومة وبقصة مختلقة لحياتي، مترعة

بالمرارة والأسى. وقد لاحظت أن السعادة في الكتابة لا تنفع في شيء ــ فمن دون معاناة لا وجود لقصة ــ وكنت أستمتع بلقب يتيمة، لأن اليتامى الوحيدين في راداري هم أيتام الحكايات الكلاسيكية، وجميعهم تعساء.

أمي، مارتا أوتير، أميرة لابونيا غير المحتملة، اختفت في ضباب البلاد الاسكندينافية قبل أن أتمكن من التعرف إلى رائحتها. كانت لدي حوالي عشر صور لها، وهدية أرسلتها إليّ بالبريد في عيد ميلادي الرابع، عبارة عن حورية بحر جالسة على صخرة ضمن كرة بلورية، يبدو كأن ثلجاً يهطل فيها عند تحريكها. لقد كانت تلك الكرة كنزي المفضل حتى بلوغي الثامنة من العمر، عندما فقدتْ فجأة قيمتها العاطفية، ولكن هذه قصة أخرى.



إنني غاضبة لأن الشيء الوحيد القيّم من ممتلكاتي قد اختفى، إنها موسيقاي المتحضرة، جهاز الـ آي باد (iPod). أظن أن خوانيتو كورّاليس هو من أخذه. لم أشأ أن أتسبب له بمشاكل، يا للطفل المسكين، ولكنني اضطررت إلى إخبار مانويل بالأمر، غير أنه لم يولِ المسألة اهتماماً. فهو يقول إن خوانيتو سيستخدم الجهاز عدة أيام ثم يتركه بعد ذلك في المكان الذي كان فيه. هكذا هي العادة في تشيلوي كما يبدو. ففي يوم الأربعاء الماضي أعاد أحدهم إلينا فأساً كان قد أخذها، دون استئذان، من مستودع الحطب قبل أكثر من أسبوع. كانت لدى مانويل شكوكه حول الشخص الذي أخذ الفأس، ولكن المطالبة بها ستبدو إهانة، فالاستعارة شيء، والسرقة شيء آخر مختلف جداً. وأهالي تشيلوي المتحدرين من سكان أصليين وقورين وإسبان متكبرين، يشعرون بالأنفة والكبرياء. الرجل الذي أخذ الفأس لم يقدم أي تفسير، ولكنه ترك في الفناء كيس بطاطا كهدية قبل أن يجلس مع مانويل ليتناول كأساً من تشتشا التفاح على الشرفة ويتأمل طيران النوارس. وقد حدث شيء مشابه مع قريب لآل كورّاليس يعمل في الجزيرة الكبرى،

وجاء للزواج قبل قليل من عيد الميلاد. وقد أعطته إدوفيخيس مفتاح هذا البيت، لأن مانويل الذي سافر إلى سنتياغو ترك المفتاح معها كي تُخرج، في أثناء غيابه، جهاز الموسيقى لبعث السعادة في حفلة الزفاف. وعندما رجع مانويل فوجئ بأن جهاز موسيقاه قد اختفى، ولكنه بدل أن يقدم إخباراً للشرطة، فضّل الانتظار بصبر. ففي الجزيرة لا وجود للصوص حقيقيين، ومن يأتون من خارجها سيجدون صعوبة في حمل شيء كبير الحجم مثل جهاز الموسيقى. بعد قليل من ذلك استعادت إدوفيخيس ما كان قريبها قد حمله وأعادته في سلة سمك. ومادام مانويل قد استعاد جهاز موسيقاه، فسوف أعود أنا أيضاً إلى رؤية جهازي الـ آي باد.

مانويل يفضّل البقاء صامتاً، ولكنه انتبه إلى أن صمت بيته هذا قد يكون مبالغاً فيه بالنسبة لشخص عادي، وصار يبذل جهداً لتبادل الحديث معي. سمعته من غرفتي وهو يتكلم مع بلانكا شناك في المطبخ. «لا تكن شديد الفظاظة مع الغرينغية الصغيرة يا مانويل. ألا ترى أنها وحيدة جداً؟ عليك أن تتبادل الحديث معها»، قالت له ناصحة. «ماذا تريدينني أن أفعل لها يا بلانكا؟ إنها أشبه بمريخية»، أجابها متلعثماً، ولكن لا بد أنه فكر في الأمر، لأنه بدل أن يُثقل علي بأحاديث أكاديمية عن الأنثروبولوجيا، مثلما كان يفعل في البدء، صار يستفسر عن ماضيَّ، وهكذا، شيئاً فشيئاً، رحنا ننسج أفكاراً ونتعارف أكثر.

كلامي بالقشتالية يخرج متعثراً، أما هو فيتكلم الإنكليزية بتدفق، وإن يكن بلكنة استرالية ونغمة تشيلية. وقد اتفقنا على أنه عليّ أن أمارس التكلم بالقشتالية، وكان من الطبيعي في هذه الحالة أن نتكلم بها، ولكننا سرعان ما نبدأ بخلط اللغتين في الجملة نفسها وينتهي بنا الأمر إلى التكلم بالاسبانية ــ الإنكليزية. فإذا كنا غاضبين، يتكلم إليّ بإسبانية واضحة النطق، كي أفهم، بينما أكلمه أنا بإنكليزية قطاع طرق كي أخيفه.

مانويل لا يتحدث عن نفسه. والقليل الذي أعرفه عنه توقعته أو سمعته من بلانكا. هنالك شيء غريب في حياته. لا بد أن ماضيه أشد اضطراباً من ماضيّ، لأنني سمعته في ليالٍ كثيرة يئن ويجادل وهو نائم: «أخرجوني من هنا! أخرجوني من هنا!». فكل شيء يُسمع من خلال هذه الجدران الرقيقة. ويكون دافعي الأول هو الذهاب لإيقاظه، ولكنني لا أتجرأ على الدخول إلى حجرته. فعدم وجود أبواب يجبرني على الحذر. إنه يستحضر في كوابيسه شخوصاً أشراراً، يبدو معها أن البيت يمتلئ بشياطين. حتى إن فاكن يصاب بالاكتئاب ويرتجف ملتصقاً بي في الفراش.

❖ ❖

لا يمكن لعملي مع مانويل آرياس أن يكون أخف مما هو عليه، وهو يتلخص في تفريغ تسجيلاته للمقابلات التي يجريها، وطباعة نسخة أخيرة من ملاحظاته التي يدونها من أجل الكتاب. إنه منظم جداً، حتى إن لونه يشحب إذا ما حركتُ ورقة تافهة على مكتبه. «يمكنكِ أن تشعري بالفخر يا مايا، فأنت الشخص الأول والوحيد الذي أسمح له بدخول مكتبي. وآمل ألا أجد نفسي نادماً على ذلك»، هذا ما تجرأ على قوله لي عندما رميت رزنامة العام السابق. فاستعدتُها من القمامة سليمة، باستثناء بعض لطخات المعكرونة، وألصقتها على شاشة الكمبيوتر بلبان. امتنع عن التكلم معي طوال ست وعشرين ساعة.

كتابه حول السحر في تشيلوي استحوذ عليَّ إلى حدّ حرماني من النوم. (هذه مجرد طريقة في القول، فأنا أقول عن أي حماقة إنها تحرمني من النوم). لستُ متطيرة مثل جدتي نيني، ولكنني أتقبل فكرة أن العالم غامض وكل شيء فيه ممكن. هناك فصل كامل في كتاب مانويل حول **المايوريا**، أو **الولاية القويمة**، مثلما تسمى حكومة السحرة المرهوبين جداً في هذه الديار. ففي جزيرتنا يشاع أن آل ميراندا هم أسرة سحرة، والناس يقاطعون أصابعهم أو

يرسمون إشارة الصليب حين يمرون أمام بيت روغوبيرتو ميراندا، وهذا من أقرباء إدوفيخيس كوراليس، مهنته صياد سمك. وكنيته مثيرة للريبة بقدر ما هو حسن حظه مريب أيضاً: الأسماك تتزاحم للوقوع في شِباكه، حتى عندما يكون البحر قاتماً. ويقال إن ريغوبيرتو، من أجل أن يطير في الليل، لديه *ماكوني*، أي صدار مصنوع من جلد جثة، ولكن ليس هناك من رآه. ومن المناسب هنا تمزيق صدور الموتى بسكين أو بحجر مرهف الحد كيلا يكون جلد صدر الميت عرضة للمصير الشنيع بالتحول إلى صدار سحرة.

والسحرة يطيرون، ويمكنهم فعل شرور كثيرة، كالقتل بتفكيرهم، والتحول إلى حيوانات، وهذا ما لا أجده متناسباً مع ريغوبيرتو ميراندا، الرجل الخجول الذي اعتاد أن يأتي لمانويل بسرطانات بحرية. ولكن ليس هناك من يولي أي اعتبار لرأيي، لأني مجرد غرينغية جاهلة. وقد نبهتني إدوفيخيس إلى أنه عليّ، حين يأتي ريغوبيرتو ميراندا، أن أقاطع أصابعي قبل السماح له بالدخول إلى البيت، تحسباً من أن يكون حاملاً معه نوعاً من السحر الخبيث. من لم يعانِ من أعمال السحر بصورة مباشرة، يكون عادة مرتاباً بحقيقتها، ولكن ما إن تحدث له بعض الأمور الغريبة حتى يهرع إلى *الماتشي*، أي المداوية الهندية. ولنفترض أن أسرة من الأهالي هنا بدأت بالسعال أكثر من المعتاد، عندئذ تبحث الماتشي عن «ثعبان النظرة القاتلة»، وهذا حيوان زاحف خبيث، يولد من بيضة ديك هرم، يكون مختبئاً تحت البيت، ويقوم في الليل بامتصاص أنفاس النائمين هناك.

أكثر الحكايات والطرائف متعة يمكن الحصول عليها من الناس القدماء، في أشد أمكنة الأرخبيل عزلة، حيث مازالوا يحافظون على المعتقدات والعادات نفسها منذ عدة قرون. ومانويل لا يكتفي بالحصول على المعلومات من القدماء، وإنما كذلك من الصحفيين، والأساتذة، والمكتبيين، والتجار الذين يسخرون من السحرة وسحرهم، ولكنهم لا يجازفون بأي حال

بالدخول في الليل إلى مقبرة. تقول بلانكا شناك إن أباها، في شبابه، كان يعرف مدخل المغارة الأسطورية التي يجتمع فيها السحرة، في قرية كيكافي الهادئة، ولكن زلزالاً بدّل أمكنة اليابسة والبحر في عام 1960، ولم يعد هناك من يعثر على مكان المغارة منذ ذلك الحين.

حراس المغارة هم من ***الإنفونتيش***، وهؤلاء كائنات مخيفة يُعدّهم السحرة من الابن الذكر الأول لأسرة ما، باختطافه قبل أن يجري تعميده. والطريقة التي يتم بها تحويل الرضيع إلى ***إنفونتيش*** مخيفة بقدر ما هي غير محتملة: يكسرون إحدى ساقيه، ويلوونها إلى الخلف ويدسونها تحت جلد ظهره، كيلا يتمكن من التحرك إلا على ثلاث قوائم، ولا يستطيع الهرب، ثم يطلونه بمرهم خاص يُنبت له وبرَ تيس، ويشطرون لسانه مثل لسان أفعى، ويُغذُّونه على لحم نتن من امرأة ميتة وحليب هندية. يمكن لـ «**زومبي**» أن يبدو محظوظاً بالمقارنة معه. وإنني لأتساءل أي مخيلة فاسدة خطرت لها مثل هذه الفظاعة.

نظرية مانويل تقول إن **الولاية القويمة** أو **المايوريا**، مثلما يسمونها أيضاً، كانت في الأصل نظاماً سياسياً. فمنذ القرن الثامن عشر، تمرد هنود المنطقة، قبائل هويليتشي، ضد الهيمنة الإسبانية ثم ضد السلطات التشيلية في ما بعد، ويُزعم أنهم شكلوا حكومة سرّية مستنسخة عن الأسلوب الإداري للإسبان والجزويت، فقسموا الأراضي إلى ممالك وعيَّنوا لها رؤساء، وكتاباً بالعدل، وقضاة، وغيرهم. وكان هناك ثلاثة عشر ساحراً رئيسياً يخضعون لملك **الولاية القويمة**، وملك فوق الأرض، وملك تحت الأرض. ولأنه لابد من الحفاظ على السر والسيطرة على السكان، خلقوا أجواء خوف خرافية من **المايوريا** وهكذا تحولت هذه الإستراتيجية السياسية إلى تقاليد سحرية.

في العام 1880 جرى اعتقال عدة أشخاص متهمين بالسحر والشعوذة، وحاكموهم في أنكود وأعدموهم بهدف كسر العمود الفقري للمايوريا، ولكن ليس هناك من يؤكد أنهم قد حققوا هدفهم.

ـ هل تؤمن بالسحرة؟ ـ سألتُ مانويل.

ـ لا ، ولكن الشيء الموجود يُعثر عليه ، كما يقولون في إسبانيا.

ـ قل لي نعم أو لا.

ـ من المستحيل إثبات نفيٍ يا مايا ، ولكن اطمئني ، فأنا أعيش هنا منذ سنوات طويلة ، والساحرة الوحيدة التي أعرفها هي بلانكا.

بلانكا لا تؤمن بشيء من ذلك كله. فقد قالت لي إن الآباء الجزويت هم من اختلقوا حكاية *الإنفونتشيين* كي يدفعوا الأسر التشيلية إلى تعميد أطفالها ، ولكنني أرى أنها وسيلة شديدة التطرف ، حتى لو كانت منسوبة إلى الرهبان الجزويت.

❖ ❖

ـ من هو المدعو مايك أوكلي؟ فقد تلقيت منه رسالة غير مفهومة ـ قال لي مانويل.

ـ آه ، لقد كتب إليك **بياض الثلج**! إنه أيرلندي صديق موثوق لأسرتنا. لابد أنها فكرة من جدتي نيني أن يجري تواصلنا من خلاله ، من أجل مزيد من الأمان. أيمكنني الرد عليه؟

ـ ليس مباشرة ، ولكنني أستطيع أن أرسل إليه أخباراً منكِ.

ـ هذه الاحتياطات مبالغ فيها يا مانويل ، ماذا تريدني أن أقول لك.

ـ لابد أن لدى جدتك أسباباً تدفعها إلى أن تكون شديدة الحذر.

ـ جدتي ومايك أوكلي عضوان في «نادي المجرمين» ، ولابد أنهما مستعدان لتقديم الذهب مقابل مشاركتهما في جريمة حقيقية ، ولكنهما يكتفيان بأن يلعبا لعبة قطاع الطريق.

ـ أي نادٍ هو هذا؟ ـ سألني بقلق.

شرحت له الأمر بادئة من البداية. فمكتبة كونتية بيركلي العامة تعاقدت مع نيني ، قبل أحد عشر عاماً من ولادتي ، كي تروي حكايات للأطفال ،

كطريقة لإبقاء الأطفال مشغولين في الفترة بعد انتهاء دروس المدرسة وخروج آبائهم من العمل. بعد قليل من ذلك اقترحت هي نفسها على المكتبة جلسات قصص بوليسية للبالغين، وقد قُبلت الفكرة. عندئذ أسست مع مايك أوكلي «نادي المجرمين»، حسب تسميتهما، بالرغم من أن المكتبة أعلنت عن الأمر تحت اسم «نادي الرواية السوداء». في موعد حكايات الأطفال، كنت بين الصغار المتعلقين بكل كلمة من جدتي، وفي بعض الأحيان، عندما لا تجد من تتركني معه، كانت تأخذني معها أيضاً إلى المكتبة في موعد قصص الكبار. كانت جدتي تجلس على وسادة، متقاطعة الساقين مثل فقير هندي، وتسأل الأطفال عما يرغبون في سماعه، فيقترح أحدهم الموضوع، وتبدأ هي ارتجال قصة بعد أقل من عشر ثوانٍ. كانت نيني تتضايق دوماً من حيلة النهاية السعيدة في قصص الأطفال. فهي تؤمن بأنه لا وجود في الحياة لنهايات، وإنما توجد عتبات، فهي تجول هنا وهناك، متعثرة وضائعة. أما مسألة مكافأة البطل ومعاقبة الوغد فتبدو لها رؤية محدودة، ولكنها مضطرة، من أجل الحفاظ على وظيفتها، إلى الالتزام بالصيغ التقليدية، فالساحرة لا يمكن لها أن تُقْدِمَ دون عقاب على تسميم الآنسة اللطيفة وأن تصيب في الزواج من الأمير. كانت جدتي تفضل جمهور الكبار، لأن عمليات القتل المرضية لا تحتاج إلى نهاية سعيدة. وهي مهيأة جيداً، قرأت كل ما هو موجود من القصص البوليسية ومراجع الطب الشرعي، وتقول إنها هي ومايك أوكلي يمكنهما القيام بعملية تشريح جثة بكل سهولة على منضدة مطبخ.

يتألف «نادي المجرمين» من جماعة من محبي الروايات البوليسية، وهم أشخاص مسالمون يكرسون أوقات فراغهم لتخطيط عمليات قتل مريعة. وقد بدأ النادي بصورة سرية في مكتبة بيركلي العامة، وهو الآن، بفضل الانترنت، منتشر على مستوى العالم. ولكن اجتماعهم في مبنى عام أدى إلى ارتفاع أصوات ساخطة في الصحافة المحلية بحجة أنهم يشجعون الجريمة

مستفيدين من أموال دافعي الضرائب. «لست أدري مم يتذمرون. أليس التحدث عن الجرائم أفضل من اقترافها؟»، هذا ما تعللت به نيني أمام عمدة المدينة عندما دعاها هذا الأخير إلى مكتبه لمناقشة المشكلة.

❖ ❖

ولدت علاقة جدتي نيني بمايك أوكلي في مكتبة كتب قديمة، حيث كان كلاهما مستغرقاً في قسم الكتب البوليسية المستعملة. كانت هي قد تزوجت قبل وقت قصير من بوبو، وكان مايك طالباً جامعياً، ولا يزال آنذاك يمشي على ساقيه ولا يفكر في التحول إلى ناشط اجتماعي ولا في تكريس نفسه لإنقاذ فتيان منحرفين من الشوارع والسجون. وأتذكر، منذ بدأت أعي على الدنيا، أن جدتي كانت تصنع بسكويتاً لفتيان أوكلي، وهم في الغالب من الزنوج واللاتينيين، أفقر الناس في خليج سان فرانسيسكو. وعندما صرتُ في سن تتيح لي تفسير بعض الدلالات، تنبهتُ إلى أن الأيرلندي مغرم بجدتي نيني، على الرغم من أنه يصغرها باثني عشر عاماً، وبالرغم من أنها لم تكن لتتنازل قط وترضخ لنزوة خيانة بوبو. إنه حب أفلاطوني مثل غراميات الرواية الفيكتورية.

اكتسب مايك أوكلي شهرة عندما حققوا فيلماً وثائقياً عن حياته. فقد أصابته رصاصتان في ظهره وهو يحاول حماية صبي متشرد، فاستقر بعدها على كرسي ذي عجلات، ولكن ذلك لم يحل دون مواصلته مهمته. فهو يستطيع أن يمشي بضع خطوات بالاستعانة بجهاز للمشي، ويمكنه قيادة سيارة خاصة بذوي العاهات. وهكذا كان يجوب أشد الأحياء سخونة لينقذ أرواحاً، ويكون أول الحاضرين في كل عمل احتجاجي يحدث في شوارع بيركلي ومحيطها. صداقته مع جدتي نيني تتعزز مع كل قضية متهورة يتبنيانها معاً. وكانا صاحبي فكرة تبرع مطاعم بيركلي ببقايا المأكولات لمتسولي المدينة ومجانينها ومدمني المخدرات فيها. وقد حصلت جدتي على عربةٍ مقطورةٍ

لتوزيع المأكولات، وجَنّد هو متطوعين للخدمة. وقد ظهر المحتاجون في نشرة الأخبار وهم يختارون أطباقاً من قائمة السوشي والكاري والبط مع الفاكهة والمأكولات النباتية. وقد احتج أكثر من واحد منهم على نوعية القهوة. وسرعان ما تضخمت الصفوف بأشخاص من الطبقة الوسطى الراغبين في الأكل دون دفع الثمن، فكانت هناك مواجهات بين الزبائن الأصليين ومستغلي الفرصة مما اضطر أوكلي إلى إحضار فتيانه لفرض النظام قبل أن تأتي الشرطة لعمل ذلك. وأخيراً حظرت الإدارة الصحية توزيع فضلات الطعام تلك، لأن شخصاً مصاباً بالحساسية كاد يموت بعد تناوله صلصة تايلندية عمادها الفول السوداني.

كثيراً ما يلتقي الأيرلندي وجدتي نيني لتناول الشاي مع البسكويت، وتحليل عمليات قتل مريعة. «هل تظنين أن جسداً مقطعاً يمكن أن يُذَوَّب في سائل لتسليك البلاليع؟»، يطرح أوكلي مثل هذا السؤال. فتجيبه نيني: «الأمر يعتمد على حجم كل قطعة». ويعمد كلاهما إلى التأكد من ذلك بنقع كيلو من اللحم في محلول «درانو»، بينما يكون عليّ أن أسجل النتائج.

ـ لا يفاجئني أنهما قد تواطأا لإبقائي معزولة عن التواصل في أقاصي العالم ـ قلتُ لمانويل آرياس.

ـ إنهما، وفق ما تروينه لي، أشد رهبة من أعدائك المزعومين يا مايا ـ أجابني.

ـ لا تستهتر بأعدائي يا مانويل.

ـ وهل ينقع جدك أيضاً قطعاً من اللحم في محلول لتسليك البلاليع؟

ـ لا، فليست الجرائم هي محط اهتمامه، وإنما النجوم والموسيقى. إنه ينتمي إلى الجيل الثالث من أسرةٍ محبة للموسيقى الكلاسيكية والجاز.

أخبرته أن جدي علمني الرقص فور تمكني من الوقوف على قدمي تقريباً، واشترى لي بيانو وأنا في الخامسة من عمري، لأن جدتي كانت

تريدني أن أكون طفلة معجزة وأن أشارك في المسابقات التلفزيونية. وقد تحمّل جداي تماريني الصاخبة على ملامس البيانو إلى أن أشارت المعلمة إلى أنه من الأفضل توظيف جهودي في أمر آخر لا يحتاج إلى أُذنٍ مرهفة. فاخترت على الفور الـ *soccer*، وهذه التسمية التي يطلقها الأمريكيون على كرة القدم، وهو نشاط يبدو لجدتي من أنشطة المغفلين، حيث أحد عشر رجلاً كبيراً بسراويل قصيرة يتشاجرون على طابة. لم يكن جدي بوبو يعرف أي شيء عن هذه الرياضة، لأنها ليست واسعة الشعبية في الولايات المتحدة، ولكنه لم يتردد في هجر رياضة البيسبول، وكان متعصباً لها، ليتعرف على مئات فرق كرة القدم الأنثوية الطفولية. وبالاستعانة ببعض زملائه في مرصد سان باولو الفضائي حصل لي على ملصق يحمل توقيع بيليه الذي كان يعيش في البرازيل بعد زمن من اعتزله الملاعب. أما جدتي، من جانبها، فسعت جاهدة إلى جعلي أقرأ وأكتب كالكبار، بالنظر إلى أنني لن أكون معجزة موسيقية. فقد سجلت لي اشتراكاً في المكتبة، وجعلتني أستنسخ فقرات من الكتب الكلاسيكية، وكانت تضربني بفقرات أصابعها على رأسي إذا ما وجدت لدي خطيئة إملائية أو إذا ما رجعتُ بدرجات متوسطة باللغة الإنكليزية أو الأدب، وهما المادتان الوحيدتان اللتان تحظيان باهتمامها.

ـ لقد كانت جدتي نيني جلفة على الدوام يا مانويل، أما جدي بوبو فكان قطعة سكاكر... كان شمس حياتي. عندما حملتني مارتا أوتير إلى بيت جديَّ، ضمني إلى صدره بحذر شديد، لأنه لم يكن قد حمل من قبل طفلاً حديث الولادة. ويقول إن الحنان الذي أحس به تجاهي قد شوش ذهنه. هذا ما أخبرني به، ولم يخامرني الشك قط بذلك الحنان.

❖ ❖

إذا ما بدأت الكلام عن جدي بوبو فلن تكون ثمة طريقة لإسكاتي. لقد أخبرت مانويل أنني مدينة لجدتي نيني بحبي للكتب وامتلاكي معجماً من

المفردات لا يستهان به، ولكنني أدين لجدي بكل ما هو سوى ذلك. كانت نيني تجبرني على الدراسة بالقوة، فهي تقول «إن الحرف بالدم يدخل»، أو شيئاً بربرياً من هذا القبيل، أما هو فكان يحوّل الدراسة إلى نوع من اللعب. إحدى تلك الألعاب تتلخص في فتح المعجم على صفحة ما، ووضع الإصبع على كلمة في الصفحة وتخمين معناها. كنا نلعب كذلك لعبة الأسئلة الغبية: لماذا يهطل المطر إلى أسفل يا بوبو؟ لأنه لو هطل إلى أعلى لبلل سروالك الداخلي يا مايا. لماذا الزجاج شفاف؟ من أجل بلبلة الذباب. لماذا ظاهر يديك أسود وباطنهما وردي يا بوبو؟ لأن الطلاء لم يكف للجانبين. ونواصل على هذا النحو إلى أن تفقد جدتي صبرها وتبدأ بالصراخ.

لقد ملأ طفولتي حضورُ بوبو الفسيح بمزاجه الماكر، وبراءته، وكرشه الذي ألوذ به، وحنانه. كانت له ضحكة مجلجلة، تولد من أعماق الأرض، وتصعد عبر ساقيه وتهزه كاملاً. «أقسم لي يا بوبو أنك لن تموت أبداً»، كنت أطالبه مرة كل أسبوع على الأقل، وكان جوابه على الدوام: «أقسم لك إنني سأكون معك على الدوام». كان يحاول العودة باكراً من الجامعة من أجل قضاء بعض الوقت معي قبل انصرافه إلى حجرة مكتبه وسط كتبه الفلكية الضخمة وبطاقاته عن الكواكب، ليحضّر دروساً، ويصحح تجارب طباعية، ويقوم بالأبحاث، ويكتب. يزوره تلاميذ وزملاء يعتكفون في المكتب لتبادل أفكار بديعة وغير محتمله حتى الفجر، حين تقاطعهم نيني، وهي بقميص النوم، بترمس قهوة كبير. «لقد أختلط ذهنك واسودّ فجرك أيها العجوز، ألا تتذكر أن لديك دروساً في الساعة الثامنة؟»، وتبادر إلى توزيع قهوة، ودفع الزائرين باتجاه الباب. فاللون الطاغي على الفجر هو البنفسجي في نظر جدي، فهو اللون المناسب جداً في نظره، لأنه لون الحساسية، والحكمة، والحدس، والقدرة النفسية، ورؤيا المستقبل. وكانت تلك هي المناسبات الوحيدة التي تدخل فيها نيني إلى المكتب. أما أنا بالمقابل فكان الدخول

مسموحاً لي دوماً، بل كان لي فيه كرسيٌّ خاص وركن من المنضدة أنجز عليه واجباتي المدرسية، بمرافقة موسيقى جاز خفيفة ورائحة تبغ الغليون.

نظام التعليم الرسمي، حسب رأي جدي بوبو، يجمد تطور الذهن. المعلمون يجب احترامهم، ولكن دون إيلائهم الكثير من الاهتمام. ويقول إن دافنشي، وغاليليو، واينشتاين، وداروين، مع الاكتفاء بذكر أربعة فقط من العباقرة الغربيين، لأن هناك آخرين كثيرين، مثل الفيلسوفين والرياضيين العربيين ابن رشد والخوارزمي، قد ناقشوا مسألة المعرفة في عصرهم. ولو أنهم تقبلوا البلاهات التي علمهم إياها كبارهم، لما اخترعوا أو اكتشفوا أي شيء. فترد عليه جدتي نيني: «حفيدتك ليست ابن سينا بأي حال، وإذا هي لم تدرس سيكون عليها أن تكسب قوتها بقلي الهمبرغر». أما أنا فكانت لدي خطط أخرى، كنت أريد أن أصير لاعبة كرة قدم، فهؤلاء يكسبون الملايين. «إنهم رجال أيتها الصغيرة البلهاء. هل تعرفين امرأة تكسب الملايين؟»، تتعلل جدتي، وتتبع ذلك على الفور بخطبة تبدأ بميدان النسوية وتعرج على العدالة الاجتماعية لتنتهي إلى قول إنني بسبب لعبي لكرة القدم سأنتهي بساقين يغطيهما الشعر الكثيف. وفي ما بعد يشرح لي جدي، جانباً، أن ممارسة الرياضة لا تسبب ظهور الشعر الكثيف، وإنما الجينات والهرمونات هي التي تسبب ذلك.

خلال سنواتي الأولى في الحياة كنت أنام مع جديَّ، بينهما في البدء، وبعد ذلك في كيس نوم نحتفظ به تحت السرير، ونتظاهر ثلاثتنا بأننا نجهل سبب وجوده. في الليل كان جدي بوبو يحملني إلى البرج لأراقب الفضاء غير المتناهي المفعم بالأنوار، وهكذا تعلمت تمييز النجوم الزرقاء التي تقترب والنجوم الحمراء التي تبتعد، ومجموعات كواكب الفضاء، والمجموعات الكبرى وهي أشد اتساعاً، ويوجد منها الملايين. وكان يشرح لي أن الشمس نجم صغير بين مئة مليون نجم في درب التبانة، وأن هنالك، بالتأكيد، ملايين الأكوان

الأخرى فضلاً عن تلك التي يمكننا أن نلمحها الآن. «هذا يعني، يا جدي، أننا أقل من زفرة قملة»، كان هذا هو استنتاجي المنطقي. «ألا يبدو لك فاتناً يا مايا أننا نحن، زفرات القمل، يمكننا تصور أعجوبة الكون؟ فعالِم الفلك يحتاج إلى مخيلة شاعر أكثر من حاجته إلى الحس العام السليم، لأن عظمة تعقيد الكون لا يمكن قياسها أو تفسيرها، وإنما يمكن حدسها وحسب». كان يحدثني عن الغاز والغبار الكوكبي اللذين يشكلان سُحباً سديمية باهرة الجمال، أعمال فن حقيقية، لطخات متداخلة من ألوان بديعة في القبة السماوية، وعن كيفية ولادة النجوم وموتها، وعن الثقوب السوداء، وعن الفضاء والزمان، وعن احتمال أن ذلك كله قد تولد عن الانفجار العظيم أو الـ Big Bang، الانفجار العصي على الوصف، وعن الجزيئات الأصلية التي شكّلت أول البروتونات والنيوترونات، وهكذا توالدت الأكوان والكواكب والحياة في سيرورة أكثر فأكثر تعقيداً. وقد اعتاد أن يقول لي: «لقد أتينا من النجوم». «وهذا ما أقوله أنا»، تضيف جدتي نيني وهي تفكر في أبراج الحظ.

بعد زيارة البرج حيث تلسكوبه العجيب، وبعد أن يقدم لي كأس حليب مع القرفة والعسل، وهذا سرٌ من الفلكي من أجل تطوير قدرة الحدس، كان جدي يتأكد من تنظيفي لأسناني ويحملني إلى الفراش. عندئذ تأتي جدتي وتروي لي حكاية مختلفة في كل ليلة، تختلقها من فورها، وأحاول أنا أن أطيلها قدر الإمكان، ولكن لا مفر من مجيء لحظة بقائي وحيدة، حينئذ أبدأ بعدٍّ خراف، متنبهة إلى اهتزاز التنين المجنح فوق السرير، وطقطقة الأرضية الخشبية، والخطوات والهمهمات الغامضة لساكني ذلك البيت المسحور الخفيين. ولم يكن صراعي من أجل التغلب على الخوف سوى مجرد بلاغة كلامية، لأنني ما إن ينام جدايّ حتى أنسل إلى حجرتهما، متلمسة طريقي في الظلام، وأسحب كيس النوم إلى أحد الأركان، وأنام

بسلام. لسنوات طويلة ظل جدايّ يذهبان إلى فنادق في ساعات غير محتشمة كي يمارسا الحب خفية. والآن فقط، بعد أن كبرت، يمكنني تقدير حجم التضحية التي قاما بها من أجلي.

حللت أنا ومانويل الرسالة الملغزة التي أرسلها أوكلي. كانت الأخبار جيدة: الوضع في البيت عادي ولم يظهر أي أثر لمن يلاحقونني، مع أن هذا لا يعني أنهم قد نسوني. الأيرلندي لا يشرح ذلك مباشرة، وهذا منطقي بسبب الحال، وإنما برموز شبيهة بتلك التي كان يستخدمها اليابانيون في الحرب العالمية الثانية، وكان هو نفسه قد علمني إياها.

❖ ❖

مضى عليّ شهر وأنا في هذه الجزيرة. ولا أدري إن كنت سأعتاد يوماً على العيش بخطوات السلحفاة كما هي الحياة في تشيلوي، في هذا الكسل، وهذا التهديد الدائم بهطول المطر، وهذا المشهد الثابت للماء والغيوم والمروج الخضراء. كل شيء متشابه، وكل شيء سكون. أهالي تشيلوي لا يعرفون الدقة في المواعيد، فالخطط تعتمد على المناخ والحماسة، والأمور تحدث حين تحدث، ولماذا نعمل اليوم ما يمكن عمله في الغد. كان مانويل يسخر من قوائم اهتماماتي ومشاريعي غير المجدية في هذه الثقافة غير الزمنية، فالساعة والأسبوع هنا هما الشيء نفسه؛ ومع ذلك كان مانويل يحافظ على مواعيد عمله ويتقدم في كتابة كتابه بالإيقاع الذي توقعه.

لتشيلوي صوتها الخاص. لقد كنت أمضي على الدوام في السابق وأنا أضع السماعات في أذني، لأن الموسيقى هي أوكسجيني، ولكنني أتجول الآن مصغية كي أفهم إسبانية أهالي تشيلوي العويصة. ترك خوانيتو كورّاليس جهاز الآي باد في جيب الجعبة نفسه الذي أخذه منه، ولم نتحدث قطّ في الموضوع، ولكنني لاحظت، خلال الأسبوع الذي تأخر في إعادته، أني لم أشعر بحاجتي إلى الجهاز كما كنت أظن. فمن دون الآي باد يمكنني سماع

صوت الجزيرة: طيور، رياح، مطر، فرقعة حطب، عجلات عربات، وفي بعض الأحيان الكمانات الرومانسية لسفينة ***كاليوتشي***، وهي سفينةٌ شبحٌ تُبحر في الضباب وتُعرف من الموسيقى وقرقعة عظام الغارقين الذين يغنون ويرقصون على سطحها. ويرافق السفينة دلفين يدعى كاهوييّا، وهو الاسم الذي أطلقة مانويل على زورقه.

أشعر في بعض الأحيان بالحنين لجرعة فودكا تكريماً لأزمنة سابقة، كانت أزمنة شؤم، ولكنها أكثر حيوية من هذه الأزمنة. وحنيني مجرد نزوة عابرة، وليس جزع مهووس كالذي عانيته من قبل بسبب الامتناع الإجباري عن الشرب. إنني مصممة على إنجاز تعهدي، فلا شيء من الكحول أو المخدرات أو الهاتف أو البريد الإلكتروني، والحقيقة أن تحقيق ذلك قد كلفني أقل مما كنت أنتظره. وعندما وضحنا هذا الأمر، تخلى مانويل عن إخفاء زجاجات النبيذ. شرحتُ له أنه غير مضطر إلى تغيير عاداته بسببي، فهنالك مشروبات كحولية في كل مكان، وأنني أنا وحدي المسؤولة عن قناعتي. تفهم ذلك ولم يعد يقلق كثيراً إذا ما ذهبتُ إلى **حانة الميت** لمشاهدة برنامج تلفزيوني أو لمشاهدة «التروكو»، وهي لعبة أرجنتينية بأوراق اللعب الإسبانية يرتجل فيها اللاعبون أشعاراً مع كل حركة في اللعب.

بعض عادات الجزيرة، مثل «التروكو» هذه، تفتنني، ولكن عادات أخرى انتهت إلى إثارة حنقي. فإذا ما غرد التشوكاو، وهو عصفور صغير وصادح، إلى يساري فإنه فأل شؤم، ويجب عليّ أن أخلع قطعة من ملابسي وأضعها مقلوبة قبل أن أواصل السير في الطريق نفسه. وإذا كنت أمضي في الليل، فمن الأفضل أن أحمل معي سكيناً نظيفة وملحاً، لأنه إذا خرج لي كلب أسود إحدى أذنيه مقطوعة، فإنه سيكون ساحراً، ومن أجل التخلص منه عليّ أن أرسم بالسكين صليباً في الهواء وأنثر الملح. وحالة الإسهال التي أصابتني عند مجيئي إلى تشيلوي لم تكن زحاراً، لأنها لو كانت كذلك

لخلصتني منها مضادات الدكتور الحيوية، وإنما هي نتيجة سحر خبيث كما أثبتت إدوفيخيس حين تمكنت من شفائي بترتيلات، مع نقيعها من الريحان وبزر الكتان والتُرنجان، وتدليكها بطني بمعجون لتنظيف المعادن.

الطبق التقليدي في تشيلوي هو «الكورانتو» وهذا الطبق في جزيرتنا هو الأفضل. وفكرة تقديم الكورانتو للسياح كانت بمبادرة من مانويل من أجل كسر عزلة هذه القرية التي نادراً ما كان يأتيها زائرون، لأن الكهنة الجزويت لم يشيدوا عندنا إحدى كنائسهم، وليس لدينا طيور بطريق ولا حيتان، وإنما لدينا بجع وطيور فلامنكو وتونينو الكثيرة في هذه الأنحاء. لقد نشر مانويل في أول الأمر إشاعة أن مغارة **بينكويا** موجودة هنا، ولم يكن هناك من هو قادر على تكذيبه، لأن موقع المغارة الدقيق هو موضوع بحث، وهناك عدة جزر تدعيه إليها. وقد صارت المغارة والكورانتو اليوم هما وسيلتنا لجذب الزائرين.

شاطئ الجزيرة الشمالي الشرقي صخري وعر، الملاحة فيه خطرة، ولكنه ممتاز لصيد السمك. وهناك توجد مغارة غارقة، لا تظهر إلا عند انخفاض المد البحري، وهي مناسبة تماماً لتكون مملكة **بينكويا**، إحدى الشخصيات الطيبة القليلين في ميثولوجيا تشيلوي المرعبة، لأنها تساعد الصيادين والملاحين عند تعرضهم للمحن. إنها مراهقة حسناء ذات شعر طويل، تلبس طحالب بحرية، إذا ما رقصت ووجهها إلى البحر فإنها تشير إلى وجود صيد وافر، ولكنها إذا فعلت ذلك ناظرة إلى الشاطئ فهنالك شح في الصيد ولا بد من البحث عن مكان آخر لإلقاء الشِّباك فيه. ولأنه لا وجود تقريباً لمن رآها، فليس لهذه المعلومات من فائدة. وإذا ما ظهرت **بينكويا** لأحدهم فعليه أن يغمض عينيه ويركض في اتجاه معاكس، لأنها تغوي الشبقين وتحملهم إلى أعماق البحر.

الطريق من القرية إلى المغارة يُقطع في خمس عشرة دقيقة مشياً على

الأقدام، بحذاء متين وحماسة عالية، عبر سبيل وعر ومنحدر. وفي الجبل تنتصب بعض أشجار الأروكاريا المتوحدة والمهيمنة على المشهد، ومن القمة يظهر المشهد الغنائي للبحر والسماء والجزر الصغيرة القريبة غير المأهولة. بعضها مفصولة عن غيرها بقنوات مائية ضيقة، حتى إنه يمكن تبادل الصراخ من ضفة إلى أخرى عند انخفاض المد البحري. يمكن النزول بالتقافز على الصخور المغطاة بذرق النوارس، مع المجازفة بكسر الظهر، أو الوصول في دراجة مائية بالالتفاف حول شاطئ الجزيرة، إذا كان المرء يعرف المياه والصخور. ولا بد من امتلاك شيء من المخيلة لتقدير قصر بينكويا، لأنه في ما وراء فم الساحرة لا يظهر أي شيء. لقد حاول في الماضي بعض السائحين الألمان السباحة إلى داخل المغارة، ولكن الشرطة منعتهم بسبب التيارات المائية الغادرة. فليس من المناسب لنا أن يأتي أناس من الخارج ليغرقوا هنا.

❖ ❖

قيل لي إن شهري كانون الثاني وشباط هما شهران جافان وحارّان في هذه الأنحاء، ولكنه يجب أن يكون صيفاً غريباً، لأن المطر يهطل طيلة الوقت. النهارات طويلة، والشمس مع ذلك ليست مستعجلة في المغيب.

أسبح في البحر على الرغم من تحذيرات إدوفيخيس من التيارات البحرية وأسماك السلمون آكلة اللحم الهاربة من الأقفاص و**الميّالوبو**، وهذا كائن أسطوري لدى أهالي تشيلوي، نصفه بشر ونصفه ذئب بحر، يكسوه وبر مذهب، ويمكن له أن يختطفني في المد العالي. وإلى جانب هذه القائمة من المصائب، كان مانويل يضيف هاجساً حرارياً: يقول إنه لا يمكن إلا لغرينغا عديمة الحذر أن يخطر لها الاستحمام في هذه المياه المتجمدة دون بدلة مطاطية. والحقيقة أنني لم أر أحداً ينزل إلى البحر بدافع المتعة. الماء البارد مفيد للصحة، هكذا كانت تقول نيني كلما تعطل جهاز تسخين الماء في بيتنا الكبير في بيركلي، وهذا يعني مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع. لقد اقترفتُ في العام

الماضي أعمال تعسف كثيرة ضد جسدي، وكان يمكن لي أن أموت في الشارع؛ أنا هنا أستعيد عافيتي، ولا وجود من أجل ذلك لما هو أفضل من الاستحمام في البحر. لم أكن أخشى إلا من عودة التهاب المثانة، ولكنني مازلتُ على ما يرام حتى الآن.

لقد جُلتُ على جزر وقرى أخرى مع مانويل لمقابلة الناس القدماء، وتكوّنت لدي فكرة عامة عن الأرخبيل، وإن كان لا يزال ينقصني الذهاب نحو الجنوب. مدينة كاسترو هي قلب الجزيرة الكبرى، يعيش فيها أكثر من أربعين ألف نسمة، وفيها تجارة مزدهرة. وصفة مزدهرة تنطوي على شيء من المبالغة. ولكن كاسترو، بعد ستة شهور من وجودي هنا، أشبه بنيويورك. المدينة تطل على البحر، بأكواخ على أوتاد على الضفة وبيوت خشبية مطلية بألوان جريئة، لبعث البهجة في النفوس خلال فصول الشتاء الطويلة، عندما تتحول السماء والماء إلى اللون الرمادي. وفيها يملك مانويل حسابه المصرفي، وطبيب أسنانه، وحلاقه، وهناك يقوم بمشترياته، ويوصي على الكتب ويتلقاها في المكتبات.

إذا ما كان البحر هائجاً ولا يمكننا العودة إلى البيت، نبقى في نزل سيدة نمساوية، مؤخرتها الضخمة وصدرها المنتفخ يجعلان مانويل يحمر خجلاً، ونُتخم هناك بلحم الخنزير وستردل التفاح. يوجد قلة من النمساويين في هذه الأنحاء، ولكن الألمان موجودون بكثرة. فسياسة الهجرة في هذه البلاد عنصرية جداً، لا شيء من الآسيويين أو الزنوج أو السكان الأصليين الغرباء، وإنما يُسمح بهجرة الأوروبيين البيض وحدهم. أحد الرؤساء في القرن التاسع عشر أحضر ألماناً من الغابة السوداء وخصص لهم أراضي في الجنوب، ليست ملكاً له، وإنما هي لهنود المابوتشي، وفي ذهنه فكرة تحسين النسل. كان يريد أن يرسخ الألمان في أهالي تشيلوي دقة المواعيد وحب العمل والانضباط. لا أدري إذا ما تحققت الخطة مثلما هو مأمول، ولكن الألمان

على أي حال شيدوا بجهودهم بعض الأقاليم في الجنوب وأسكنوها ذريتهم من ذوي العيون الزرق. أسرة بلانكا شناك تتحدر من أولئك المهاجرين.

❖ ❖

قمنا برحلة خاصة كي يقدمني مانويل إلى الأب لوثيانو ليون، وهو عجوز رهيب، سُجن عدة مرات في أزمنة الدكتاتورية العسكرية (1973-1989) لحمايته المطاردين. والفاتيكان التي تعبت من شدِّ أذنيه، أرسلته متقاعداً إلى منزل ناءٍ في تشيلوي، ولكن حتى هنا لم تُعدم قضايا تستثير حفيظة المحارب العجوز. وعندما أكمل الثمانين من عمره توافد مقدروه من الجزر كلها ووصلت عشرون حافلة من أبناء رعيته في سنتياغو، واستمرت الحفلة يومين في ساحة قبالة الكنيسة، مع شواء خراف ودجاج، وفطائر، ونهر من النبيذ الرخيص. لقد حدثت معجزة تكثير الخبز، إذ تواصل توافد الناس وكان هناك على الدوام فائض من الطعام. وأمضى السكارى الآتين من سنتياغو الليل في المقبرة، دون إيلاء اهتمام للأرواح المعذبة الهائمة.

كان بيت الكاهن الصغير محروساً بديك جليل قزحي ألوان الريش، يصيح على السطح، وبخروف مهيب لم يُجز صوفه يعترض العتبة كالميت. مما اضطرنا إلى الدخول من باب المطبخ. فالخروف، باسمه «مُعَمِّر» المناسب تماماً، نجا لسنوات طويلة من التحول إلى طبيخ، حتى صار غير قادر على الحركة لشده هرمه.

ـ ما الذي تفعلينه في هذه الأنحاء بعيداً عن ديارك أيتها الصغيرة؟ ـ كانت هذه هي تحية الأب ليون لي.

ـ إنني هاربة من السلطة ـ أجبته بجد فانفجر في الضحك.

ـ أنا أمضيتُ ستة عشر عاماً في هذه الأمور نفسها، وكي أكون صريحاً معك، أشعر بالحنين إلى تلك الأزمنة.

إنه صديق لمانويل آرياس منذ العام 1975، حين كان كلاهما مبعداً في

تشيلوي. فالحكم بالإقصاء، أو الإبعاد ـ كما يسمى في تشيلي ـ، قاس جداً، ولكنه أقل وطأة من النفي، لأن المحكوم يظل في بلاده، أوضح لي. ثم قال:

ـ كانوا يرسلوننا بعيداً عن أسرنا، إلى مكان لا يمكن العيش فيه، حيث كنا وحيدين، بلا نقود ولا عمل، نتعرض لعدوانية الشرطة. وقد كنتُ أنا ومانويل محظوظين، لأن المجيء إلى تشيلوي كان من نصيبنا، وهنا احتضننا الناس. لن تصدقي يا صغيرتي، ولكن دون ليونيل شناك الذي كان يكره اليساريين أكثر من كراهيته للشيطان، قدم لنا مأوى.

في ذلك البيت تعرف مانويل على بلانكا، ابنة مضيفه الكريم. كان عمر بلانكا أكثر من عشرين عاماً بقليل، وكانت مخطوبة وتتناقل الألسن شهرة جمالها وتجتذب حجيجاً من معجبين لا يشعرون بالخوف من خطيبها.

ظلَّ مانويل سنة في تشيلوي، يكسب ما يكاد يكفي لقوته بالعمل كصياد سمك ونجار، وفي أثناء ذلك كان يقرأ حول تاريخ الأرخبيل ومثولوجياه المذهلة، دون أن يتحرك خارج مدينة كاسترو، حيث عليه المثول يومياً في مفوضية الشرطة للتوقيع في سجل المبعدين. وعلى الرغم من الظروف، تعلق بتشيلوي؛ ورغب في أن يجوب المنطقة كلها ويدرسها ويرويها. ولهذا، بعد تجوال طويل عبر العالم، جاء ليقضي بقية حياته هنا. فبعد أن أنهى فترة الحكم عليه بالإبعاد، تمكن من الذهاب إلى النمسا، وهي أحد البلدان التي كانت تستقبل لاجئين تشيليين، حيث استقبلته زوجته. فوجئتُ بأن لمانويل أسرة، لأنه لم يذكر ذلك قط. وتبين أنه قد تزوج مرتين، دون إنجاب أبناء، وطلق في المرتين منذ زمن، ولا تعيش أي من زوجتيه في تشيلي.

ـ لماذا حكموا عليك بالإبعاد يا مانويل؟ ـ سألته.

ـ العسكريون أغلقوا كلية العلوم الإنسانية، وكنت أستاذاً فيها، لأنهم اعتبروها محفلاً للشيوعيين. اعتقلوا الكثير من الأساتذة والطلاب، وقتلوا بعضهم.

ـ أكنتَ معتقلاً؟

ـ أجل.

ـ وجدتي؟ هل تعرف إن كانوا قد اعتقلوها؟

ـ لا، هي لم تُعتقل.

❖ ❖

كيف يمكن لما أعرفه عن تشيلي أن يكون قليلاً إلى هذا الحد؟ لا أتجرأ على سؤال مانويل كيلا يعتبرني جاهلة، ولكنني بدأت النبش في الانترنت. بفضل تذاكر السفر المجانية التي يحصل عليها أبي في وظيفته كطيار، كان جدايّ يسافران وأنا معهما في أي عطلة أو إجازة متوافرة. وضع جدي بوبو قائمة بالأمكنة التي علينا التعرف إليها بعد أوروبا وقبل أن نموت. وهكذا زرنا الجزر الغلابغية، ومنطقة الأمازون، وكبادوسيا وماتشو بيتشو، ولكننا لم نأت قطّ إلى تشيلي مثلما يستدعي المنطق. عدم اهتمام جدتي نيني بالمجيء إلى بلادها أمر لا تفسير له، لأنها تدافع بشراسة عن عاداتها التشيلية، ومازالت تتأثر حين تعلق علم تشيلي ثلاثي الألوان على شرفتها في شهر أيلول. أظن أنها تختزن فكرة شاعرية عن تشيلي وتخشى أن تواجه الواقع أو ربما هنالك شيء ما لا تريد أن تتذكره.

لقد كان جدايّ رحالين جبربين وعمليين. ففي ألبومات الصور نظهر ثلاثتنا في أمكنة اكزوتيكية وبالملابس نفسها دوماً، لأن أمتعتنا كانت تقتصر على الضروريات الأساسية، وكنا نُبقي حقائبنا اليدوية جاهزة، حقيبتان لكل منا، مما يسمح لنا بالانطلاق خلال نصف ساعة، حسب ما تتيحه الفرصة أو النزوة. في أحد الأيام كنا أنا وبوبو نقرأ عن الغوريلات في مجلة ***ناشيونال جيوغرافيك***، وكيف أنها حيوانات نباتية، وديعة، ولديها حس عائلي، وكانت نيني تمر في أثناء ذلك في الصالة وهي تحمل مزهرية في يدها، فعلقت بتهاون أنه يجب علينا الذهاب لرؤية تلك الحيوانات. «فكرة جيدة»،

أجابها بوبو، ثم تناول الهاتف، واتصل بأبي، وحصل على تذاكر السفر. وفي اليوم التالي توجهنا إلى أوغندا بحقائبنا المجهزة مسبقاً.

كان بوبو يتلقى دعوات إلى ندوات ومحاضرات، فيأخذنا معه كلما أتيح له ذلك، لأن نيني تخشى وقوع نكبة تفاجئنا ونحن بعيدون بعضنا عن بعض. تشيلي هي بلاد أشبه بحاجب بين جبال الأنديز وأعماق المحيط الهادي، وفيها مئات البراكين، حمم بعضها لا تزال ساخنة، يمكن لها أن تنشط في أي لحظة وتُغرق الأرض في البحر. وهذا يفسر كون جدتي التشيلية تنتظر على الدوام ما هو أسوأ، وأنها متأهبة دوماً للطوارئ وتمضي في الحياة بقدريّة صحية مدعومة ببعض قديسي الكاثوليكية ومستندة إلى نصائح أبراج الحظ المبهمة.

لقد كنتُ أتغيب بكثرة عن الدروس، لأني أسافر مع جدي، ولأنهم يضايقونني في المدرسة. وقد كانت درجاتي الممتازة ومرونة المنهاج الإيطالي هي التي تحول دون طردي من المدرسة. ولم تكن تنقصني الذرائع للتغيب، فقد كنت أتصنع آلام الزائدة الدودية، وصداع الشقيقة، والتهاب الحنجرة، وإذا ما أخفق هذا كله، ألوذ بتصنع التشنجات. كان من السهل خداع جدي، ولكن جدتي نيني كانت تعالجني بوسائل شديدة المفعول، كإجباري على الاستحمام تحت دوش ماء جليدي أو إعطائي ملعقة من زيت السمك، اللهم إلا إذا كان تغيبي عن المدرسة يناسبها، كما هي الحال مثلاً عندما تأخذني معها للاحتجاج ضد الحرب الأخيرة، أو لإلصاق ملصقات دفاعاً عن حيوانات المختبرات، أو لنقيّد أنفسنا إلى شجرة لثني شركات الأخشاب عن ممارساتها في قطع الأشجار. لقد كان تصميمها على تلقيني الوعي الاجتماعي بطولياً على الدوام.

وقد اضطر بوبو، أكثر من مرة، إلى الذهاب لإخراجنا من مفوضية الشرطة. فشرطة بيركلي متسامحة، وهي معتادة على متظاهري شوارع مؤيدين لأي قضية نبيلة في الوجود، ومتعصبين طيبي النوايا لا يتورعون عن

التخييم لشهور في ساحة عامة، وطلبة مصممين على احتلال الجامعة في سبيل فلسطين أو دفاعاً عن حقوق دعاة التعري، وعباقرة ساهين يتجاهلون الإشارات المرورية، ومتسولين كانوا في حياة أخرى *suma cum laude*، ومدمني مخدرات يبحثون عن الفردوس، وباختصار، كل مواطن فاضل، وغير متسامح، ومناضل يعيش في هذه المدينة ذات المئة ألف نسمة، حيث كل شيء مسموح تقريباً مادام يُمارس بأساليب حميدة. وقد كان من عادة نيني ومايك أوكلي نسيان الأساليب الحميدة في حماسة الدفاع عن العدالة، ولكن إذا ما جرى اعتقالهما فإنهما لا ينتهيان أبداً إلى زنزانة، بل يذهب الرقيب ولزاك شخصياً ليشتري لهم أغطية.

❖ ❖

كنتُ في العاشرة من عمري عندما عاد أبي للزواج ثانية. لم يقدم لنا قطّ أي واحدة من عشيقاته، وكان يدافع بحرص عن منافعه في الحرية التي لم نكن ننتظر رؤيته يتخلى عنها. أعلن ذات يوم أنه سيجيء بصديقة للعشاء، ولكن حتى جدتي نيني التي بحثت له، سراً، طوال سنوات عن عروس، لم تهيئ نفسها لإعطاء انطباع طيب لتلك المرأة، أما أنا فكنت أتأهب لمهاجمتها. انطلق نشاط مهووس في البيت: تعاقدت نيني مع مؤسسة خدمات تنظيف محترفة خلّفت البيت مفعماً بروائح المنظفات والغاردينيا، وأقحمت نفسها بإعداد وصفة طبق مراكشي من الدجاج والقرفة، انتهى على يديها إلى ما يشبه قالب حلوى. وسجل بوبو مختارات من مقطوعاته الموسيقية المفضلة كي تكون هنالك أجواء موسيقية، وهي موسيقى طبيب أسنان كما يبدو لي.

حضر أبي في الليلة الموعودة، ولم نكن قد رأيناه منذ أسبوعين، وجاءت معه سوزان، وهي شقراء يغطي وجهها النمش، وسيئة الملابس بصورة فاجأتنا، فقد كانت لدينا فكرة عن أنه يحب الفتيات الفاتنات، مثل مارتا أوتير قبل أن ترزح تحت وطأة الأمومة والحياة البيتية في أودينس. أغوت

سوزان خلال دقائق قليلة جديَّ ببساطتها، أما أنا فلا. فقد استقبلتها بصورة سيئة إلى حدّ جرتني معه نيني من إحدى يدي إلى المطبخ بذريعة تقديم طبق الدجاج، وعرضت عليّ بضع صفعات ما لم أبدل موقفي. وبعد الانتهاء من تناول الطعام، اقترف جدي ما لا يخطر على بال، إذ دعا سوزان إلى البرج الفلكي، حيث لا يأخذ أحداً سواي، وظلا هناك لوقت طويل يرصدان السماء، بينما جدتي وأبي يوبخان وقاحتي.

بعد بضعة شهور، تزوج أبي وسوزان في حفلة غير رسمية على الشاطئ. كان ذلك النوع من حفلات الزفاف قد انتهى كتقليعة منذ حوالي عقد من السنوات، ولكن العروس رغبت فيه. كان جدي يفضل حفلة أكثر راحة، ولكن جدتي وجدت نفسها في جوها المفضل. قام بطقوس الزفاف صديق لسوزان، وكان قد تلقى بالبريد ترخيصاً بذلك من الكنيسة العالمية. أجبروني على حضور الحفلة، ولكنني رفضت تقديم خاتميّ الزفاف وارتداء زي حورية، مثلما أرادت لي جدتي. ارتدى أبي بدلة بيضاء موديل ماو لا تتفق مع شخصيته ولا مع ميوله السياسية، بينما ارتدت سوزان ثوباً خفيفاً وقبعة مزينة بأزهار برية، وهي ملابس انتهت كتقليعة أيضاً منذ زمن بعيد. والمدعوون الذين كانوا يقفون على الرمل، وأحذيتهم في أيديهم، تحملوا نصف ساعة من نصائح كاهن الطقوس المحلاة. بعد ذلك أقيم حفل استقبال في نادي اليخوت على الشاطئ نفسه، ورقص الضيوف وشربوا إلى ما بعد منتصف الليل، بينما انزويت أنا في سيارة جديّ الفوكسفاغن ولم أطلَّ بأنفي إلا عندما جاء أوكلي الطيب على كرسيه ذي العجلات حاملاً إليّ قطعة من قالب الحلوى.

أراد جداي أن يقيم العريسان معنا، لأن لدينا فائضاً من الأمكنة، ولكن أبي استأجر في الحي نفسه بيتاً صغيراً يتسع له مطبخ أمه، لأنه لا يستطيع دفع إيجار بيت أفضل. فالطيارون يعملون كثيراً ويكسبون القليل

ويمضون متعبين على الدوام. مهنة لا يُحسدون عليها. وما إن استقر بهما المقام حتى قرر أبي أنه عليَّ أن أعيش معهما، ولم تثنه عن ذلك نوبات غضبي مثلما أنها لم ترعب سوزان التي بدا لي للوهلة الأولى أنه من السهل تخويفها. لقد كانت امرأة متزنة، ذات مزاج مستو في كافة الظروف، ومستعدة للمساعدة على الدوام، ولكن دون حنان جدتي العدواني الذي يستثير غضب المتفعين منه أنفسهم.

إنني أدرك الآن أنه كان من نصيب سوزان المهمة غير اللطيفة في تولي مسؤولية طفلة رباها عجوزان، مدللة وذات نزوات، لا تقبل سوى الأغذية البيضاء ـ رز، فشار الذرة، خبز محلى، موز ـ وتقضي الليل مؤرقة. وبدلاً من أن تعمد سوزان إلى إجباري على الأكل بالأساليب التقليدية، صارت تحضر لي صدر دجاج مع كريما شانتيه، وقرنبيط مع مثلجات جوز الهند، وتوليفات جريئة أخرى، إلى أن تحولت شيئاً فشيئاً من الأبيض إلى البيج ـ حمّص (*hummus*)، بعض الحبوب، قهوة مع الحليب ـ ومن هناك انتقلت إلى ألوان ذات شخصية أقوى، مثل بعض تدرجات الأخضر، والبرتقالي والأحمر، شريطة ألا يكون شمندراً. لم يكن بمقدورها إنجاب أبناء، وقد حاولت تعويض ذلك النقص بكسب محبتي، لكنني واجهتها بعناد بغلة. تركت أشيائي في بيت الجدين وصرت أجيء إلى بيت أبي للنوم فقط، حاملة معي حقيبة يدوية صغيرة، فيها ساعة المنبه وكتاب اليوم. كانت لياليّ أرقاً، أرتجف فيها من الخوف، ورأسي تحت اللحاف. وبما أن أبي لم يكن يتسامح مع أي وقاحة مني، فقد اخترت لباقة بديلة، مستوحاة من رؤساء الخدم في الأفلام الإنكليزية.

❖ ❖

لقد كان منزلي الوحيد هو البيت الكبير المضطرب، أذهب إليه كل يوم عند الخروج من المدرسة لأكتب واجباتي وألعب، متمنية أن تنسى سوزان

المرور لأخذي بعد انتهاء عملها في سان فرانسيسكو، ولكن ذلك لم يحدث قطّ. فلدى زوجة أبي إحساس مرضي بالمسؤولية. وهكذا انقضى شهري الأول، إلى أن جاءت هي بكلب ليعيش معنا. كانت تعمل في إدارة الشرطة في سان فرانسيسكو على تدريب كلاب تشم القنابل، وهو اختصاص مطلوب جداً منذ العام 2001، عندما بدأت بارانويا الإرهاب، ولكنها في الزمن الذي تزوجت فيها من أبي كانت محط مزاح زملائها الجلفين، لأن أحداً لم يضع قنبلة في كاليفورنيا منذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة.

كل كلب يعمل مع بشريٍ واحد فقط خلال مسار حياته، ويصل كلاهما إلى التكامل على أحسن وجه، حتى يمكن لأحدهما أن يحدس تفكير الآخر. وكانت سوزان تختار أشد الجراء الوليدة حيوية وذكاء لأشد الأشخاص غباء وبلادة كي يتساوى مع الكلب. ومع أنني أقسمت على تحطيم أعصاب زوجة أبي، إلا أنني استسلمتُ أمام «ألفي»، الكلب ذو الست سنوات والذي هو أذكى وألطف من أفضل كائن بشري. وسوزان هي من علمتني ما أعرفه عن الحيوانات وسمحت لي، خارقة قواعد المرجع الأساسية، بالنوم مع «ألفي». وساعدني ذلك على مقاومة الأرق.

توصل حضور زوجة أبي الصامت إلى أن يكون طبيعياً جداً وضرورياً في العائلة، حتى صار من الصعب تذكر كيف كانت الحياة قبلها. وحين يكون أبي مسافراً، وهذا يعني في معظم الأوقات، تسمح لي سوزان بالبقاء لقضاء الليل في بيت جديّ السحري، حيث ظلت غرفتي على حالها. وكانت سوزان تحب جدي بوبو كثيراً، تذهب معه لمشاهدة أفلام سويدية تعود إلى سنوات الخمسينيات، بالأبيض والأسود، ودون ترجمة ـ كان لا بد من تكهن مضمون الحوارات ـ ولسماع موسيقى الجاز في صالات مختنقة بالدخان. وكانت تتعامل مع جدتي نيني، وهذه ليست وديعة بأي حال، بالطريقة نفسها التي تدرب بها كلاب القنابل: حنان وحزم، عقاب وثواب.

بالحنان جعلتها تعلم أنها تحبها وأنها مستعدة لمساعدتها، وبالحزم منعتها من الدخول من النافذة إلى بيتها لتفحص النظافة أو لتقديم الحلويات خفية لحفيدتها. كانت تعاقبها بالاختفاء لأيام عندما تثقل عليها نيني بالهدايا، والتحذيرات، والمأكولات التشيلية، وتكافئها بأخذها في نزهة إلى الغابة عندما يكون كل شيء على ما يرام. وكانت تطبق الأسلوب نفسه مع زوجها ومعي.

لم تقف زوجة أبي الطيبة بين الجدين وبيني، على الرغم من أنها صُدمت دون ريب من الطريقة غير المستقرة التي رياني عليها. صحيح أنهما كانا يدللاني كثيراً، ولكن لم يكن ذلك هو سبب مشاكلي، مثلما ظن الأطباء النفسانيون الذين واجهتهم في مراهقتي. لقد كونتني جدتي نيني على الطريقة التشيلية: وفرة من الطعام والحنان، قواعد واضحة وبعض الصفعات، ولا شيء أكثر. في إحدى المرات هددتها بالشكوى عليها للشرطة بتهمة الإساءة للصغار فوجهت إليَّ ضربة بمغرفة الحساء خلفت بيضة في رأسي. فقطع ذلك مبادرتي بجفاء.



جرى تحضير **كورانتو** تقليدي على طريقة تشيلوي، بوفرة وسخاء، لاحتفال جماعي. بدأت الإعدادات باكراً، لأن مراكب السياحة البيئية تصل قبل انتصاف النهار. قطّعت النساء البندورة والبصل والثوم والكزبرة للتتبيل، ومن خلال عملية مضجرة، أعدّوا ميلكاو وتشابليلي، وهما صنفا عجينة من البطاطا والدقيق، وشحم الخنزير والبازيلاء، وبيلة حسب ظني، بينما حفر الرجال حفرة كبيرة، وضعوا فيها كومة من الأحجار وأشعلوا فوقها النار. وعندما استُنفد الحطب، كانت الأحجار قد توقدت، وهو ما توافق مع وصول المراكب. قاد المرشدون السياح في جولة على القرية، ومنحوهم الفرصة لشراء منسوجات، وعقود من الأصداف، ومربى المورتا، ومشروب

الـذهب، ومنحوتـات خشـبية، ومـرهم لعـاب الحلزونـات لعـلاج بقـع الشيخوخة، وأغصان الخزامى، وباختصار، الأشياء القليلة الموجودة، ثـم اجتمعوا على الفور حول الحفرة الساخنة عند الشاطئ. وضع طهاة الكورانتو قدوراً من الصلصال على الأحجار من أجل تلقي الحساء، وهو مقو جنسي كما هو معروف، وراحوا يضعون طبقات من عجينة الميلكاو والتشابليلي، ولحم الخنزير والخراف والدجاج والصدف البحري والسمك والخضار ولذائذ أخرى لم أسجلها، وغطوها بقطع قماش بيضاء مبللة، وأوراق نباتات ضخمة، وكيس يبرز من الفتحة كأنه تنورة، وأخيراً الرمل. تأخر الطهو أكثر من ساعة بقليل، وبينما كانت المكونات تتحول في سر الحرارة، في عصارتها الحميمة وعبقها، كان الزائرون يشغلون وقتهم بالتقاط الصور للدخان، ويتناولون كؤوساً من خمر البيسكو ويستمعون إلى مانويل آرياس.

السياح أصناف مختلفة من الناس: تشيليون في المرحلة العمرية الثالثة، أوروبيون في إجازات، وأرجنتينيون من مختلف الأنواع، وحملة حقائب ظَهرٍ غامضو الأصول. في بعض الأحيان تأتي جماعة من الآسيويين أو الأمريكيين ومعهم خرائط ومرشدون وكتب عن نباتات المنطقة وحيواناتها يرجعون إليها بجدية رهيبة. وجميعهم، باستثناء حملة حقائب الظهر الذين يفضلون تدخين الماريجوانا وراء الشجيرات، كانوا يقدرون الفرصة المتاحة لهم بالاستماع إلى كاتب منشور، شخص قادر على توضيح أسرار الأرخبيل بالإنكليزية أو الإسبانية، حسب الحالة. مانويل ليس مزعجاً على الدوام، إذ يمكن له في موضوعه أن يكون متفهماً لوقت طويل. كان يُحدّث الزائرين عن تاريخ تشيلوي وأساطيرها وعاداتها، وينبههم إلى أن أهالي الجزر حذرين، ولا بد من كسب ثقتهم بالاحترام شيئاً فشيئاً، مثلما يجب التأقلم بالتدريج وباحترام مع الطبيعة القاسية، والشتاء العاصف، ونزوات البحر. ببطء. ببطء شديد. لأن تشيلوي ليست لأناس متعجلين.

يسافر الناس إلى تشيلوي وفي أذهانهم فكرة العودة في الزمن، فتخيب آمالهم في مدن الجزيرة الكبرى، ولكنهم يجدون ما يبحثون عنه في جزيرتنا الصغيرة. لا وجود لأي نية في الخداع من جانبنا بالطبع، ومع ذلك، تظهر في يوم الكورانتو ثيران وخراف بالقرب من الشاطئ، ويكون هناك عدد أكبر من شباك الصيد والزوارق الموزعة على الرمل لتجف، ويعتمر الناس أشد قبعاتهم خشونة ويرتدون عباءات البونتشو، ولا يخطر لأحد منهم استعمال هاتفه النقال في العلن.

الخبراء يعرفون بالضبط متى تكون قد نضجت كنوز الطبخ في الحفرة. وقد قاموا برفع طبقة الرمل بمعاول، وأزاحوا برفق الكيس، وأوراق النباتات وقطع القماش البيضاء، فتعالت عندئذ نحو السماء سحابة بخار محملة بعبق روائح الكورانتو البديعة. ساد صمت ترقّب تلته عاصفة من التصفيق. أخرجت النساء لحوم الكورانتو وقدمنها في أطباق من الكرتون ومعها جولة جديدة من خمر بيسكو سور، الشراب الوطني التشيلي القادر على طرح قوقازي أرضاً. ويكون علينا في النهاية إسناد عدد من السائحين في الطريق إلى المراكب.



لابد أن جدي بوبو سيحب هذه الحياة، وهذه المناظر، وهذه الوفرة من ثمار البحر، وهذا البطء المتكاسل في الزمن. فهو لم يسمع قطّ أي حديث عن تشيلوي وإلا لكان ضمها إلى قائمة الأمكنة التي يود زيارتها قبل أن يموت. جدي بوبو... كم أشتاق إليه! لقد كان دباً كبيراً، قوياً، بطيئاً، عذباً، له دفء مدفئة، ورائحة تبغ وكولونيا، وصوت قاتم وضحكة أرضية، مع يدين هائلتين لإسنادي. كان يأخذني إلى مباريات كرة القدم وإلى الأوبرا، ويجيب على أسئلتي اللامتناهية، ويسرّح شعري، ويصفق لقصائدي الملحمية التي لا حصر لها المستوحاة من أفلام كيروساوا التي كنا نشاهدها معاً. وكنا نصعد

معاً إلى برج البيت لنرصد بالتليسكوب قبة السماء السوداء بحثاً عن كوكبه المتفلت، وهو نجم أخضر لم نستطع العثور عليه قطّ. «عاهديني بأنكِ ستحبين نفسكِ على الدوام مثلما أحبك أنا يا مايا»، كان يكرر عليّ هذا الطلب، وكنتُ أعاهده دون أن أدري ما الذي تعنيه هذه الجملة الغريبة. كان يحبني دون شروط، يتقبلني مثلما أنا، بمحدوديتي ونزواتي وعيوبي، ويصفق لي حتى لو لم أكن أستحق التصفيق، على النقيض من جدتي نيني التي ترى أنه يجب عدم الاحتفاء بجهود الأطفال، لأنهم سيعتادون على ذلك، وسيعانون في الحياة عندما لا يكون هنالك من يطري عليهم. لقد كان الجد بوبو يغفر لي كل شيء ويواسيني، ويضحك عندما أضحك. كان صديقي المفضل، وشريكي المتواطئ معي، وحافظ أسراري، وكنتُ بدوري حفيدته الوحيدة وابنته التي لم ينجبها. «قل لي إنني أَحَبُّ أحبابك يا بوبو»، كنت أطلب منه كي أنال مكسباً على نيني. فيرد عليّ بدبلوماسية: «أنت أَحبُّ أحبابنا يا مايا»، ولكنني كنت المفضلة لديه، إنني واثقة من ذلك. فجدتي لا يمكنها المنافسة معي. لم يكن بوبو قادراً على اختيار ملابسه، وهذا عمل كانت تقوم به نيني، ولكنه عندما أكملت الثالثة عشرة من عمري أخذني لشراء حمالة صدري الأولى، لأنه لاحظ أنني ألف صدري بلفاع رقبة وأمشي منحنية لإخفاء الصدر. كان الخجل يمنعني من التحدث في الأمر مع جدتي نيني أو مع سوزان، ولكنني تصرفت بتلقائية بالمقابل وأنا أجرب حمالة الصدر أمام بوبو.

لقد كان بيت بيركلي هو عالمي: الأمسيات مع الجدين في مشاهدة مسلسلات تلفزيونية، وأيام الآحاد الصيفية في تناول الفطور على الشرفة، والمناسبات التي يجيء فيها أبي ونتناول العشاء معاً، بينما ماريا كايّاس تصدح بالغناء من اسطوانات قديمة، وحجرة المكتب، والكتب، وعبق المطبخ. مع هذه الأسرة الصغيرة مضى الشطر الأول من حياتي دون أي مشكلة جديرة

بالذكر، ولكن في السادسة عشرة من عمري أحدثت قوى الطبيعة الكارثية، كما تسميها جدتي نيني، اضطراباً في دمي ونشرت غمامة ضبابية على ذهني.

❖ ❖

لديّ وشم على رسغي الأيسر للعام الذي توفي فيه جدي بوبو: 2005. في شهر شباط عرفنا أنه مريض، وفي شهر آب ودعناه، وفي شهر أيلول أكملت السادسة عشرة من عمري وتحللت أسرتي إلى فتات.

اليوم الذي لا يُنسى الذي بدأ فيه جدي بالموت، كنت قد بقيت في المدرسة بعد الدروس للتدريبات على عمل مسرحي، لم يكن سوى *بانتظار غودوت*، فأستاذة الدراما طموحة جداً، وقد ذهبت بعد ذلك ماشياً على الأقدام إلى بيت الجدين. حين وصلت كان الوقت ليلاً. دخلت وأنا أنادي وأشعل الأنوار، مستغربة الصمت والبرودة، لأن تلك الساعة هي الأكثر حميمية في البيت، إذ يكون في العادة دافئاً، وتكون هنالك موسيقى، وتطفو في الجو روائح قدور جدتي نيني. في هذه الساعة يقرأ جدي على أريكة مكتبه وتطبخ نيني الطعام وهي تسمع الأخبار من المذياع، ولكنني لم أجد شيئاً من ذلك كله في تلك الليلة. كان الجدان في الصالة، يجلسان ملتصقين على الصوفا التي أعادت الجدة تنجيدها وفق تعليمات إحدى المجلات. كان حجماهما قد تقلص، ولاحظتُ تقدمهما في العمر أول مرة، فحتى ذلك الحين كانا بمنأى عن صرامة الزمن. لقد كنت معهما يوماً فيوماً، عاماً فعاماً، دون أن أنتبه إلى التبدلات، فقد كان الجدان أبديين وغير قابلين للتغير مثلما هي الجبال. لا أدري إذا ما كنت أراهما من قبل بعيني الروح، أم أنهما هرما خلال تلك الساعات الفائتة. كما أنني لم ألاحظ خلال الشهور الماضية أن جدي قد فقد شيئاً من وزنه، فالملابس تبدو واسعة عليه، وإلى جانبه نيني التي لم تعد تبدو مصغرة جداً كما في السابق.

«ما الذي جرى أيها العجوزان؟»، وطفر قلبي إلى الفراغ، لأنني

أدركت الأمر قبل أن يتمكنا من الرد على سؤالي. فنيديا بيدال، هذه المحاربة التي لا تُهزم، كانت مكسورة، وعيناها منتفختان من البكاء. أومأ لي بوبو أن أجلس معهما، عانقني بشدي إلى صدره، وأخبرني أنه يشعر منذ بعض الوقت أنه في حالة سيئة، تؤلمه معدته، وقد أجروا له عدة فحوص، وانتهى الطبيب إلى تحديد السبب. «ماذا بك يا بوبو؟»، خرجت مني كصرخة. فقال: «هنالك شيء ما كما يبدو»، وأفهمتني أنّة المرآة العميقة أنه السرطان.

في حوالي الساعة التاسعة جاءت سوزان للعشاء، مثلما تفعل في أحيان كثيرة، ووجدتنا متلاصقين على الصوفا نرتجف. أشعلت جهاز التدفئة، وطلبت بيتزا بالهاتف، واتصلت بأبي في لندن لتطلعه على الخبر السيئ، ثم جلست معنا ممسكة بيد حميها بصمت.

ومن أجل العناية بزوجها هجرت نيني كل شيء: المكتبة، الحكايات، الاحتجاجات في الشارع، نادي المجرمين، وتركت الفرن يبرد بعد أن كان يظل ساخناً طوال طفولتي. السرطان، هذا العدو المستتر، انقض على جدي بوبو دون أن يعطي إنذاراً إلى أن صار في مرحلة متقدمة جداً. أخذت نيني زوجها إلى مستشفى جامعة جورجتاون في واشنطن، حيث أفضل الاختصاصيين، ولكن ذلك لم يُفد في شيء. قالوا لها إنه لا فائدة من إجراء عملية جراحية، ورفض هو الخضوع للقصف الكيماوي من أجل إطالة حياته بضعة شهور فقط. درستُ مرضه على الانترنت وفي الكتب التي حصلت عليها من المكتبة، وهكذا عرفت أنه من ثلاثة وأربعين ألف حالة سنوية في الولايات المتحدة، هنالك حوالي سبعة وثلاثين ألف حالة نهائية، وخمسة بالمئة من المرضى يتجاوبون مع العلاج، وأقصى مدة متوقعة لهؤلاء في الحياة لا تتجاوز خمس سنوات، وباختصار، لا يمكن إلا لمعجزة أن تنقذ جدي.

خلال الأسبوع الذي أمضاه الجدان في واشنطن تردت حالة بوبو كثيراً، حتى إننا وجدنا صعوبة في التعرف إليه عندما ذهبت مع أبي وسوزان

لانتظارهما في المطار. كان قد نحل أكثر بكثير من السابق، وكان يجرجر قدميه، وظهره منحنياً، وعيناه صفراوان، وبشرته كامدة ورمادية. وصل بخطوات مشلول إلى سيارة سوزان، متعرقاً من الجهد، وافتقد في البيت الطاقة لصعود الدرج، وكان علينا أن نهيئ له سريراً في مكتبه في الطابق الأول، حيث ظل ينام إلى أن جاؤوه بسرير مستشفى. وكانت نيني تنام معه، متكورة إلى جانبه مثل هر.



بالحماسة نفسها التي تتبنى بها قضايا سياسية وإنسانية خاسرة، واجهت جدتي الرب دفاعاً عن زوجها، في البدء بالتضرع والتوسلات والصلوات والنذور، وبعد ذلك باللعنات والتوعد بأن تتحول إلى ملحدة. فكان بوبو يسخر منها: «ما الذي نجنيه من الصراع مع الموت، يا نيديا، مادام سيكسب عاجلاً أو آجلاً؟». وبالنظر إلى أن الطب أعلن عدم كفاءته، لجأت نيني إلى وسائل العلاج البديلة، مثل الأعشاب، والزجاج، والوخز بالإبر، والسحرة، ومساجات الاسترخاء وفتاة من تيخوانا، موسومة وعجائبية. تحمّل زوجها تلك الشذوذات بطيب مزاج، مثلما اعتاد أن يفعل مذ تعرف إليها. في البدء حاول أبي وسوزان حماية العجوزين من المشعوذين الكثيرين، ممن شمّوا بطريقة ما إمكانية استغلال جدتي نيني، ولكنهما انتهيا إلى تقبل أن تلك الوسائل اليائسة تبقيها مشغولة ريثما تنقضي الأيام.

كانت سوزان هي أول من تجرأ على ذكر *الهوسبيس*. فصاحت نيني: «هذه وسيلة للمحتضرين، وبول لن يموت!»، ولكنها راحت تتنازل شيئاً فشيئاً. وهكذا جاءت كارولين، وهي متطوعة ذات أساليب رقيقة، وخبيرة جداً، لتشرح لنا ما سيحدث، وكيف أنه يمكن لمنظمتها أن تساعدنا دون أية كلفة، بدءً من إبقاء المريض مستريحاً وتقديم السلوى الروحية أو النفسية لنا، حتى تصريف مسائل بيروقراطية الأطباء والجنازة.

أصر بوبو على الموت في البيت. وتوالت المراحل بالترتيب والمواعيد التي تحدثت عنها كارولين، ولكنهم أخذوني على حين غرة، لأنني أنا أيضاً، مثل نيني، كنت أنتظر تدخلاً إلهياً يبدل مسار النكبة. فالموت يحدث لآخرين، وليس لأكثر من نحبهم وخاصة بوبو الذي كان مركز حياتي، وقوة الجاذبية التي تثبّت العالم. فمن دونه أفقد الدعامة، وستطيح بي أقل نسمة. «لقد أقسمت لي بأنك لن تموت يا بوبو!». «لا يا مايا، قلت لك إنني سأكون معك على الدوام، وأنا أفكر في إنجاز هذا الوعد».

وضع متطوعو *الهوسبيس* سرير المستشفى قبالة نافذة الصالة العريضة، كي يتمكن جدي في الليل من تخيل النجوم والقمر تضيئه، لأنه لا يستطيع رؤيتها بسبب أغصان أشجار الصنوبر. أحدثوا له فتحة في صدره كي نعطيه الأدوية دون أن نخزه، وعلمونا تحريكه وغسله وتبديل ملاءاته دون إخراجه من السرير. وكانت كارولين تأتي لرؤيته باستمرار، وتتفاهم مع الطبيب والمرض والصيدلية؛ وقد تولت أكثر من مرة مهمة المجيء بالمشتريات من المخزن، عندما لا يكون لدى أحد في البيت حماسة لعمل ذلك.

وكان مايك أوكلي يزورنا أيضاً. يأتي على عربته الكهربائية ذات العجلات التي يقودها كسيارة سباق، يرافقه في معظم الأحيان اثنان من عصبته الذين أنقذهم، يأمرهم بأن يُخرجوا القمامة من البيت، وبتشغيل المكنسة الكهربائية، وتنظيف الفناء والقيام بأعمال منزلية أخرى بينما هو يتناول الشاي مع نيني في المطبخ. كانا قد تباعدا لبضعة شهور بعد أن تشاجرا في مظاهرة حول الإجهاض الذي يستنكره أوكلي دون ملطفات، ولكن مرض جدي صالحهما. وعلى الرغم من أنهما يجدان نفسيهما أحياناً في قطبين أيدلوجيين متناقضين، إلا أنهما لا يستطيعان البقاء على زعل، لأن كلاً منهما يحب الآخر كثيراً ولديهما الكثير من الأمور المشتركة.

حين يكون بوبو مستيقظاً، يتبادل بياض الثلج الحديث معه لبعض

الوقت. لم يعقدا صداقة حقيقية، وأظن أنهما يشعران بقليل من الغيرة. في إحدى المرات سمعتُ أوكلي يتحدث إلى بوبو عن الرب، وشعرت بأنه عليّ أن أنبهه إلى أنه يضيع وقته، لأن جدي لاأدريّ. «هل أنت متأكدة يا صغيرة؟ لقد عاش بول وهو يراقب السماء بتلسكوبه. فكيف يمكن له ألا يلمح الرب؟»، هكذا ردّ عليّ، ولكنه لم يحاول إنقاذ روحه رغماً عن إرادته. وعندما وصف له الطبيب المورفين وأخبرتنا كارولين بأنه علينا اقتناء الكمية الضرورية، لأنه من حق الميت أن يموت دون ألم وبوقار، أحجم أوكلي عن تزويدنا بالمورفين لأنه معارض للموت الرحيم.



حلّت اللحظة التي لا مفر منها، حيث استنفد بوبو قواه وكان لا بد من وقف صفوف الطلاب والأصدقاء الذين يتوافدون للزيارة. لقد كان متأنقاً على الدوام، وعلى الرغم من ضعفه ظل يحاول الحفاظ على مظهره، حتى لو كنا نحن وحدنا من نراه. فكان يطلب منا الإبقاء عليه نظيفاً، حليق الذقن، وأن تكون الحجرة مهواة، لأنه يخشى أن يسيء إلى مشاعرنا ببؤس مرضه. كانت عيناه كامدتين وغائرتين، ويداه أشبه بقائمتي عصفور، وشفتاه مقرحتين، وبشرته مرشومة بالبقع وملتصقة بالعظم. لقد كان جدي مثل هيكل شجرة محروقة، ولكنه لا يزال قادراً على سماع الموسيقى والتذكر. فكان يطلب منا: «افتحوا النافذة كي تدخل البهجة». في بعض الأحيان يكون منهوكاً إلى حد يكاد صوته لا يخرج منه، ولكن كانت هنالك لحظات أفضل، وكنا عندئذ نرفع السرير وراء ظهره كي يستوي ونتبادل الحديث. كان يرغب في إيداعي معايشاته وحكمته قبل أن يغادر. ولم يفقد صفاء ذهنه قطّ.

ـ هل أنت خائف يا بوبو؟ ـ سألته.

ـ لا، ولكني حزين يا مايا. أرغب في أن أعيش عشرين سنة أخرى معك ـ أجابني.

ـ ماذا يوجد في الجانب الآخر يا بوبو؟ أتظن أن هنالك حياة بعد الموت؟
ـ هذا احتمال، ولكنه غير مُثبت.
ـ ووجود كوكبك غير مُثبت أيضاً، ولكن إيمانك حازم بوجوده ـ حاججته، فضحك راضياً.
ـ معك حق يا مايا. من السخف الإيمان بما يمكن إثباته فقط.
ـ أتتذكر عندما حملتني إلى المرصد لرؤية مذنب يا بوبو؟ في تلك الليلة رأيت الرب. لم يكن هنالك قمر، وكانت السماء سوداء ومفعمة بجواهر، وعندما نظرتُ من خلال التليسكوب ميزتُ بوضوح ذيل المذنب.
ـ ثلج متجمد، أمونياك، ميتان، حديد، منغنيز و...
ـ لقد كان طرحة عروس، ووراءه كان الرب ـ أكدتُ له.
ـ وكيف كان؟ ـ سألني.
ـ مثل شبكة عنكبوت مضيئة يا بوبو. كل ما هو موجود متصل بخيوط إلى شبكة العنكبوت تلك. لا يمكنني شرح ذلك. عندما تموت ستبحر مثل المذنب وسأمضي معلقة بذيلك.
ـ سنكون غبار سديم كوني.
ـ آي يا بوبو!
ـ لا تبكي يا صغيرتي، لأنك ستجعلينني أبكي أنا أيضاً وبعد ذلك ستبكي جدتك نيني، ولن نتمكن أبداً من مواساتها.

في أيامه الأخيرة لم يعد بإمكانه أن يبتلع سوى ملاعق صغيرة من اللبن ورشفات من الماء. ولم يعد يكاد يتكلم، ولكنه لم يكن يشكو أيضاً. كان يقضي الساعات في إغفاءة مورفين مضطربة، متشبثاً بيد زوجته أو يدي. أشك في أنه كان يعرف أين هو، ولكنني كنت أعرف أنه يحبنا. واصلت جدتي حكاية الحكايات له حتى النهاية، عندما لم يعد يفهم ما تقوله، ولكن رتابة صوتها كانت تهدهد له. روت له حكاية عاشقين يتجسدان في حقبتين

مختلفتين، يعيشان مغامرات، يموتان ويعودان للقاء في حيوات أخرى، ويظلان معاً على الدوام.

كنت أتمتم بصلوات من اختراعي في المطبخ، في الحمام، في البرج، في الحديقة، في أي مكان يمكنني الاختباء فيه، وأتوسل إلى رب مايك أوكلي أن يشفق علينا، ولكنه يظل نائياً وأبكم. غطى الطفحُ جلدي، وأخذ شعري يتساقط، وصرت أقضم أظفاري حتى النزف؛ فكانت جدتي تلف أصابعي بلصاقات طبية وتجبرني على النوم بقفازين. لم أكن قادرة على تصور الحياة من دون جدي، ولكنني لم أكن قادرة كذلك على تحمّل احتضاره البطيء وانتهيت إلى الصلاة من أجل أن يموت سريعاً ويتوقف عن المعاناة. ولو أنه طلب مني لكنت أعطيته مزيداً من المورفين لمساعدته على الموت، لقد كان ذلك بالغ السهولة، ولكنه لم يطلبه قطّ.

كنتُ أنام بملابسي على الصوفا في الصالة، بعينين مفتوحتين، مترصدة، وهكذا علمت قبل الجميع حين جاءت لحظة الوداع. هرعت لإيقاظ نيني التي كانت قد تناولت مُنوّماً كي تستريح قليلاً، واتصلت هاتفياً بأبي وسوزان اللذين جاءا خلال عشر دقائق.

اندست جدتي، وهي بقميص النوم، في فراش زوجها ووضعت رأسها على صدره، مثلما كانا ينامان دوماً. ومن الجانب الآخر من سرير بوبو انحنيتُ أنا أيضاً على صدره الذي كان في ما مضى قوياً وعريضاً يتسع لكلتينا، ولكنه يكاد الآن لا يخفق. فقد صار تنفس جدي لا يُدرك وبدا للحظات طويلة أنه قد توقف تماماً، ولكنه فتح عينيه فجأة، ومرَّ بنظره على أبي وسوزان اللذين كانا يبكيان دون صخب حوله، ورفع يده الكبيرة بمشقة ووضعها على رأسي. «عندما أعثر على الكوكب، سأطلق عليه اسمك يا مايا»، كان هذا آخر ما قاله.

❖ ❖

خلال السنوات الثلاث التي انقضت على وفاة جدي لم أتحدث عنه إلا في مرات نادرة. وقد تسبب لي ذلك بأكثر من مشكلة مع معالجي أوريغون النفسيين الذين يحاولون إجباري على «فكّ حدادي» أو تفاهة من هذا النوع. يوجد أناس هكذا، أناس يعتقدون أن حداد الجميع متماثل وأن هنالك صيغاً وآجالاً لتجاوزه. فلسفة جدتي نيني الرواقية هي الملائمة أكثر من غيرها في هذه الحالات: «إنهم يدعون للمعاناة، فلنضغط على أسناننا»، هذا ما تقوله. وألم من هذا النوع، ألم في الروح، لا يمكن انتزاعه بالعلاج أو الأدوية أو الإجازات؛ فألم من هذا النوع لا بد، بكل بساطة، من معاناته بعمق، دون مُخففات، وكما يجب. وكنتُ سأحسن صنعاً باقتفاء مثال نيني، بدل أن أنكر أنني أعاني وأكتم الزعيق الذي يعترض صدري. وصفوا لي في أوريغون مضادات كآبة، لم أكن أتناولها، لأنها تحولني إلى بلهاء. كانوا يراقبونني، ولكنني كنت أتمكن من خداعهم بلبان مخبئ في فمي، حيث يلتصق قرص الدواء باللبان وأبصقه بعد دقائق كاملاً. لقد كان حزني هو رفيقي، لا أريد الشفاء منه بوساطة معالجين طيبي النوايا، لأن أي شيء يمكن أن أقوله لهم عن جدي سيكون تافهاً. ومع ذلك، لا يكاد يمر يوم في هذه الجزيرة من جزر تشيلوي إلا وأروي لمانويل آرياس حكاية ما عن بوبو. جدي بوبو مختلف جداً عن هذا الرجل، ولكن لكليهما بعض مواصفات شجرة ضخمة، ومعهما أشعر بالحماية.

لقد حظيت للتو بلحظة مشاركة غريبة مع مانويل، مثل تلك اللحظات التي عرفتها مع جدي بوبو. فقد رأيته يتأمل الغروب من النافذة، سألته عما يفعله.

ـ أتنفس.

ـ وأنا أيضاً أتنفس. ولكن ليس هذا ما أعنيه.

ـ إلى أن قاطعتني يا مايا، كنت أتنفس، ولا شيء أكثر. تصوري مدى صعوبة التنفس دون تفكير.

ـ هذا يسمى تأملاً. جدتي نيني تقضي الوقت في التأمل، تقول إنها بذلك تشعر أن بوبو إلى جانبها.

ـ وهل تشعرين به أنتِ؟

ـ لم أكن أشعر به، لأنني كنت متجمدة من الداخل ولا أشعر بشيء. أما الآن فيبدو لي أن بوبو يمضي هنا، يجول ويجول...

ـ ما الذي تغير؟

ـ كل شيء يا مانويل. فبادئ ذي بدء، صرت قنوعة، فضلاً عن الهدوء هنا، والصمت والاتساع. وهذا كله يناسبني للتأمل، مثل جدتي نيني، ولكنني لا أستطيع، إنني أفكر طيلة الوقت، رأسي يعج بالأفكار. هل تظن أن هذا سيئ؟

ـ الأمر يعتمد على الأفكار...

ـ لستُ ابن سينا بأي حال، مثلما تقول جدتي، ولكن تخطر لي أفكار جيدة.

ـ مثل ماذا؟

ـ في هذه اللحظة بالتحديد لا أعرف كيف أجيبك، ولكن فور أن يخطر لي خاطر عبقري سأخبرك به. أنت تفكر كثيراً في كتابك، ولكنك لا تستهلك الأفكار في أمور أكثر أهمية، مثل مقدار ما كانت عليه حياتك من انحطاط معنوي قبل مجيئي. ما الذي سيكون من أمرك عندما أغادر؟ فكر في الحب يا مانويل. الجميع بحاجة إلى حب.

ـ آها. ومن هو حبك؟ ـ سألني ضاحكاً.

ـ أنا يمكنني الانتظار، عمري تسعة عشر عاماً والحياة أمامي، أما أنت ففي التسعين ويمكن لك أن تموت خلال خمس دقائق.

ـ لي من العمر اثنان وسبعون عاماً فقط، ولكنك محقة في أنه يمكن لي أن أموت خلال خمس دقائق. وهذا مسوغ جيد لتجنب الحب، فمن غير اللائق ترك امرأة مسكينة أرملة.

ـ إذا كان هذا هو رأيك فأنت ضائع إذاً يا رجل.

ـ اجلسي هنا معي يا مايا. عجوز على حافة الموت وفتاة جميلة سيتنفسان معاً. هذا إذا كنتِ قادرة على الصمت لحظة بالطبع.

فعلنا ذلك إلى أن خيم الليل. وكان الجد بوبو يرافقنا.



بموت جدي ظللتُ بلا بوصلة وبلا أسرة: أبي يعيش محلقاً في الجو، وسوزان أرسلوها إلى العراق مع كلبها «ألفي» لتشمم القنابل، وجدتي نيني جلست تبكي زوجها. لم يعد لدينا حتى كلاب. فقد كان من عادة سوزان إحضار إناث كلاب حبلى إلى البيت، وتبقيها فيه إلى أن يصبح عمر الجراء ثلاثة أو أربعة أشهر، وعندئذ تأخذها لتدريبها. لقد كان التآلف مع تلك الكلاب دراما. كانت الجراء عزاء عظيماً عندما تفرقت أسرتي. ومن دون «ألفي» والجراء لم يعد لي من أتقاسم الأحزان معه.

كان أبي منغمساً في غراميات أخرى، ويخلّف وراءه ركاماً من الآثار والأدلة، كما لو أنه يريد أن تعلم سوزان بذلك. ففي الحادية والأربعين من عمره يحاول الظهور بمظهر ابن الثلاثين. كان يدفع مبلغاً طائلاً مقابل قص شعره وملابسه الرياضية، ويرفع أثقالاً ويُكسب بشرته لوناً برونزياً في آلات أضواء فوق بنفسجية. لقد كان أكثر وسامة من أي وقت مضى، والشيب في صدغيه يمنحه مظهراً مميزاً. أما سوزان، بالمقابل، المتعبة من العيش بانتظار زوجها الذي لا يحط على الأرض تماماً، والمتأهب دوماً للذهاب أو التحدث همساً بهاتفه المحمول مع نساء أخريات، فقد استسلمت لاستنفاد العمر لها، وصارت أكثر بدانة، ترتدي ملابس الرجال، ونظارات عادية من تلك التي تباع بالدزينة في الصيدليات. تشبثت بفرصة الذهاب إلى العراق لتهرب من تلك العلاقة المُذلّة. وكان الانفصال مصدر راحة لكليهما.

لقد كان جداي متحابين بالفعل. فالعاطفة التي بدأت عام 1976 بين المنفية التشيلية التي تعيش وحقيبتها جاهزة، وعالم الفلك القادم في رحلة سريعة إلى تورينتو، ظلت طازجة على امتداد ثلاثة عقود. وعندما توفي بوبو، أصاب نيني الحزن والاضطراب، لم تعد هي نفسها. وظلت كذلك بلا موارد، لأن نفقات المرض، خلال تلك الشهور القليلة، استنفدت مدخراتها. كانت تعتمد على معاش تقاعد زوجها، لكنه لم يكن يكفي لصيانة تلك السفينة القديمة الهائمة التي هي بيتها. ودون أن تمنحني يومين من الإنذار، أجّرت البيت لتاجر من الهند ملأه بمنوعات وبضائع، وذهبت هي لتعيش في حجرة فوق كراج أبي. تخلصتْ من معظم ممتلكاتها، باستثناء رسائل الحب التي كان زوجها يتركها لها هنا وهناك خلال سنوات عيشهما معاً، ورسومي وقصائدي وشهاداتي، والصور التي تشكل شهادة غير قابلة للدحض على السعادة التي تقاسمتها مع بول ديتسون الثاني. فتركُ ذلك البيت، حيث كانت محبوبة بكل رحابة، شكّل حداداً ثانياً. وكان ضربة قاضية بالنسبة إلي، شعرت معها بأنني فقدت كل شيء.

كانت جدتي معزولة جداً في حدادها، ومع أننا كنا نعيش تحت السقف نفسه، إلا أنها لم تكن تراني. لقد كانت قبل سنة من ذلك امرأة شابة، نشيطة، مرحة ومحبة للتدخل، شعرها مبعثر، تنتعل صندل راهب وتنورة طويلة، ومشغولة على الدوام، تقدم المساعدة، وتبتكر. أما الآن فهي أرملة ناضجة مكسورة القلب. وبينما هي تحتضن الإناء الخزفي الذي يضم رماد زوجها، قالت لي إن القلب ينكسر مثل كأس، أحياناً بشرخ مكتوم وفي أحيان أخرى بتفتت مدو إلى شظايا. ودون أن تنتبه راحت تلغي ألوان ثيابها إلى أن انتهت إلى لون الحداد الصارم، وتخلّت عن صبغ شعرها وألقت على كاهلها عشر سنوات إضافية. ابتعدتْ عن أصدقائها، بمن فيهم بياض الثلج الذي لم يتمكن من اجتذاب اهتمامها إلى أي من الاحتجاجات حول حكومة

بوش، على الرغم من حافز أنهما سيُعتقلان، وهو ما كان حافزاً لا يُقاوم من قبل. لقد بدأت تلعب لعبة مصارعة الثيران مع الموت.

أجرى أبي حساباً للمنومات التي تستهلكها أمه، وعدد المرات التي اصطدمت بها سيارتها الفوكسفاغن، والتي تركت فيها مفاتيح الغاز مفتوحة، وتعرضت لسقطات مدوية، ولكنه لم يتدخل إلا عندما اكتشف أنها تستهلك القليل مما تبقى لديها في التواصل مع زوجها. لحق بها إلى أوكلاند، وأنقذها من عربة مقطورة مزينة برموز فلكية، حيث كانت معالجة نفسية تكسب عيشها بإجراء تواصل بين أناس مع أقربائهم الموتى. سمحت نيني باقتيادها إلى طبيب نفسي بدأ يعالجها مرتين في الأسبوع، واتخمها بأقراص الدواء. لم «تنهِ الحداد» وواصلت البكاء على جدي بوبو، ولكنها تجاوزت شلل الاكتئاب الذي كانت غارقة فيه.

❖ ❖

وشيئاً فشيئاً راحت جدتي تخرج من مغارتها في الكراج وأطلت على الدنيا، وقد فوجئت بأن العالم لم يتوقف. فخلال وقت قصير مُحي اسم بول ديتسون الثاني، حتى إن حفيدته لم تعد تتحدث عنه. أما أنا فكنت قد قبعت في قشرة جدجد ولم أعد أسمح لأحد بالاقتراب مني. تحولتُ إلى غريبة، متحدية ومتبرمة، لا أردّ حين يتوجهون إليّ بالكلام، وأظهر مثل زوبعة في البيت، لا أساعد في المهمات المنزلية، وعند أدنى معارضة لي أبدأ بصفق الأبواب. بيّن الطبيب النفسي لنيني أنني أعاني من توليفة مراهقة واكتئاب، ونصحها بأن تسجلني في جماعة حِداد للفتيان، ولكنني رفضت سماع أي حديث في هذا الشأن. وفي أشد الليالي ظلمة، حين أكون في أشد حالات اليأس، أشعر بحضور بوبو. لقد كان حزني يستدعيه.

نامت جدتي نيني ثلاثين عاماً على صدر زوجها، يهدهدها خرير تنفسه الواثق. لقد عاشت مرتاحة ومحمية في دفء ذلك الرجل الطيب الذي

يحتفي بشطحات أبراج حظها وزيناتها الهيبية، وتطرفها السياسي، وطبخها الأجنبي، وكان يتحمل بطيب نية تبدلات مزاجها، واحتداماتها العاطفية وهواجسها المفاجئة التي يمكن لها أن تبدل أفضل خطط العائلة. وعندما تكون بأمس الحاجة إلى من يواسيها، لا يكون ابنها في متناول اليد، وتكون حفيدتها قد تحولت إلى مصابة بمس شيطاني.

في هذه الأثناء عاد مايك أوكلي للظهور، وكانت قد أجريت له عملية جراحية أخرى في الظهر وأمضى عدة أسابيع في مركزٍ لإعادة التأهيل البدني. «لم تزوريني ولو مرة واحدة يا نيديا، ولم تتصلي بي هاتفياً كذلك»، قال لها على سبيل التحية. كان قد فقد عشرة كيلوغرامات من وزنه، وترك لحيته تطول، فكدت ألا أتعرف إليه، لأنه بدا أكبر سناً ولم يعد يبدو كابن لنيني. «ماذا يمكنني أن أفعل لتسامحني يا مايك؟»، سألته جدتي متوسلة وهي تنحني على كرسيه ذي العجلات. «ابدئي بصنع بسكويت لفتياني»، أجابها. وكان على جدتي أن تخبز البسكويت وحدها، لأنني أعلنت عن ضجري من جانحي بياض الثلج النادمين وغيرهم من القضايا النبيلة التي لا تهمني مقدار أنملة. رفعت نيني يدها لتصفعني، وكنتُ أستحق ذلك، ولكنني أمسكت معصمها في الهواء. «لا يخطرن ببالك العودة لضربي، لأنك لن تريني بعدها أبداً، مفهوم؟» وقد فهمتْ.

كانت تلك هي الهزة التي تحتاج إليها جدتي كي تنهض وتمشي. فقد عادت إلى عملها في المكتبة، وإن لم تعد قادرة على اختلاق شيء جديد، بل صارت تقتصر على تكرار قصصها السابقة. وصارت تقوم بجولات مسير طويلة في الغابة، وبدأت تتردد على مركز الزن. كانت تفتقر تماماً للموهبة اللازمة للسكينة، ولكنها في سكينة التأمل الإجبارية صارت تستدعي جدي بوبو، وكان يستجيب لدعوتها كحضور رقيق، ويجلس إلى جانبها. لقد رافقتُها مرة واحدة إلى احتفال جماعة الزن، حيث تحملت بضيق حديثاً حول

رهبان يكنسون الدير، وضاع عني مغزاه بالكامل. ولدى رؤية جدتي نيني في وضعية اللوتس بين بوذيين حليقي الرؤوس وبعباءات بلون اليقطين، استطعت أن أتخيل كم هي وحيدة، ولكن إشفاقي لم يدم سوى لحظات. فبعد قليل، بينما نحن نشارك بقية الحضور في تناول شاي أخضر وخبز عضوي، عدت إلى كرهها، مثلما أكره العالم بأسره.

❖ ❖

لم يروني أبكي بعد أن أحرقوا جثمان جدي بوبو وسلمونا رماده في وعاء خزفي. لم أعد إلى ذكر اسمه ولم أقل لأحد أنه يظهر لي.

كنت في مدرسة بيركلي هاي، المدرسة الثانوية العامة الوحيدة في المدينة وإحدى أفضل مدارس البلاد، إنها كبيرة جداً، فيها ثلاثة آلاف وأربعمئة تلميذ، ثلاثون بالمئة من البيض، وثلاثون بالمئة من السود، والبقية من اللاتينيين والآسيويين ومن أعراق مختلطة. في الزمن الذي كان جدي بوبو يذهب إلى بيركلي هاي، كانت هذه أشبه بحديقة حيوان، يكاد المديرون فيها لا يستمرون سوى عام واحد ويستقيلون مستنفدين، أما في زمني فكان التعليم ممتازاً، على الرغم من أن مستوى الطلاب كان متفاوتاً جداً، وكان هناك نظام ونظافة، باستثناء دورات المياه التي تصبح في نهاية النهار مقرفة، وكان المدير قد أكمل خمس سنوات في منصبه، حتى قيل إن المدير من كوكب آخر، لأن شيئاً لم يكن ينفذ من جلده التمساحي. لدينا فن، وموسيقى، ومسرح، ورياضة، ومختبرات علوم، ولغات، وأديان مقارنة، وسياسة، وبرامج اجتماعية، وورش كثيرة الأنواع، وأفضل تربية جنسية يتلقاها الجميع على السواء، بمن في ذلك المسلمون والمسيحيون الأصوليون الذين لا تروقهم دوماً. لقد نشرت جدتي نيني رسالة في ***ذي بيركلي ديلي بلانيت*** اقترحت فيها أن تقوم جماعة LGBTD (وهذا اختصار لسحاقيات، مثليين، ثنائيي الجنس، عابري الجنس، متشككين) أن يضيفوا

حرف H إلى أسمائهم لإدراجهم ضمن الهيرمفردويتيين. هكذا كانت مبادرات جدتي التقليدية التي تُفقدني أعصابي، لأنها تلقى اهتماماً، وينتهي بنا الأمر إلى الاحتجاج في الشارع مع مايك أوكلي. وقد كانا يتدبران الأمر على الدوام لضمي إليهما.

كان التلاميذ المجدّون يزدهرون في بيركلي هاي، ثم يذهبون بعد ذلك مباشرة إلى أشهر الجامعات، مثل جدي بوبو الذي حصل على منحة من جامعة هارفارد بسبب درجاته الجيدة ورقمه القياسي كلاعب بيسبول. والتلاميذ المتوسطون يطفون على السطح محاولين عدم لفت الانتباه، أما الضعفاء فيتخلفون في الطريق أو يدخلون في برامج خاصة. لكن الأكثر خلافية هم متعاطو المخدرات وزمر العصابات الذين ينتهون إلى الشارع، لأنهم إما أن يُطردوا أو يغادروا المدرسة من تلقاء أنفسهم. لقد كنتُ في السنتين الأوليتين تلميذة جيدة ورياضية، ولكنني خلال ثلاثة شهور تراجعت إلى الدرجة الأخيرة، وانحدرت درجاتي رأسياً، وصرت أتشاجر، وأسرق، وأدخن ماريجوانا، وأنام خلال الدروس. أصاب القلق السيد هاربر، أستاذ التاريخ، وتحدث مع أبي الذي لا يمكنه عمل أي شيء في هذا الشأن، باستثناء إعطائي موعظته البناءة، ثم أرسلني إلى المركز الصحي، حيث وجهوا إليّ بضعة أسئلة، وحين تبين لهم أنني غير مسممة بالمخدرات ولم أحاول الانتحار تركوني بسلام.

❖ ❖

مدرسة بيركلي هاي حرم تعليمي مفتوح، مغروس في منتصف المدينة، حيث من السهل علي الضياع وسط الحشود. بدأت بالتغيب بصورة منهجية، أخرج للغداء ولا أرجع بعد الظهر. كانت لدينا كافيتريا لا يذهب إليها سوى البلهاء، ولم يكن من اللائق رؤية أحدنا في الشارع. لقد كانت جدتي نيني عدوة لهمبرغر وبيتزا محلات الحي وتلح عليّ بالذهاب إلى الكافيتريا حيث

المأكولات عضوية ولذيذة ورخيصة، لكنني لم أستجب لها قطّ. كنا نحن الطلبة نجتمع في البارك، وهو ميدان قريب، على مسافة خمسين متراً من قيادة الشرطة، حيث يسود قانون الغاب. كان الآباء يحتجون ضد ثقافة المخدرات والبطالة في البارك، والصحافة تنشر مقالات، ورجال الشرطة يمرون دون تدخل، والمعلمون يغسلون أيديهم، لأن البارك خارج سلطتهم القانونية.

وفي البارك كنا نتوزع في جماعات، ينفصل بعضها عن بعض حسب الطبقة الاجتماعية واللون. فمن يدخنون الماريجوانا ويتزلجون لهم قطاعهم الخاص، ونشغل نحن البيض قطاعاً آخر، وعصبة اللاتينيين تظل في الأطراف، يدافعون عن موقعهم المتخيل بتهديدات طقوسية، وفي وسط الميدان يستقر باعة المخدرات. وفي أحد الأركان يقف موفدو المنح من اليمن الذين تحولوا إلى خبر حين اعتدى عليهم فتيان أفرو أمريكيون مسلحون بمضارب بيسبول وسكاكين جيب. وفي ركن آخر يقف ستوارت بيل وحيداً دائماً، لأنه تحدى طفلة في الثانية عشرة في قدرتها على أن تقطع الطريق السريع راكضة، فصدمتها سيارتان أو ثلاث سيارات، وقد ظلت حية، ولكن مشلولة ومشوهة، ودفع المتسبب الثمن بالإبعاد: لم يعد أحد يكلمه. ومختلطين بالطلاب كانت تمضي جماعة «بانك المجارير» بشعورهم الخضراء وثقوب أقراطهم ووشمهم، والمتسولون بعرباتهم المترعة وكلابهم السمينة، وعدد من الكحوليين، وامرأة متداعية اعتادت كشف مؤخرتها، وأشخاص آخرون معهودون في الميدان.

كان بعض الفتيان يدخنون، ويشربون مشروبات كحولية في زجاجات كوكاكولا، ويقومون بمراهنات، ويُدورن سجائر الماريجوانا وحبوباً أمام أنوف رجال الشرطة، أما أغلبية الفتيان العظمى فكانوا يتناولون وجبة طعامهم ويعودون إلى المدرسة عند انتهاء فسحة الخمس والأربعين دقيقة. أنا

لم أكن من هؤلاء، لأنني أكاد لا أحضر الدروس إلا لمعرفة ما يتحدثون عنه فيها.

لقد كنا نحن المراهقين نحتل مركز مدينة بيركلي بعد الظهر، ننتشر في جماعات أمام أنظار المارة والتجار المرتابة. نمر مجرجرين أقدامنا، بهواتفنا المحمولة، وسماعات الموسيقى، وحقائب الظهر، واللبان، وسراويل الجنز ذات التمزقات، ولغة مشفرة. ومثل الجميع، كنت أتلهف أكثر من أي شيء إلى أن أكون واحدة من الجماعة وأن أكون محبوبة. فليس هنالك ما هو أسوأ من الاستبعاد، مثلما هي حال ستوارت بيل. في تلك السنة السادسة عشرة من عمري كنت أشعر أنني مختلفة عن الآخرين، ومعذبة، متمردة وناقمة على العالم. لم أكن أسعى إلى الضياع ضمن القطيع، وإنما أريد البروز، لا أريد أن أكون مقبولة، وإنما مرهوبة. نأيت عن صداقاتي المعهودة، أو أنهم هم الذين ابتعدوا عني، وشكّلت ثلاثياً مع سارة وديبي، الفتاتين الأسوأ سمعة في المدرسة، وهذا يعني الكثير، فقد كانت هناك في بيركلي هاي بعض الحالات المرضية. كوّنا نحن الثلاثة نادينا الحصري، وكنا أخوات حميمات، نروي لبعضنا البعض حتى أحلامنا، وكنا معاً دوماً، ومتواصلات بوساطة الهواتف الجوالة، نتكلم، ونتقاسم الثياب، والمكياج، والنقود، والطعام، والمخدرات، ولا نستطيع تصور حياتنا منفصلات إحدانا عن الأخريين، ونرى أن صداقتنا ستستمر مدى الحياة دون أن يتمكن أحد أو شيء من التدخل بيننا.

تحوّلتُ من الداخل والخارج. بدا لي أنني سأتفجر، فقد كان لدي فائض من اللحم، ونقص في العظام والجلد، وكان دمي يفور، ولا أتحمل نفسي بالذات. كنت أخشى أن أستيقظ من كابوس كافكوي لأجد نفسي متحولة إلى صرصار. وكنت أتفحص عيوبي: أسناني الكبيرة، ساقيّ العضليتين، أذني البارزتين، شعري السبط، أنفي القصير، أظفاري

المقضومة، هيئتي السيئة، شديدة البياض والخرقاء. كنت أشعر بأنني مريعة، ولكن هنالك لحظات أتمكن فيها من إدراك سلطة جسدي الجديد كامرأة، وهي سلطة لم أكن قادرة على إدارتها. كنت أتوتر إذا نظر الرجال إليّ أو عرضوا عليّ مشواراً في الشارع، أو إذا لمسني زملائي أو أبدى أساتذتي اهتماماً كبيراً بسلوكي أو درجاتي، باستثناء السيد هاربر الذي لا مأخذ لي عليه.

لم يكن في المدرسة فريق كرة قدم نسائي، فكنت ألعب في نادٍ، حيث أبقاني المدرب أقوم بتمرينات مرونة في الملعب إلى أن غادرت الفتيات الأخريات، ثم لحق بي بعد ذلك إلى الحمام، داعب جسدي كله، ولأنني لم أقم بأي ردّ فعل، ظن أن ذلك يروقني. أخبرت بالأمر سارة وديبي بخجل، تحت قسم حفظ السر، وتركتُ اللعب ولم أعد لدخول النادي.



التغيرات في جسدي وطبعي كانت مفاجئة مثل انزلاق على الثلج ولم أنتبه إلى أنني سأصدم رأسي. بدأتُ أتلمس الخطر بإصرار مُنومة، وسرعان ما صرت أعيش حياة مزدوجة، أكذب بمهارة مدهشة، وأواجه جدتي بالصراخ وصفق الأبواب، وهي السلطة الوحيدة في البيت مذ ذهبت سوزان إلى الحرب. ومن أجل أهداف عملية، اختفى أبي من البيت، أظن أنه ضاعف ساعات طيرانه كي يتجنب الشجار معي.

اكتشفت مع سارا وديبي البورنوغرافيا في الانترنت، مثل بقية الزملاء في المدرسة، وكنا نتدرب على حركات وأوضاع النساء على الشاشة، بنتائج مشكوك بها في حالتي، لأني كنت أجد نفسي مضحكة. بدأت جدتي ترتاب واندفعت في حملة مواجهة ضد صناعة الجنس التي تحطّ من قدر النساء وتستغلهن. لا جديد، لأنها أخذتني مع مايك أوكلي إلى مظاهرة ضد مجلة *بلاي بوي* عندما خطرت لهيغ هيفنير الفكرة غير المعقولة بزيارة بيركلي. كنت آنذاك في التاسعة من عمري كما أذكر.

لقد كانت صديقتاي هما عالمي، معهما فقط أستطيع تقاسم أفكاري ومشاعري، وهما وحدهما تريان الأمور من وجهة نظري وتفهمانني، وليس هناك غيرهما من يفهم مزاجنا وأذواقنا. تلاميذ بيركلي هاي كانوا أشبه بأطفال مخاطيين، وكنا مقتنعات بأنه لا وجود لمن لهم حياة معقدة مثل حيواتنا. وبذريعة عمليات اغتصاب مزعومة وضرب من زوج أمها، كانت سارا تقوم بسرقات سافرة، بينما نظل أنا وديبي متأهبتين لتغطيتها وحمايتها. والحقيقة أن سارا تعيش وحيدة مع أمها ولم يكن لها زوج أم قطّ، ولكن ذلك المريض النفساني المتخيل كان حاضراً في أحاديثنا كما لو أنه من لحم وعظم. كانت صديقتي تبدو أشبه بجرادة، مجرد مرفقين وركبتين وعظمي ترقوة وعظام أخرى بارزة، تمضي دوماً ومعها أكياس حلوى، تلتهمها في جلسة واحدة وتهرع من فورها إلى الحمام لتدس أصابعها في حلقها. كانت سيئة التغذية إلى حد يغمى عليها معه وتنبعث منها رائحة موت، وزنها سبعة وثلاثون كيلوغراماً، ثمانية كيلوغرامات أكثر من جعبتي وما فيها من كتب، وكان هدفها الوصول إلى سن الخامسة والعشرين والتلاشي بصورة كاملة. أما ديبي من جهتها، وكانت تُضرب حقاً في بيتها واغتصبها عمٌ لها، فهي متعصبة لأفلام الرعب وتشعر بانجذاب مرضي لأمور ما وراء القبر، والزومبي، والفودو، ودراكولا، وحالات المس الشيطاني. كانت قد اشترت **«طارد الأرواح الشريرة»**، وهذا فيلم قديم جداً، وتجعلنا نشاهده في كل وقت، لأنها تخاف أن تراه وحدها. اعتدنا أنا وسارا على أسلوبها القوطي، بسواده الصارم، حتى في طلاء أظفارها، وشحوبه القبوري، وزينتها من المفاتيح والصلبان والجماجم، وعلى الصفاقة الفاترة لمصاصي دماء هوليود التي كانت أصل لقب فريقنا: **مصاصات الدماء**.

كنا نحن الثلاثة نتنافس في سباق سوء السلوك. ووضعنا لذلك نظام نقاط للجنح التي لا يُعاقب عليها، يقوم بصورة أساسية على تخريب

ممتلكات الغير، وبيع الماريجوانا، وحبوب النشوة، وعقار الهلوسة، وعقاقير أخرى مسروقة، وتلطيخ جدران المدرسة بطلاء بخاخ، وتزوير شيكات، وأعمال نشل من المحلات التجارية. وكنا نسجل مآثرنا في دفتر، ونحسب النقاط وتنال الرابحة جائزة تتمثل في زجاجة من أرخص وأقوى أنواع الفودكا، ماركة KU:L، وهي فودكا بولونية يمكن إزالة الطلاء بها. وكانت صديقتاي تتفاخران باختلاطات والتهابات زهرية وعمليات إجهاض، كأنها ميداليات شرف، مع أنني لم أشهد شيئاً من ذلك خلال فترة شراكتنا. وقد كان نفاقي المحافظ مخجلاً بالمقارنة معهما، ولهذا سارعتُ إلى فقدان عذريتي، وفعلت ذلك مع ريك لاريدو، الفظ الأشد فظاظة على الكوكب.

❖ ❖

تأقلمتُ مع عادات مانويل آرياس بمرونة ولباقة يمكن لهما أن يفاجئا جدتي. فهي مازالت تعتبرني طفلة برازية، وهذا تعبير ينفع للتأنيب والتحبب، بحسب النبرة التي يقال بها، ولكن الاستخدام الأول هو المقصود في معظم الأحيان. إنها لا تدري كم تغيرت، وكم صرت فاتنة. «التدريب بالعصا، والحياة تعلم»، هذا قول آخر من أقوالها، وقد تبين أنه صحيح في حالتي.

في السادسة صباحاً يُسعّر مانويل نار المدفأة من أجل تسخين ماء الاستحمام والمناشف، بعد ذلك تأتي إدوفيخيس أو ابنتها أثوثينا لتقدما إلينا فطوراً رائعاً من بيض دجاجاتهما، وخبز فرنهما، وحليب بقرتهما ذي الزبد والدافئ. للحليب مذاق خاص، كان ينفرني في البدء وصار الآن يفتنني، له رائحة إسطبل، ومرعى، وروث طازج. وكان يروق لإدوفيخيس أن أتناول الفطور في الفراش «كآنسة مدللة» ـ وهذا مازال سائداً في تشيلي في بعض البيوت التي لديها «نانا»، كما يسمون الخادمة المنزلية ـ ولكنني لا أفعل ذلك إلا في أيام الآحاد، إذ إنني أستيقظ في وقت متأخر، لأن حفيدها خوانيتو

يأتي، ونقرأ في السرير بينما **فاكن** يقبع عند أقدامنا. إننا في النصف الأول من مجلد هاري بوتير الأول.

وعند العصر، فور انتهاء عملي مع مانويل، أخرج إلى القرية مهرولة، فينظر إليّ الناس باستغراب، وقد سألني أكثر من واحد منهم إلى أين أذهب مسرعة. إنني بحاجة إلى التمارين وإلا سأتحول إلى كرة مدورة، فأنا آكل عن كل ما صمته في العام الماضي. نظام التغذية في تشيلوي يتضمن الكثير من الكربوهيدرات، ولكنني لا ألحظ وساوس في أي مكان، لا بد أن السبب هو الجهد البدني، إذ على الناس هنا أن يتحركوا بكثرة. فأثوثينا بدينة قليلاً بالنسبة لسنوات عمرها الثلاث عشرة، ولم أتمكن مع ذلك من إقناعها بالخروج للركض معي، لأنها تخجل، وتقول: «ما الذي سيظنه الناس بي». هذه البنت تعيش حياة توحد كبير، لأن الشباب قليلون في القرية، لا وجود إلا لبعض الصيادين، ونصف دزينة من المراهقين البطالين والهائمين في الماريجوانا، وفتى مقهى الانترنت، حيث القهوة هي النسكافيه وإشارة الانترنت شديدة النزوات، وحيث أحاول ألا أذهب إلا في أضيق الحدود لأتجنب إغواء التواصل بالبريد الإلكتروني. فالشخصان الوحيدان اللذان يعيشان في هذه الجزيرة بعزلة عن الاتصالات هما دونيا لوثيندا وأنا، هي لأنها عجوز، وأنا لأني هاربة. أما بقية سكان القرية فلديهم هواتفهم المحمولة وأجهزة كمبيوتر مقهى الانترنت.

لا أشعر بالملل. وهذا يفاجئني، لأني كنت أملّ في السابق حتى أثناء مشاهدة أفلام الأكشن. لقد اعتدت على ساعات الفراغ والأيام الطويلة والكسل. إنني أشغل وقتي بأمور قليلة جداً: روتين العمل مع مانويل، روايات الخالة بلانكا الرديئة، الجيران في الجزيرة والأطفال الذين يتجولون في جماعات ودون مراقبة. خوانيتو كورّاليس هو المفضل لدي، يبدو أشبه بدمية، بجسده النحيل، ورأسه الضخم وعينيه السوداوين اللتين تريا كل

شيء. قد يُظن أنه أبله، لأنه يكرر الكلام نفسه، ولكنه ذكي جداً: لقد انتبه في وقت مبكر إلى أنه ليس هناك من يهتم بما يقوله، ولهذا لا يقول شيئاً. وأنا ألعب كرة القدم مع الفتيان، ولكني لم أستطع اجتذاب اهتمام البنات، لأن الذكور يرفضون اللعب معهن من جهة، ومن جهة أخرى لأنه لم يُر هنا أي فريق كرة قدم أنثوي. وقد قررنا أنا والعمة بلانكا أنه لابد من تغيير ذلك. وفور بدء الدروس في شهر آذار، حين يصبح الصغار رهن أيدينا، سنتولى انجاز هذا الموضوع.

❖ ❖

لقد فتحت لي الجارات في القرية أبواب بيوتهن، وإن تكن هذه مجرد طريقة في الكلام، لأن أبواب البيوت هنا مفتوحة على الدوام. وبما أن إسبانيتي قد تحسنت كثيراً، فقد صار بإمكاننا تبادل الحديث بصورة متعثرة. لأهالي تشيلوي لهجة مغلقة، ويستخدمون بعض الكلمات والالتفافات النحوية التي لا ترد في أي نص، وهي آتية، على حدّ قول مانويل، من اللغة القشتالية القديمة، لأن تشيلوي ظلت معزولة عن بقية البلاد لزمن طويل. فقد استقلت تشيلي عن إسبانيا في العام 1810، بينما لم تفعل تشيلوي ذلك حتى 1826، فكانت آخر أرض إسبانية في المخروط الجنوبي من أميركا.

لقد نبهني مانويل إلى أن أهالي تشيلوي ارتيابيون، ولكن تجربتي لم تكن كذلك. فهم لطفاء جداً معي. يدعونني إلى بيوتهم، نجلس قبالة المدفأة لتبادل الحديث وتناول «المتة»، وهذا نقيع عشبة خضراء ومرّة، تقدم في قرعة صغيرة مجوفة، وتنتقل من يد إلى أخرى، جميعهم يرتشفونها من أنبوبة المص نفسها. إنهم يحدثونني عن أمراضهم وأمراض نباتاتهم التي يمكن أن يكون حسد أحد الجيران هو السبب فيها. هنالك عدة عائلات متخاصمة بسبب تقولات أو شكوك بأعمال سحر. لا يمكنني تفسير كيف يتدبرون أمر بقائهم متخاصمين، مع أننا حوالي ثلاثمئة نسمة نعيش في حيز ضيق، مثل صيصان

في قفص دجاج. لا يمكن الحفاظ على أي سرّ في هذا المجتمع الشبيه بأسرة كبيرة، منقسمة، متباغضة، ومضطرة إلى التعايش ومدّ يد المساعدة عند الحاجة.

نتحدث عن البطاطا ـ هنالك مئة صنف أو «نوعية» من البطاطا، بطاطا حمراء، بنفسجية، سوداء، بيضاء، صفراء، مكورة، متطاولة، بطاطا ومزيد من البطاطا ـ، وكيف تُزرع مع بدء تناقص القمر، وليس في أيام الآحاد بأي حال، وكيف أنهم يقدمون الشكر للرب عند زرعها وعند جني أولها، وكيف يُغنّى لها وهي هاجعة تحت الأرض. ودونيا لوثيندا التي صار عمرها مئة وتسعة أعوام، وفق التقديرات، هي إحدى المغنيات اللاتي يتغنين بجني المحصول: «تشيلوي احفظي بطاطتك، احفظي بطاطتك يا تشيلوي، فلا يأتينَّ أحدهم من الخارج، ويأخذها منك يا تشيلوي». وهم يشكون من داء السّلمونيات الذي يتسبب بأضرار فادحة، ومن غياب الحكومة التي تعد بالكثير ولا تنجز إلا القليل، ولكنهم يتفقون على أن ميتشيله باتشيلت هي أفضل رئيس عرفوه، على الرغم من أنها امرأة. ليس هنالك من هو كامل.

مانويل بعيد عن أن يكون كاملاً؛ فهو جاف، متقشف، يفتقر إلى كرش مرحِّب وإلى رؤية شاعرية لفهم الكون والقلب البشري، مثلما كان جدي بوبو، ولكنني أحببته، لا يمكنني نكران ذلك. أحبه بقدر ما أحب **فاكن**، على الرغم من أن مانويل لا يقوم بأدنى جهد لكسب تقدير أحد. أشد عيوبه سوءاً هو هوسه بالنظام، فهذا البيت يبدو أشبه بثكنة عسكرية. في بعض الأحيان أتعمد ترك أشيائي مبعثرة، أو أترك الأطباق متسخة في المطبخ، لأعلّمه أن يهمل قليلاً. صحيح أننا لا نتشاجر بالمعنى الصارم للكلمة، ولكن لدينا مواجهاتنا. فاليوم، على سبيل المثال، لم يكن لديّ ما ألبسه، لأنني نسيت أن أغسل ملابسي، فأخذت غرضين من أشيائه الموضوعة قرب المدفأة لتجف. افترضت أنه إذا كان بإمكان أشخاص آخرين

أن يأخذوا من هذا البيت ما يحلو لهم، فإن باستطاعتي أن أستعير شيئاً لا يستخدمه.

ـ إذا ما أردتِ استخدام سراويلي مرة أخرى فأرجو أن تستأذني مني قبل ذلك ـ قال لي بلهجة لم تعجبني.

ـ يا لك من موسوس يا مانويل! يمكن لمن يسمعك أن يظن أنك لا تملك سوى هذا ـ أجبته بلهجة ربما لم تعجبه.

ـ أنا لم أستعر شيئاً من أشيائك قط يا مايا.

ـ لأني لا أملك شيئاً! إليك سروالك اللعين! ـ وبدأت بخلع السروال لأعيده إليه، لكنه أوقفني مذعوراً.

ـ لا، لا! إنني أهديك إياه يا مايا.

فانخرطت أنا، كحمقاء، في البكاء. لم يكن ذلك الموقف هو سبب بكائي بالطبع، ولكن من يدري لماذا رحت أبكي. ربما لأن موعد حيضي صار قريباً أو لأنني كنت أتذكر في الليل موت بوبو وأمضيت النهار كله محزونة. لو كان جدي بوبو موجوداً لاحتضنني ولكنا ضحكنا معاً خلال دقيقتين، ولكن مانويل بدأ يجول في دائرة وهو يهرش رأسه ويركل قطع الأثاث، كما لو أنه لم ير دموعاً من قبل قطّ. وأخيراً خطرت له الفكرة اللامعة بأن يحضّر لي فنجاناً من النسكافيه مع حليب مكثف، فهدأني ذلك قليلاً واستطعنا تبادل الحديث. طلب مني أن أحاول فهمه، فمنذ عشرين سنة لم يعش مع امرأة، وأن له عاداته المتجذرة، وأن النظام مهم في حيز ضيق مثل هذا البيت، وأن المعايشة تكون أسهل إذا احترم كل منا ملابس الآخر الداخلية. يا للرجل المسكين.

ـ اسمع يا مانويل، أنا أعرف الكثير عن علم النفس، لأنني أمضيت أكثر من سنة بين مهووسين ومعالجين نفسيين. وقد قمت بدراسة حالتك، ما أنت فيه هو الخوف ـ قلتُ له.

ـ خوف من ماذا؟ ـ وابتسم.

ـ لا أدري، ولكن يمكنني تقصي ذلك. دعني أشرح لك، فمسألة النظام والمكان هذه هي مظهر من مظاهر العصاب. لاحظ المشكلة التي أثرتها من أجل سروال بائس؛ ولكنك لم تنبس ببنت شفة بالمقابل عندما أخذ شخص مجهول جهاز الموسيقى من بيتك. أنت تحاول مراقبة كل شيء، بما في ذلك عواطفك، كي تشعر بالأمان، ولكن يمكن لأي أبله أن يعرف أنه لا وجود لأمان في هذا العالم يا مانويل.

ـ أرى ذلك. تابعي...

ـ تبدو هادئاً ونائياً مثل سيدهارتا، ولكن لا يمكنك أن تخدعني: أعرف أنك مضغوط تماماً في أعماقك. أتدري من هو سيدهارتا؟ إنه بوذا.

ـ أجل، بوذا.

ـ لا تضحك. الناس يظنون أنك عالم، وأنك بلغت السلام الروحي أو حماقة أخرى مماثلة. في النهار أنت ذروة التوازن والطمأنينة، مثل سيدهارتا، ولكنني أسمعك في الليل يا مانويل. إنك تصرخ وتئن في نومك. ما هو الأمر الرهيب الذي تخفيه؟

إلى هذا الحدّ وحسب وصلت جلسة العلاج. اعتمر قبعته وارتدى السترة، ثم صفر لفاكن كي يرافقه وذهب ليمشي، أو ليبحر، أو ليشكوني إلى بلانكا شناك. رجع في وقت متأخر جداً. يضايقني البقاء في الليل وحيدة في هذا البيت المملتئ بالخفافيش!

❖ ❖

العمر، كما الغيوم، ليس له معالم واضحة وشديد التبدل. ففي بعض الأحيان يمثل مانويل سنوات عمره التي عاشها، وفي أحيان أخرى، بالنظر إلى الضوء وحالته المعنوية، يمكنني أن أرى فيه الرجل الشاب الذي مازال يقبع تحت جلده. عندما ينحني على لوحة المفاتيح في زرقة وميض كمبيوتره،

يبدو أن له سنوات كثيرة من العمر، ولكنه حين يقود قاربه يبدو في الخمسين. لقد كنتُ أدقق في البداية في تجعداته، وفي الأكياس الدهنية وحواف عينيه الضاربة إلى الحمرة، وفي أوردة يديه، وأسنانه الملطخة، وعظام وجهه المنحوتة بأزميل، والسعال والنحنحة الصباحية، والحركة المتعبة في خلع نظارته وفرك جفنيه، ولكنني الآن لم أعد أهتم بهذه التفاصيل، وإنما برجولته الصارخة. إنه جذاب. وأنا واثقة من أن بلانكا شناك توافق على ذلك، فقد انتبهتُ إلى الطريقة التي تنظر بها إليه. أقلتُ إن مانويل جذاب! رباه، إنه أقدم من الأهرامات؛ فالحياة الخبيثة في لاس فيغاس حوّلت دماغي إلى قرنبيط، وليس من تفسير آخر.

أكثر ما في المرأة من إثارة جنسية، على حد قول جدتي نيني، وركاها، لأنهما يؤشران إلى قدرتها الإنجابية، أما في الرجل فهما الذراعان لأنهما مؤشران إلى قدرته على العمل. من يدري من أين نبشت نيني هذه النظرية، ولكنني أوافق على أن ذراعي مانويل مثيرتان جنسياً. ليستا عضليتين مثل ذراعي شاب، ولكنهما قويتان، وبرسغين ثخينين وكفين كبيرتين، لا يمكن توقعهما في كاتب، إنهما يدا بحار أو بنّاء، جلدهما مشقق وأظفارهما متسخة بشحم المحرك، والبنزين والحطب والتراب. هاتان اليدان تقطعان البندورة والكزبرة أو تنظفان سمكاً بدقة شديدة. إنني أراقبه مواربة، لأنه يُبقيني على مسافة منه، أظن أنه يخافني، لكنني تفحصته من الخلف. أود لمس شعره القاسي كفرشاة، وتقريب أنفي من تلك الفجوة في أسفل قذاله، وهي موجودة لدينا جميعاً على ما أظن. كيف ستكون رائحته؟ إنه لا يدخن ولا يستخدم كولونيا مثل جدي بوبو، عبقه هو أول من أحس به عندما يأتي لرؤيتي. ملابس مانويل لها رائحة ملابسي نفسها، ومثل رائحة هذا البيت كله: الصوف، الخشب، القطط، دخان المدفأة.

إذا حاولتُ التقصي عن ماضي مانويل أو مشاعره، يتخذ موقفاً

دفاعياً، ولكن الخالة بلانكا روت لي بعض الأمور، واكتشفت أنا بنفسي أموراً أخرى أثناء ترتيبي ملفاته. إنه سوسيولوجي، فضلاً عن كونه أنثروبولوجياً، ولست أدري ما هو الفرق، وأظن أن هذا يفسر شغفه المُعدي في دراسة ثقافة التشيلويين. يروقني العمل والسفر معه إلى جزر أخرى، يروقني العيش في بيته، تروقني رفقته. إنني أتعلم الكثير. فعندما وصلتُ إلى تشيلوي كان رأسي كهفاً فارغاً، وقد راح يمتلئ خلال وقت قصير.

❖ ❖

بلانكا شناك تساهم أيضاً في تعليمي. كلامها في هذه الجزيرة قانون، وهي تأمر هنا أكثر من شرطييّ المخفر. في طفولتها كانت بلانكا طالبة داخلية في مدرسة للراهبات. وعاشت بعد ذلك فترة في أوروبا ودرست علم التربية. إنها مطلَّقة ولها ابنتان، إحداهما في سنتياغو، الأخرى متزوجة ولها طفلان في فلوريدا. وفي الصور التي أرتني إياها، تظهر ابنتاها كموديلين وحفيداها كملاكين. كانت تدير مدرسة في سنتياغو، وقد طلبت منذ سنوات أن تُنقل إلى تشيلوي، لأنها راغبة في العيش بمدينة كاسترو، قريباً من أبيها، ولكن كان من نصيبها أن تستقر في هذه الجزيرة الصغيرة التافهة. وكانت بلانكا، على حدّ قول إدوفيخيس قد أصيبت بسرطان الثدي واستعادت عافيتها بعلاج من مداوية *ماتشي*، ولكن مانويل أوضح لي أن ذلك قد جرى بعد عملية تجريف مزدوجة وعلاج بالجرعات الكيماوية؛ وهي الآن في إجازة. إنها تعيش وراء المدرسة، في أفضل بيت في القرية، أعيد تأهيله وتوسيعه، واشتراه لها أبوها بشيك وحيد. وهي تذهب في نهاية كل أسبوع لزيارته في كاسترو.

يعتبر دون ليونيل شناك شخصية متنورة في تشيلوي، وهو محبوب جداً لسخائه الذي يبدو بلا حدود. «كلما أعطى أبي أكثر، ازداد تحسن استثماراته، ولهذا السبب لا أشعر بتأنيب الضمير حين أطلب منه»، هذا ما

أخبرتني به بلانكا. ففي أثناء الإصلاح الزراعي عام 1971، صادرت حكومة ألليندي إقطاعية آل شناك في أوسورنو وسلّمتها للفلاحين أنفسهم الذين عاشوا وعملوا فيها لعشرات السنين. لم يضيع شناك طاقته وقواه في تغذية الأحقاد أو في عمليات التخريب المضادة للحكومة، مثلما فعل آخرون في مثل وضعه، بل نظر فيما حوله بحثاً عن آفاق وفرص جديدة. كان يشعر أنه شاب ويمكنه العودة للبدء من جديد. انتقل إلى تشيلوي وأقام تجارة منتجات بحرية لتموين أفضل مطاعم سنتياغو. لقد تجاوز تحولات الأوضاع السياسية والاقتصادية في تلك المرحلة، وتجاوز في ما بعد منافسة سفن الصيد اليابانية وصناعة إنتاج السلمون. في العام 1976 أعادت له الحكومة العسكرية أملاكه فوضعها تحت تصرف أبنائه الذين نهضوا بها من الدمار الذي خلّفوها فيه، أما هو فظل في تشيلوي، لأنه كان قد تعرض لأول أزمة قلبية من الأزمات العديدة التي أصابته وقرر أن نجاته ستكون بتبني إيقاع حياة أهالي تشيلوي البطيء. «في سنوات عمري الخمس والثمانين التي بلغتها، وعشتها على أحسن وجه، مازال قلبي يعمل بصورة أفضل من ساعة سويسرية»، هذا ما قاله لي دون ليونيل الذي تعرفتُ إليه يوم الأحد، حين ذهبت لزيارته مع بلانكا.

حين عرف دون ليونيل أنني غرينغية مانويل آرياس ضمني إليه في عناق طويل «قولي لذلك الشيوعي الجاحد أن يأتي لزيارتي، فهو لم يأت منذ رأس السنة، إنني أحتفظ له بزجاجة براندي فاخرة جداً.» إنه بطريرك متورد الوجه، بشارب ضخم وأربع خصل شعر بيضاء على جمجمته؛ أكرش، شريب، منفتح، يضحك بصخب لنكاته التي يرويها، ومائدته جاهزة لكل من يرغب في المجيء. هكذا أتخيل **الميّالوبو**، ذلك الكائن الخرافي الذي يختطف الآنسات ليأخذهن إلى مملكته في البحر. وهذا **الميّالوبو** ذو الكنية الألمانية يعلن أنه ضحية النساء عموماً ـ «لا يمكنني رفض طلب لهؤلاء البديعات!» ـ

وخاصة ابنته التي تستغله. «بلانكا أكثر إلحاحاً في الطلب من أي تشيلويّ، فهي دائمة التسول لمدرستها. أتدرين ما كان آخر ما طلبته مني؟ واقيات ذكرية! هذا ما كان ينقص هذه البلاد، واقيات ذكرية للأطفال!»، أخبرني وهو يقهقه.

ليس دون ليونيل هو المستسلم الوحيد أمام بلانكا. فبإيعاز منها اجتمع عشرون متطوعاً لطلاء المدرسة وإصلاحها، هذا ما يسمونه *مينغا* ويتلخص بتعاون عدة أشخاص في إنجاز مهمة مجاناً، لعلمهم أنهم سيجدون من يساعدهم عندما يحتاجون مساعدة. إنه قانون العون المتبادل المقدس: اليوم أنت، وغداً أنا. هكذا يُجنى محصول البطاطا، ويتم إصلاح السقوف، وترقيع شِباك الصيد؛ وهكذا نقلوا ثلاجة مانويل.

❖ ❖

لم يكن ريك لاريدو قد أنهى دراسته الثانوية، وكان يمضي متسكعاً في الشوارع مع فاسدين آخرين، يبيع مخدرات لصبية قاصرين، ويسرق أشياء تافهة القيمة ويجوب البارك عند الظهر لرؤية زملائه السابقين في بيركلي هاي، والقيام بصفقات معهم إذا استطاع ذلك. وبالرغم من أنه لم يؤكد ذلك قطّ، فقد كان يرغب في العودة للانضمام إلى قطيع المدرسة التي طُرد منها حين وضع فوهة مسدسه في أذن السيد هاربر. ولا بد من قول الحق: الأستاذ هاربر تصرف على أحسن وجه، حتى إنه تدخل من أجل عدم طرده، ولكن لاريدو نفسه حفر قبره بيده حين شتم المدير وأعضاء اللجنة. كان ريك لاريدو يبدي اهتماماً كبيراً بمظهره، بحذائه الأبيض الناصع ذي الماركة المشهورة، وقمصانه التي بلا أكمام من أجل الكشف عن عضلاته ووشمه، وشعره المنتصب بمادة صمغية مثل أشواك قنفذ، فضلاً عن الكثير من السلاسل والأساور التي يمكن لها أن تُلصقه بمغناطيس. وكانت بناطيل رعاة البقر التي يرتديها واسعة تتهدل إلى أسفل إليتيه، ويمشي مثل شمبانزي.

وقد كان شخصاً ضئيل القيمة إلى حدّ لا يسترعي معه اهتمام الشرطة أو مايك أوكلي.

عندما قررتُ وضع حدٍّ لعذريتي تواعدت مع لاريدو، دون تقديم أي تفسير، في مرآب سيارات فارغ يتبع لإحدى دور السينما، في ساعة عطالة، قبل وقت من بدء العرض الأول. رأيته من بعيد يتمشى بصورة دائرية بتأرجحه الاستفزازي، مثبتاً بنطاله بإحدى يديه، وكان البنطال منتفخاً جداً كما لو أنه يضع حفاضة، ويحمل في يده الأخرى سيجارة، مستثاراً وعصبياً، ولكنه حين رآني أقترب تظاهر بعدم اهتمام برتوكولي يبديه الذكور من أمثاله. سحق عقب السيجارة على الأرض ونظر إليّ من أعلى إلى أسفل بتكشيرة ساخرة. «أسرع، عليّ أن ألحق الحافلة بعد عشر دقائق»، قلتُ له وأنا أخلع سروالي. تلاشت ابتسامة ترفعه؛ فربما كان ينتظر بعض المقدمات. «لقد كنتِ تروقينني على الدوام يا مايا بيدال»، قال. وفكرت: إن هذا الغبي يعرف اسمي على الأقل.

سحق لاريدو عقب السيجارة على الأرض، أمسكني من ذراعي وأراد تقبيلي، ولكنني أدرتُ وجهي. فهذا أمر غير متضمن في خططي، كما أن للاريدو أنفاس محرك. انتظر إلى أن خلعتُ بنطالي، فطرحني فوراً على الأرض المرصوفة وانهمك لدقيقتين أو ثلاث دقائق، بينما عقوده وعوذاته تنغرس في صدري، دون أن يتصور أنه يفعل ذلك مع مستجدة، ثم انهار فوقي كحيوان ميت. أزحته من فوقي بغضب، ونظفت نفسي بسروالي الداخلي الذي تركته مرمياً في مرآب السيارات، ثم ارتديت بنطالي، وتناولت جعبتي وانصرفتُ راكضة. وفي الحافلة انتبهت إلى اللطخة القاتمة بين ساقيّ والدموع التي تبلل بلوزتي.

في اليوم التالي كان ريك لاريدو يقف في البارك ومعه CD موسيقى راب وجراب صغير فيه ماريجوانا «لفتاته». لقد أثار التعيس شفقتي ولم

أستطع صرفه بسخرية، مثلما يليق بمصاص دماء. تهربت من رقابة سارا وديبي ودعوته إلى محل مثلجات، حيث اشتريت لكلٍ منا قمع مثلجات فيه ثلاث كرات، بطعم الفستق الحلبي، والفانلة، والروم مع الزبيب. وبينما نحن نلحس المثلجات، شكرته على اهتمامه بي وعلى الجميل الذي قدمه إليّ في مرآب السيارات، وحاولت أن أشرح له أنه لا وجود لفرصة ثانية، ولكن الرسالة لم تدخل إلى جمجمته القردية. ولم أتمكن من التخلص من ريك لاريدو طيلة شهور، إلى أن وقع حادث غير متوقع محاه من حياتي.



كنت أخرج في الصباح من بيتنا بمظهر من هي ذاهبة إلى المدرسة، ولكنني ألتقي في منتصف الطريق مع سارا وديبي في ستاربكس[1]، حيث يقدم لنا العاملون قهوة *ليت* مقابل تقديمنا لهم جميلاً غير محتشم في الحمام، كنت أتنكر بهيئة مصاص دماء وانطلق للعب حتى موعد العودة إلى بيتي في المساء بوجه نظيف وهيئة تلميذة. استمرت حريتي عدة شهور، إلى أن توقفت جدتي نيني عن تناول مضادات الكآبة، وعادت إلى عالم الأحياء وانتبهت إلى إشارات لم تلحظها من قبل لأن نظرها كان منعكساً إلى الداخل. فالنقود تختفي من محفظتها، ومواقيتي لا تتوافق مع أي برنامج تعليمي معروف، وأنني أمضي بهيئة وسلوك مومس، وقد تحولتُ إلى ماكرة وكاذبة. لثيابي رائحة ماريجوانا، ولأنفاسي رائحة أقراص نعنع مريبة. لم تكن قد عرفت بعد أنني لا أذهب إلى الدروس. فقد كان السيد هاربر قد تحدث مع أبي في إحدى المناسبات، دون نتيجة ظاهرة، ولكن لم يخطر له الاتصال بجدتي.

---

[1] ستاربكس (Starbucks)، سلسلة مقاهي عالمية أقيم أول مقهى منها عام 1971 في سياتيل بالولايات المتحدة، وانتشرت في بقية الولايات ثم في أنحاء العالم حتى صار لها اليوم أكثر من 17800 فرع في حوالي خمسين بلداً في العالم.

وكانت محاولات نيني للتواصل معي تصطدم بصخب موسيقى سماعتي جهازي المدوية، وبهاتفي المحمول وجهاز الكمبيوتر والتلفزيون.

أفضل ما كان يناسب راحة بال جدتي نيني هو أن تتجاهل إشارات الخطر وتتعايش معي بسلام، غير أن رغبتها في حمايتي، وعادتها الطويلة في كشف الغموض والأسرار في روايات بوليسية دفعاها إلى البحث والتحري. بدأت بخزانتي وبالأرقام المحفوظة في هاتفي. وجدت في محفظةٍ علب واقيات ذكرية وكيساً بلاستيكياً صغيراً فيه قرصا دواء أصفران يحملان ماركة «متسوبيشي» التي لم تستطع تحديد حقيقتها. فألقت، بحركة ساهية، بالقرصين في فمها، وبعد خمس عشرة دقيقة تأكدت من مفعولهما. فقد غامت عيناها وعقلها، واصطكت أسنانها، وتراخت عظامها، ورأت تلاشي أحزانها. وضعت أسطوانة موسيقى من أزمنتها وانطلقت في رقص جنوني، ثم خرجت بعد ذلك للتبرد في الشارع، حيث واصلت الرقص وهي تخلع ملابسها. هرع اثنان من الجيران حين رأياها تسقط على الأرض وسارعا إلى تغطيتها بمنشفة. وكانا يتأهبان لطلب النجدة من الرقم 911 في اللحظة التي وصلتُ بها، فتعرفتُ على الأعراض، وأقنعتهما بأن يساعداني في حملها إلى داخل البيت.

لم نستطع حملها، فقد تحولت إلى كتلة غرانيت، فاضطررنا إلى سحبها حتى الصوفا في الصالة. أوضحتُ لذينك الجارين السامريين الطيبين بأنه لا خطورة في الأمر، وأن مثل هذه النوبات تصيب جدتي بانتظام وتنتهي تلقائياً. ودفعتهما بلطف نحو الباب، ثم هرعت بعد ذلك لتسخين قهوة متبقية من الفطور والبحث عن دثار، لأن أسنان جدتي كانت تصطك بشدة. وبعد دقائق قليلة صارت تغلي حَرًّاً. وعكفتُ خلال الساعات الثلاث التالية على تناوب استخدام الدثار الصوفي والمناشف المبللة بماء بارد إلى أن تمكنت جدتي من التحكم بدرجة حرارة بدنها.

لقد كانت ليلة طويلة. وفي اليوم التالي كانت معنويات جدتي منهارة كمعنويات ملاكم مهزوم، لكن ذهنها كان صافياً وتتذكر ما حدث. لم تصدق حكاية أن صديقة قد أعطتني ذينك القرصين لأخبئهما لها وأنني، أنا البريئة، أجهل ما هي غيبوبة الانتشاء تلك. منحتها تلك النشوة المشؤومة زهواً جديداً، فقد حانت فرصتها لتطبيق ما تعلمته في نادي المجرمين. اكتشفت وجود عشرة أقراص «متسوبيشي» أخرى بين أحذيتي، وتحرت مع أوكلي متوصلة إلى أن كل قرص منها يساوي ضعف مصروفي الأسبوعي.

❖ ❖

كانت جدتي تعرف شيئاً ما عن الكمبيوترات، لأنها تستخدمها في المكتبة، ولكنها بعيدة عن أن تكون خبيرة فيها. ولهذا لجأت إلى نورمان، وهو عبقري في التكنولوجيا، متقوس الظهر وشبه أعمى وهو في السادسة والعشرين من عمره لكثرة ما يعيش وأنفه ملتصق بالشاشات، وقد كان أوكلي يستخدمه في بعض الأحيان لأهداف غير شرعية. لأن بياض الثلج، حين يتطلب الأمر مساعدة فتيانه، لا يجد غضاضة في التجسس سراً على الملفات الالكترونية للمحامين والمدعين العامين والقضاة والشرطة. فنورمان قادر على دخول ذلك الفضاء الافتراضي كله، دون أن يخلّف أدنى أثر، ابتداء من ملفات الفاتيكان السرية حتى صور أعضاء الكونغرس الأمريكي وهم يتقلبون مع مومسات. ودون الخروج من الحجرة التي يشغلها في بيت أمه، يمكنه أن يبتز، وأن يسرق من حسابات مصرفية، وأن يُحدِث أضراراً في البورصة، ولكنه يخلو من الميول الإجرامية، ويقتصر الأمر لديه على الشغف النظري.

لم يكن نورمان مستعداً لإضاعة وقته الثمين في متابعة كمبيوتر وهاتف طفلة في السادسة عشرة، ولكنه وضع تحت تصرف نيني وأوكلي مهاراته كـ ***هاكر*** وعلّمهما كيفية اختراق كلمات السر، وقراءة رسائل خاصة، وكيف

ينقذان من الأثير ما كنتُ أظن أنني قد أتلفته. وخلال عطلة نهاية أسبوع تمكن هذا الثنائي ذو الميول التحرية من جمع ما يكفي من معلومات تؤكد أسوأ مخاوف نيني وتخلّفها مصعوقة: حفيدتها تشرب كل ما يصل إلى يديها، ابتداء من الجن وحتى شراب السعال، وتدخن الماريجوانا، وتتاجر بالمنشطات والأحماض والمهدئات، وتسرق بطاقات ائتمان وقد أقامت تجارة خطرت لها فكرتها من برنامج تلفزيوني يتنكر فيه عملاء لمكتب التحقيقات الفيدرالي بهيئة فتيات قاصرات لاصطياد منحرفين فاسدين عبر شبكة الانترنت.

وقد بدأت المغامرة بإعلان اختارته مصاصات الدماء من بين مئات الإعلانات الأخرى المماثلة:

أب يبحث عن ابنة: رجل أعمال أبيض، 54 عاماً، أبوي، صادق، حنون، يبحث عن فتاة شابة من أي عرق، صغيرة، عذبة، منفتحة ومريحة في دور الابنة مع متبنيها، من أجل متعة مشتركة، عادية، مباشرة، لليلة واحدة ويمكن له أن يكون سخياً إذا استمرت معه. نطلب ردوداً جدية، لا شيء من المزاح أو الشاذين جنسياً. يجب إرسال صورة فوتوغرافية.

❖ ❖

أرسلنا إليه صورة لديبي، أقصرنا نحن الثلاثة قامة، حين كانت في الثالثة عشرة من عمرها، ممتطية دراجة، وحددنا موعداً للرجل في فندق نعرفه في بيركلي، لأن سارا عملت فيه خلال الصيف.

تخلصت ديبي من خرقها السوداء والمكياج الجنائزي وذهبت وفي معدتها كأس كحول لاكتساب الشجاعة، ومتنكرة كطفلة بتنورة مدرسية وبلوزة بيضاء وجوربين وشرائط في شعرها. أبدى الرجل انزعاجه حين تبين له أنها أكبر مما هي عليه في الصورة، ولكنه لم يكن في وضع يتيح له التطلب،

لاسيما أنه هو نفسه أكبر بعشر سنوات من السن المذكورة في الإعلان. شرح لديبي أن دورها يتلخص في أن تكون مطيعة ودوره يتمثل في إصدار الأوامر لها ومعاقبتها بعض العقوبات، ولكن دون نية في إيذائها وإنما لتقويمها وحسب، فهذا هو واجب الأب الطيب. وما هو واجب الابنة الطيبة؟ أن تكون حنونة مع أبيها. ما اسمكِ؟ ليس مهماً، سيكون اسمك معي كاندي. تعالي يا كاندي، اجلسي هنا على ركبتي باباكي وأخبريه إذا ما تحرك بطنك اليوم، فهذا أمر مهم يا ابنتي، إنه أساس الصحة. قالت ديبي إنها تشعر بالعطش، فطلب بالهاتف زجاجة مياه غازية وساندويتشا. وبينما هو يشرح منافع حقنة شرجية، استغلت الوقت في تفحص الغرفة وهي تمص إصبعها وتتصنع فضولاً طفولياً.

وفي أثناء ذلك كنتُ أنا وسارا ننتظر في كراج الفندق انقضاء الدقائق العشر التي اتفقنا عليها، وأرسلنا على الفور ريك لاريدو الذي صعد إلى الطابق المطلوب وطرق الباب. «خدمة الغرف!»، قال لاريدو، وفق التعليمات التي أعطيتُه إياها. وما إن فُتح الباب حتى اندفع إلى الحجرة ومسدسه في يده.

نحن نلقب لاريدو بالمريض النفسي لأنه يتبجح بتعذيبه الحيوانات، ولديه عضلات وتجهيزات قاطع طريق يفرض بها نفسه، أما السلاح فيستخدمه فقط في السيطرة على القاصرين الذين يبيعهم مخدرات، وفي التوصل إلى جعلهم يطردونه من بيركلي هاي. وقد ارتعب حين سمع خطتنا في ابتزاز المغررين بالقاصرين، لأن مثل تلك العملية غير واردة في سجله الضئيل، ولكنه كان راغباً في إبهار مصاصات الدماء والظهور أمامهن بمظهر الشجاع. أبدى استعداده لمساعدتنا، ولكي يكتسب الشجاعة لجأ إلى شرب التيكيلا وتناول جرعة مخدرات «كراك». عندما فتح باب غرفة الفندق بركلة من قدمه ودخل بمظهر المعتوه وخشخشات كعبيه ومفاتيحه وسلاسله،

شاهراً مسدسه بكلتا يديه، مثلما رأى في السينما، انهار الأب المحبط على الكرسي الوحيد منكمشاً على نفسه كجنين. تردد لاريدو، لأنه نسي في عصبيته ما عليه عمله في الخطوة التالية، ولكن ديبي كانت تتمتع بذاكرة أفضل.

من المحتمل أن الضحية لم يسمع ولو نصف ما قالته له، لأنه كان يبكي من الخوف، ولكن بعض الكلمات وجدت أثرها المطلوب، مثل عبارات: جريمة فيدرالية، بورنوغرافيا أطفال، محاولة اغتصاب قاصر، سنوات من السجن. وقالا له إنه مقابل إكرامية من مئتي دولار نقداً يمكنه تجنب تلك المشاكل. أقسم الرجل بأقدس ما لديه أنه لا يحمل هذا المبلغ، فاستثار قوله لاريدو الذي كان يمكن أن يطلق عليه النار لو لم يخطر لديبي أن تتصل بي بالهاتف الجوال. لقد كنتُ العقل المدبر للعصابة. وفي تلك الأثناء طُرق الباب من جديد، وكان الطارق في هذه المرة هو عامل خدمة الفندق آتياً بالمياه الغازية والساندويتش. استلمت ديبي الصينية عند العتبة ووقعت فاتورة الحساب وهي تحجب بجسدها مشهد رجل بسرواله الداخلي ينتحب على الكرسي وآخر بملابس من جلد أسود يدس له مسدساً في فمه.

صعدتُ إلى غرفة الأب المزعوم وتوليتُ مسؤولية الوضع بهدوء توصلتُ إليه بلفافة ماريجوانا. أومأت للرجل أن يرتدي ثيابه وأكدت له أنه لن يحدث له أي شيء إذا تعاون معنا. شربت المياه الغازية وقضمت لقمتين من الساندويتش، ثم أمرت الضحية أن يرافقنا دون أن ينبس بأية كلمة، لأنه من غير المناسب له إثارة فضيحة. أمسكت التعيس من ذراعه ونزلنا أربعة طوابق على السلالم، ولاريدو ملتصق بنا من الخلف، لأننا قد نلتقي بأحد في المصعد. دفعناه إلى سيارة جدتي الفوكسفاغن التي استعرتها دون أن أطلبها منها، وكنت أقودها دون رخصة سياقة، وأخذناه إلى أقرب صراف آلي، حيث سحب مبلغ فديته. سلّمنا الأوراق النقدية، وصعدنا إلى السيارة

وانطلقنا بها. ظلَّ الرجل في الشارع، غارقاً في الراحة، وأظن أنه شفي من رذيلة لعب دور الأب. استغرقت العملية بكاملها خمساً وثلاثين دقيقة، وقد كانت شحنة الأدرينالين بديعة بقدر ما كانه مبلغ الخمسين دولاراً الذي دسه كل واحد منا في جيبه.

❖ ❖

أكثر ما صدم نيني هو انعدام إحساسي بالإثم. ففي الرسائل القصيرة التي تذهب وتجيء بإيقاع مئة رسالة في اليوم، لم تعثر ولو على ذرة من الندم أو الخوف من النتائج، وإنما وقاحة محتالة مصفّاة وحسب. كنا في تلك الأثناء قد كررنا هذه الطريقة في الابتزاز ثلاث مرات ولم نواصلها لأننا مللنا من ريك لاريدو، ومسدسه، وغرامه الثقيل كغرام كلب البُودول، وتهديداته بقتلي أو الوشاية بنا إذا أنا لم أقبل أن أكون فتاته. لقد كان شخصاً أهوج، يمكن له أن يفقد عقله في أي لحظة ويقتل أحدهم في نوبة هياج. أضف إلى ذلك أنه أراد أن نعطيه نسبة أكبر من المكاسب، لأنه إذا وقع أي سوء، فسوف يُسجن عدة سنوات، بينما سنُحاكم نحن كقاصرات. «وأنا لدي أهم شيء: المسدس» قال لنا. فأجبته: «لا يا ريك، المهم هو ما أمتلكه أنا: العقل». وضع فوهة السلاح على جبيني، لكنني أزحته بإصبع واحد وأدرنا نحن فريق مصاصات الدماء ظهورنا له وانصرفنا ضاحكين. هكذا انتهت تجارتنا المربحة تلك مع المغررين بالقاصرات، ولكنني لم أتحرر من لاريدو الذي واصل التوسل إليّ بإلحاح شديد إلى حدّ أوصلني إلى كرهه.

في تفتيش تالٍ لحجرتي، عثرت نيني على مزيد من المخدرات، وأجربة أقراص، وسلسلة ذهبية لم تستطع تبين مصدرها من خلال الرسائل المتبادلة. كانت سارا قد سرقتها من أمها وخبأتُها لها ريثما تجد طريقة لبيعها. لقد كانت أم سارا مصدراً سخياً لدخلنا، لأنها تعمل في مؤسسة، تكسب الكثير وتحب الشراء؛ كما أنها تسافر، وترجع في وقت متأخر إلى البيت، فكان من السهل

خداعها وهي لا تنتبه إذا ما نقص شيء من ممتلكاتها. تتباهى بأنها أفضل صديقة لابنتها وأن هذه تخبرها بكل شيء، مع أنه لم يكن يخامرها في الواقع أدنى شك بكيف هي حياة ابنتها سارا، بل إنها لم تنتبه إلى مقدار سوء التغذية وفقر الدم الذي هي فيه. كانت تدعونا في بعض الأحيان إلى بيتها لتناول البيرة وتدخين الماريجوانا معها، لأن ذلك أكثر أمناً من عمله في الشارع على حدّ قولها. كنت أجد صعوبة في فهم ما تشيعه سارا عن خرافة زوج الأم القاسي بينما لديها تلك الأم المثيرة للحسد؛ فجدتي ستبدو مسخاً إذا قورنت بهذه السيدة.

فقدت نيني الهدوء القليل الذي لديها لقناعتها بأن الأمر سينتهي بحفيدتها ملقاة في شوارع بيركلي بين مدمني المخدرات والمتسولين أو في السجن مع الشبان الجانحين الذين لم يتمكن بياض الثلج من إنقاذهم. كانت قد قرأت عن أن جزءاً من الدماغ يتأخر في النمو، ولهذا يمضي المراهقون مختلين وفاقدي التوازن، ولا فائدة من التحدث إليهم بعقلانية. وتوصلت إلى أنني عالقة في مرحلة التفكير السحري، مثلما كانت هي نفسها أثناء محاولتها التواصل مع روح جدي بوبو ووقعت بين يدي معالجة أوكلاند النفسية. حاول أوكلي صديقها الوفي وحافظ أسرارها أن يهدئ من روعها بحجة أن تسونامي الهرمونات قد جرفني، مثلما يحدث للمراهقين، ولكنني في الأساس بنت محترمة وسوف أنجو في النهاية، طالما هما قادران على حمايتي من نفسي ومن أخطار العالم، ريثما تكمل الطبيعة الحتمية دورتها. وافقت جدتي على ذلك، لأنني لست مسعورة على الأقل، كما هي سارا، ولا أجرح نفسي بشفرات حلاقة مثل ديبي، كما أنني لست حبلى، وغير مصابة بالتهاب الكبد أو الايدز.

لقد علمت جدتي وبياض الثلج بهذا كله وبأشياء أكثر بفضل اتصالات مصاصات الدماء الإلكترونية المتهورة وبراعة نورمان الشيطانية. حارت

جدتي بين واجبها في إخبار أبي بكل شيء، مع ما يحمله ذلك من انعكاسات غير متوقعة، أو رغبتها في مساعدتي بصمت، مثلما اقترح مايك، ولكنها لم تحسم الأمر، لأن عاصفة الأحداث كنستها جانباً.

❖ ❖

من الأشخاص المهمين في هذه الجزيرة الدركيان ـ يسمون رجال الدرك هنا «باكوس»ـ لورينثو كاركامو وهوميلدي غاراي، وهما مسؤولان عن النظام، وقد عقدتُ معهما صداقة جيدة لأنني أدرب لهما كلبهما. كان الناس في السابق قليلي التعاطف مع الباكوس، لأن هؤلاء تصرفوا بوحشية خلال الدكتاتورية، ولكنهم على امتداد سنوات الديمقراطية العشرين التي عاشتها البلاد راحوا يستعيدون ثقة المواطنين واحترامهم. لقد كان لورينثو كاركامو طفلاً في أزمنة الدكتاتورية، ولم يكن هوميلدي غاراي قد ولد بعد. في الملصقات المؤسساتية لجهاز الدرك في تشيلي يظهر ذوو الزي الشرطي ومعهم كلاب ألمانية بديعة، أما ما لدينا هنا فهو جرو هجين يدعى ليفينغستون تكريماً لاسم أشهر لاعب كرة قدم تشيلي، وهذا اللاعب صار عجوزاً الآن. لقد أكمل الجرو للتو ستة شهور. وهذا عمر مثالي للبدء بتدريبه، لكنني أخشى أنه لن يتعلم معي سوى الجلوس، ومد قائمتيه، والتظاهر بالموت. طلب من الدركيان أن أعلمه الهجوم والعثور على جثث، ولكن الأمر الأول يتطلب عدوانية بينما يتطلب الأمر الآخر الصبر، وهما سمتان متناقضتان. ولأن الدركيين مضطران إلى الاختيار، فقد اختارا العثور على الأجساد، إذ ليس هناك من تجب مهاجمته هنا، بينما يختفي بالمقابل أناس بين الأنقاض خلال الزلازل.

منهج التدريب الذي لم أمارسه من قبل قطّ، ولكنني قرأت عنه في مرجع، يتلخص في تضميخ خرقة قماش بمُركّب كادابيرينا، وهذه مادة نتنة لها رائحة لحم متفسخ، وجعل الكلب يشمها قبل إخفائها وجعله يبحث

عنها ويجدها. «مسألة الكادابيرينا ستكون معقدة أيتها السيدة. ألا يمكننا استخدام أحشاء دجاجة متعفنة؟»، اقترح هوميلدي غاراي، ولكننا حين فعلنا ذلك قادنا الكلب مباشرة إلى مطبخ أوريليو نيانكوبيل في **حانة الميت**. وواصل المحاولة بأساليب عديدة مرتجلة أمام نظرات **فاكن** الغيورة الذي لم ترقه في البدء رؤية حيوانات أخرى. وبهذه الذريعة أمضيت ساعات في المخفر أتناول القهوة سريعة التحضير وأستمع إلى قصص هذين الرجلين المذهلة في خدمة الوطن، كما يحددانها.

المخفر عبارة عن بيت صغير من الاسمنت مطلي باللونين الأبيض والأخضر الشاحب، وهما لونا الشرطة، مع سياج مزين بصفوف من أصداف الرخويات البحرية. إن رجال الدرك يتكلمون بصورة غريبة، فهم يقولون «سلبي» و«إيجابي» بدل قولهم «لا، لا» و«نعم، نعم»، كما هي عادة التشيلويين، وأنا عندهم «سيدة» والكلب ليفينغستون «can»[1]، وكذلك خدمة الوطن. لورينثو كاركامو، وهو أعلاهما سلطة، كان يخدم في قرية منسية في مقاطعة أولتيما اسبيرانثا، حيث اضطر ذات مرة إلى بتر ساق رجل عالق في انهيار. «فعلتُ ذلك بمنشار يا سيدة، ودون تخدير، لم يكن لدينا من أجل التخدير سوى الخمر».

أما هوميلدي غاراي، وقد بدا لي أقل شخص مناسب لمرافقة ليفينغستون، فهو شاب وسيم، يشبه ذلك الممثل في أفلام زورو، يا للعنة، لم أعد أتذكر اسمه... هنالك كتيبة من النساء تلحق به، ابتداء من سائحات عابرات يُصبن بالهبل في حضوره، حتى فتيات عنيدات يجتزن القارة لرؤيته، غير أن هوميلدي غاراي يظل جدّياً لسببين: أولاً لأنه يرتدي الزي الشرطي

---

[1] كان (can) الكلمة لاتينية بالأصل (canis) يشار بها إلى فصيلة الكلبيات التي تشمل الكلاب والذئاب وبنات أوى والثعالب.

وثانياً لأنه أنجليكاني. وقد روى لي مانويل أن غاراي أنقذ حياة بعض متسلقي الجبال الأرجنتينيين الذين ضلوا طريقهم في جبال الأنديز. كانت فرق الإنقاذ تستعد للتوقف عن البحث واعتبارهم ميتين عندما تدخل غاراي. أشار بكل بساطة إلى نقطة على الخريطة بقلمه، فأرسلوا طائرة هيلوكبتر وهناك بالذات وجدوا متسلقي الجبال شبه متجمدين، لكنهم لا يزالون أحياء. «إيجابي يا سيدة، تحديد مكان أولئك الضحايا من رعايا الجمهورية الشقيقة تم الإشارة إليه على خريطة ميتشلين»، أجابني غاراي حين سألته عن الموضوع، وعرض عليّ قصاصة صحيفة تعود إلى العام 2007 وفيها الخبر وصورة للكولونيل الذي أصدر له الأمر: «إذا كان ضابط الصف في الخدمة الفعلية هوميلدي غاراي رانكيليو قادراً على العثور على أمكنة الماء تحت الأرض، فسوف يكون قادراً أيضاً على العثور على خمسة أرجنتينيين فوق سطح الأرض»، هذا ما يقوله الكولونيل في المجلة. والمسألة أنه كلما احتاج سلاح الدرك إلى حفر بئر في أي موقع من البلاد، يستشيرون غاراي عبر جهاز الاتصال، فيقوم هذا بالإشارة إلى الموقع الدقيق على خريطة والعمق الذي يوجد فيه الماء ثم يرسل صورة فوتوكوبي من الخريطة عبر الفاكس. هذه هي الملاحظات التي يجب عليّ تدوينها، لأنها ستنفع ذات يوم كمادة أولية لجدتي نيني في قصصها.

هذان الدركيان يذكرانني بالرقيب والزاك في بيركلي: إنهما متسامحان مع الضعف البشري. وهنالك زنزانتان في المخفر، واحدة للسيدات والأخرى للسادة، مثلما تشير اللوحتان على قضبان بابيهما الحديدية، تستخدمان بصورة أساسية لإيواء مخمورين أثناء هطول المطر حين لا تكون ثمة طريقة لإيصالهم إلى بيوتهم.

❖ ❖

السنوات الثلاث الأخيرة من حياتي، بين السادسة عشرة والتاسعة

عشرة من عمري، كانت متفجرة إلى حدّ أوشكت معه على تدمير جدتي نيني التي لخصت تلك الحال بجملة واحدة: «يسعدني أن جدك بوبو لم يعد موجوداً في هذا العالم ليرى ما تحوّلتِ إليه يا مايا». وكدتُ أن أرد عليها بأنه لو كان بوبو لا يزال في هذا العالم، لما تحولتُ إلى ما أنا عليه، لكنني صمتُ في الوقت المناسب؛ فمن غير العدل تحميله هو الذنب في سلوكي.

ذات يوم، في شهر تشرين الثاني عام 2006، بعد أربعة عشر شهراً من موت بوبو، اتصلوا في الساعة الرابعة فجراً من مستشفى الكونتية ليخبروا أسرة بيدال بأن القاصر مايا بيدال قد وصلت في سيارة إسعاف سريع إلى قسم الإسعاف، وأنها تخضع لعملية جراحية في تلك اللحظات. كانت جدتي هي الشخص الوحيد الموجود في البيت، وقد تمكنت من الاتصال بمايك أوكلي لتطلب منه تحديد مكان أبي قبل أن تخرج مندفعة إلى المستشفى. كنتُ قد تسللتُ في الليل من البيت لحضور حفلة هذيانية في مصنع مغلق، حيث تنتظرني سارا وديبي. لم أستطع أخذ الفوكسفاغن لأن جدتي كانت قد اصطدمت بها وتركت السيارة في التصليح، فاستخدمتُ دراجتي القديمة، الصدئة بعض الشيء وسيئة المكابح.

كنا نحن مصاصات الدماء نعرف حارس البوابة، وهو شخص له مظهر من يستحق الشنق ودماغ كتكوت، سمح لنا بالدخول إلى الحفلة دون الاهتمام بالسن. كان المصنع يهتز بدوي الموسيقى وبانحلال حشد كبير، أجساد كدمى متخلعة المفاصل، البعض يرقصون أو يقفزون، وآخرون مسمرون إلى الأرض في حالة غيبوبة يتابعون الإيقاع برؤوسهم. يشربون حتى فقدان الرشد، ويدخنون ما لا يمكن حقنه، ويضاجعون من هو أقرب إليهم ودون كوابح، هكذا هي الحال. كانت الروائح والدخان والحر من الزخم إلى حدّ نضطر معه إلى الإطلال على الشارع كي نتنفس. عند وصولي حاولتُ الدخول في الجو بكوكتيل من اختراعي ـ جن وفودكا وويسكي وتيكيلا

وكوكاكولا ـ وغليون محشو بماريجوانا مخلوطة بكوكاكين وبضع قطرات من LSD كان له مفعول الديناميت. سرعان ما غابت صديقتاي عن نظري، فقد ذابتا في الحشد الممسوس. رقصتُ وحدي، وواصلت الشرب، وتركت عدة شبان يداعبون جسدي... لا أتذكر التفاصيل ولا ما الذي حدث في ما بعد. فبعد يومين من ذلك، وعندما بدأ يتبدد مفعول المسكِّنات التي أُعطيت لي في المستشفى، علمت أنني اصطدمت بسيارة لدى خروجي من الحفلة، وأنا مخدرة تماماً، على دراجتي التي بلا أنوار ولا مكابح. طرتُ في الهواء وسقطتُ على بُعد أمتار فوق بعض الشجيرات على حافة الطريق السريع. ولأن سائق السيارة حاول أن يتفاداني، اصطدم بعمود وأصيب برجة دماغية.

❖ ❖

ظللتُ في المستشفى اثني عشر يوماً، بذراع مكسورة، وفكّ مخلوع، وبدن متأجج لأني سقطتُ على نبتة سامة معرشة، وتلا ذلك عشرون يوماً من الاحتجاز في البيت مع أسياخ وبراغٍ معدنية في عظامي، تحرسني جدتي نيني وبياض الثلج الذي كان يناوب مكانها بضع ساعات كي تستريح. اعتقدت نيني أن الحادث كان تدبيراً يائساً من جدي بوبو لحمايتي. «والدليل أنكِ مازلتِ على قيد الحياة، ولم تنكسر إحدى ساقيك، لأنه لو حدث ذلك لما كان بإمكانك العودة إلى لعب كرة القدم»، قالت لي. وأظن أن جدتي كانت، في أعماقها، ممتنة لما حدث لأنها تخلصت بذلك من واجب إخبار أبي بما كانت قد تحرته عن سلوكي؛ ولكن الشرطة تولت ذلك.

تغيبت نيني عن العمل خلال تلك الأسابيع واستقرت إلى جانبي بحرص سجان. وعندما جاءت سارا وديبي لزيارتي أخيراً ـ لم تتجرأا على أن تطلا بأنفيهما بعيد الحادث ـ، طردتهما جدتي من البيت بصرخات بذيئة، ولكنها أشفقت على مايك لاريدو الذي جاء بباقة زنابق ذاوية وقلب

مكسور. رفضتُ استقباله وكان عليها أن تستمع إلى شجونه، في المطبخ، لأكثر من ساعتين. «ترك لكِ هذا الشاب رسالة يا مايا: أكد أنه لم يعذب حيوانات قط، وان ما يريده هو الرجاء أن تمنحيه فرصة أخرى»، هذا ما قالته لي في ما بعد. فجدتي تشعر بالضعف حيال من يعانون لوعة الحب. وقد أجبتها: «إذا ما رجع يا جدتي، قولي له حتى لو تحوّل إلى نباتي، وكرس حياته لإنقاذ أسماك التونا، فإنني لا أريد رؤيته أبداً».

مسكنات الآلام والرعب من أنني قد اكتُشفت حطما إرادتي واعترفت لنيني بكل ما حدث فور توجيهها إليّ الأسئلة في استجواباتها المطولة، على الرغم من أنها كانت تعرف كل شيء، لأنه لم تعد هنالك أسرار في حياتي بفضل دروس ذلك الجرذ القارض المدعو نورمان.

ـ لا أظن أنك من طبيعة شريرة يا مايا، ولستِ بلهاء بالكامل، وإن كنتِ تفعلين كل ما يمكنك فعله لتبدين كذلك ـ تنهدت جدتي نيني ـ. كم من المرات ناقشنا خطر المخدرات؟ وكيف أمكن لك ابتزاز أولئك الرجال باستخدام مسدس!

ـ لقد كانوا فاسدين يا نيني. يستحقون أن يتخوزقوا... حسن، نحن لم نخوزقهم بالضبط، إنك تفهمينني.

ـ ومن أنت لتفرضي العدالة بيدك؟ أأنت باتمان؟ كان يمكن لهم أن يقتلوكِ!

ـ لم يحدث لي أي شيء يا نيني...

ـ كيف يمكن القول إنه لم يحدث لك شيء! انظري إلى الحال التي أنت فيها! ماذا أفعل بك يا مايا؟ ـ وانفجرت في البكاء.

ـ سامحيني يا نيني. أرجوك ألا تبكي. أقسم لك إنني فهمت الدرس. لقد جعلني الحادث أرى الأمور بوضوح.

ـ لا أصدق كلمة مما تقولين. اقسمي لي بذكرى بوبو!

كان ندمي حقيقياً، وكنت مرتعبة بالفعل. ولكن ذلك لم يفدني في شيء، فسرعان ما صادق الطبيب على شفائي، وأخذني أبي إلى أوريغون، حيث ينتهي المقام بالمراهقين صعبي المراس. لم أرافقه بالحسنى، وكان عليه أن يأتي بشرطي من أصدقاء سوزان لاختطافي، وهو ماموت له هيئة تمثال **مواي** من تماثيل جزيرة باسكوا، ساعد أبي في تلك المهمة الخسيسة. أما جدتي فاختبأت كيلا تراني محتجزة مثل بهيمة في المسلخ، أُولول دون أن يهتم بي أحد، الجميع يتنكرون لي، لماذا لا يذبحونني دفعة واحدة، قبل أن أفعل أنا نفسي ذلك.

❖ ❖

أبقوني محتجزة في أكاديمية أوريغون حتى شهر حزيران 2008 مع ستة وخمسين مراهقاً آخر من المتمردين، ومدمني المخدرات، ومحاولي الانتحار، وفاقدي الشهية، وثنائيي القطبية، والمطرودين من المدارس، وآخرين ممن لا ينسجمون في أي مكان. صممت على تخريب أي محاولة لإنقاذي، ورحت أخطط لكيفية الانتقام من أبي لأنه يقتادني إلى مغارة المختلين تلك، ومن جدتي نيني التي سمحت بذلك، ومن العالم بأسره الذي أدار لي ظهره. والحقيقة أن المآل انتهى بي إلى ذلك المكان بقرار من القاضية التي فصلت في قضية الحادث. لقد كان مايك أوكلي يعرفها وتوسط من أجلي ببلاغة أثرت عليها؛ ولولا ذلك لانتهيت إلى إصلاحية، ولكن ليس بأي حال إلى سجن سان كوينتن الفيدرالي مثلما صرخت بي جدتي في إحدى نوبات غضبها. إنها شديدة المبالغة. لقد أخذتني في أحد الأيام لمشاهدة فيلم فظيع يعدمون فيه قاتلاً في سجن سان كوينتن. «كي تري ما الذي يؤدي إليه خرق القانون يا مايا. فمن يبدأ بسرقة أقلام ملونة في المدرسة ينتهي به الأمر على الكرسي الكهربائي»، حذرتني لدى الخروج من السينما. ومنذ ذلك الحين تحولت هذه العبارة إلى طرفة في الأسرة، ولكنها كررتها لي هذه المرة بجد.

بالنظر إلى صغر سني وعدم وجود سوابق شرطية في سجلي عرضت عليّ القاضية، وهي سيدة آسيوية أثقل من كيس رمل، أن أختار بين برنامج إعادة تأهيل أو سجن للفتيان، مثلما طالب سائق السيارة التي اصطدمتُ بها. فعندما أدرك الرجل أن تأمين أبي لن يقدم له تعويضاً كبيراً مثلما كان يتوقع، صار راغباً في معاقبتي. ولم أكن أنا من اتخذت القرار بالاختيار، وإنما أبي هو الذي اتخذه دون أن يسألني. ولحسن الحظ أن نظام كاليفورنيا التعليمي يدفع التكاليف، ولولا ذلك لكانت أسرتي اضطرت إلى بيع البيت لتمويل إعادة تأهيلي، فهي تكلف سبعين ألف دولار، وكان بعض آباء الفتيان الخاضعين للتأهيل يأتون لزيارتهم في طائرات خاصة.

انصاع أبي لحكم المحكمة براحة، لأن ابنته تحرق يديه مثل فحم مشتعل وهو راغب في التحرر مني. حملني إلى أوريغون وأنا أضرب الأرض بقدمي وجعلني أبتلع ثلاثة أقراص فاليوم لم تنفع في شيء، فقد كان يحتاج إلى ضعف الكمية للتأثير في واحدة مثلي قادرة على البقاء طبيعية بعد تناولها كوكتيل فيكودين وفطر مكسيكي. سحبني صديق سوزان وأبي جراً من البيت، وصعدا بي محمولة إلى الطائرة، ثم إلى سيارة مستأجرة واقتاداني من المطار إلى المؤسسة العلاجية عبر طريق طويل وسط الغابات. كنت أنتظر أن أُستقبل بسترة تقييد مجانين وبصدمات كهربائية، ولكن تبين أن الأكاديمية مجمع أبنية خشبية وسط حديقة فسيحة. لا تشبه بأي حال ملجأً للمهمشين.

❖ ❖

استقبلتنا المديرة في مكتبها وبرفقتها شاب ملتحٍ، تبين أنه أحد الأطباء النفسيين. وكانا يبدوان كأخوين، فلكليهما شعر بلون القنب مربوط إلى الخلف على شكل ذيل حصان، ويرتديان بنطالي رعاة بقر حائلي اللون، وكنزتين رماديتين وأحذية رياضية، إنه زي العاملين في الأكاديمية، وبه يتميزون على النزلاء الذين يرتدون ملابس غريبة مستهجنة. عاملاني

كصديقة زائرة وليس كبنت مشعثة وكثيرة الصراخ وصلت يجرجرها رجلان. «يمكنك أن تناديني باسم آنجي وهذا هو ستيف. سوف نساعدك يا مايا. وسترين كم هو البرنامج سهل»، هتفت المرأة بحماسة. تقيأت مكسرات الطائرة على سجادتها. ونبهها أبي إلى أن الأمر لن يكون سهلاً بأي حال مع ابنته، ولكن حيثيات حالتي كانت موضوعة أمامها على منضدة مكتبها، وربما أنها عرفت حالات أسوأ. «لقد بدأ الظلام يخيم وطريق عودتك طويل يا سيد بيدال. من الأفضل أن تودع ابنتك. ولا تقلق، فمايا ستكون بين أيدٍ أمينة»، قالت له. هرع أبي نحو الباب مستعجلاً المغادرة، ولكنني ألقيت بنفسي عليه وتشبثتُ بسترته طالبة منه ألا يتركني، أرجوك يا بابا، أرجوك لا تتركني. ثبتتني آنجي وستيف دون إفراط في القوة، بينما كان أبي وتمثال المواي يهربان إلى الطريق العام.

هزمني التعب أخيراً، فتوقفت عن الإلحاح وانهرتُ على الأرض متكورة على نفسي مثل كلب. تركوني هناك لوقت لا بأس به، نظفوا الأرض من القيء، وعندما توقفت شهقاتي ولم يعد مخاطي يسيل قدموا إليّ كأس ماء. «لا أفكر في البقاء في مستشفى المجانين هذا! سوف أهرب فور تمكني من ذلك!»، صرختُ بالقليل من الصوت المتبقي لي، ولكنني لم أُبدِ مقاومة عندما ساعدوني على النهوض واقتادوني في جولة على المكان. كان الليل في الخارج شديد البرودة، أما البناء في الداخل فكان دافئاً ومريحاً، فيه ممرات طويلة مسقوفة، ومساحات فسيحة، وسقوف عالية ذات عوارض خشبية ظاهرة، ونوافذ كبيرة يغطي زجاجها البخار، وعبق خشب، والبساطة. لم تكن هنالك قضبان حديدية ولا أقفال. أروني مسبحاً مغلقاً، وقاعة رياضية، وصالة متعددة الاستخدامات فيها آرائك ومنضدة بلياردو ومدفأة ضخمة تتأجج فيها جذوع خشبية كبيرة. وكان النزلاء مجتمعين في قاعة الطعام حول مناضد من خشب خام مزينة بباقات صغيرة من الزهر،

وهو تفصيل لم أمر به مروراً عابراً، لأن المناخ لم يكن مناسباً لزراعة الزهور. مكسيكيتان ممتلئتان وباسمتان تضعان مريولين أبيضين تتوليان سكب أطباق الطعام من وراء منضدة طويلة. كان الجو عائلياً، متساهلاً وصاخباً. صفعت أنفي رائحة الفاصولياء واللحم المشوي اللذيذة، ولكنني رفضتُ تناول الطعام.. لم أكن أفكر في الاختلاط بأولئك الناس السيئين.

تناولت آنجي كأس حليب وطبقاً فيه بسكويت واقتادتني إلى حجرة نوم، غرفة بسيطة، فيها أربعة أسرّة، وأثاث من خشب فاتح اللون، ولوحات طيور وأزهار. الدليل الوحيد على أن هناك من ينام في تلك الحجرة هو صور فوتوغرافية عائلية على الخزائن الصغيرة المجاورة للأسرَّة. أحسست بقشعريرة وأنا أفكر في نوعية الناس غير الأسوياء الذين يعيشون في مثل ذلك النظام والترتيب. كانت حقيبتي وجعبتي موضوعتين على أحد الأسرَّة، مفتوحتين بطريقة تبيّن أنه قد جرى تفتيشهما. كنت على وشك القول لآنجي إنني لا أنام في الحجرة نفسها مع أحد، ولكنني تذكرتُ أنني في فجر اليوم التالي سأغادر ذلك المكان وليس هنالك ما يستدعي إثارة مشكلة من أجل ليلة واحدة فقط.

خلعتُ بنطالي وحذائي واستلقيت في الفراش تحت نظرات المديرة المتيقظة. «لا توجد آثار حقن، ولا ما يشير إلى أنني جرحت معصميّ»، قلت لها متحدية وأنا أعرض عليها ذراعيّ. «هذا يسعدني يا مايا، أتمنى لك نوماً هنيئاً»، أجابت آنجي بتلقائية، ووضعت الحليب والبسكويت على الكوميدينو الذي بجانب سريري ثم خرجت دون أن تغلق الباب.

التهمت تلك الوجبة الخفيفة متشوقة لشيء أكثر دسماً، ولكنني كنت منهوكة القوى وخلال دقائق قليلة غرقت في نوم كالموت. استيقظتُ مع أول أنوار الفجر التي أطلت من فجوات النافذة، وكنت جائعة ومختلطة الذهن. وحين رأيت في الأسرَّة الأخرى هيئة الفتيات النائمات، تذكرتُ أين أنا.

ارتديتُ ملابسي بسرعة، وتناولت جعبتي وسترتي وخرجتُ على رؤوس أصابعي. اجتزت البهو، وتوجهت نحو باب واسع يبدو أنه يؤدي إلى الخارج فوجدت نفسي في أحد الممرات المسقوفة بين مبنيين.

صفعة الهواء البارد أوقفتني بجفاء. كانت السماء برتقالية والأرض مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج، وكان الجو يعبق برائحة صنوبر ومحرقة. وعلى بعد أمتار قليلة كانت هناك أسرة غزلان تراقبني مقدّرة الخطر، أنوفها تطلق البخار وذيولها ترتعش. غزالان صغيران مازالت عليهما لطخات حديثي الولادة، يستندان مزعزعين على قوائمهما النحيلة بينما الأم تحرسهما بأذنين متأهبتين. تبادلتُ أنا والغزالة الأم النظرات إلى العيون مباشرة للحظات بدت أبدية، كل منا تنتظر رد فعل الأخرى، وظللنا جامدتين إلى أن فاجأنا صوت آت من ورائي فانصرفت الغزلان متقافزة. «إنها تأتي لتشرب الماء. وتأتي أيضاً ثعالب ودببة».

إنه الملتحي نفسه الذي استقبلني في اليوم السابق، متدثر بسترة متزلج، وجزمة وقبعة من الجلد مبطنة بفراء. «لقد التقينا أمس، ولكنني لا أعرف إن كنتِ تتذكرين. أنا ستيف، أحد المستشارين. مازالت هنالك ساعتان لموعد الفطور، ولكن لدي قهوة»، وانطلق ماشياً دون أن ينظر إلى الوراء. تبعته بصورة آلية إلى قاعة التسلية، حيث توجد منضدة البلياردو، وظللتُ محترسة بينما هو يشعل جذوع المدفأة بورقة جريدة، ثم سكب، من ترمسٍ، فنجاني قهوة مع حليب. «لقد هطلت في الليل أولى ثلوج الموسم»، قال معلقاً وهو يهوّي النار بقبعته.



كان على الخالة بلانكا أن تذهب بصورة مستعجلة إلى كاسترو، لأن أباها تعرض لنوبة قلبية حرجة، تسببت بها **مسابقة المؤخرات** على الشواطئ. وتقول بلانكا إن السبب في بقاء **الميّالوبو** حياً هو أن المقبرة تبدو له مملة جداً.

يمكن لصور التلفزيون أن تكون قاتلة لمريض قلبي : فتيات بسراويل تكاد لا تُرى يهززن مؤخراتهن أمام زمرة ذكور تقذف زجاجات في سورة حماستها وتهاجم الصحافة. الرجال في حانة الميت يلهثون قبالة الشاشة والنساء، متقاطعات الأذرع، يبصقن على الأرض. ما الذي يمكن أن تقوله نيني وصديقاتها النسويات عن مثل هذه المسابقات! كسبت المنافسة فتاة ذات شعر أشقر مصبوغ ومؤخرة زنجية، على شاطئ بيتشيليمو، ومن يدري أين هو ذلك المكان. «بسبب هذا الاستعراض كاد أبي أن ينتقل إلى العالم الآخر»، كان هذا هو تعليق بلانكا عند عودتها من كاسترو.

إنني مكلّفةٌ بتشكيل فريق كرة قدم طفولي، وهي مهمة سهلة، لأن الأطفال في هذه البلاد يتعلمون ركل الكرة فور تمكنهم من الوقوف على أقدامهم. لقد صار لدي فريقٌ منتخب وآخر احتياطي، وفريق أنثوي استثار موجة من التقولات

خريف

نيسان، أيار

انتهت الإصلاحات في المدرسة. فهناك يلتجئ الناس في حالات الطوارئ، لأنها البناء الأكثر أمناً، فضلاً عن الكنيسة التي يدعم الرب هيكلها الخشبي المزعزع، وهو ما تأكد عام 1960، عندما حدث أقوى زلزال عرفه العالم، 9.5 درجات على مقياس ريختر. فقد ارتفع البحر وكان على وشك ابتلاع القرية، غير أن الأمواج توقفت عند باب الكنيسة. خلال دقائق الزلزال العشر انكمشت البحيرات، واختفت جزر بكاملها، وانشقت الأرض وغارت سكك قطار وجسور وطرق عامة. تشيلي بلاد معتادة على الكوارث والفيضانات والقحط والعواصف والزلازل والأمواج القادرة على حمل سفينة ضخمة إلى منتصف الساحة. ولدى الناس فلسفة إذعان في هذا الشأن: إنها اختبارات من الرب. ولكنهم يتحولون إلى عصبيين عندما ينقضي زمن طويل دون وقوع كارثة. وهكذا هي جدتي نيني، تنتظر على الدوام أن تنطبق السماء عليها.

مدرستنا مهيأة لغضب الطبيعة التالي؛ إنها مركز القرية الاجتماعي، فيها يجتمع نادي النساء، وجماعة الحرفيين، والكحوليون المجهولون، وقد ذهبتُ إلى اجتماع هؤلاء مرتين لأنني وعدت مايك أوكلي بأن أفعل، لكنني كنت المرأة الوحيدة بين أربعة أو خمسة رجال لا يتجرؤون على التكلم أمامي. أظن أنني لست بحاجة إلى التردد على ذلك الاجتماع، فأنا ممتنعة عن الشراب منذ أكثر من أربعة شهور. وفي المدرسة كنا نشاهد أفلاماً، وتُحل فيها الخلافات الصغرى التي لا تستحق أن يتدخل فيها الشرطيان، وتُناقش قضايا معلقة، مثل البذار، وجني المحاصيل، وسعر البطاطا والمنتجات البحرية. وهناك كانت ليليان تريفينو تعطي اللقاحات وتتحدث عن أسس النظافة

الصحية، وتستمع إليها النساء المتقدمات في السن ضاحكات: «المعذرة يا آنسة ليليان، كيف ستعلميننا مداواة أنفسنا!» يقلن لها. وتؤكد الثرثارات منهن، وبحق، أن أقراص القوارير مثيرة للريبة، وأن هنالك من يجني ثروة منها، ويخترن وسائل العلاج البيتية، فهي مجانية، ووصفات المعالجين بالطب التجانسي. لقد شرحوا لنا في المدرسة برنامج مضادات الحمل الحكومي الذي أثار ذعر عدة جدات، وهناك وزع علينا الشرطيان تعليمات لمقاومة القمل في حال حدوث جائحة، مثلما يحدث كل سنتين. مجرد التفكير في القمل يجعلني أحك رأسي، إنني أفضل البراغيث، لأنها تبقى في **فاكن** والقطين.

أجهزة الكمبيوتر في المدرسة تعود إلى ما قبل التاريخ، ولكن يجري الحفاظ عليها في حالة جيدة، وأنا أستخدمها في كل ما هو ضروري، باستثناء البريد الإلكتروني. فقد اعتدتُ على العيش معزولة ودون اتصالات. ولمن سأكتب مادام لا أصدقاء لي؟ إنني أتلقى أخباراً من نيني ومن بياض الثلج، لأنهما يكتبان برموز مشفرة إلى مانويل، ولكنني أحب أن أروي لهما عن انطباعاتي حول هذه الصحراء المثيرة للفضول؛ لا يمكن لهما تخيل تشيلوي، فهذا المكان يجب أن يُعاش.



بقيتُ في أكاديمية أوريغون بانتظار أن ينقضي بعض البرد كي أهرب، ولكن الشتاء في تلك الغابات يأتي ليقيم ويستقر، مثل جماله البلوري من الجليد والثلج وسمائه المتنوعة، فهي زرقاء بريئة في بعض الأحيان، ورصاصية خانقة في أحيان أخرى. وعندما طالت النهارات، ارتفعت درجة الحرارة وبدأت نشاطات الهواء الطلق، عدت إلى التفكير في خطط هروبي، ولكنهم جاؤوا حينذاك بالفيكونيا، فقد أحضروا زوجاً من هذه الحيوانات الرشيقة ذات الآذان المنتصبة ورموش العرائس، هدية غالية الثمن من أب ممتن لأحد التلاميذ الذين تخرجوا في العام الفائت. فاختارتني آنجي للعناية

بثنائي الفيكونيا بحجة أنه ليس هناك من هو أكفأ مني لتولي رعاية ذينك الحيوانين الحساسين، ذلك أنني ترعرعت مع كلاب قنابل سوزان. فكان عليّ أن أؤجل هروبي، لأن حيوانيّ الفيكونيا بحاجة إليّ.

تكيفتُ مع مرور الوقت مع أجندة الرياضة، والفن، والعلاج، ولكنني لم أعقد صداقات، لأن النظام يبعث اليأس من الصداقة؛ ومع ذلك، فقد كنا نحن النزلاء نتواطأ في بعض الشيطنات. لم أشعر بالشوق إلى سارا وديبي، كما لو أن تبدل الأجواء والظروف قد أفقد صديقتيَّ أهميتهما. كنت أفكر فيهما بحسد، لأنهما تعيشان حياتهما من دوني، مثلما هي بيركلي هاي بأسرها تثرر حول قليلة الحياء مايا بيدال المودعة في مصحة للمجانين. وربما تكون فتاة أخرى قد حلّت محلي في ثلاثي مصاصات الدماء. لقد تعلمت في الأكاديمية مصطلحات علم النفس وطريقة الإبحار وسط الأنظمة التي لا تُسمى أنظمة وإنما اتفاقات. وفي أول بند من الاتفاقات الكثيرة التي وقّعت عليها دون نية في تطبيقها كما عاهدت نفسي، وكغيري من التلاميذ، هو تجنب الخمر والمخدرات والعنف والجنس. لم تكن هنالك فرصة للحصول على الأشياء الثلاثة الأولى، ولكن زملائي كانوا يتدبرون أمورهم لممارسة الشيء الرابع، على الرغم من التقصي الدائم الذي يقوم به المستشارون والأطباء النفسيون. أما أنا فامتنعت عن تعاطيه.

وكان من المهم، من أجل تفادي المشاكل، الظهور بمظهر طبيعي، وإن كان تعريف ما هو طبيعي شديد التقلب. فإذا أكلتُ كثيراً فإنني شرهة، وإذا أكلت قليلاً أكون ضعيفة الشهية، وإذا كنت أفضل الوحدة أكون مكتئبة، ولكن يمكن لأي صداقة أن تثير الشكوك؛ وإذا لم أشارك في أحد النشاطات فإنني أمارس التخريب، وإذا كنت كثيرة المشاركة فإنني أسعى إلى لفت الاهتمام. «فالعصا لك إن كنت تجذِّف، والعصا لك إن لم تجذف»، وهذا قول آخر من أقوال نيني.

يستند برنامج التأهيل إلى ثلاثة أسئلة مقتضبة: من أنت، وما الذي ترغب في عمله بحياتك، وكيف ستتوصل إليه. ولكن الوسائط العلاجية أقل وضوحاً. ففتاة تعرضت للاغتصاب جعلوها ترقص، وهي تلبس كخادمة فرنسية، أمام التلاميذ الآخرين. وفتى لديه ميل إلى الانتحار جعلوه يصعد إلى برج حراسة الغابات ليروا إن كان سيلقي بنفسه، وفتى آخر يعاني رهاب الأمكنة المغلقة كانوا يحبسونه بانتظام في خزانة ملابس. لقد كانوا يخضعوننا للتكفير ـ طقوس تطهر ـ ولجلسات جماعية يتوجب علينا فيها أن نمثل أمراضنا النفسانية بهدف تجاوزها. رفضت أن أمثل موت جدي، وكان على زملائي أن يفعلوا ذلك بدلاً مني، إلى أن اعتبر الطبيب النفساني المناوب أنني قد شفيت أو أنني غير قابلة للشفاء، لم أعد أذكر ذلك. وفي جلسات معالجة جماعية كنا نعترف ـ نتشارك ـ بذكرياتنا، أحلامنا، رغباتنا، مخاوفنا، نوايانا، تخيلاتنا، وأشد أسرارنا حميمية. كانت الهواتف المحمولة محظورة، والهاتف العادي مراقب، والمراسلات والموسيقى والكتب والأقلام تخضع للمراقبة، ولا شيء من المراسلات بالبريد الإلكتروني أو الزيارات المفاجئة.

❖ ❖

بعد ثلاثة شهور من دخولي الأكاديمية تلقيت أول زيارة من أهلي. وبينما كان أبي يتناقش حول تقدمي مع آنجي، أخذتُ جدتي لتتعرف على الحديقة وزوج الفيكونيا اللذين كنت قد زينتهما بشرائط ملونة في أذنيهما. كانت جدتي قد أحضرت لي صورة لجدي بوبو مطبوعة على البلاستيك، ويظهر فيها وحيداً، قبل حوالي ثلاث سنوات من موته، وهو يضع قبعته والغليون في يده، ويبتسم للكاميرا. كان مايك أوكلي قد التقط هذه الصورة في أعياد الميلاد حين كنت في الثالثة عشرة من عمري، عندما أهديتُ إلى جدي كوكبه التائه: كرة صغيرة خضراء مسجل عليها مئة عدد تشير إلى عدد مماثل من الخرائط أو الصور التوضيحية لما يجب أن يكون موجوداً في كوكبه،

حسبما تصورناه معاً. لقد أعجبته تلك الهدية كثيراً، ولهذا يظهر مبتسماً مثل طفل في الصورة.

ـ جدكِ بوبو معك على الدوام. لا تنسيه يا مايا ـ قالت لي جدتي.

ـ إنه ميت يا نيني!

ـ أجل، ولكنك تحملينه في داخلك، وإن كنتِ لا تعرفين ذلك بعد. لقد كان حزني كبيراً في البدء يا مايا، حتى إني ظننتُ أنني قد فقدته إلى الأبد، ولكنني الآن أكاد أراه.

ـ ألم تعودي حزينة؟ من مثلك! ـ أجبتها غاضبة.

ـ أشعر بالحزن، ولكني أتقبله. إنني في حالة معنوية أفضل بكثير.

ـ أهنئك. أنا في حالة معنوية متزايدة السوء في ملجأ البلهاء هذا. أخرجيني من هنا يا نيني قبل أن أصاب بالجنون فعلاً.

ـ لا تكوني مأساوية يا مايا. هذا المكان أكثر لطفاً بكثير مما كنت أتوقعه، هنالك تفهم ولطف في التعامل.

ـ لأنكم آتون في زيارة!

ـ أتعنين أنهم يسيئون معاملتك عندما لا نكون موجودين؟

ـ لا يضربوننا، ولكنهم يطبقون علينا التعذيب النفسي يا نيني. إنهم يحرموننا من الطعام والنوم، يخفضون حصانتنا وبعد ذلك يغسلون أدمغتنا، يدسون أموراً في رؤوسنا.

ـ أية أمور؟

ـ تحذيرات مرعبة حول المخدرات، وأمراض زهرية، وضغوط، ومستشفيات عقلية، وعمليات إجهاض، إنهم يعاملوننا كما لو أننا بلهاء. أترين هذا قليلاً؟

ـ أراه كثيراً. سأذهب لأتكلم بوضوح مع تلك المرأة، ما هو اسمها؟ آنجي؟ وسوف ترين من أنا!

ـ لا ! ـ صرختُ وأنا أثبتها مكانها.

ـ كيف تقولين لا ! أتظنين أنني سأسمح لهم بأن يعاملوا حفيدتي كمعتقلة في غوانتانامو؟ ـ وانطلقت المافيا التشيلية بخطوات واسعة نحو مكتب المديرة. بعد دقائق من ذلك استدعتني آنجي.

ـ كرري من فضلك يا مايا أمام أبيك ما قلتِهِ لجدتك.

ـ عن أي شيء؟

ـ أنت تعرفين ما الذي أعنيه ـ أصرَّت آنجي دون أن ترفع صوتها.

لم يبدُ التأثر على أبي واكتفى بتذكيري بما قالته القاضية : إعادة التأهيل أو السجن. فبقيت في أوريغون.

في الزيارة الثانية، بعد شهرين، كانت نيني سعيدة جداً : لقد استعادت صغيرتها أخيراً، هذا ما قالته، فلا شيء من مكياج دراكولا أو من أساليب العصابات، رأتني معافاة وبحالة جيدة. وهذا كله بفعل الثمانية كيلومترات التي أركضها يومياً. وهم يسمحون لي بذلك لأني مهما ركضت لن أصل بعيداً. وما عادوا يرتابون في أنني أتمرن على الجري من أجل الهروب.

أخبرت جدتي كيف نسخر نحن النزلاء من اختبارات المعالجين النفسية بالغة الشفافية في نواياهم بحيث يمكن لأحدث المستجدين أن يتحكم بهم. ولماذا الحديث عن المستوى الأكاديمي، فهم يمنحوننا عند التخرج شهادة جهل لنعلقها على الجدار. إننا ضجرون من كثرة الأفلام الوثائقية حول ازدياد حرارة القطبين والرحلات إلى إفرست، كنا بحاجة لمعرفة ما الذي يجري في العالم. فأخبرتني بأنه لا يحدث شيء يستحق الذكر، بل أخبار سيئة بلا حلول، فالعالم آخذ بالانتهاء، ولكن ببطء شديد بحيث سيستمر إلى حين تخرجي. «أعدّ الساعات لعودتك إلى البيت يا مايا. إنني أشتاق إليك كثيراً !» قالت متنهدة وهي تداعب شعري المصبوغ بعدة ألوان لا وجود لها في الطبيعة، بالأصباغ نفسها التي ترسلها لي هي نفسها بالبريد.

وعلى الرغم من قوس قزح شعري، كانت تراني رصينة بالمقارنة مع بعض زملائي. ولتعويضنا عن القيود الكثيرة المفروضة ومنحنا إحساساً زائفاً بالحرية، يسمحون لنا بالتجريب في ملابسنا وشعرنا حسب تخيلات كل واحد منا، ولكن لا يمكننا إضافة ثقوب أقراط أو وشوم جديدة إلى الموجودة مسبقاً. أنا كنت أضع حلقة ذهبية في ثقب بأنفي، ولدي وشم 2005. وهناك فتى تجاوز مرحلة النازية الجديدة قبل أن يميل إلى المخدرات، لديه وسم مطبوع بحديد محمى على ذراعه الأيمن، وفتى آخر وشم كلمة *fuck* على جبينه.

ـ لديه ميل إلى الـ *fuck* يا نيني. لقد حظروا علينا ذكر وشمه. فالمعالج النفسي يقول إن ذلك قد يؤدي إلى صدمة نفسية.

ـ أي فتى هو هذا يا مايا؟

ـ ذاك الطويل الذي له ستارة من الشعر تنزل حتى عينيه.

وإليه ذهبت نيني لتقول له ألا يقلق، فهناك الآن أشعة ليزر تمحو تلك الكلمة البذيئة.

❖ ❖

استغل مانويل فصل الصيف القصير ليجمع معلومات، ويفكر في أن ينهي بعد ذلك، في ساعات الشتاء المظلمة، كتابه حول السحر في تشيلوي. إن علاقتنا على خير ما يرام، هذا ما يبدو لي على الأقل، مع أنه مازال يزمجر عليّ بين حين وآخر. لا أعيره اهتماماً. أتذكر أنه بدا لي نفوراً عندما تعرّفتُ إليه، ولكن بعد هذه الشهور من عيشنا معاً اكتشفت أنه واحد من أولئك الأشخاص طيبي القلب الذين يخجلون من كونهم كذلك؛ فهو لا يبذل مجهوداً ليبدو لطيفاً، ويصيبه الذعر من أن يحبه أحدهم، ولهذا السبب يشعر بشيء من الخوف مني. اثنان من كتبه السابقة نشرا في أستراليا في قطع كبير مع صور ملونة، وكتابه الحالي سيكون مثلهما، بفضل رعاية مجلس الثقافة وعدة شركات سياحية. وقد كلّف الناشرون رساماً واسع الشهرة في سنتياغو بوضع الرسوم التوضيحية، ولا بد أنه

سيجد نفسه في مأزق اختلاق هيئة بعض الكائنات المخيفة في ميثولوجيا تشيلوي. آمل أن يكلفني مانويل بمزيد من العمل، لأنني سأتمكن بذلك من مكافأته على استضافتي ؛ وإلا سأبقى مدينة له طوال ما تبقى من حياتي. السيئ فيه أنه لا يعرف تفويض أحد بعمله، فهو يكلفني بأسهل المهمات، ثم يضيع وقته بعد ذلك في مراجعة ما كلفني به. لابد أنه يظنني خرقاء. والأدهى أنه اضطر إلى إعطائي نقوداً، لأني وصلت إليه خالية الوفاض. أكد لي أن جدتي أرسلت إليّ حوّالة مصرفية، ولكنني لا أصدقه، لأن مثل هذه الحلول البسيطة لا تخطر لجدتي. فالأكثر موافقة لطبعها أن ترسل إليّ رفشاً كي أفتش عن كنوز. هنا توجد كنوز دفنها القراصنة القدماء، الجميع يعرفون ذلك. ففي ليلة عيد القديس جوان، يوم 24 حزيران، تظهر أنوار على الشواطئ، إشارة إلى أن صندوق كنز مدفون هناك. لسوء الحظ أن الأنوار تتحرك، وهذا ما يضلل الطامعين، أضف إلى ذلك أن الضوء قد يكون خدعة من السحرة. فليس هنالك حتى الآن من صار غنياً بالحفر في ليلة القديس خوان.

المناخ آخذ بالتبدل بسرعة وقد حاكت لي إدوفيخيس طاقية تشيلوية. لقد صبغت لها دونيا لوثيندا، ذات المئة عام، الصوف بنباتات ولحاء أشجار وثمار من الجزيرة. هذه العجوز الهرمة خبيرة، وليس هنالك من يتوصل إلى ألوان شديدة الثبات والصمود مثل ألوانها، عدة تدرجات من اللون البني، والأحمر والرمادي والأسود، وأخضر بلون المرارة يناسبني تماماً. بقليل من النقود يمكنني أن أجهز نفسي بملابس دافئة وحذاء، لأن جزمتي الوردية قد تعفنت من الرطوبة. لا أحد في تشيلي ينقصه المال ليلبس بصورة محترمة : في كل مكان يبيعون ملابس مستخدمة أو مجلوبة من تصفيات أمريكية أو صينية، حيث توجد أشياء تناسب مقاسي أحياناً.

لقد صرت أحترم *كاهويّيا*، زورق مانويل، فهو واهن في مظهره، ولكنه شديد الجرأة في القلب. لقد حملنا خبباً عبر خليج أنكود، وبعد انتهاء

الشتاء سنذهب أبعد باتجاه الجنوب، إلى خليج كوركوفادو، بالإبحار بمحاذاة الجزيرة الكبرى. *كاهويّيا* زورق بطيء، ولكنه آمن في هذه المياه الهادئة؛ فأسوأ العواصف تحدث في عرض البحر، في المحيط الهادي. في الجزر والقرى النائية يوجد الأشخاص القدماء الذين يعرفون الأساطير. فالقدماء يعيشون على العمل في الريف، وتربية الماشية وصيد السمك، يعيشون في جماعات صغيرة، حيث لم تصلهم ترهات التقدم بعد.

نخرج أنا ومانويل عند الفجر، فإذا كانت المسافة قصيرة نحاول الرجوع قبل حلول الظلام، أما إذا كانت الرحلة تستغرق أكثر من ثلاث ساعات فإننا نبقى للنوم، لأن سفن الأسطول البحري، والسفينة الشبح *كاليوتشي*، هي وحدها التي تبحر في الليل. وحسب ما يقوله القدماء فإن كل ما هو موجود فوق الأرض، موجود كذلك تحت الماء. هنالك مدن غارقة في البحر، وفي بحيرات وأنهار ومستنقعات، وفيها يعيش **البيغويتشينين**، وهي مخلوقات سيئة الطباع قادرة على إحداث أمواج هائجة وتيارات غادرة. يجب توخي الحذر الشديد في الأمكنة المبلولة، هكذا حذرونا، ولكنها نصيحة غير مجدية في هذه الأراضي دائمة الأمطار، حيث البلل في كل مكان. في بعض الأحيان نجد قدماء مستعدين تماماً ليرووا لنا ما رأته عيونهم ونرجع عندئذ إلى البيت بكنز من التسجيلات، يتبين لنا فيما بعد أنه خليط متشابك لا يمكن حلّ رموزه، لأن لهم طريقتهم الخاصة في التكلم. في بداية الحديث يتجنبون موضوع السحر، فهي من شؤون العجائز كما يقولون، ولم يعد هناك من يصدق هذه الأمور؛ ربما يخشون انتقام «أصحاب الفن»، مثلما يسمون السحرة، أو أنهم لا يرغبون في المساهمة في زيادة شهرة المشعوذين، ولكن بتقديم شراب المانيا وتشيتشا التفاح لهم يأخذ مانويل بجرجرتهم في الكلام.

❖ ❖

واجهنا العاصفة الأكثر جدية حتى الآن، جاءت بخطوات مارد لتلطم

العالم بغضب. انفلتت صواعق ورعود ورياح جنونية صفعتنا بقوة مصممة على حمل البيت للإبحار به في المطر. أُفلتت الخفافيش الثلاثة من عارضة السقف وبدأت تلف محلقة في الصلة بينما أنا أحاول إبعادها بالمكنسة والقط الأبله يوجه نحوها ضربات غير صائبة من مخالبه وسط ضوء الشموع الغائم. فقد كان مولد الكهرباء معطلاً منذ عدة أيام ولم نكن ندري متى سيأتي «معلم الطقطقة»، إذا أتى، فليس هنالك من يتقيد بمواعيد في هذه الأنحاء. وفي تشيلي يطلقون تسمية معلم الطقطقة على كل شخص قادر على إصلاح شيء إلى هذا الحد أو ذاك باستخدام كماشة وسلك، ولكن لا وجود لواحد منهم في هذه الجزيرة، وعلينا أن نلجأ لمن هم من خارجها، وهؤلاء يجعلون الناس ينتظرونهم طويلاً كما الوجهاء. كانت ضجة العاصفة مدوية، ضجة صخور تتدحرج، دبابات حربية، قطارات منقلبة، عواء ذئاب، وفجأة يسود هدوء آتٍ من باطن الأرض. «الأرض تهتز يا مانويل»، ولكنه يواصل القراءة دون تأثر وهو يضع مصباح خوذة منجمي على جبهته. «إنها الرياح فقط يا امرأة، فعندما تحدث هزة تسقط القدور».

في أثناء ذلك جاءت أثوثينا كورّاليس وهي تقطر ماء، كانت ترتدي معطفاً بلاستيكياً وجزمة صياد سمك، وقد حضرت لطلب نجدة لأن أباها في حالة سيئة جداً. لم تكن ثمة إشارة في الهواتف المحمولة وسط تلك العاصفة الهوجاء، وبدا السير حتى القرية مستحيلاً. ارتدى مانويل معطفاً مطرياً، وطاقية وجزمة، وتناول مصباح البطارية اليدوي واستعد للخروج. فانطلقتُ وراءه، لم أكن راغبة في البقاء وحدي مع الخفافيش والعاصفة.

بيت آل كورّاليس قريب منا، ولكننا تأخرنا قرناً في اجتياز تلك المسافة في الظلام، مبللين بشلال السماء، وغائصين في الوحل ومصارعين ضد الرياح التي تدفعنا إلى الخلف. بدا لي للحظات أننا أضعنا الطريق، ولكن ظهر لنا فجأة البريق الأصفر الخافت من نافذة آل كورّاليس.

البيت أصغر من بيتنا ومهلهل جداً، يحافظ على انتصابه بصعوبة وسط قرقعة ألواح خشبية مفلتة، ولكنه محمي من الداخل. وعلى ضوء مصباحيّ بارافين تمكنت من رؤية فوضى أثاث قديم، وسلال صوف مُعَدّ للغزل، وأكداس من البطاطا، وقدور، وحزم، وملابس منشورة لتجف على سلك، ودلاء لتلقي الماء الذي يقطر من السقف، بل وأقفاص أرانب ودجاج. كان هناك في أحد الأركان مذبح عليه شمعة مشتعلة قبالة تمثال للعذراء من الجبس ورسم للأب هورتادو، قديس التشيليين. وكانت الجدران مزينة بتقاويم، وصور في أُطر، وبطاقات بريدية وإعلانات سياحة بيئية ومرجع التغذية للمسن الأكبر.

كارميلو كورّاليس رجل متين البنية، نجار وبناء زوارق، ولكن الكحول وداء السكري هزماه، فهما ينخران بدنه منذ زمن طويل. لم يولِ اهتماماً للأعراض في البدء، وبعد ذلك عالجته زوجته بالثوم والبطاطا النيئة وأوراق الكينا، وعندما أجبرته ليليان تريفينو على الذهاب إلى المستشفى في كاسترو كان الوقت قد فات. وجعلته مداخلة الأطباء، حسب قول إدوفيخيس، أسوأ حالاً. لم يبدّل كورّاليس أسلوب حياته، واصل الشرب واستغلال أسرته إلى أن بتروا إحدى ساقيه في شهر كانون الأول من العام الماضي. فلم يعد قادراً على الإمساك بأحفاده لضربهم بالحزام، ولكن إدوفيخيس تمضي عادة وعينها محاطة بكدمة بنفسجية دون أن يلفت ذلك اهتمام أحد. طلب مني مانويل عدم السؤال، لأن ذلك سيُحرج إدوفيخيس، فالعنف المنزلي يظل مستتراً بالصمت عليه.

كانوا قد قربوا سرير المريض من مدفأة الحطب. ومن خلال القصص التي كنت قد سمعتها عن كارميلو كورّاليس، عن مشاجراته عندما يكون مخموراً والطريقة التي يسيء بها معاملة أسرته، صرت أتخيله رجلاً جلفاً لا يعرف التأثر، ولكن من رأيته في ذلك السرير كان عجوزاً مسالماً، مخلعاً ومعروقاً، جفناه شبه مغلقين، وفمه مفتوح، يتنفس بشخيرِ محتضر. كنت أظن أن الأنسولين هو ما يُعطى على الدوام لمرضى السكري، ولكن مانويل

أعطاه بضع ملاعق من العسل، فاستجاب المريض بها وبصلوات إدوفيخيس. حضّرت لنا أثوثينا فنجان شاي، تناولناه بصمت بانتظار أن تهدأ العاصفة.

❖ ❖

في حوالي الساعة الرابعة فجراً رجعتُ ومانويل إلى بيتنا، وجدناه بارداً، لأن المدفأة كانت قد انطفأت منذ بعض الوقت. ذهب مانويل لإحضار حطب بينما رحتُ أشعل الشموع وأُسخن ماء وحليباً على موقد البرافين. ودون أن انتبه، وجدت نفسي أرتجف، ليس من البرد بقدر ما هو بسبب توتر تلك الليلة: العاصفة، الخفافيش، الرجل المحتضر، وشيء ما أحسست به في بيت آل كورّاليس ولا أعرف كيف أفسره، إنه شيء من السحر المشؤوم، من ضغينة. فإذا كانت البيوت تعبق برائحة الحياة التي تدور بين جدرانها، فإن في بيت آل كورّاليس رائحة خبث.

أشعل مانويل النار بسرعة، خلعنا ملابسنا المبللة، وارتدينا ثياب النوم، وأجربة سميكة وتدثرنا ببطانيات تشيلوية. وبينما نحن نقف بمحاذاة المدفأة، تناول هو فنجان شايه الثاني وتناولت أنا كأسي من الحليب، وبعد ذلك قام بتفحص النوافذ ليرى إن كانت قد تخلخلت من قوة الرياح، وهيأ قربة الماء الساخن لي ووضعها في حجرتي وانسحب إلى حجرته. شعرت به يذهب إلى الحمام ويعود منه ويندس في فراشه. ظللت أستمع إلى آخر زفرات العاصفة: الرعود الآخذة بالابتعاد، والرياح المتعبة من الهبوب.

لقد طوّرت عدة استراتيجيات للتغلب على الخوف من الليل، ولم تنفعني أي منها. إنني سليمة البدن والذهن منذ وصولي إلى تشيلوي، ولكن أرقي ازداد سوءاً ولستُ أرغب في اللجوء إلى المنومات. لقد نبهني مايك أوكلي إلى أن آخر ما يسترده المدمن هو النوم الطبيعي. إنني أتجنب، في المساء، تناول الكافيين والمحفزات القوية مثل الأفلام أو الكتب التي تقدم مشاهد عنف، لأنها تنغص عليّ الليل. فأنا أتناول قبل النوم كأس حليب فاتر مع العسل والقرفة،

إنه المشروب السحري الذي كان يقدمه إليّ جدي بوبو في طفولتي، كما أتناول مشروبات إدوفيخيس المهدئة: زيزفون، بيلسان، نعناع، بنفسج، ولكن مهما يكن ما أفعله، ومهما تأخر موعد نومي، وحتى لو قرأت إلى أن ينطبق جفاني، فإنني لا أستطيع خداع الأرق، إنه متماد لا يلين. لقد أمضيت ليالي كثيرة من حياتي بلا نوم، كنت في السابق أعدّ خرافاً، وأنا أعدّ الآن بجعات سوداء الرقاب أو دلافين بيضاء البطون. أقضي ساعات في الظلام، الساعة الواحدة، الثانية، الثالثة فجراً، وأنا أسمع تنفس البيت، وهمهمة الأشباح، وخرمشة مسوخ تحت سريري، وخائفة على حياتي. يهاجمني الأعداء المعهودون، آلام، خسائر، منغصات، ذنوب. إشعال النور يعني إقراري بالهزيمة وأنني لن أنام ما تبقى من الليل، لأن البيت في النور لا يتنفس وحسب، بل إنه يتحرك، ينبض، تظهر له نتوءات ومجسات، وتكتسب الأشباح هالات مرئية، وتضج المسوخ بالصخب. هذه الليلة ستكون واحدة من تلك الليالي التي بلا نهاية، فقد شهدت محفزاً شديداً وفي وقت متأخر. كنت مدفونة تحت جبل من البطانيات أرى مرور بجعات عندما سمعت مانويل يجادل وهو نائم في الحجرة المجاورة، مثلما سمعته في مرات أخرى سابقة.

هنالك ما يستثير فيه تلك الكوابيس، شيء ما مرتبط بماضيه وربما بماضي هذه البلاد. لقد عثرتُ في الانترنت على أمور قد تكون ذات مغزى، ولكني أخبط في العماء مع قليل من الآثار ولا شيء من اليقين. لقد بدأ كل شيء عندما حاولت التحري عن زوج جدتي نيني الأول، فيليبه بيدال، فوصلت فوراً إلى انقلاب عام 1973 العسكري الذي بدّل حياة مانويل. وجدتُ مقالين نشرهما فيليبه بيدال حول كوبا في الستينيات، وكان واحداً من قلة من الصحفيين التشيليين الذين كتبوا عن الثورة الكوبية، ووجدت له تحقيقات صحفية عن أمكنة مختلفة من العالم؛ يبدو أنه كان يسافر دوماً. وبعد بضعة شهور من الانقلاب اختفت آثاره، وهذا آخر ما يظهر في الانترنت عنه. كان متزوجاً وله

ابن واحد، ولكن اسمي الزوجة والابن غير مذكورين. سألت مانويل أين تعرف بالضبط على فيليبه بيدال فأجابني بجفاء أنه لا يريد التحدث في هذا الأمر، ولكن لديّ هاجس بأن قصتي هذين الرجلين مرتبطتان بطريقة ما.

في تشيلي أنكر أناس كثيرون تصديق الفظائع التي ارتكبتها الدكتاتورية العسكرية إلى أن ظهر الدليل الذي لا يقبل الدحض في التسعينيات. ولم يعد بإمكان أحد، على حدّ قول بلانكا، إنكار أعمال التعسف المرتكبة، ولكن مازال هناك من يبررها. لا يمكن التطرق إلى هذا الموضوع أمام أبيها وبقية أفراد أسرة شناك الذين يعتبرون أن الماضي قد دُفن، وأن العسكريين قد أنقذوا البلاد من الشيوعية، وفرضوا النظام، وقضوا على عمليات التخريب، وأقروا اقتصاد السوق الحر الذي جلب الازدهار وأجبر التشيليين المتراخين بطبعهم على العمل. فظائع؟ إنها أمور لا يمكن تجنبها في الحرب، وما حدث كان حرباً ضد الشيوعية.

❖ ❖

بماذا تراه يحلم مانويل هذه الليلة؟ وعدت أحس بهواجس كوابيسه المشؤومة، وهي هواجس أرعبتني من قبل. وأخيراً نهضت، وذهبت متلمسة الجدران إلى حجرته، حيث تصل لمحات من وميض المدفأة، تكاد لا تكفي لتبين محيط قطع الأثاث. لم أدخل تلك الحجرة قطّ من قبل. لقد عشنا متقاربين جداً، فهو من ساعدني عند إصابتي بالتهاب القولون ـ لا وجود لما هو أكثر حميمية من ذلك ـ، ونحن نتلاقى أحياناً عند باب الحمام، بل إنه رآني عارية ذات مرة بعد استحمامي وخروجي ساهية، ولكن حجرته ظلت أرضاً محرمة، لا يدخلها دون دعوة سوى القط الأبله والقط الأديب. لماذا فعلتُ ذلك؟ من أجل إيقاظه وكيلا يستمر في عذابه، ومن أجل خداع الأرق والنوم معه. هكذا وليس أكثر، لكنني كنت أعرف أنني ألعب بالنار، فهو رجل وأنا امرأة، وإن كان يكبرني باثنين وخمسين عاماً.

يروقني النظر إلى مانويل، واستخدام صداره المهترئ، وشم رائحة

صابونه في الحمام، وسماع صوته. تروقني سخريته، ثقته بنفسه، رفقته الصامتة، يروقني أنه لا يعرف مدى المحبة التي يشعر بها الناس نحوه. لستُ أشعر بالانجذاب إليه، لا شيء من ذلك، وإنما أشعر نحوه بحنان عظيم، من المحال التعبير عنه بالكلمات. والحقيقة أنه ليس لدي أشخاص كثيرون يمكن لي أن أحبهم: هنالك نيني، وأبي، وبياض الثلج، وشخصان تركتهما في لاس فيغاس، ولا أحد في أوريغون باستثناء ثنائي الفيكونيا، وبعض من بدأت أحبهم جداً في هذه الجزيرة. اقتربت من مانويل، دون أن أتوخى الحذر من إحداث ضجة، دسست نفسي في فراشه واحتضنتُ ظهره وقدماي بين قدميه وأنفي يلامس رقبته. لم يتحرك، ولكنني عرفتُ أنه قد استيقظ، لأنه تحوّل إلى كتلة من رخام. «استرخِ يا رجل، لقد جئت للتنفس معك وحسب»، كانت هذه الكلمات هي الشيء الوحيد الذي خطر لي قوله. ظللنا على تلك الحال، نتنفس كزوجين عجوزين يتدثران بدفء الأغطية وبدفء الاثنين كليهما. ونمت بعمق كما في الأزمنة التي كنت أنام فيها بين جديّ.

أيقظني مانويل في الساعة الثامنة حاملاً إلي فنجان قهوة وخبزاً محمصاً. كانت العاصفة قد انقشعت وخلّفت الهواء مغسولاً، يعبق برائحة طازجة من الخشب المبلل والملح. ما حدث في الليلة الفائتة بدا كأنه حلم خبيث مع ضوء الصباح الذي يحمم البيت. كان مانويل قد حلق ذقنه، وكان شعره مبللاً، ويرتدي ملابسه بطريقته المعهودة: بنطال مشوه، كنزة مرفوعة العنق، وسترة خيوطها منسولة عند المرفقين. قدم إلي صينية الفطور وجلس إلى جانبي.

ـ عذراً. لم أستطع النوم، وأنتَ كنت تعاني كابوساً. أظن أن المجيء إلى حجرتك كان حماقة مني... ـ قلتُ له.

ـ أوافقك الرأي.

ـ لا تبدي لي هذا الوجه الذي كوجه عانس يا مانويل. يمكن لمن يراك أن يظن أنني اقترفت جريمة لا تغتفر. لم أغتصبك ولم أفعل أي شيء من هذا.

ـ لحسن الحظ ـ أجابني بلهجة صارمة.

ـ أيمكنني أن أسألك سؤالاً شخصياً؟

ـ الأمر يعتمد.

ـ أنظرُ إليك وأرى رجلاً، وإن تكن عجوزاً. أما أنت فتعاملني مثلما تعامل قطيك. أنت لا تراني كامرأة، أليس كذلك؟

ـ أنا أراكِ أنت يا مايا. ولهذا أطلب منك ألا تعودي إلى فراشي. مطلقاً. هل كلامي واضح؟

ـ اتفقنا.

❖ ❖

في هذه الجزيرة الغنائية من تشيلوي، يبدو اضطرابي من الماضي غير مفهوم. لا أدري ما هي تلك الحكة الداخلية التي لم تكن تتيح لي الراحة من قبل، ولا لماذا كنت أقفز من أمر إلى آخر، وأبحث دوماً عن شيء دون أن أدري ما الذي أبحث عنه؛ لا أتوصل إلى تذكر واضح لدوافع ومشاعر السنوات الأخيرة الثلاث، كما لو أن مايا بيدال ذلك الحين هي شخصية أخرى، شخصية مجهولة. لقد تحدثت في الأمر مع مانويل في واحدة من محادثاتنا الحميمة إلى هذا الحد أو ذاك والنادرة، عندما نكون وحيدين، بينما المطر يهطل في الخارج، والنور منقطع، ولا يمكنه أن يلوذ بكتبه ليهرب من التحدث معي، وقد قال لي إن الأدرنالنين مطواع، يمكن لأحدنا أن يعتاد على العيش على أحر من الجمر، ولكن لا يمكنه التخلص من الميلودرامية، فهي في نهاية المطاف أكثر تشويقاً من الأحوال العادية. وأضاف أن لا أحد في مثل عمري يرغب في طمأنينة روحية، فأنا في سن المغامرة، وهذا المنفى في تشيلوي هو حالة ركود، ولكنه لا يمكن أن يتحول إلى طريقة في الحياة لشخص مثلي. فسألته: «هذا يعني أنك تلمح لي بأنني كلما غادرت بيتك في وقت أسرع، يكون أفضل، أليس كذلك؟» فأجابني: «سيكون أفضل

بالنسبة إليك يا مايا، ولكنه ليس كذلك بالنسبة إليّ». وقد صدقته، لأنني عندما أغادر سيشعر هذا الرجل بأنه أشد وحدة من رخوية في قوقعة.

صحيح أن الأدرنالنين مطواع. ففي أوريغون كان هناك بعض الفتيان القذِرين المرتاحين جداً في نكبتهم. فالسعادة صابونية، تنزلق من الأصابع، أما المشاكل فيمكن لأحدنا أن يتشبث بها، لأنه لها ممسك تُمسك منه، إنها خشنة، قاسية. لقد كانت لي، في الأكاديمية، روايتي الروسية الخاصة: كنت سيئة، دنسة ومؤذية، أغش وأجرح أكثر المحبين لي، وكانت حياتي مدمرة نهائياً. أما في هذه الجزيرة بالمقابل، فإنني أشعر في معظم الأوقات بأنني طيبة، كما لو أنني بتبديل المكان والمشهد قد بدّلت جلدي كذلك. هنا لا وجود لمن يعرف ماضيَّ، باستثناء مانويل. فالناس يثقون بي، يظنون أني طالبة في إجازة وأنني جئت لمساعدة مانويل في عمله، فتاة بريئة وسليمة، تسبح في البحر الجليدي وتلعب كرة القدم كالرجال، غرينغية بلهاء. ولا أفكر في أن أخيب ظنهم.

في بعض الأحيان، في ساعات الأرق، أشعر بوخز التأنيب على كل ما فعلته من قبل، ولكن ذلك كله يتلاشى في الصباح مع رائحة الحطب في المدفأة، وقائمة **فاكن** وهو يخمشني كي أُخرجه إلى الفناء، ونحنحة ربو مانويل وهو يتوجه إلى الحمام. أستيقظ، أتثاءب، أتمطى في الفراش وأتنهد سعيدة. لا ضرورة لأن أضرب صدري بركبتي ولا دفع ثمن أخطائي دموعاً ودماً. فالحياة، حسب ما كان يقوله بوبو، قطعة قماش تُطرز يوماً فيوماً بخيوط متعددة الألوان، بعضها سميك وقاتم، وغيرها نحيل ومشرق، جميع الخيوط تنفع. الحماقات التي اقترفتها صارت جزءاً من قطعة القماش، لا يمكن محوها، ولكنني لن أتحمل وزرها حتى موتي. ما حدث قد حدث؛ وعليّ أن أنظر إلى الأمام. لا وجود في تشيلوي لوقود من أجل محارق اليأس. وفي بيت أشجار السرو هذا يطمئن القلب.

في شهر حزيران 2008 أنهيت برنامج التأهيل في أكاديمية أوريغون، حيث بقيت محتجزة ثلاثة عشر شهراً. وخلال أيام قليلة سأتمكن من الخروج

من الباب العريض ولن أشتاق إلا إلى حيوانيّ الفيكونيا وستيف، المستشار المفضل لدى التلميذات البنات. لقد كنت مغرمة به بطريقة غامضة، مثل الفتيات الأخريات، ولكنني متكبرة بطريقة لا تسمح لي بتقبل ما يفعلن. ففتيات أخريات تسللن سراً إلى غرفته في الليل، ولكنهن أُعدن بلطف إلى فراشهن. وقد كان ستيف عبقرياً في الصدّ. الحرية أخيراً. صار بإمكاني العودة للاندماج في عالم الكائنات العاديين، وإتخام نفسي بالموسيقى والأفلام والكتب المحظورة، وأن أفتح حساباً في الفيسبوك، وهو آخر موضة في شبكات التواصل الاجتماعي، وما يتمناه جميع من هم في الأكاديمية. أقسمت أنني لن أطأ أبداً أرض ولاية أوريغون طوال ما تبقى من حياتي.

وعدت أول مرة منذ شهور إلى التفكير في سارا وديبي متسائلة عما حلَّ بهما. إذا كان الحظ قد حالفهما فستكونان قد أنهيتا المدرسة الثانوية وصارتا في مرحلة البحث عن عمل، لأنه من غير الممكن أن تتمكنا من الذهاب إلى الكوليج، لأن دماغيهما لا يتيحان لهما ذلك. لقد كانت ديبي سيئة جداً في الدراسة دوماً، وسارا لديها ما يكفي من المشاكل؛ وإذا لم تكن قد شفيت من الجوع البقري، فسوف تكون في المقبرة دون شك.

ذات صباح دعتني آنجي للقيام بنزهة بين أشجار الصنوبر، وهذا أمر مريب جداً، لأن ذلك لم يكن من أساليبها، وأخبرتني بأنها راضية عن تقدمي، وأنني قمت بالعمل وحدي، وأن الأكاديمية قد سهلت ذلك لي، وأنه يمكنني الآن الذهاب إلى الجامعة، على الرغم من أنه قد تكون هناك بعض الفجوات في دراستي. فقاطعتها: «إنها بحار وليس فجوات». تسامحت مع وقاحتي بابتسامة وذكّرتني بأن مهمتها لم تكن تقديم المعارف، فهذا يمكن أن تقوم به أي مؤسسة تعليمية، وإنما مهمة أشد حساسية بكثير، منح الشباب الوسائل النفسية لبلوغ أقصى قدراتهم الكامنة.

ـ لقد نضجتِ يا مايا، وهذا هو المهم.

ـ معك حق يا آنجي. فقد كانت خطتي وأنا في السابعة عشرة من عمري أن أتزوج من مليونير عجوز، أسممه وأرث ثروته، أما الآن فلدي مخطط لتربية حيوانات الفيكونيا وبيعها.

لم يبدُ لها قولي ظريفاً. اقترحت عليّ، بشيء من المواربة، أن أبقى في الأكاديمية كمدربة رياضية ومعاونة في ورشة الفن خلال الصيف. ويمكنني بعد ذلك الذهاب مباشرة إلى الكوليج في شهر أيلول. وأضافت أن أبي وسوزان آخذان بالطلاق، كما هو معروف، وأن أبي قد عُيّن على خط طيران إلى الشرق الأوسط.

ـ وضعك معقد يا مايا، لأنك بحاجة إلى الاستقرار في المرحلة الانتقالية. لقد كنت محمية هنا، أما في بيركلي فسوف تفتقرين إلى بنية لذلك. من غير الملائم أن ترجعي إلى الأجواء نفسها.

ـ سأعيش مع جدتي.

ـ جدتك صارت في سن لا يمكن لها...

ـ أنت لا تعرفينها يا آنجي! لديها من الطاقة أكثر مما لدى مادونا. ودعك من تسميتها جدة، لأن لقبها هو دون كورليوني، مثل لقب العراب. لقد ربتني نيني بضربات من أصابعها على الرأس، فأي بنية أكبر من هذه تريدين.

ـ لن نتجادل بشأن جدتك يا مايا. ولكن شهرين أو ثلاثة شهور أخرى يمكن أن تكون حاسمة بشأن مستقبلك. فكري في الأمر قبل أن تردي عليّ.

عندئذ أدركتُ أن أبي قد أجرى اتفاقاً معها. فأنا وإياه لم نكن على تواصل كبير قطّ. ففي طفولتي كان شبه غائب، وقد رتب الأمر لإبقائي بعيدة عنه، بينما كان جدايّ نيني وبوبو يصارعان معي. وعندما توفي جدي وساءت الأمور بيننا وضعني مقيمة في أكاديمية أوريغون وغسل يديه مني. ولديه الآن خط طيران إلى الشرق الأوسط، وهذا مناسب تماماً له. لماذا أتى بي إلى الدنيا؟ كان عليه أن يكون أكثر حذراً في علاقته مع أميرة لابونيا، لاسيما أن كليهما لم يكن يرغب في أبناء. أظن أن الواقيات الذكرية كانت

موجودة في ذلك الوقت أيضاً. مرّ هذا كله كومضة في ذهني وتوصلت سريعاً إلى نتيجة أنه لا جدوى من تحديه أو محاولة التفاوض معه، لأنه حرون مثل حمار عندما يضع أمراً في رأسه، وأنه يجب عليّ اللجوء إلى حلّ آخر. كنت قد بلغت الثامنة عشرة من عمري، ولم يكن بإمكانه قانونياً أن يجبرني على البقاء في الأكاديمية؛ ولهذا سعيت إلى التواطؤ ومجاراة آنجي. لأنني إذا تمردت سيجري تفسير ذلك على أنه مشكلة سلوكيّة، وبتوقيع من الطبيب النفساني المقيم يمكن لهم إبقائي بالقوة هناك أو في برنامج آخر مشابه. وافقت على اقتراح آنجي بسرعة كبيرة كان يمكن معها إثارة شكوك شخص أقل ثقة بسلطته منها، وبدأتُ على الفور التحضير لهروبي المؤجل.

❖ ❖

في الأسبوع الثاني من شهر حزيران، بعد أيام من نزهتي بين أشجار الصنوبر مع آنجي، تسبب أحد التلاميذ بحدوث حريق وهو يدخن في قاعة الرياضة. فعقب السيجارة المنسي أحرق فرشة من الإسفنج وتعالت النار حتى السقف قبل أن ترن صفارة الإنذار. لم يحدث شيء بمثل تلك الدراماتيكية والتسلية في الأكاديمية منذ تأسيسها. وبينما كان البناؤون والبستانيون منهمكين بوصل خراطيم الماء، انتهز الفتيان الفرصة ليتفرقوا في حفلة تقافز وصراخ مطلقين العنان للطاقة المتراكمة طوال شهور من التأمل الباطني، وعندما وصل رجال المطافئ والشرطة أخيراً، وجدوا أنفسهم أمام لوحة هذيانية تؤكد الفكرة الشائعة عن أن ذلك المكان هو ملجأ أناس بهم مس شيطاني. امتدت النار مهددة الغابات المجاورة، فطلب رجال المطافئ تعزيزهم بطائرة إطفاء حرائق. وقد فاقم ذلك من هذيان حماسة الفتيان الذين كانوا يتراكضون تحت دفقات الرغوة الكيميائية، غير عابئين بأوامر السلطات.

كان صباحاً بديعاً. فقبل أن تغطي سحابة الدخان السماء، كان الهواء دافئاً ونظيفاً، ومثالياً لهروبي. كان عليّ أن أقوم أولاً بنقل ثنائي الفيكونيا إلى

مكان آمن، وكان الجميع قد نسوا وجودهما وسط الاضطراب، وقد أضعت نصف ساعة في محاولة تحريكهما، إذ كان الخوف من رائحة الحريق قد ألصق قوائمهما بالأرض. وأخيراً خطرت لي فكرة تضميخ قميصين بالماء وتغطية رأسيهما، وهكذا تمكنت من اقتيادهما إلى ملعب التنس، حيث تركتهما مربوطين ومغطيّ الرأسين. ذهبت بعد ذلك إلى غرفة نومي ودسستُ أشيائي الضرورية في جعبتي - صورة بوبو، بعض الملابس، ولوحين من شوكولا الطاقة وقارورة ماء -، وانتعلت أفضل حذاء لدي وتوجهت راكضة نحو الغابة. لم يكن تصرفي حصيلة دافع مفاجئ، بل كنت أنتظر هذه الفرصة منذ قرون، ولكنني حين حانت اللحظة غادرت دون خطة عقلانية، وبلا وثائق شخصية أو نقود أو خريطة، تراودني الفكرة الحمقاء باختفائي بضعة أيام لأسبب لأبي رعباً لا ينساه.

تأخرت آنجي ثمان وأربعين ساعة في الاتصال بأسرتي، فقد كان طبيعياً أن يختفي التلاميذ المقيمون بين حين وآخر؛ وأن يبتعدوا في الطريق العام، ويهربوا حتى أقرب قرية، على بعد ثلاثين كيلومتراً، ليتذوقوا طعم الحرية ثم يعودوا من تلقاء أنفسهم، لأنهم لا يدرون إلى أين سيذهبون، أو تعيدهم الشرطة. كانت عمليات الهروب تلك روتينية جداً، ولاسيما بين القادمين الجدد، وكانت تعتبر دليلاً على السلامة الذهنية. ففاقدو الإرادة ومثبطو العزيمة وحدهم هم من يستسلمون بوداعة للأسر والاحتجاز. وبعد أن أكد رجال المطافئ عدم وجود ضحايا في الحريق، لم يسبب غيابي أي قلق خاص، ولكن في اليوم التالي، وبعد أن لم يبق من الإثارة التي سببها الحريق سوى الرماد، بدؤوا البحث عني في القرية وشُكّلت فرق لتمشيط الغابة. وفي أثناء ذلك توفرت لي ساعات طويلة نافعة.

❖ ❖

لست أدري كيف تمكنتُ من التوجه دون بوصلة في ذلك المحيط من أشجار الصنوبر والوصول عبر دروب متعرجة إلى الطريق العام بين الولايات.

لا وجود لتفسير آخر سوى أن الحظ قد حالفني. استمر مسيري الماراتوني ساعات، فقد خرجت في الصباح، ورأيت حلول المساء وبدء الليل. توقفت مرتين لأشرب ماء وأقضم لوحي الطاقة وأنا مبللة بالعرق، وواصلت الركض إلى أن اضطرني الظلام إلى التوقف. تكورت على نفسي بين جذور شجرة لقضاء الليل متوسلة إلى جدي بوبو أن يبعد عني الدببة، فقد كان الكثير منها في تلك الأنحاء، وهي جريئة، تصل أحياناً إلى الأكاديمية بحثاً عن طعام دون أن يقلقها بأي حال قرب البشر منها. كنا نراقبها من خلال النوافذ، دون أن يتجرأ أحد على طردها، بينما هي تقلب دلاء القمامة. كان التواصل مع جدي بوبو، سريع الزوال كما الزبد، قد تعرض لاضطرابات جدّية خلال وجودي في الأكاديمية. ففي الأزمنة الأولى التي تلت وفاته كان يظهر لي، إنني واثقة من ذلك. كنت أراه عند عتبة باب، أو في الجهة المقابلة من الشارع، أو وراء زجاج مطعم. لا يمكن الخطأ فيه، فليس هنالك أي شخص آخر يشبه بوبو، سواء بين الزنوج أم البيض، لا أحد بمثل أناقة ومشهدية بوبو، نظارة مذهبة، قبعة بورسالينو. بعد ذلك بدأت كارثة انحداري، مخدرات وكحول، صخب ومزيد من الصخب، صرت أمضي بذهن مظلم، ولم أعد أراه، ولكنني أظن أنه كان قريباً مني في بعض المناسبات؛ وكان بإمكاني الإحساس بعينيه المصوبتين إلى ظهري. وعلى حدّ قول جدتي، يجب البقاء ساكنة، صامتة، في مكان فارغ ونظيف، لا ساعات فيه، من أجل لمح الأرواح. وكانت تقول لي: «كيف تريدين سماع جدك بوبو وأنت تمضين طوال الوقت وسماعتي جهاز الموسيقى في أذنيك».

في تلك الليلة، بينما أنا وحيدة في الغابة، شعرت مجدداً بخوفي الأصم في ليالي أرق طفولتي، وعادت تهاجمني المسوخ نفسها التي كنت أراها في منزل جديّ. ولا يمكن إلا لاحتضان ودفء شخص آخر أن يساعدني على النوم، شخص أكبر وأقوى مني: جدي بوبو، أو كلبٌ شمام قنابل. «بوبو، بوبو»،

ناديته وقلبي يطفر في صدري. أطبقتُ جفني وأغلقت أذني كيلا أرى الظلال الرجراجة ولا أسمع الأصوات المتوعدة. غفوت لبعض الوقت، لا بد أنه كان قصيراً جداً، واستيقظت متفاجئة بوميض بين جذوع الأشجار. احتجت لبعض الوقت كي أعرف أين أنا، وكي أدرك أن ذلك قد يكون أنوار سيارة، وأنه يعني أنني قريبة من الطريق؛ عندئذ نهضتُ قافزة، وصارخة براحة، واندفعت راكضة.

❖ ❖

لقد بدأت الدروس منذ بضعة أسابيع، ولدي الآن وظيفة معلمة، ولكن بلا أجر. سوف أدفع لمانويل آرياس مقابل استضافتي بطريقة مقايضة معقدة. إنني أعمل في المدرسة، وبدل أن تدفع لي العمة بلانكا مباشرة، كانت تكافئ مانويل بأن تقدم إليه حطباً، وورقاً للكتابة، وبنزيناً، وليكوراً ذهبياً، وأشياء ممتعة أخرى، مثل أفلام لا تُعرض في القرية لأنها بلا ترجمة إلى الإسبانية أو لأنها «مثيرة للاشمئزاز». ليست هي من تطبق الرقابة، وإنما لجنة من الأهالي تطلق صفة «مثيرة للاشمئزاز» على الأفلام الأمريكية التي تتضمن الكثير من الجنس. وهذه الصفة لا تُطبَّق على الأفلام التشيلية، حيث يتقلب الممثلون عادة وهم عراة ويطلقون التأوهات دون أن يطرأ أي تبدل على جمهور هذه الجزيرة.

تشكل المقايضة جانباً مهماً من اقتصاد هذه الجزر، فتجري مبادلة سمك ببطاطا، وخبز مقابل خشب، ودجاج مقابل أرانب، وهناك خدمات كثيرة تُدفع مقابلها بضائع. فالدكتور الأمرد الذي يأتي في المركب لا يتقاضى أجراً، لأنه يتبع للخدمات الصحية الوطنية، ومع ذلك فإن مرضاه يدفعون له دجاجاً أو أقمشة. لا أحد يضع سعراً للأشياء، ولكن الجميع يعرفون القيمة الدقيقة لكل شيء ويحفظون الحساب في ذاكرتهم. ويطفو هذا النظام برشاقة، لا يأتي أحد على ذكر الديون، ولا عما يجري تقديمه أو تلقيه. من لم يولد هنا لن يتوصل أبداً إلى معرفة عميقة لتعقيد وبراعة نظام المقايضة، ولكنني تعلمتُ التعويض عن فناجين الشاي والمتة التي تقدمونها إليّ في

القرية. في البدء لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك، لأني لم أكن فقيرة قطّ بالقدر الذي أنا عليه الآن، حتى عندما كنتُ متسولة، ولكنني لاحظت أن الجيران يبتهجون بتسليتي للأطفال أو مساعدتي لدونيا لوثيندا في صباغة الصوف ولف خيوطه في كرات. ودونيا لوثيندا عجوز مسنة جداً، لا أحد يتذكر إلى أي أسرة تنتمي، وهم يعتنون بها بالتناوب. إنها الجدة الكبرى للقرية، ومازالت نشطة، تغني للبطاطا وتبيع الصوف.

من غير الضروري دفع الجميل مباشرة لمن يقدمه، بل يمكن القيام بذلك بطريقة كارامبولا[1] غير مباشرة، مثلما هي حال بلانكا ومانويل بشأن عملي في المدرسة. وفي بعض الأحيان تكون الكارامبولا مزدوجة أو ثلاثية: ليليان تريفينو تحصل على غلوكوسمين من أجل التهاب مفاصل إدوفيخيس كورّال التي تحوك أجربة صوفية لمانويل آرياس فيستبدل هذا نسخه من مجلة ***ناشيونال جيوغرافيك*** بنسخ من مجلات نسائية في مكتبة بكاسترو ويقدمها إلى ليليان تريفينو عندما تأتي بالدواء لإدوفيخيس، وهكذا تتواصل الدائرة والجميع راضون. ومن المناسب التوضيح بشأن الغلوكوسمين أن إدوفيخيس تتناوله مكرهة، كيلا تُغضب المرضة، لأن العلاج المؤكد الوحيد لالتهاب المفاصل هو الدلك بالقراص بتناوب مع لسعات النحل. وليس غريباً أن الناس هنا ينزفون بمثل هذا العلاج القاسي. أضف إلى ذلك أن الرياح والبرد يؤذيان العظام وتدخل الرطوبة إلى المفاصل؛ فالبدن يُرهق من جمع البطاطا من الحقول وثمار البحر من الماء، ويصاب القلب بالكآبة لأن الأبناء يمضون بعيداً. خمر التشيتشا والنبيذ يقاومان الأحزان لبعض الوقت، ولكن التعب هو الذي يكسب في نهاية الأمر. الحياة هنا ليست سهلة والموت بالنسبة للبعض هو دعوة إلى الراحة.

❖ ❖

أصبحت أيامي أكثر تشويقاً منذ بدأتْ المدرسة. لقد كنت من قبل مجرد

---

[1] الكارامبولا في لعبة البلياردو هي ضرب كرة لتصيب كرة أو كرات أخرى وتُسقطها في الحفرة.

غرينغية، أما الآن وأنا أعلم الأطفال فقد صرت العمة غرينغية. ففي تشيلي يتلقى الأشخاص الكبار لقب عم أو عمة، حتى لو كانوا غير جديرين باللقب. وأنا عليّ، احتراماً، أن أدعو مانويل بالعم، ولكنني عندما وصلت إلى هنا لم أكن أعرف ذلك، وقد فات الأوان الآن. إنني أرسخ جذوري في هذه الجزيرة، وهو ما لم أكن أتصوره قطّ.

في الشتاء ندخل إلى الدروس حوالي الساعة التاسعة صباحاً، مع أخذ الضوء والمطر بالاعتبار. أذهب إلى المدرسة مهرولة، ويرافقني **فاكن** الذي يتركني عند باب المدرسة ويرجع بعد ذلك إلى البيت، حيث يجد المأوى الدافئ. يبدأ اليوم المدرسي برفع العلم التشيلي بينما الجميع مصطفون ينشدون النشيد الوطني ـ ***صافية سماؤك يا تشيلي، ونسمات صافية أيضاً تجوبك***... الخ ـ وبعد ذلك مباشرة تقدم لنا العمة بلانكا مهمات اليوم. وفي أيام الجمعة تتلو أسماء المتفوقين وأسماء المعاقبين وترفع معنوياتنا بخطبتها البناءة.

أُعلّم الأطفال، بصورة أساسية، اللغة الإنكليزية، لغة المستقبل كما تعتقد العمة بلانكا، بالاعتماد على منهاج يعود إلى العام 1952، الطائرات فيه ذات مراوح، والأمهات ـ وهن شقراوات دوماً ـ يطبخن منتعلات أحذية بكعوب عالية. وأُعلّمهم كذلك كيفية استخدام الكمبيوترات التي تعمل دون مشاكل عندما يكون هناك كهرباء، كما أنني المدربة الرسمية للعب كرة القدم، مع أن أي واحد من هؤلاء الأطفال يلعب أفضل مني. هنالك حمية أولمبية لدى فريقنا الذكوري، فريق **الكاليوتشي**، لأني راهنت دون ليونيل شناك، عندما أهدى إلينا الأحذية الرياضية، على أننا سنكسب البطولة المدرسية في أيلول، وإذا خسرنا فسوف أحلق شعر رأسي كله، وهذا سيكون إذلالاً لا يطاق لفريق كرة قدمي كله. أما فريق **البينكويا**، أي الفريق الأنثوي، فهو سيئ جداً ومن الأفضل عدم الحديث عنه.

فريق **الكاليوتشي** استبعد خوانيتو كورّاليس، الملقب بالقزم، لضعف

بنيته، مع أنه يركض مثل أرنب ولا يخشى مواجهة ضربات الكرة. الأطفال يسخرون منه، ويضربونه إذا استطاعوا ذلك. وأكبر التلاميذ سناً هو بيدرو بيلانتشوغاي الذي رسب عدة سنوات، والحجة العامة هي أنه عليه أن يكسب قوته من الصيد مع أعمامه بدلاً من تبديد القليل مما لديه من العقل في تعلّم أعداد وحروف لا تفيد في شيء كثير. إنه هندي هوييتشي، متين البنية، أسمر البشرة، عنيد وصبور، وشخص طيب، ولكن ليس هناك من يتجرأ عليه، لأنه عندما يفقد صبره لا يتورع عن الانقضاض مثل جرار. كلفته العمة بلانكا بحماية خوانيتو. «لماذا أنا؟»، سألها وهو ينظر إلى قدميه. «لأنك الأقوى». ثم استدعت خوانيتو على الفور وأمرته أن يساعد بيدرو في كتابة واجباته. «لماذا أنا؟»، تلعثم الطفل الذي نادراً ما يتكلم. «لأنك الأذكى». بهذا الحلّ السليماني حلّت مشكلة الإساءة لأحدهما وسوء درجات الآخر، وعززت فوق ذلك صداقة متينة بين الصغيرين اللذين تحولا بتوافق مشترك إلى صديقين لا يفترقان.

عند الظهر أساعد في تقديم وجبة الغداء التي توفرها وزارة التربية: لحم دجاج أو سمك، بطاطا، خضار، وتحلية وكأس حليب. وتقول العمة بلانكا إن هذه الوجبة هي الغذاء اليومي الوحيد لبعض الأطفال التشيليين، ولكن الأمر ليس كذلك في هذه الجزيرة. صحيح أننا فقراء ولكن لا ينقصنا الطعام. تنتهي مناوبتي بعد الغداء، فأعود عندئذ إلى البيت لأعمل مع مانويل نحو ساعتين، أما بقية المساء فأكون حرة. في أيام الجمعة تكافئ العمة بلانكا التلاميذ الثلاثة الأفضل سلوكاً خلال الأسبوع بإعطائهم قصاصة ورق صفراء تحمل توقيعها، تتيح لهم الاستحمام في الجاكوزي، أي في برميل العم مانويل الخشبي المملوء بماء ساخن. نقدم في البيت لهؤلاء التلاميذ فنجاناً من الكاكاو مع بسكويت أخبزه بنفسي، ونجعلهم يستحمون بالصابون تحت الدوش ثم نتركهم يلعبون في الجاكوزي إلى أن يخيم الظلام.

❖ ❖

تركت تلك الليلة في أوريغون أثراً لا يُمحى. لقد هربت من الأكاديمية وركضت طيلة النهار في الغابة دون خطة محددة، ودون أي فكرة أخرى في رأسي سوى الهرب من أبي والتخلص من الأطباء النفسانيين وجلساتهم الجماعية، فقد مللتُ لطفهم المُحلّى وإصرارهم المهووس على سبر ذهني. كنت أريد أن أكون عادية، ولا شيء أكثر من ذلك.

أيقظني المرور السريع لسيارة، فركضتُ متعثرة بشجيرات وجذور وأنا أزيح بيدي أغصان صنوبر، ولكنني حين وجدتُ الطريق العام أخيراً، وكان على بُعد أقل من خمسين متراً عني، كانت الأنوار قد اختفت. كان ضوء القمر ينير الخط الصفر الذي ينصِّف الطريق. قدّرتُ أن سيارات أخرى سوف تمر، لأن الوقت لا يزال مبكراً نسبياً، ولم أخطئ في ذلك، فسرعان ما سمعت ضجة محرك قوي تقترب ورأيت من بعيد الوميض النائي لمصباحين، وتكشفا عند اقترابهما عن شاحنة عملاقة، كل واحدة من عجلاتها بارتفاع قامتي، مع علمين يرفرفان على هيكل الشاحنة. اعترضتُ الطريق وأنا أشير بذراعي بيأس. والسائق الذي فوجئ بهذه الرؤيا غير المتوقعة، ضغط على المكابح بقوة، ولكن كان عليّ أن أبتعد مسرعة لأن كتلة الشاحنة الهائلة واصلت تدحرجها بفتور مسافة عشرين متراً قبل أن تتوقف تماماً. ركضت نحو السيارة. أطل السائق من النافذة وأضاءني من أعلى إلى أسفل بمصباح يدوي، متفحصاً إياي، ومتسائلاً عن إمكانية أن تكون هذه الصبية مجرد خدعة من عصابة قطاع طريق، فليست المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك لسائق شحن. ولكنه اطمأن حين تأكد من أنه لا وجود لأحد سواي في محيط المكان ورأى رأسي الذي كرأس مديوزا مع خصل شعر بلون عصير الفاكهة. لا بد أنه استنتج أنني يونكي مسالمة، حمقاء متعاطية مخدرات أخرى. أومأ إليّ، ونزع أمان الباب الأيمن فصعدتُ إلى كابين الشاحنة.

كان الرجل، برؤيته عن قرب، ثقيلاً مثل شاحنته. فهو ضخم، متين،

له ذراعا رافع أثقال، يرتدي بلوزة بلا أكمام وذيل من الشعر يطل من تحت قبعة البيسبول التي يعتمرها، إنه أشبه بكاريكاتير للذكر الجلف، ولكنني لم أعد عندئذ قادرة على التراجع. وكنقيض لمظهره المتوعد كانت هناك فردة حذاء طفل رضيع معلقة بالمرآة العاكسة ورسمان دينيان. «إنني ذاهب إلى لاس فيغاس»، قال لي. فقلت إنني ذاهبة إلى كاليفورنيا وأضفت أن لاس فيغاس ستكون مناسبة أيضاً، لأنه ليس هناك من ينتظرني في كاليفورنيا. كان هذا هو خطئي الثاني، أما الخطأ الأول فكان صعودي إلى الشاحنة.

انقضت الساعة التالية في مونولوج حماسي للسائق الذي كان ينضح حماسة كما لو أنه مكهرب بمخدر. وهو يتسلى خلال ساعات قيادته الأبدية للشاحنة بالتواصل مع سائقين آخرين لتبادل النكات والتعليق على حالة الطقس، والإسفلت، والبيسبول، وشاحناتهم، ومطاعم الطريق، بينما الواعظون الأنجليكانيون يتنبؤون بملء رئاتهم، عبر المذياع، باقتراب المجيء الثاني للمسيح. كان يدخن دون توقف، ويتنحنح ويشرب ماء. وكان الهواء في كابينة القيادة لا يسمح بالتنفس. قدم إليّ بطاطا مقلية من كيس بلاستيكي يضعه على الكرسي، وعلبة كوكاكولا، ولكنه لم يهتم بمعرفة اسمي ولا سبب وجودي ليلاً على طريق موحش. وقد حدثني بالمقابل عن نفسه: يدعى روي فيدجويك، وهو من تينيسي، كان في الجيش إلى أن أصيب في حادث وأحالوه على التقاعد. وخلال وجوده في مستشفى الجراحة العظمية، حيث أمضى عدة أسابيع، وجد يسوع. وواصل الكلام والاستشهاد بمقاطع من الكتاب المقدس، بينما أنا أحاول، دون جدوى، أن أسترخي مسندة رأسي إلى نافذتي، أبعد ما يكون عن سيجارته. كانت ساقاي محمومتين وأشعر بتنميل مزعج بسبب ما بذلته من جهد في النهار.

❖ ❖

بعد التقدم حوالي ثمانين كيلومتراً، انحرف فيدجويك عن الطريق العام وتوقف أمام موتيل. لوحة أضواء زرقاء، فيها عدة مصابيح محروقة، تشير إلى

اسمه. لم تكن هنالك إشارات إلى أي حركة أو نشاط. صف من الغرف، وآلة لبيع زجاجات مياه غازية، وقمرة هاتف عمومي، وشاحنة، وسيارتان يبدو من مظهرهما أنهما تقفان هناك منذ بداية الأزمنة.

ـ إنني أسوق منذ السادسة صباحاً. فلنقضِ الليل هنا ـ قال لي فيدجويك.

ـ أُفضّل النوم في شاحنتك، إذا لم يكن لديك مانع ـ قلت له وأنا أفكر في أنني لا أملك نقوداً لاستئجار غرفة.

مدّ الرجل ذراعه من فوقي ليفتح جيب السيارة الداخلي وأخرج منه قارورة ربع لتر من الويسكي ومسدساً نصف أوتوماتيكي. وتناول كيساً من المشمع، ثم نزل والتف من أمام الشاحنة، وفتح باب الكابين من جهتي وأمرني أن أنزل، لأن ذلك أفضل لي.

ـ كلانا يعرف لماذا نحن هنا أيتها العاهرة الصغيرة. أم تراكِ تظنين أن الرحلة مجانية؟

انصعتُ له بالغريزة، بالرغم من أنهم علّمونا في دورة الدفاع عن النفس، في بركلي هاي، أن أفضل ما يمكن عمله في مثل هذه الظروف هو الارتماء على الأرض والصراخ كمجنونة، وعدم التعاون بأي حال مع المعتدي. لاحظتُ أن الرجل يعرج قليلاً وأنه أقصر قامة وأقل ضخامة مما يبدو عليه وهو جالس، وقد كان بإمكاني أن أهرب راكضة دون أن يتمكن من اللحاق بي، ولكن المسدس منعني من ذلك. أنتبه فيدجويك إلى نواياي، فأمسك بي بقوة من ذراعي واقتادني شبه محمولة باتجاه نافذة منضدة الاستقبال وكانت محمية بزجاج سميك وقضبان حديدية، أدخل عدة أوراق نقدية من فتحة ضيقة، وتلقى المفتاح وطلب أن يرسلوا إليه عبوة من ست زجاجات بيرة وبيتزا. لم أتمكن من رؤية الموظف أو الإيماء إليه، لأن سائق الشاحنة تدبر أمر منعي من الرؤية بضخامة بدنه.

❖ ❖

مشيت نحو الغرفة رقم 32 وقبضة الرجل الضخم التي تشد على

ذراعي، ودخلنا إلى حجرة كريهة الرائحة تعبق بالرطوبة والمعقمات الرخيصة، وفيها سرير مزدوج، وورق جدران مخطط، وجهاز تلفاز، ومدفأة كهربائية، وجهاز تكييف هواء يسد النافذة الوحيدة. أمرني فيدجويك أن أظل مختبئة في الحمام إلى أن يُحضروا البيرة والبيتزا. ويتألف الحمام من دوش بمفاتيح صدئة، ومغسلة، وكرسي مرحاض بنظافة مريبة، ومنشفتين منسولتي الخيوط، ويخلو من مزلاج للباب، وليس فيه سوى كوة علوية ضيقة للتهوية. جبتُ زنزانتي بنظرة وأدركت أنني لم أكن قطّ بائسة إلى هذا الحد. فمغامراتي السابقة كانت مزاحاً بالمقارنة مع هذه المرة، فقد كانت تجري في ميدان أعرفه، ومع صديقتيّ، وكان ريك لاريدو يحمي الانسحاب مع اليقين بأنه يمكن لي في حالة الطوارئ أن ألتجئ إلى حضن جدتي.

تسلم سائق الشاحنة الطلبية، وتبادل جملتين مع الموظف، ثم أغلق الباب واستدعاني لآكل معه قبل أن تبرد البيتزا. لم يكن باستطاعتي إدخال شيء إلى فمي، فقد كانت هنالك صخرة في حلقي. لم يلح علي فيدجويك. بحث عن شيء في كيسه البلاستيكي، ثم ذهب إلى المرحاض دون أن يغلق الباب، ورجع إلى الغرفة وفتحة بنطاله مفتوحة وفي يده كأس بلاستيكي فيه مقدار إصبع من الويسكي. «أتشعرين بالعصبية؟ ستكونين أفضل بتناولكِ هذا»، قال وهو يقدم إلي الكأس. رفضتُ بحركة من رأسي لعجزي عن الكلام، ولكنه أمسك بي من رقبتي ووضع الكأس على فمي. «اشربيه أيتها الكلبة التعيسة، أم أنك تريدين أن أجعلك تشربينه بالقوة؟» ابتلعت الشراب وأنا أسعل وعيناي تدمعان؛ فأنا لم أذق الكحول منذ أكثر من عام، وقد نسيت مذاقه اللاذع.

جلس خاطفي على السرير ليشاهد عملاً كوميدياً في التلفزيون ويشرب في أثناء ذلك ثلاث زجاجات بيرة ويلتهم ثلثي البيتزا وهو يضحك ويتجشأ، متجاهلاً إياي في الظاهر، بينما أنا أقف منزوية في الركن، مستندة إلى الجدار

وأشعر بالدوار. كانت الغرفة تتحرك، والأثاث يتبدل شكله، وكتلة فيدجويك الضخمة تختلط بصور التلفزيون. تراخت ساقايّ واضطررت إلى الجلوس على الأرض مقاومة الرغبة في إطباق عيني والدخول في غيبوبة. كنت عاجزة عن التفكير، ولكنني أدركُ أنني قد خُدرت: إنه ويسكي الكأس الورقي. أطفأ الرجل التلفزيون وقد أتعبته متابعة الكوميديا، واقترب ليقوّم حالتي. رفعتْ أصابعه الثخينة رأسي الذي تحول إلى ثقل حجر ولم تعد رقبتي قادرة على حمله. صدمتْ وجهي أنفاسه المقرفة. عاد فيدجويك للجلوس على السرير، وجمع جرعة من الكوكايين على الكوميدينو باستخدام بطاقة اعتماد مصرفية، واستنشق المسحوق الأبيض بعمق ونشوة. ثم التفت إليّ فوراً وأمرني بخلع ملابسي بينما هو يفرك ما بين ساقيه بسبطانة المسدس، لكنني لم أستطع التحرك. أنهضني عن الأرض وانتزع عني ثيابي بالقوة. حاولت المقاومة، لكن جسدي لم يستجب. وحاولت الصراخ فلم يخرج صوتي. رحت أنزلق في وحل كثيف، دون هواء، وأحسست أني أختنق، أموت.

❖ ❖

ظللتُ شبه غائبة عن الوعي خلال الساعات التالية ولم أدرِ بما جرى من أسوأ أعمال التنكيل، لكن روحي رجعت إليّ من بعيد في إحدى اللحظات وراقبت المشهد في غرفة الموتيل القذرة كما على شاشة بالأبيض والأسود: الهيئة الأنثوية طويلة ونحيلة، خامدة بلا حراك، ومفتوحة الذراعين كصليب، والمسخ الذكوري يطلق البذاءات وينقض مرة بعد أخرى، والبقع القاتمة على الملاءة، والحزام، والمسدس، والقارورة. وبينما أنا أطفو في الهواء رأيت أخيراً فيدجويك ينهار منبطحاً على وجهه، مستنفداً، راضياً، مزبداً، وقد بدأ بالشخير على الفور. بذلتُ جهداً جباراً كي أستيقظ وعدت إلى جسدي الموجوع، ولكنني كنت شبه عاجزة عن فتح عيني، وأقل من ذلك كانت قدرتي على التفكير. النهوض، طلب المساعدة،

الهروب، كانت مجرد كلمات بلا معنى تتشكل كفقاعات صابون وتتلاشى في قطن عقلي المخدر. غرقت مرة أخرى في ظلمة رحيمة.

استيقظت في الثالثة إلا عشر دقائق، حسبما كانت تشير الساعة ذات الأرقام الفسفورية على الكوميدينو. كان فمي جافاً، وشفتاي مجروحتين، يعذبني ظمأ صحراوي. عندما حاولت النهوض انتبهت إلى أنني غير قادرة على الحركة، فقد قيد فيدجويك معصمي الأيسر إلى مسند السرير بقيدين حديديين. كانت يدي متورمة وذراعي متيبسة، وهي الذراع نفسها التي كُسرت من قبل في حادثة الدراجة. الرعب الذي شعرتُ به أزاح شيئاً من كثافة ضباب المخدر. تحركت بحذر في محاولة لمعرفة أين أنا في الظلام. الضوء الوحيد كان يأتي من وميض لوحة إعلان الموتيل الأزرق الذي ينفذ من خلال الستائر القذرة، والبريق الفسفوري الأخضر لأرقام الساعة المضيئة. الهاتف! اكتشفتُ وجوده حين التفَّتُ لرؤية الساعة، وكان إلى جانبها، قريباً جداً.

شددت الملاءة بيدي الطليقة ومسحت البلل اللزج عن بطني وفخذيّ، ثم انقلبتُ إلى اليسار وانزلقت ببطء مؤلم نحو الأرض. كان شدُّ القيدين على معصمي ينتزع مني تأوهات، وصرير نوابض السرير تدوي كأنها فرامل قطار. حين صرت جاثية على ركبتي فوق السجادة الخشنة، وذراعي ملتوٍ في وضع مستحيل، انتظرت برعب ردّ فعل خاطفي، ولكن أعلى بكثير من ضربات قلبي المدوية سمعتُ صوت شخيره. وقبل أن أتجرأ على إمساك الهاتف، انتظرت خمس دقائق لأتأكد من أنه لا يزال غارقاً في إغفاءة السكر العميقة. تكورت على نفسي على الأرض، بأفضل ما يتيحه لي القيدان، وطلبت الرقم 911 كي أطلب نجدة، وخففت الصوت بوسادة. لم يكن هنالك اتصال خارجي. فجهاز هاتف الغرفة لا يتصل إلا بالاستقبال؛ والاتصال إلى خارج الموتيل يتطلب هاتف البوابة العام أو هاتف محمول، وكان هاتف السائق المحمول بعيداً عن متناول يدي. أدرت رقم الاستعلامات

وسمعت الرنين إحدى عشرة مرة قبل أن يرد صوت ذكوري ذو لكنة هندية. «أنا مختطفة، ساعدني، ساعدني...»، قلتُ هامسة، ولكن الموظف أغلق الهاتف دون أن يتيح لي قول المزيد. حاولت من جديد، وكانت النتيجة نفسها. وبيأس، كتمت بكائي في الوسادة القذرة.

❖ ❖

مضى أكثر من نصف ساعة قبل أن أتذكر المسدس الذي استخدمه فيدجويك كلعبة خبيثة معي، معدن بارد في الفم، في الرحم، على الدم. عليّ أن أجد المسدس، إنه أملي الوحيد. ومن أجل العود إلى السرير من جديد وإحدى يدي مقيدة اضطررتُ إلى أن أقوم بتلويات بهلوان سيرك ولم أستطع تجنب اهتزاز الفراش بفعل ثقلي. أصدر السائق نخير ثور، وانقلب على ظهره وسقطت يده على مؤخرتي بثقل طوبة، أصابني تحركه بالشلل، لكنه سرعان ما عاد يشخر وعدت أنا إلى التنفس عند ذلك. كانت الساعة تشير إلى الثالثة وخمس وعشرين دقيقة، الوقت يتجرجر، مازالت هنالك ساعات لطلوع النهار. وأدركت أن تلك هي لحظاتي الأخيرة. ففيدجويك لن يتركني حية أبداً، لأني أستطيع تحديد هويته ووصف شاحنته، وإذا كان لم يقتلني حتى الآن فإنما لأنه يفكر في مواصلة استغلالي. وفكرة أنني هالكة، وأنني سأموت قتلاً ولن يعثروا أبداً على بقاياي في هذه الغابات، منحني شجاعة غير متوقعة. لم يكن لدي ما أفقده.

أزحت يد فيدجويك عن مؤخرتي بخشونة وعدت إلى مواجهته. صفعتني رائحته: أنفاس وحش، عرق، كحول، مني، بيتزا زنخة. ميزتُ بروفيل الوجه البهيمي، والصدر الضخم، وعضلات الذراع الضخمة، والعضو الجنسي كثيف الشعر، والساق الثخينة مثل جذع وابتلعت القيء الذي تصاعد إلى حلقي. بدأت أتلمس بيدي الطليقة تحت وسادته بحثاً عن المسدس. وجدته على الفور تقريباً، لقد كان في متناول يدي، ولكنه مضغوط

تحت رأس فيدجويك الذي تركه هناك مطمئناً، دون شك، إلى سلطته وإلى إذعاني كضحية. تنفستُ بعمق، أغمضت عيني، أمسكت ماسورة المسدس بإصبعين وبدأت أسحبه مليمتراً فمليمتراً، دون أن أحرك الوسادة. وأخيراً تمكنت من إخراج المسدس الذي تبين لي أنه أثقل مما توقعته، شددته إلى صدري وأنا أرتعش من الجهد واللهفة. السلاح الوحيد الذي كنت قد رأيته من قبل هو مسدس ريك لاريدو دون أن ألمسه قط، ولكنني أعرف كيفية استخدامه، فقد علمتني السينما ذلك.

سددتُ المسدس إلى رأس فيدجويك، فالمسألة حياته أو حياتي. تمكنت بصعوبة من رفع السلاح بيد واحدة، كنت أرتجف بعصبية، وكان جسدي ملتوياً وضعيفاً بسبب المخدر. ولكنها ستكون طلقة عن قرب ولا يمكن لي أن أخطئ. وضعت يدي على الزناد وترددت أبهرني صرير أسناني القوي. قدرتُ، بوضوح مطلق، أنني سأجد فرصة أخرى للهروب من ذلك الحيوان. أجبرت نفسي على الضغط بإصبعي السبابة، أحسست بمقاومة الزناد وترددت من جديد، واستبقت استحضار الوميض، وارتداد السلاح، والتفجر الرهيب للعظام والدم وقطع من المخ. الآن، يجب أن أفعل الآن، دمدمتُ، ولكنني لم أستطع فعل ذلك. مسحتُ العرق الذي راح يسيل على وجهي ويغبش رؤيتي، نظفتُ يدي بالملاءة وعدت إلى تناول السلاح، ووضعت يدي على الزناد وسددت. كررت الحركات نفسها مرتين أخريين دون أن أتمكن من إطلاق النار. نظرت إلى الساعة: الثالثة والنصف. وأخيراً تركت المسدس فوق الوسادة، بجانب أذن جلادي النائم. أدرت ظهري إلى فيدجويك وتكورت على نفسي، عارية، مخدرة، باكية من الإحباط بسبب وساوسي، وبراحة لأني حررت نفسي من هول القتل الذي لا رجعة عنه.

❖ ❖

استيقظ روي فيدجويك في الصباح متجشئاً ومتمطياً، دون أثر للسُّكر

فيه، ثرثاراً وطيب المزاج. رأى المسدس على الوسادة، تناوله، وجهه إلى صدغه وضغط الزناد. «بوم! لم تظني أنه محشو، أليس كذلك؟»، قال وهو ينفجر ضاحكاً. نهض عارياً وممسكاً انتصابه الصباحي بكلتا يديه، فكر لحظة، ولكنه تخلى عن الدافع. خبأ المسدس في كيسه البلاستيكي، وأخرج مفتاحاً من جيب بنطاله فتح به القيدين وأطلق سراحي. «لو تعلمين كم أفادني هذان القيدان، النساء يفتنهن هذا. كيف تشعرين؟» سألني وهو يداعب رأسي بحركة أبوية. لم أكن أصدق أنني مازلت حية. كنت قد نمت نحو ساعتين كمخدرة، بلا أحلام. فركت معصمي كي أعيد إليه انتظام دورته الدموية.

«هلمي بنا لتناول الفطور، فهذه أهم وجبة في اليوم. بعد فطور جيد يمكنني قيادة الشاحنة عشرين ساعة»، قال لي من المرحاض، حيث كان يجلس واضعاً سيجارة بين شفتيه. بعد لحظات سمعته يستحم ويُفرِّش أسنانه، ثم رجع بعد ذلك إلى الحجرة فارتدى ملابسه مترنماً واستلقى على السرير بجزمة راعي بقر، تقليد لجلد حرذون، ليشاهد التلفزيون. حركتُ عظامي المخدرة، نهضتُ واقفة بترنح عجوز، ومضيت متعثرة إلى الحمام وأغلقت الباب. سقطت علي ماء الدوش الساخن كالبلسم. غسلت شعري بشامبو الموتيل العادي ودعكت بدني بغضب محاولة أن أمحو بالصابون وقائع الليل المشينة. كانت هناك رضوض وخدوش في الساقين والنهدين والخصر، وكان معصم وكف اليد اليمنى مشوهين بالورم. كنت أشعر بألم شامل من حرقة في الرحم والشرج، وكان يسيل خط من الدم بين ساقي. صنعت ضمادة من ورق التواليت، وارتديت سروالي الداخلي وأكملت بقية ملابسي. ألقى سائق الشاحنة قرصين في فمه وابتلعهما مع نصف زجاجة بيرة، ثم قدم لي بقية الزجاجة، الوحيدة المتبقية، وقرصين آخرين. «تناوليهما، إنهما أسبرين، يساعدان على التخلص من آثار السُّكر. اليوم سنصل إلى لاس فيغاس. هل يناسبك أن تواصلي معي أيتها الصغيرة، لقد دفعتِ لي رسم المرور»، قال

لي. تناول كيسه البلاستيكي، وتأكد من أنه لم ينسَ شيئاً وغادر الغرفة. تبعته فاقدة القوى إلى الشاحنة. وكان الضياء قد بدأ ينتشر في السماء للتو.

توقفنا بعد قليل في مطعم للمسافرين العابرين، حيث كانت تقف شاحنات نقل ثقيلة أخرى وعربة مقطورة. رائحة الشحم المقلي والقهوة في الداخل أيقظت جوعي، ولم أكن قد تناولت منذ بضع وعشرين ساعة سوى لوحين من شوكولا الطاقة وحفنة من البطاطا المقلية. دخل السائق إلى المحل موزعاً طيب المزاج، مزاحاً مع الزبائن الآخرين الذين يعرفهم كما يبدو، وقبلات مع عاملة المطعم، وتحيات بإسبانية ممضوغة مع غواتيماليين يعملان طاهيين. طلب عصير برتقال، وبيضاً، وسجقاً، وخبزاً محلى، وخبزاً محمصاً، وقهوة لكلينا، بينما كنتُ أجوب بنظري أرضية اللينوليوم، ومراوح السقف، وكومة الخبز المحلى تحت ناقوس زجاجي على منضدة الكونتوار. عندما أحضروا الطعام، شبك فيدجويك أصابع يديه فوق المنضدة، وأحنى رأسه تماماً وأغمض عينيه. «الحمد لك يا رب على هذا الفطور المغذي وهذا اليوم البديع. باركنا يا رب، واحمنا في بقية الرحلة. آمين». تفحصتُ دون أمل الرجال الذين يأكلون بصخب على المناضد الأخرى، والنساء اللاتي يقدمن القهوة بشعورهن المصبوغة ومظهرهن المنهك، والهنديين القديمين اللذين يقلبان البيض وشرائح اللحم في المطبخ. لم يكن هنالك من يمكنني اللجوء إليه. ما الذي يمكنني أن أقوله لهم؟ أأقول إنني طلبت توصيلة فتقاضوا مني مقابل المعروف في موتيل، وإنني كنت غبية وأستحق ما لحق بي. أحنيت رأسي مثلما فعل سائق الشاحنة وصليتُ بصمت: «لا تتركني يا بوبو، احمني وارعني». ثم التهمت فطوري عن آخره.

❖ ❖

بسبب موقعها على الخريطة، بعيدة جداً عن الولايات المتحدة وقريبة جداً من لا شيء، فإن تشيلي خارج طريق تجارة المخدرات المعهود، ولكن المخدرات وصلت إليها أيضاً، مثلما وصلت إلى بقية أنحاء العالم. يُرى هنا

بعض الفتيان الهائمين في السحاب ؛ وقد رأيت واحداً منهم في العبَّارة، عندما اجتزت قناة تشاكاو للمجيء إلى تشيلوي، فتى يائس كان قد وصل إلى مرحلة الكائنات غير المرئية، يسمع أصواتاً، يتكلم وحيداً، يومئ. فالماريجوانا في متناول أي شخص، إنها منتشرة وأرخص من السجائر، يقدمونها عند النواصي ؛ عجينة الأساس أو «الكراك» هي الأكثر تداولاً بين الفقراء، كما أنهم يتنشقون البنزين، والكولا، ومذيب الورنيش وسموماً أخرى ؛ وهنالك من أجل المهتمين أصناف هذيان متنوعة : كوكايين، هيروين ومشتقاتهما، وقائمة كاملة من عقاقير السوق السوداء المخدرة، أما في جزيرتنا فالخيارات أقل، فهنالك كحول فقط لمن يشاء، وماريجوانا وعجينة أساس للفتيان. «يجب أن تكوني يقظة جداً تجاه الصغار يا غرينغية، لا نريد شيئاً من المخدرات في المدرسة»، أمرتني بلانكا شناك وراحت تشرح لي كيفية ملاحظة الأعراض على التلاميذ. إنها لا تعرف أنني خبيرة.

وبينما نحن نراقب فسحة الراحة، أخبرتني بلانكا أن أثوثينا كورّاليس لم تأتِ إلى الدروس وتخشى من أنها قد تهجر الدراسة مثل إخوتها الكبار، لأن أياً منهم لم يكمل المدرسة. وهي لا تعرف أم خوانيتو، لأنها غادرت الجزيرة قبل مجيء بلانكا إليها، ولكنها تعرف أنها كانت طفلة لامعة، وأنها حبلت وهي في الخامسة عشرة، وبعد أن وضعت وليدها غادرت الجزيرة ولم ترجع إليها قطّ. وهي تعيش الآن في كيّون، جنوبي الجزيرة الكبرى، حيث كانت تقوم معظم مؤسسات صناعة السلمون، قبل مجيء الفيروس الذي أهلك الأسماك. أما كيّون في أزمنة ازدهار السلمون، فكانت أشبه **بالغرب القصي**، أرض مغامرين ورجال وحيدين، اعتادوا أخذ القانون بأيديهم، ونساء قليلات الفضيلة وجسورات، يمكنهن أن يكسبن في أسبوع ما يكسبه العامل في سنة. الكولومبيات كنَّ مرغوبات أكثر من سواهن، تطلق عليهن الصحافة تسمية العاملات الجنسيات الجوالات، بينما يسميهن زبائنهن الشاكرون زنجيات قحاب.

ـ كانت أثوثينا طالبة جيدة، مثل أختها، ولكنها تحولت فجأة إلى نفورة منعزلة وصارت تتجنب الناس. لا أدري ما الذي جرى لها ـ قالت لي بلانكا.

ـ وهي لم تأتِ للتنظيف في بيتنا. آخر مرة رأيتها كانت في ليلة العاصفة، حين جاءت بحثاً عن مانويل، لأن كارميلو كورّاليس كان في حالة سيئة.

ـ لقد أخبرني مانويل. كان كارميلو كورّاليس في نوبة ارتفاع حاد في سكر الدم، وهذا شائع بين مصابي السكر الكحوليين، ولكن إعطاءه العسل كان قراراً ينطوي على مجازفة من جانب مانويل. كان يمكن له أن يقتله. تصوري المسؤولية!

ـ ولكنه شبه ميت على أي حال أيتها العمة بلانكا. ومانويل يتمتع بهدوء أعصاب جدير بالتقدير. ألم تلاحظي أنه لا يغضب من أحد أبداً؟

ـ هذا بسبب الفقاعة التي في دماغه ـ أخبرتني بلانكا.

وتبين لي أنهم اكتشفوا قبل عشر سنوات أن لدى مانويل توسع شرياني يمكن له أن ينفجر في أي لحظة. عرفت هذا للتو! وقد جاء مانويل إلى تشيلوي، حسب قول بلانكا، كي يعيش أيامه بامتلاء في هذا المشهد البديع، بسلام وصمت، ويقوم بما يحبه: الكتابة والدراسة.

ـ فقاعة التوسع الشرياني تعادل حكماً بالموت، وقد خلّفه هذا الوضع معلقاً، ولكن ليس غير مبال. مانويل يستغل وقته على أحسن وجه يا غرينغية. إنه يعيش الحاضر ساعة فساعة، وهو أكثر تصالحاً مني مع فكرة الموت. لأنني أنا أيضاً أعيش حاملة قنبلة زمنية في داخلي. هنالك آخرون يقضون سنوات من التأمل في دير ما دون أن يتوصلوا إلى هذه الحالة من السلام الروحي التي بلغها مانويل.

ـ أرى أنك أنت أيضاً تعتقدين أنه مثل سيدهارتا.

ـ مثل من؟

ـ لا أحد.

❖ ❖

يخطر لي أنه لم يكن لمانويل آرياس حُبّه الكبير قطّ، مثل حب جديّ،

ولكن هذا يتفق مع حياته كذئب متوحد. الفقاعة في دماغه تفيده كحجة في تجنب الحب. أليس له عينان تريان بلانكا؟ يا يسوع! كما تقول إدوفيخيس، يبدو أنني أحاول قنصه لبلانكا. هذه الرومانسية الوبيلة هي نتاج الروايات الوردية التي صرت أقرؤها مؤخراً. السؤال هو لماذا وافق مانويل على أن يستقبل في بيته فتاة مثلي، شخصية مجهولة، من عالم آخر، ذات عادات مريبة، وهاربة فوق ذلك. وكيف يمكن لصداقته لجدتي، وهو لم يرها منذ عقود، أن تكون أوزن من طمأنينته الضرورية التي لا يتخلى عنها. وحين سألتُ بلانكا قالت لي:

ـ كان مانويل قلقاً من مجيئك. كان يظن أنك ستفسدين حياته، ولكنه لم يستطع رفض تقديم ذلك الجميل لجدتك، لأنه عندما أُبعد في العام 1975، وجد من يقدم الحماية له.

ـ وكان أبوكِ.

ـ أجل. في ذلك الحين كانت مساعدة المطاردين من الدكتاتورية تنطوي على مجازفة، وقد حذروا أبي، وفقد أصدقاء وأقارب، حتى إخوتي كانوا غاضبين من تصرفه. ليونيل شناك يوفر ملجأ لشيوعي! ولكنه كان يقول إذا لم يكن بالإمكان تقديم مساعدة للآخرين في هذه البلاد فمن الأفضل الذهاب بعيداً. أبي يظن أنه معصوم، وكان يقول إن العسكريين لن يتجرؤوا على المس به. عجرفة طبقته أفادته في تلك الحالة لصنع المعروف.

ـ ومانويل يدفع المقابل لدون ليونيل بمساعدتي. إنه قانون تشيلوي في المقايضة المتبادلة.

ـ صحيح.

ـ مخاوف مانويل بشأني كانت عادلة جداً أيتها العمة بلانكا. فقد جئت مثل ثور طليق لتكسير محل خزف...

ـ لكن مجيئك كان نافعاً جداً له ـ قاطعتني ـ ألاحظُ أنه قد تغير يا غرينغية، إنه أكثر انفتاحاً.

ـ انفتاح؟ إنه أشد انغلاقاً من عقدة حبل بحار. أظن أنه يعاني الاكتئاب.
ـ هكذا هو طبعه يا غرينغة. فهو لم يكن مهرجاً قطّ.

رنة صوت بلانكا ونظرتها الشاردة عرفتني كم تحبه. أخبرتني أن مانويل كان في التاسعة الثلاثين عندما أُبعد إلى تشيلوي وعاش في بيت دون ليونيل شناك. كان معذباً بأكثر من سنة في الاعتقال والإبعاد، وفقدان أسرته وأصدقائه وعمله وكل شيء، بينما كانت تلك المرحلة بالنسبة إليها مرحلة تألق، فقد اختيرت ملكة جمال وكانت تخطط لزفافها. وكان التناقض بينهما يبدو قاسياً جداً. كانت بلانكا آنذاك تكاد لا تعرف شيئاً عن ضيف أبيها، إنما كان يشدها جوه المأساوي والكئيب؛ وحين تقارنه برجال آخرين، بمن فيهم خطيبها، يبدون لها تافهين. في الليلة السابقة لخروج مانويل إلى المنفى، وفي الوقت الذي كان آل شناك يحتفلون فيه بإعادة حقولهم المصادرة في أوسورنو إليهم، ذهبت هي إلى حجرة مانويل لتهدي إليه قليلاً من المتعة، شيء لا يُنسى يحمله معه إلى أستراليا. كانت بلانكا قد مارست الحب من قبل مع خطيبها، وهو مهندس ناجح، من أسرة ثرية، مؤيد للحكومة العسكرية، وكاثوليكي، على النقيض تماماً من مانويل ومناسب جداً لفتاة مثلها، ولكن ما عاشته مع مانويل في تلك الليلة كان مختلفاً. وطلع عليهما الفجر متعانقين وحزينين كيتيمين.

ـ هو من قدم إليَّ الهدية. لقد غيرني مانويل، قدم لي رؤية أخرى للعالم. لم يخبرني بما مرّ به وهو معتقل، لم يتكلم عن ذلك قط، ولكنني أحسست بمعاناته في جلدي بالذات. بعد قليل من ذلك قطعت علاقتي بخطيبي وسافرت ـ قالت لي بلانكا.

خلال العشرين عاماً التالية كانت تصلها أخبار عنه، لأن مانويل لم يتوقف قطّ عن الكتابة إلى دون ليونيل. وهكذا عرفت بأمر طلاقه، وإقامته في أستراليا، وبعد ذلك في إسبانيا، ثم عودته إلى تشيلي عام 1998. وكانت متزوجة آنذاك ولديها ابنان مراهقان.

ـ كان زواجي يتعثر، فزوجي واحد من مرتكبي الخيانة الزوجية المزمنين، تربى على تلقي خدمات النساء. ولا بد أنكِ قد لاحظتِ كم هي ذكورية هذه البلاد يا مايا. وقد تركني زوجي عندما تبين أنني مصابة بالسرطان؛ لم يستطع تحمل فكرة النوم مع امرأة بلا ثديين.

ـ وماذا جرى بينك وبين مانويل؟

ـ لا شيء. لقد عدنا للقاء هنا في تشيلوي، وكلانا مجروح بما يكفي من الحياة.

ـ أنت تحبينه، أليس كذلك؟

ـ الأمر ليس بهذه البساطة...

ـ عليك إذاً أن تخبريه ـ قاطعتُها ـ. إذا كنت ستنتظرين أن يكون هو المبادر، فعليكِ أن تنسي الأمر.

ـ يمكن للسرطان أن يعاودني في أي وقت يا مايا. ولا وجود لرجل يرغب في تحمل عبء امرأة لديها هذه المشكلة.

ـ وفي أي لحظة يمكن لفقاعة مانويل اللعينة أن تنفجر أيتها العمة بلانكا. لا وقت لديكما تضيعانه.

ـ لا يخطرن لكِ أن تدسي أنفك في هذا الأمر! آخر ما كنا نحتاجه هو غرينغية كحولية ـ حذرتني مذعورة.

ما أخشاه، إذا أنا لم أدس أنفي، أن يموتا من التقدم في السن دون أن يحلا هذا الموضوع. في ما بعد، عندما رجعتُ إلى البيت، وجدت مانويل جالساً على أريكته قبالة النافذة، ينسخ أوراقاً مفلتة، مع فنجان شاي على المنضدة الصغيرة، بينما القط الأبله عند قدميه والقط أديب متكور فوق المخطوطة. كان البيت يعبق برائحة السّكر، فإدوفيخيس تصنع حلوى دمشقية بآخر ثمار الموسم. وكانت الحلوى تبرد في عبوات متنوعة الأحجام، تجهزها للشتاء، حين تنتهي الوفرة وتهجع الأرض كما تقول هي نفسها. سمع مانويل دخولي وأومأ لي بيده، ولكنه لم يرفع بصره عن أوراقه. آه يا

بوبو! لا يمكنني تحمل حدوث شيء لمانويل، احفظه لي، كيلا أفقده هو أيضاً. اقتربت على رؤوس أصابعي واحتضنته من الخلف احتضاناً حزيناً. لقد فقدتُ خوفي من مانويل منذ تلك الليلة التي اندسست فيها في فراشه دون دعوة. وقد صرت أمسك يده الآن، أقبله، آخذ طعاماً من طبقه ـ وهذا أمر يكرهه ـ، أضع رأسي على ركبتيه ونحن نقرأ، أطلب منه أن يحك ظهري، ويفعل هو ذلك مذعوراً. لم يعد يوبخني عندما أستخدم ملابسه وكمبيوتره أو عندما أصحح الكتاب، والحقيقة أنني أكتب أفضل منه. غطّست أنفي في شعره القاسي وسقطت دموعي عليه كأحجار.

ـ هل حدث شيء؟ ـ سألني مستغرباً.

ـ ما حدث هو أنني أحبك ـ اعترفت له.

ـ لا تقبليني يا آنسة. قليلاً من الاحترام لهذا العجوز ـ غمغم.



بعد الفطور الوفير مع روي فيدجويك سافرت في شاحنته بقية ذلك اليوم مع موسيقى كانتري وواعظين إنجليكانيين في المذياع، ومونولوجه المتواصل الذي أكاد لا أصغي إليه، لأني كنت شبه غافية من أثر المخدرات وإنهاك تلك الليلة الرهيبة. توفرت لي فرصتان أو ثلاث للهرب وما كان سيحاول منعي، إذ إنه فقد الاهتمام بي، لكن قواي لم تساعدني. كنت أشعر بضعف في جسدي واضطراب في ذهني. توقفنا في محطة بنزين، وبينما هو يشتري سجائر، ذهبت أنا إلى الحمام. كان التبول يسبب لي ألماً، وكنت لا أزال أنزف قليلاً. فكرتُ في البقاء في ذلك الحمام إلى أن تبتعد شاحنة فيدجويك، ولكن التعب والخوف من وقوعي في يد شخص قاس آخر انتزع الفكرة من رأسي. عدت مطأطئة الرأس إلى الشاحنة، تكورت في ركني وأغمضت عيني. وصلنا إلى لاس فيغاس عند الغروب، حين بدأت أشعر ببعض التحسن.

تركني فيدجويك في منتصف الجادة ـ جادة ستريب ـ، قلب لاس فيغاس،

بعد أن قدم لي عشرة دولارات كإكرامية، لأني ذكّرته بابنته، كما أكد لي، ولكي يثبت ذلك أراني صورة طفلة شقراء في حوالي الخامسة من العمر على شاشة هاتفه المحمول. وعندما انصرف داعب شعري وودعني بالقول: «فليحمكِ الرب يا عزيزتي». لاحظتُ أنه لا يخشى شيئاً وينصرف بضمير مطمئن؛ فما حدث هو واحد من لقاءات كثيرة مماثلة يمضي وهو مستعد لها بمسدس وقيود معدنية وخمر ومخدرات. ولا بد أنه قد نسيني بعد قليل. في إحدى لحظات مونولوجه قال شيئاً عن وجود عشرات المراهقين والقاصرين من الذكور والإناث، الهاربين من بيوتهم، يعرضون أنفسهم مقابل نقلهم في سيارة. إنها ثقافة دعارة قاصرين متكاملة. الشيء الجيد الوحيد الذي فعله هو أنه اتخذ احتياطات كيلا تنتقل إليه عدوى مرض ما. أفضّلُ عدم معرفة تفاصيل ما جرى في تلك الليلة في الموتيل، ولكنني أتذكر أنني رأيت في الصباح واقيات ذكرية مستخدمة على الأرض. لقد كنت محظوظة، فقد اغتصبني مستخدماً الواقي الذكري.

في تلك الساعة كان هواء لاس فيغاس قد صار بارداً، ولكن بلاط الرصيف ما زال يحتفظ بحرارة الساعات السابقة. جلست على مقعد موجوعة من شطط الساعات الأخيرة ومثقلة من صخب أضواء المدينة غير الواقعية المنبثقة كالسحر فوق غبار الصحراء. فالشوارع تضج دوماً بحفلة متواصلة: حركة مرور، حافلات، سيارات ليموزين، موسيقى؛ وأناس في كل مكان: مسنون ببنطلونات قصيرة وقمصان مزركشة، ونساء ناضجات بقبعات قرميدية، وسراويل بلوجنز مطرزة بخرز ملون، وبرونز كيميائي، وسائحون عاديون وفقراء، وكثير من البدينين. كان قراري بمعاقبة أبي لا يزال حاسماً، فأنا أُحمّله مسؤولية كل ما حل بي من تعاسات، ولكنني أريد الاتصال بجدتي. من شبه المستحيل، في زمن الهواتف المحمولة هذا، العثور على هاتف عام. وفي كبينة الهاتف الوحيد الذي وجدته في حالة جيدة، لم تستطع عاملة المقسم، أو أنها لم تشأ، أن تحوّل كلفة المكالمة إلى المتلقي.

ذهبتُ لصرف ورقة العشرة دولارات بقطع عملة معدنية في فندق- كازينو، واحدة من المدن الفسيحة الفاخرة، مع أشجار نخيل منقولة من الكاريبي، واندفاعات بركانية، وألعاب نارية، وشلالات ملونة، وشواطئ بلا بحر. انتشار البذخ والفجاجة يتركز في بضعة شوارع، حيث تكثر كذلك المواخير، وأندية القمار، وصالونات المساجات، ودور سينما الجنس. وفي أحد طرفي الجادة يمكن إتمام الزواج خلال ست دقائق في كنيسة صغيرة مزينة بقلوب متلألئة، وفي الطرف الآخر يمكن الطلاق في مثل ذلك الوقت نفسه. هكذا سوف أصفها بعد شهور لجدتي، وإن كانت هذه هي الحقيقة غير الكاملة، لأن هنالك في لاس فيغاس جماعات من الأثرياء لديهم بيوت مسورة بأسيجة حديدية، وضواح للطبقة الوسطى، حيث تتنزه الأمهات مع عربات أطفال، وأحياء أخرى منحطة للمتسولين ورجال العصابات، وفيها مدارس وكنائس ومتاحف وحدائق لم أرها إلا من بعيد، لأن حياتي فيها كانت تجري في الليل. اتصلت بالهاتف إلى البيت الذي كان لأبي وسوزان، وحيث تعيش الآن جدتي نيني وحدها. لم أكن أعرف إن كانت آنجي قد أخبرتها بغيابي، إذ لم يكن قد انقضى يومان بعد على اختفائي من الأكاديمية. رن الهاتف أربع مرات، وطلب مني تسجيل المجيب الآلي أن أترك رسالة. عندئذ تذكرتُ أن جدتي تؤدي أيام الخميس وردية تطوع ليلة في *الهوسبيس*، وترد بذلك جميل المساعدة التي تلقتها أثناء احتضار جدي بوبو. أغلقتُ الهاتف، لأني لن أجد أحداً في البيت حتى صباح اليوم التالي.

❖ ❖

لقد تناولتُ الفطور اليوم في وقت مبكر، ولم أشأ تناول الطعام ظهراً مع فيدجويك، وأشعر الآن بفراغ في معدتي، ولكنني قررت الاحتفاظ بقطعتي النقدية من أجل الهاتف. انطلقتُ أمشي في اتجاه معاكس لأنوار الكازينوهات، مبتعدة عن الزحام، وعن وميض الإعلانات المضيئة الخيالي،

وعن صخب شلال حركة المرور. اختفت المدينة المهووسة لتفسح المجال لسواها. كنت أتسكع دون وجهة محددة، ضائعة، وصلت إلى شارع هادئ، جلست على مقعد موقف حافلات مسقوف، ومستندة على جعبتي تهيأت للراحة. ولأنني كنت مستندة، فقد غفوت.

بعد قليل أيقظني شخص غريب بملامسة كتفي. «أيمكنني إيصالك إلى بيتك أيتها الجميلة النائمة؟»، سألني بصوت مروض خيول. كان قصير القامة ونحيلاً جداً، ظهره منحن، له وجه أرنب بري وشعر بلون القش ومزيت. «بيتي؟»، كررتُ مرتبكة. مدّ لي يده مبتسماً بأسنان ملطخة وأخبرني باسمه: برناردو ليمان.

في ذلك اللقاء الأول كان ليمان يرتدي ملابس خاكية، قميص وبنطال بجيوب كثيرة، وحذاء بنعل مطاطي. وبدا بهيئة حارس حدائق تبعث على الطمأنينة. كُمَّا القميص الطويلان يغطيان الوشم الذي يتضمن رسوم فنون حربية وآثار الإبر التي لن أراها إلا في ما بعد. وكان ليمان قد أمضى حكمين بالسجن وتبحث عنه الشرطة في عدة ولايات، لكنه في لاس فيغاس يشعر أنه بمنجى وقد حوّلها إلى وكره المؤقت. لقد كان لصاً، ومهرباً، وبائع هيروين، لا يميزه شيء عن أمثاله في هذه المدينة. يمضي مسلحاً بدافع الاحتياط والعادة، وليس لأنه ميال إلى العنف، ولديه في حال الضرورة قاتلان محترفان، جو مارتين من كنساس، والصيني، وهذا الأخير فليبيني يحمل آثار الجدري وقد تعرف إليه في السجن. ليمان في الثامنة والثلاثين من العمر، ولكنه يبدو خمسينياً. وكان قد خرج في يوم الخميس ذاك إلى الساونا، إحدى المتع القليلة التي يسمح لنفسه بها، ليس بسبب التقشف، وإنما لأنه وصل إلى حالة من عدم المبالاة التامة بكل شيء باستثناء زوجته البيضاء، ثلجه، ملكته، وسُكَّره السمراء: الهيروين. وكان قد حقن نفسه بها للتو ويشعر بالحيوية والحماسة لبدء جولته الليلية.

من سيارته، وهي سيارة كبيرة لها مظهر جنائزي، رآني ليمان غافية على المقعد في الشارع. ومثلما وصف لي الأمر في ما بعد، فإنه يثق بغريزته في الحكم على الناس، وهذه ميزة نافعة جداً في مجال عمله، وقد بدوت له جوهرة خام. قام بالالتفاف حول كتلة الأبنية، ورجع للمرور قبالتي ببطء، وأكد بذلك انطباعه الأول. ظن أنني في حوالي الخامسة عشرة من عمري، وصغيرة جداً لأهدافه، لكنه لم يكن في ظروف تسمح له بالمبالغة في التطلب، لأنه يبحث منذ شهور عن أحد مثلي. أوقف السيارة على بُعد خمسين متراً. نزل منها وطلب من مساعديه أن يختفيا إلى أن يستدعيهما، ثم اقترب من موقف الحافلات.

ـ لم آكل بعد. هنالك محل ماكدونالد على بُعد ثلاثة شوارع. أتريدين مرافقتي؟ إنني أدعوكِ ـ عرض عليّ.

حللتُ الوضع بسرعة. فتجربتي القريبة من فودجويك جعلتني شديدة الريبة، لكن الرجل الضئيل الذي يرتدي زي الكشافة لا يبعث على الخوف. «أنذهب؟»، ألح. تبعته بقليل من الريبة، ولكننا حين انعطفنا عند الناصية ظهرت في البعيد لوحة إعلان ماكدونالد ولم أستطع مقاومة الإغراء، فقد كنت جائعة. وخلال الطريق رحنا نتبادل الحديث وانتهيت إلى القول له إنني وصلت للتو إلى المدينة، وإنني عابرة فيها فقط وسوف أرجع إلى كاليفورنيا فور تمكني من الاتصال بجدتي كي ترسل لي نقوداً.

ـ سأعيرك هاتفي المحمول لتتصلي بها، ولكن بطاريته قد فرغت ـ قال لي ليمان.

ـ شكراً، لكني لا أستطيع الاتصال حتى الغد. فجدتي ليست في البيت اليوم.

❖ ❖

كان هناك قليل من الزبائن في ماكدونالد مع وجود ثلاثة موظفين: فتاة مراهقة زنجية بأظفار اصطناعية واثنان من اللاتينيين، على بلوزة أحدهما رسم لعذراء غوادالوبي. أنعشت رائحة الدهن شهيتي، وسرعان ما أعاد إليّ

ساندويتش همبرغر مزدوج مع بطاطا مقلية جزءاً من ثقتي بنفسي، والتماسك إلى ساقيَّ، والوضوح إلى ذهني. لم يعد يبدو لي الاتصال بنيني ملحاً جداً.

ـ تبدو لاس فيغاس ممتعة جداً ـ علقتُ بفمي الممتلئ.

ـ مدينة الخطيئة، هكذا يسمونها. لم تخبريني باسمك ـ قال ليمان دون أن يتذوق الطعام.

ـ سارا لاريدو ـ ارتجلت الاسم كيلا أعطي اسمي لشخص غريب.

ـ ما الذي أصاب يدك؟ ـ سألني وهو يشير إلى معصمي المتورم.

ـ لقد وقعت.

ـ أخبريني عن نفسك يا سارا. ألا تكوني هاربة من بيتك؟

ـ لست هاربة طبعاً! ـ هتفت وأنا أغص بقطعة بطاطا مقلية ـ. لقد تخرجت للتو من المدرسة الثانوية، ورغبت في زيارة لاس فيغاس قبل أن أذهب إلى الكوليج، ولكنني فقدت محفظتي، ولهذا أريد الاتصال بجدتي.

ـ أفهم ذلك. بما أنك هنا، يجب أن تري لاس فيغاس، إنها ديزنيلاند للكبار. أتدرين أنها المدينة الأسرع نمواً في أميركا؟ الجميع يريدون المجيء للعيش هنا. لا تغيري خططك من أجل عارض ضئيل غير موات، ابقي هنا لبعض الوقت. انظري يا سارا، إذا تأخرت حوالة جدتك المصرفية في الوصول، أستطيع أن أقرضك قليلاً من المال.

ـ لماذا؟ أنت لا تعرفني ـ أجبتُ مستنفرة.

ـ لأني شخص طيب. كم عمرك؟

ـ سأكمل تسعة عشر عاماً.

ـ تبدين أصغر سناً.

ـ هكذا يبدو.

في تلك اللحظة دخل شرطيان إلى ماكدونالد، أحدهما شاب يضع نظارة بعدسات مرآة سوداء، بالرغم من أن الوقت ليلاً، وله عضلات

مصارع تكاد تمزق خياطة الزي الشرطيّ، والآخر في حوالي الخامسة والأربعين من عمره، دون أي شيء ملفت في مظهره. وبينما كان الشاب يملي طلبه على فتاة الخدمة ذات الأظفار الاصطناعية، اقترب الآخر ليسلّم على براندون ليمان الذي قام بتقديم أحدنا إلى الآخر: صديقه، الضابط آرانا، وأنا على أنني ابنة أخته من أريزونا، وفي زيارة لبضعة أيام. تفحصني الشرطي بنظرة متحرية من عينيه الزرقاوين، إن له وجهاً منفتحاً، سهل الابتسام، وبشرة بلون القرميد بفعل شمس الصحراء. «اعتنِ بابنة أختك يا ليمان. ففي هذه المدينة يمكن لفتاة محترمة أن تضيع بسهولة»، قال ذلك ومضى إلى منضدة أخرى مع زميله.

ـ إذا كنتِ ترغبين يمكنني منحك وظيفة خلال الصيف، إلى أن يحين موعد ذهابك إلى الكوليج في أيلول ـ عرض عليّ براندون ليمان.

وميض حدس جعلني أحترس من ذلك الكرم، ولكن الليل مازال أمامي ولستُ مضطرة إلى إعطاء جواب فوري لهذا الطائر المنتوف. فكرتُ في أنه يجب أن يكون واحداً من أولئك الكحوليين المعاد تأهيلهم الذين يكرسون أنفسهم لإنقاذ أرواح أخرى، وأنه مايك أوكلي آخر، ولكن بلا أي شيء من كاريزمية ذلك الأيرلندي. وقررت: سأرى ما الذي سيقدمه لي الحظ. وفي حمام المحل قمت بتنظيف نفسي بأحسن ما يمكن، وتأكدت من أنني لم أعد أنزف، فارتديت السروال الداخلي النظيف الذي أحمله في جعبتي، وفرّشتُ أسناني، وتهيأت بنضارتي هذه للتعرف على لاس فيغاس مع صديقي الجديد.

❖ ❖

حين خرجت من الحمام، رأيت براندون ليمان يتكلم بهاتفه المحمول. ألم يقل لي إن بطاريته فارغة؟ ليس مهماً. لا بد أنني أخطأت الفهم. مضينا سيراً على الأقدام إلى حيث سيارته، وكان بالانتظار هناك شخصان لهما مظهر مريب. «جو مارتن والصيني، إنهما شريكاي»، قال ليمان على سبيل

التعارف. جلس الصيني إلى مقود السيارة، والآخر إلى جانبه، وجلست أنا وليمان في المقعد الخلفي. بدأت أقلق عندما رحنا نبتعد، فقد كنا ندخل منطقة سيئة المظهر، فيها بيوت مهجورة أو في حالة متردية، قمامة، جماعات من الشبان العاطلين أمام الأبواب، متسولان محشوران في كيسي نوم قذرين إلى جانب عربتيهما المترعتين بأكياس ممتلئة بتوافه خربة.

ـ لا تقلقي، فأنت في أمان معي، الجميع يعرفونني هنا ـ طمأنني ليمان، وقد حدس أنني أتهيأ للخروج راكضة ـ هنالك أحياء أفضل، ولكن هذا الحي أكثر تكتماً وفيه أدير أعمالي.

ـ أي نوع من الأعمال؟ ـ سألته.

ـ سوف ترين.

توقفنا أمام بناء من ثلاثة طوابق، شبه سري، زجاجه محطم ومطلي بنقوش. نزلت أنا وليمان وواصل شريكاه باتجاه موقف السيارات في الشارع الخلفي. لقد فات الوقت لتراجعي، فاستسلمت للحاق بليمان كيلا أبدو مرتابة به، مما يمكن أن يستفز ردّ فعل غير مناسب لي. اقتادني عبر باب جانبي ـ البوابة الرئيسية كانت مقفلة ـ ووجدنا نفسينا في قاعة مهملة ومهجورة بالمطلق، يكاد لا يضيئها سوى بضعة مصابيح معلقة بأسلاك كهربائية مجردة. أوضح لي أن البناء في أصوله كان فندقاً ثم قُسِّم بعد ذلك إلى شقق، لكنه سيئ الإدارة، وهو تفسير بدا قاصراً حيال الواقع.

صعدنا مقطعين من أدراج سلّم قذر وكريه الرائحة، وتمكنتُ في كل طابق من رؤية أبواب مخلوعة من مفصلاتها، وتؤدي إلى حجرات مفتوحة. وقد عرفت في ما بعد أنه في الطابقين السفليين يجتمع مدمنون على تعاطي مخدرات الشم، وحقن أنفسهم، والدعارة، والتهريب، والموت، ولكن لا أحد يصعد إلى الطابق الثالث دون إذن. مقطع الدرج المؤدي إلى الطابق الأخير كان مغلقاً بباب من قضبان حديدية، فتحه ليمان بجهاز تحكم عن

بُعد، ووصلنا إلى ممر نظيف نسبياً بالمقارنة مع الزريبة القذرة التي عليها الطابقين السفليين. أدار مقبض أحد الأبواب الحديدية ودخلنا إلى شقة نوافذها مسدودة بألواح خشبية، تضيئها مصابيح في السقف وضوء لوحة إضاءة زرقاء سماوية. هنالك جهاز تكييف هواء يحافظ على درجة الحرارة في مستوى محتمل. كانت تنبعث رائحة مذيب طلاء ونعنع. وتوجد كذلك صوفا من ثلاثة مقاطع في حالة جيدة، وفرشتان محشوتان على الأرض، ومنضدة طويلة، وبعض الكراسي، وجهاز تلفاز ضخم وحديث أمامه صبي في حوالي الثانية عشرة من عمره مستلقياً على الأرض ويأكل فشار ذرة.

ـ لقد تركتني محبوساً أيها القواد! ـ صاح الفتى دون أن يرفع عينيه عن شاشة التلفاز.

ـ وماذا في ذلك؟ ـ ردّ عليه براندون ليمان.

ـ لو حدث حريق لعين لكنت شُويت مثل سجق!

ـ ولماذا سيحدث حريق؟ هذا هو فريدي، إنه ملك الراب المستقبلي ـ قدمه إليّ ـ. سلّم على هذه الفتاة يا فريدي. سوف تعمل معي.

لم يرفع فريدي بصره. جبت ذلك المسكن الغريب، حيث لا وجود لكثير من الأثاث، إنما تتراكم فيه أجهزة كمبيوتر قديمة وأجهزةٌ مكتبية في الحجرات، وعدة أنابيب من غاز البوتان في المطبخ لا تفسير لوجودها، ويبدو أنها لم تُستخدم قطّ للطهو، وصناديق وحزم على امتداد ممر.

❖ ❖

تتصل تلك الشقة بواحدة أخرى، في الطابق نفسه، عبر فتحة كبيرة في الجدار، يبدو واضحاً أنها أُحدثت بمطرقة. «هنا مكتبي وهناك أنام»، أوضح لي براندون ليمان. مررنا منحنيين من خلال فتحة الجدار ووصلنا إلى صالة مماثلة تماماً للسابقة، ولكنها بلا أثاث، وفيها جهاز تكييف هواء، ونوافذها مسدودة بألواح خشبية وهنالك عدة أقفال في الباب المؤدي إلى الخارج. «كما

ترين، ليس لدي أسرة»، قال مضيفي وهو يشير بحركة مبالغ فيها إلى المكان الفارغ. في إحدى الغرف يوجد سرير واسع غير مرتب، وفي أحد الأركان كومة من الصناديق وحقيبة، وقبالة السرير يوجد جهاز تلفاز فاخر آخر. وفي الغرفة المجاورة، وهي أصغر ولا تقل قذارة عن بقية المكان، رأيت سريراً ضيقاً، وخزانة صغيرة، ومنضدتين صغيرتين بأدراج إلى جانبي السرير مطليتين بالأبيض، كما لو أنهما لطفلة.

ـ إذا قررتِ البقاء فستكون هذه هي غرفتك ـ قال لي براندون ليمان.

ـ لماذا النوافذ مسدودة؟

ـ احتياطاً، فأنا لا أحب الفضوليين. سأشرح لك ما سيكون عليه عملك. إنني بحاجة إلى فتاة حسنة المظهر، كي تذهب إلى فنادق وكازينوهات الدرجة الأولى. وفتاة مثلك لا تثير الشكوك.

ـ فنادق؟

ـ ليس مثلما تتصورين. فأنا لا أستطيع المنافسة مع مافيات الدعارة. إنها تجارة فظيعة، وعدد العاهرات هنا أكبر من عدد الزبائن. لا، لا شيء من هذا، أنت ستقومين بعمليات التسليم حيث أطلب منك وحسب.

ـ أي نوع من التسليم؟

ـ مخدرات. فالناس الأكابر يقدرون الخدمة إلى الغرف.

ـ هذا عمل خطير جداً!

ـ لا. فموظفو الفنادق يتقاضون حصتهم ويغضون النظر، يناسبهم أن يخلّفوا لدى الزبائن انطباعاً جيداً. المشكلة الوحيدة قد تكون في أحد عملاء فرقة مكافحة الرذيلة، ولكن لم يظهر لي أي منهم، أصدقك القول. الأمر سهل جداً وسيكون لديك فائض من المال.

ـ على أن أنام معك...

ـ آه، لا! منذ زمن لم أعد أفكر في هذا الأمر وسترين بنفسك كيف

أنني حوّلت حياتي إلى البساطة ـ وضحك براندون ليمان بشهية ــ يجب أن أخرج. حاولي أن تستريحي، ويمكننا البدء غداً.

ـ لقد كنتَ لطيفاً جداً معي ولا أريد أن أبدو ناكرة للجميل، ولكنني في الواقع لن أخدمك. أنا...

ـ يمكنك اتخاذ القرار في ما بعد ـ قاطعني ــ لا أحد يعمل لديّ بالإكراه. إذا كنت ترغبين في الذهاب غداً، فهذا من حقك، ولكنك الآن ستكونين هنا أفضل من وجودك في الشارع، أليس كذلك؟

جلستُ على السرير وجعبتي على ركبتي. كنت أشعر بطعم الدهن والبصل في فمي، فالهمبرغر نزل مثل صخرة على معدتي، وكانت عضلاتي تؤلمني وعظامي منهوكة، ولم أكن قادرة على المزيد. تذكرت الركض المرهق للهروب من الأكاديمية، وعنف الليلة التي أمضيتها في الموتيل، وساعات السفر في الشاحنة وأنا معذبة من آثار المخدرات في جسمي، وأدركت أنه علي أن أستعيد قواي.

ــ إذا أنتِ رغبت يمكنك المجيء معي، كي تتعرفي ميادين عملي، ولكنني أنبهك إلى أن الليلة ستكون طويلة ـ عرض علي ليمان.

لم يكن باستطاعتي البقاء هناك وحيدة. رافقته حتى الساعة الرابعة فجراً للتجوال على فنادق وكازينوهات جادة **ستريب**، حيث كان يسلّم أكياساً صغيرة لأشخاص عديدين، من بوابين وحراس مواقف سيارات، ولنساء ورجال شبان لهم مظهر السائحين وينتظرونه في الظلام. يظل الصيني وراء المقود، ويقوم جو مارتن بالمراقبة، بينما براندون ليمان يوزع. لا يدخل أي من الثلاثة إلى المحلات، إما لأن لهم ملفات أو لأنهم تحت المراقبة، فهم يعملون منذ زمن طويل في المنطقة نفسها. «لا يناسبني القيام بهذا العمل بنفسي، ولكن لا يناسبني كذلك استخدام وسطاء، فهم يتقاضون عمولة غير معقولة فضلاً عن أنهم غير موثوقين»، أوضح لي ليمان. أدركت الفائدة

التي يحصل عليها حين يوظفني، لأنني أنا من تكشف وجهها وتتعرض للمجازفة، ولكنني لا أتقاضى عمولة. كم سيكون أجري؟ لم أتجرأ على سؤاله. وعند انتهاء الجولة رجعنا إلى المبنى الخرب، حيث كان فريدي، الصبي الذي رأيته من قبل، ينام على أحد الفراشين اللذين على الأرض.

لقد كان براندون ليمان واضحاً معي على الدوام، لا يمكنني التعلل بأنه خدعني حول نوع العمل ونمط الحياة الذي يعرضه عليّ. وقد بقيت معه وأنا أعرف بالضبط ما الذي أفعله.

❖ ❖

مانويل يراني وأنا أكتب في دفتري بتركيز كاتب بالعدل، ولكنه لا يسألني أبداً عما أكتبه. عدم اهتمامه يشكل نقيضاً لفضولي: أنا أريد أن أعرف المزيد عنه، عن ماضيه، عن غرامياته، عن كوابيسه. أريد أن أعرف ما الذي يشعر به تجاه بلانكا شناك. إنه لا يخبرني بشيء، بينما أنا بالمقابل أخبره بكل شيء تقريباً، لأنه يتقن الاستماع ولا يقدم لي نصائح، يمكن له تعليم هاتين الفضيلتين لجدتي. لم أحدثه بعد عن ليلتي المشينة مع روي فيدجويك، ولكنني سأفعل ذلك ذات مرة. فهذا النوع من الأسرار يمكن له إن ظل محفوظاً أن يخرب العقل. لست أشعر بالذنب بذلك الخصوص، لأن الذنب يقع على عاتق المغتصب، لكنني أشعر بالخجل.

بالأمس وجدني مانويل مستغرقة قبالة كمبيوتره وأنا أقرأ عن «قافلة الموت»، حيث قامت وحدة من الجيش في شهر تشرين الأول 1973، بعد شهر من الانقلاب العسكري، باجتياز تشيلي من الشمال إلى الجنوب وهي تقتل سجناء سياسيين. كان الفريق بقيادة المدعو آريّانو ستارك، وهو جنرال كان يختار سجناء لا على التعيين، ويأمر برميهم بالرصاص دون أية إجراءات ثم ينسفون الأجساد بالمتفجرات. إنها طريقة فعالة لفرض الرعب بين الأهالي المدنيين والجنود المترددين. لم يكن مانويل يشير أبداً إلى تلك المرحلة، ولكنه

حين رآني مهتمة، أعارني كتاباً حول تلك القافلة المشؤومة، كتبته منذ سنوات باتريثيا بيردوغو، وهذه صحفية شجاعة قامت بالتحريات حول القضية. «لا أدري إن كنتِ ستفهمينه يا مايا، فأنت مازلت فتية جداً، فضلاً عن أنك أجنبية»، قال لي. «لا تستهن بي يا رفيق»، أجبته. لقد فوجئ، لأن أحداً لم يكن يستخدم ذلك المصطلح الذي بلغ أوجه في أزمنة الليـنيدي، ثم حظرت الدكتاتورية استخدامه بعد ذلك. لقد تقصيتُ ذلك في أحد مواقع الويب.

لقد انقضى ست وثلاثون عاماً منذ الانقلاب العسكري، ومنذ حوالي عشرين عاماً تحكم هذه البلاد حكومات ديمقراطية، ولكن مازالت هنالك ندوب، بل وجراح مفتوحة في بعض الحالات. قلما يدور الحديث عن الدكتاتورية، فمن عانوا منها يحاولون نسيانها، والشباب يرون أنها تاريخ قديم، ولكن يمكن العثور على كل ما يشاء أحدنا من معلومات، هناك صفحات كثيرة على الانترنت، وتوجد كتب ومقالات ووثائق وصور، رأيتها في مكتبة مدينة كاسترو، حيث يشتري مانويل كتبه. تلك الحقبة تُدرس في الجامعات، وقد جرى تحليلها من مختلف الزوايا، ولكن تناولها في المجتمع له وقع سيئ. فالتشيليون مازالوا منقسمين. أبو رئيسة الجمهورية الحالية ميتشيليه باتشيليت، كان جنرالاً في القوات الجوية، وقد قُتل على يد رفاقه في السلاح أنفسهم لأنه لم يشأ الانضمام إلى حركة التمرد العسكري، وجرى بعد ذلك اعتقالها هي وأمها، فعذبتا ونفيتا، ولكنها لا تشير إلى ذلك كله. تلك المرحلة من تاريخ تشيلي، على حدّ قول بلانكا شناك، هي طين في قاع بحيرة، ولا مسوغ لتحريكه وتعكير الماء.

الشخص الوحيد الذي يمكنني التحدث إليه في الأمر هي الممرضة ليليانا تريفينو التي تريد مساعدتي في البحث. وقد عرضت عليّ مرافقتي إلى حيث الأب لوثيانو ليون الذي كتب أبحاثاً ومقالات حول قمع الدكتاتورية. وقد خططنا للذهاب واللقاء به دون مرافقة مانويل، كي نتمكن من الحديث بثقة.

❖ ❖

صمت. بيت أشجار السرو هذا بيت طويل الصمت. لقد احتجتُ إلى أربعة شهور كي أتكيف مع طبع مانويل الانطوائي. لا بد أن حضوري يشكل إزعاجاً لهذا الرجل المتوحد، ولاسيما في بيت بلا أبواب، حيث الخصوصية تعتمد على العادات الحميدة. إنه لطيف، على طريقته، في التعامل معي. فهو لا يعيرني اهتماماً من جهة أو يرد عليّ بإجابات مقتضبة، ويقوم من جهة أخرى بتدفئة المناشف لي على المدفأة عندما يُقدّر أنني سأذهب للاستحمام، ويأتيني بكأس الحليب إلى الفراش، ويعتني بي. قبل أيام فقد أعنته أول مرة مذ تعرفتُ إليه، لأني ذهبتُ مع صيادين اثنين لإلقاء الشِّباك، وقد فاجأتنا أجواء سيئة، أمطار وبحر هائج، ورجعنا متأخرين جداً، ومبللين حتى العظام. كان مانويل ينتظرنا في المرسى ومعه **فاكن** وأحد الشرطيين، لورينثو كاركانو، وكان هذا الأخير قد اتصل بالجزيرة الكبرى مستخدماً جهاز اللاسلكي ليطلب أن يرسلوا إليه زورقاً من الأسطول للبحث عنا. «ماذا سأقول لجدتك إذا ما غرقتِ»، صرخ بي مانويل غاضباً فور نزولي إلى اليابسة. فقلت له: «اهدأ يا رجل. فأنا أعرف كيف أعنى بنفسي». «طبعاً، لهذا أن موجودة هنا! لأنك تعرفين جيداً كيف تعنين بنفسك!».

وفي سيارة الجيب التي أحسن لورينثو كاركانو صنعاً بنقلنا فيها إلى البيت، أمسكتُ يد مانويل وأوضحت له أننا خرجنا بناء على تنبؤ مناخي جيد وبإذن من عمدة البحر، ولم يكن هنالك من ينتظر وقوع هذه العاصفة المفاجئة. وخلال دقائق استحالت السماء والبحر إلى لون الجرذان وكان علينا أن نجمع شِباك الصيد. وأبحرنا حوالي ساعتين تائهين، لأن الليل حلّ وفقدنا الوجهة الصحيحة. ولم تكن هنالك إشارة في أجهزة هواتفنا المحمولة، لهذا لم نستطع إخباركم. لقد كانت حالة غير مواتية وحسب، ولم نتعرض لأي خطر، فالمركب جيد الصنعة والصيادان يعرفان هذه المياه. لم يتنازل مانويل في الردّ عليّ، ولكنه لم يسحب يده من يديّ كذلك.

حضّرت لنا إدوفيخيس سلمون مع بطاطا في الفرن، وهي وجبة مباركة بالنسبة إليّ، لأني جئت جائعة جداً، وفي طقوس جلوسنا إلى المائدة وحميمية الروتين المشترك، فارقه سوء المزاج. وبعد الانتهاء من تناول الطعام جلسنا على الصوفا المخلعة: هو ليقرأ، وأنا لأكتب في دفتري، وأمامنا فنجانا قهوتنا مع الحليب المكثف، قهوة حلوة تغطيها طبقة من الكريما. كان هنالك مطر، ورياح، وخرمشة أغصان شجرة على النافذة، وحطب يتأجج في المدفأة، وخرخرة القطّين... هذه هي موسيقاي الآن. لقد انغلق البيت وأحاطنا، مثل معانقة، لنا وللحيوانين.



كان الوقت فجراً عندما رجعت مع براندون ليمان من جولتي الأولى على كازينوهات جادة **ستريب**. كنت أكاد أن أقع من التعب، ولكن كان عليّ، قبل الذهاب للنوم، أن أجلس قبالة آلة تصوير، لأنهم يحتاجون إلى صورة لي من أجل إطلاق هويتي الجديدة. كان ليمان قد تكهن بأن اسمي الحقيقي ليس سارا لاريدو، ولكن لا فرق لديه بين هذا وبين اسمي الحقيقي. وأخيراً استطعت الذهاب إلى حجرتي، حيث تمددت على السرير الذي بلا ملاءات، وأنا بملابسي وحذائي، متقززة من ذلك الفراش الذي تخيلتُ أن أناساً من ذوي النظافة المريبة قد استخدموه. لم أستيقظ حتى الساعة العاشرة. كان الحمام مقرفاً كما الفراش، ولكني استحممت تحت الدوش على أي حال، وكنت أرتجف، لأنه لا وجود لماء ساخن، ولأن رياحاً سيبرية كانت تخرج من مكيف الهواء. ارتديت ملابس اليوم السابق نفسها وأنا أفكر في أنه يتوجب عليّ العثور على مكان أغسل فيه الملابس القليلة التي أحملها في جعبتي. أطللت بعد ذلك من فتحة الجدار إلى الشقة الأخرى، أي «المكتب»، حيث لم يظهر لعيني أحد هناك. كان المكان معتماً، يتسلل إليه ضوء شحيح من بين ألواح الخشب التي تسد النافذة، ولكنني وجدت مفتاح كهرباء، وأشعلت

مصابيح السقف. لم يكن في الحجرات الثلاثة سوى حزم بلاستيكية صغيرة مغلقة بشريط لاصق، وعبوة كاتشاب نصف مستهلكة وعدة عبوات لبن انقضت فترة صلاحيتها وفيها خطوط خضراء. جبت بقية الغرف، وهي أشد قذارة من الشقة الأخرى، دون أن أجرؤ على لمس شيء، واكتشفت وجود عبوات زجاجية صغيرة فارغة، ومحاقن، وإبر، وقطع مطاط، وغلايين، وأنابيب زجاجية محروقة، وبقايا دم. عندئذ أدركت ما الذي تُستخدم فيه أنابيب غاز البوتان التي في المطبخ وتأكدت من أنني في جحر مدمني وتجار مخدرات. والأمر الأكثر عقلانية هو الخروج من هناك بأسرع ما يمكن.

كانت البوابة الحديدية بلا قفل، ولم يكن هنالك أحد في الممر كذلك. وجدت نفسي وحيدة في الطابق، ولكنني لا أستطيع المغادرة لأن بوابة الدرج الحديدية الإلكترونية كانت مغلقة. عدت لتفتيش الشقة من أعلى إلى أسفل وأنا ألعن بعصبية، دون أن أجد جهاز التحكم عن بعد لفتح البوابة الحديدية، أو هاتفاً لطلب النجدة. بدأتُ بشد ألواح النافذة الخشبية بيأس، وأنا أحاول أن أتذكر في أي طابق كنت، ولكنها كانت مثبتة بقوة بالمسامير ولم أستطع حلحلة أي واحد منها. وكنت على وشك البدء بالصراخ عندما سمعت أصوات أشخاص وصرير البوابة الإلكترونية على السلالم، وبعد لحظات من ذلك دخل براندون ليمان مع شريكيه والصبي فريدي. «أتحبين المأكولات الصينية؟»، سألني ليمان على سبيل التحية. لم يخرج صوتي من الخوف، ولكن فريدي وحده هو الذي انتبه إلى اضطرابي. «أنا أيضاً لا يروقني أن يُبقوني محبوساً»، قال لي بغمزة ودودة. أوضح لي براندون ليمان أن ذلك إجراء أمني، لأنه يجب عدم دخول أحد إلى الشقة في غيابه، ولكنني إذا قررت البقاء فسيكون لدي جهاز تحكم عن بعد خاص بي.

استقر حارساه الشخصيان ـ أو شريكاه، كما يفضلان أن يسميا ـ والصبي قبالة التلفاز ليأكلوا، مستخدمين العيدان الصينية، من العلب الكرتونية مباشرة.

واعتكف براندون ليمان في إحدى الغرف ليصرخ على أحدهم في الهاتف المحمول لفترة طويلة، وأعلن بعد ذلك أنه ذاهب ليستريح واختفى عبر فتحة الجدار باتجاه الشقة الأخرى. وسرعان ما انصرف جو مارتن والصيني، وظللت وحدي مع فريدي حيث أمضينا أشد ساعات النهار حرارة في مشاهدة التلفزيون ولعب الورق. قدم لي فريدي محاكاة متقنة لمعبوده مايكل جاكسون.

في حوالي الساعة الخامسة عاد براندون ليمان للظهور، وبعد قليل أحضر الفيليبيني إجازة قيادة سيارة باسم لورا بارون، اثنان وعشرون عاماً، من أريزونا، وعليها صورتي.

ـ استخدمي هذه طالما أنت هنا ـ قال لي ليمان.

ـ من هي هذه؟ ـ سألته وأنا أتفحص رخصة القيادة.

ـ منذ هذه اللحظة، أنت هي لورا بارّون.

ـ أجل، ولكنني أستطيع البقاء في لاس فيغاس حتى شهر آب فقط.

ـ أعرف ذلك. لن تندمي يا لورا، فهذا عمل جيد. والمؤكد أنه لا يمكن لأحد أن يعرف أنك هنا، لا أسرتك، ولا أصدقاؤك، ولا أحد. أتفهمينني؟

ـ نعم.

ـ وسوف نطلق دعاية في الحي بأنك ابنتي، وهكذا نتجنب المشاكل. لن يتجرأ أحد على إزعاجك.

❖ ❖

أصدر ليمان أوامر لشريكيه كي يشتريا فراشاً جديداً وملاءات لسريري، واقتادني بعد ذلك إلى صالون تجميل فاخر تابع لأحد أندية الرياضة، حيث رجل يضع أقراطاً ويرتدي بنطالاً بلون توت العليق أطلق صرخة استياء حيال ألوان قوس قزح الصاخبة في شعري وشخَّص الحالة بأن الحلّ سيكون بقصه وإزالة ألوانه. بعد ساعتين من ذلك رأيتُ في المرآة هيرمافروديت اسكندينافياً ذا رقبة طويلة جداً وأذني فأر. وخلفت مواد إزالة

الألوان الكيميائية جلد رأسي في حالة من التأجج. «أنيقة جداً»، أكد براندون ليمان واقتادني على الفور من *مول* إلى آخر في الجادة. كان منهجه في الشراء مربكاً: يدخل إلى متجر، يجعلني أجرب عدة قطع من الثياب، ثم يختار بعد ذلك واحدة فقط، ويدفع الثمن بأوراق نقدية عالية القيمة، يخبئ النقود التي أعيدت إليه ثم نذهب إلى متجر آخر، حيث يشتري المادة نفسها التي جربتها في المتجر السابق دون أن نشتريها. سألته عما إذا لم يكن من الأيسر شراء الأشياء كلها من المكان نفسه، ولكنه لم يجبني.

ضم جهازي الجديد عدة أطقم رياضية، ليس فيها شيء من الإثارة أو الفخامة، وفستاناً أسود بسيطاً، وصندلاً عادياً وآخر مذهباً وذا كعب، وبعض المكياجات، وحقيبتين يدويتين كبيرتين وماركة المُصمِّم ظاهرة بوضوح عليها، وكانت قيمتها، حسب تقديراتي، تعادل قيمة سيارة جدتي الفوكسفاغن. سجلني ليمان في ناديه الرياضي، وهو النادي نفسه الذي رتبوا فيه شعري، ونصحني أن أستخدمه لأطول وقت أستطيعه، إذ سأجد فائضاً من ساعات العطالة في النهار. كان يدفع نقداً من حزمة دولارات مثبتة بشريط مطاطي دون أن يبدو ذلك مستغرباً لأحد. فالأوراق النقدية في هذه المدينة تسيل كالماء كما يبدو. لاحظت أن ليمان يدفع دوماً بأوراق نقدية من فئة المئة دولار، ولم أجد تفسيراً لهذا الشذوذ.

في حوالي الساعة العاشرة ليلاً قمت بعملية التسليم الأولى. أوصلوني إلى فندق ماندلي باي. وعملاً بتعليمات ليمان، توجهتُ إلى مسبح الفندق، حيث اقترب مني زوجان، تعرفا إليّ من ماركة حقيبتي اليدوية التي يبدو أنها كلمة السر التي قدمها إليهما ليمان. كانت المرأة ترتدي ثوب شاطئ طويلاً وتضع عقد حبات بلورية، ولم تكد تنظر إليّ، بينما مدّ إليّ الرجل ذو البنطال الرمادي يده مصافحاً. تحدثنا لدقيقة حول لا شيء، مررت لهما خفية البضاعة، وتلقيت ورقتين من فئة المئة دولار مطويتين داخل مطبوعة سياحية وتبادلنا الوداع.

وفي بهو الفندق اتصلت بالهاتف الداخلي بنزيل آخر، وصعدت إلى الطابق العاشر، ومررت أمام أنف حارس يقف إلى جانب المصعد دون أن يوجه إليّ نظرة، وطرقت الباب المطلوب. فتح لي رجل في حوالي الخمسين من العمر، وكان حافياً ويرتدي روب حمام، أدخلني، وتلقى اللفافة الصغيرة، ودفع لي، وانسحبت على الفور. وعند الباب ظهرت لي رؤيا مدارية، إنها خلاسية حسناء بمشد صدر من الجلد، وتنورة قصيرة جداً وحذاء بكعب رفيع. أدركتُ أنها حارسة، كما صاروا يسمون العاهرات الفاخرات الآن. تبادلنا النظرات من أعلى إلى أسفل، دون تبادل التحية.

في بهو الفندق الفسيح تنفستُ بعمق، راضية عن مهمتي الأولى التي تبين لي أنها سهلة جداً. كان ليمان ينتظرني في السيارة والصيني وراء المقود، ليأخذني إلى فنادق أخرى. وقبل منتصف الليل كنت قد جمعت أكثر من أربعة آلاف دولار لرئيسي الجديد.

❖ ❖

بدا براندون ليمان للوهلة الأولى مختلفاً عن مدمنين آخرين ممن عرفتهم في تلك الشهور الأخيرة، أناس دمرتهم المخدرات. لقد كان له مظهراً عادياً، وإن كان هشاً، ولكنني خلال العيش معه أدركتُ كم هو مريض في الواقع. كان يأكل أقل من عصفور دوري، لا يكاد يحتفظ بشي في معدته، وفي بعض الأحيان يظل في فراشه خامداً، لا يُعرف إن كان نائماً أم مغمياً عليه أم محتضراً. تنبعث منه رائحة فريدة، مزيج من السجائر والكحول وشيء خانق، كأنه سماد. كانت ذاكرته تخونه، وهو يعرف ذلك؛ ولهذا يستبقيني إلى جانبه، يقول إنه يثق بذاكرتي أكثر من ثقته بذاكرته. لقد كان حيواناً ليلياً، يقضي ساعات النهار مستريحاً في جو مكيف الهواء في حجرته، وعند العصر يذهب عادة إلى النادي الرياضي لإجراء مساج، وساونا وحمام بخار، وفي الليل يقوم بصفقاته. كنا نلتقي في صالة الرياضة، ولكننا لم نكن نصل معاً قطّ، وكان الشعار هو

التظاهر بأن أحدنا لا يعرف الآخر. ولم يكن بإمكاني التكلم إلى أحد، وهو أمر صعب جداً، لأنني أذهب كل يوم وأرى الوجوه نفسها دوماً.

ليمان شديد التطلب في سمومه، كما يقول، فهي بوربون من أغلى الأصناف وهيروين من أكثر الأنواع نقاء، يحقن نفسه بها خمس أو ست مرات في اليوم، وبإبرة جديدة في كلِ مرة. تتوفر لديه الكميات التي يرغب فيها ويحافظ على روتينه، لا يقع أبداً في حالة يأس الانقطاع التي لا تطاق، مثلما يحدث لأرواح فقيرة أخرى تتجرجر حتى بابه في أقصى حالات الحاجة. كنت أشهد طقوس سيدته البيضاء: الملعقة، لهب شمعة أو ولاعة، المحقن، الرباط المطاطي حول الذراع أو الساق، وكنت أُعجب بمهارته في وخز الأوردة الغائرة، غير المرئية، بما في ذلك في الإلية أو البطن أو العنق. وإذا ارتجفت يده كثيراً يلجأ إلى فريدي، لأني غير قادرة على مساعدته، فرؤية الإبرة تجعل جسدي يقشعر. لقد استخدم ليمان الهيروين لزمن طويل صار بإمكانه معه تقبل جرعات يمكن أن تكون قاتلة لأي شخص آخر.

ـ الهيروين لا يقتل، وإنما أسلوب المتعاطين، أو الفقر، أو سوء التغذية، أو الالتهابات، أو القذارة، أو استخدام إبر مستعملة ـ أوضح لي.

ـ لماذا لا تسمح لي بتجربتها إذاً؟

ـ لأن متعاطية هيروين لا تفيدني في شيء.

ـ مرة واحدة فقط، كي أعرف كيف هو...

ـ لا. اقنعي بما أقدمه إليك.

كان يقدم لي كحولاً، وماريجوانا، وعقاقير هلوسة وحبوباً أبتلعها دون تبصر، دون أن أهتم كثيراً بمفعولها لمجرد الوصول إلى حالة من تبدل الوعي للهروب من الواقع، ومن صوت نيني تناديني، ومن جسدي، ومن القلق من المستقبل. الحبوب الوحيدة التي كنت أعرفها هي أقراص المنوم بسبب لونها البرتقالي، فتلك الأقراص المباركة كانت تهزم أرقي المزمن وتمنحني

ساعات من الراحة بلا نوم. وكان الزعيم يسمح لي باستخدام مقدار ضئيل من الكوكايين لأبقى متحمسة ومتيقظة خلال العمل، ولكنه يحظر عليّ الكراك الرخيص، ولا يتسامح كذلك مع حارسيه الشخصيين. وقد كان لكل من جو مارتن والصيني إدمانهما الخاص. «تلك القذارات للفاسدين»، يقول ليمان بازدراء، وإن يكن هؤلاء أشد زبائنه وفاء، من يمكنه عصرهم حتى الموت، وإجبارهم على السرقة والدعارة، وأي نوع من الانحطاط من أجل حصولهم على الجرعة التالية. لم أعد أعرف كم هو عدد أولئك الشبحيين الذين يحيطون بنا، إنهم هياكل عظمية يسيل مخاطها وتغطيها القروح، يمضون مضطربين، مرتجفين، متعرقين، مسجونين في هذياناتهم، في تهويمهم، تلاحقهم أصوات وكائنات تندس في ثقوب أجسادهم.

فريدي يمر بمثل هذه الحالات، يا للصبي المسكين، تشطر روحي رؤيته في نوبة. في بعض الأحيان أساعده على تقريب أنبوب الغاز من الغليون والانتظار بالجزع نفسه إلى أن تشطر النارُ البلورات الصفراء بفرقعة جافة وتملأ السحابة السحرية الأنبوب الزجاجي. وخلال ثلاثين ثانية يحلق فريدي إلى عوالم أخرى. المتعة، العظمة، وتستمر الغبطة للحظات فقط، يعود بعدها للاحتضار في هوة عميقة، مطلقة، لا يمكنه الخروج منها إلا بجرعة أخرى. في كل مرة يحتاج إلى المزيد ليتماسك، ويقدمها إليه براندون ليمان الذي يعطف عليه. «لماذا لا نساعده على تنظيف جسده من السموم؟»، سألتُ ليمان ذات يوم. فأجابني: «لقد فات الوقت على فريدي، الكراك لا رجعة فيه. لهذا السبب اضطررت التخلص من فتيات أخريات كن يعملن لدي قبلك». فسرتُ قوله بأنه كان يطردهن. لم أكن أعرف أن معنى «التخلص» في تلك الأجواء لا رجعة فيه.

من المستحيل عليّ أن أتجنب مراقبة جو مارتن والصيني، وقد كانا مكلفين بالتجسس عليّ، وهما يفعلان ذلك بنزاهة. الصيني ابن عرس متخف، لا يتوجه إليّ بالكلام ولا ينظر إليّ مباشرة، أما جو مارتن فيكشف

عن نواياه، وقد سمعته يقول لبراندون ليمان في إحدى المرات: «أعرني هذه الفتاة من أجل عملية مص أيها الزعيم». وقد ردّ عليه هذا بهدوء: «لو لم أكن أعرف أنك تمزح لأطلقت عليك رصاصة هنا بالذات لوقاحتك». وقد استنتجت أنه مادام ليمان في الزعامة، فلا يمكن لذينك القميئين أن يلمساني بسوء.

❖ ❖

لم يكن هنالك أي غموض في ما تتخصص به تلك العصابة، ولكنني لم أكن أعتبر براندون ليمان مجرماً مثل جو مارتن والصيني اللذين يحملان على كاهلهما، على حدّ قول فريدي، عدة قتلى. ومن المحتمل جداً، بالطبع، أن يكون ليمان نفسه قاتلاً أيضاً، ولكن ليس له مظهر القاتل. وقد كان من الأفضل لي، على أي حال، عدم معرفة ذلك، مثلما كان هو يفضل عدم معرفة أي شيء عني. ففلورا بارون في نظر الزعيم هي شخصية بلا ماض ولا مستقبل، ومشاعرها لا تعني شيئاً، وما يهمه منها أن تكون مطيعة وحسب. كان يودعني بعض أمور تجارته كي أحفظها في ذاكرتي، لأنه يخشى نسيانها ويعتبر تدوينها تهوراً: بكم يدينون له ومن هم المدينون، وأين سيتسلم حزمة ما، وما هو المبلغ الذي يجب أن يمرر إلى الشرطة، وما هي مهمات العصابة اليومية.

كان الزعيم قليل الطعام، يعيش كراهب، ولكنه كريم معي. لم يخصص لي راتباً ثابتاً ولا عمولة، بل يعطيني نقوداً دون حساب من حزمة أوراقه النقدية التي لا تنفد، كما لو أنه يقدم إكراميات، وكان يدفع نفقات النادي مباشرة، وكذلك ثمن مشترياتي. وإذا أردتُ المزيد يقدمه إليّ دون استفسار، ولكنني سرعان ما توقفت عن الطلب منه، لأنني لم أكن أحتاج إلى شيء، فضلاً عن أن أي شيء ذي قيمة كان يختفي من الشقة. كنا ننام في حجرتين يفصل بينهما ممر ضيق لم يحاول اجتيازه قطّ. وقد حظر عليّ إقامة علاقات مع رجال آخرين لأسباب أمنية. كان يقول إن اللسان ينفلت في الفراش.

في السابعة عشرة من عمري كنت قد قمت ببعض التجارب مع فتيان خلفوني محبطة ومغتاظة، فضلاً عن تلك التجربة الكارثية مع ريك لاريدو. فبورنوغرافيا الانترنت التي يصل إليها تلاميذ مدرسة بيركلي هاي، لم تعلم أولئك الفتيان شيئاً، وكانوا على درجة فظة من الخراقة. يحتفون بالاختلاط كما لو أنهم من اخترعوه، وكانت التسمية الدارجة لديهم «صداقة مع منافع»، ولكن كان واضحاً لي أن المنافع هي لهم وحدهم. وفي أكاديمية أوريغون حيث الأجواء المشبعة بالهرمونات الشبابية ـ كنا نقول إن هرمونات الخصية تسيل على الجدران ـ، كنا خاضعين لنظام تعايش حميم وعفة اضطرارية. فكانت هذه التوليفة المتفجرة تمنح مادة لا تنبض للمعالجين النفسانيين في الجلسات الجماعية. أنا شخصياً لم يكن يُثقل عليّ بأي حال «الاتفاق» بشأن الجنس، والذي كان بالنسبة لآخرين أسوأ من الانقطاع عن المخدرات، لأنه باستثناء المعالج النفسي ستيف الذي لا يستجيب لمحاولات الإغواء، كان العنصر الرجالي في حالة يرثى لها. وفي لاس فيغاس لم أتمرد على التقييد الذي فرضه عليّ ليمان، لأن الليلة المشؤومة مع فيدجويك مازالت حية في ذهني. ولم أكن أريد لأحد أن يلمسني.

❖ ❖

كان براندون ليمان يؤكد أنه قادر على تلبية أي نزوة من نزوات زبائنه، ابتداء من طفل ذي سنوات قليلة لشخص منحرف جنسياً، حتى بندقية أوتوماتيكية لمتطرف، ولكنها كانت تبجحات أكثر مما هي واقع: لم أر شيئاً من ذلك قطّ؛ وإنما تجارة مخدرات وإعادة بيع وتصريف مسروقات، إنها صفقات نمل بالمقارنة مع صفقات أخرى تدار في المدينة دون عقاب. كانت تحضر إلى الشقة مومسات من كافة المستويات بحثاً عن مخدرات، بعضهن مرتفعات التسعيرة، كما يشير مظهرهن، وأخريات تُسجل ديونهن وفي بعض الأحيان، إذا كان الزعيم غائباً، يتقاضى جو مارتن والصيني الثمن من خدماتهن. كان

براندون ليمان يضاعف مداخيله من السيارات التي تسرقها عصابة قاصرين من مدمني الكراك، فيعيد تدوير تلك السيارات في كراج سري، ويبدل أرقام قطعها ويبيعها في ولايات أخرى، ويتيح له ذلك استبدال سيارته كذلك كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، تجنباً للتعرف إليه. كل شيءٍ يساهم في تعاظم رزمة أوراقه النقدية.

ـ بدجاجتك هذه التي تبيض ذهباً يمكنك امتلاك بيت فخم بدل هذه الزريبة، وطائرة خاصة، ويختاً، وكل ما تشاء... ـ أنَّبته عندما انفجر أنبوب التمديدات الصحية وتدفق ماء نتن واضطررنا إلى استخدام حمامات النادي الرياضي.

ـ أتريدين يختاً في نيفادا؟ ـ سألني متفاجئاً.

ـ لا! كل ما أطلبه هو حمام محترم! لماذا لا ننتقل إلى بناء آخر؟

ـ هذا البناء يناسبني.

ـ أحضر سباكاً لإصلاح الأنابيب حباً بالرب. ويمكنك أيضاً أن توظف شخصاً يقوم بالتنظيف.

انفجر في قهقهة مدوية. ففكرة المجيء بمهاجر غير شرعي للتنظيف في ملجأ مجرمين ومدمنين بدا له طلباً مضحكاً. والواقع أن التنظيف من اختصاص فريدي، فهذه هي ذريعة توفير مأوى له، ولكن ما يفعله الصبي يقتصر على إخراج أكياس القمامة والتخلص من الأدلة بإحراقها في صفيحة بنزين فارغة في الفناء. ومع أنني لا أتمتع بأي ميل إلى الأعمال المنزلية، إلا أنني كنت أضطر في بعض الأحيان إلى وضع قفازات مطاطية ومدّ يدي إلى المنظفات، لأنه لا مفر لي من ذلك إذا أردت العيش هناك، ولكن من المحال مكافحة التردي والقذارة التي تقتحم كل شيء كنتانة محتومة لا راد لها. وأنا وحدي من كنت أهتم بذلك، أما الآخرون فلا يلحظون القذارة. وهاتان الشقتان، بالنسبة لبراندون ليمان، هما تدبير مؤقت، وسوف يغير حياته كلها فور إنجازه صفقة يكاد ينهيها مع أخيه.

❖ ❖

«رئيسي»، كما يحلو له أن أدعوه، يدين بالكثير لأخيه آدم، حسب ما أوضح لي. فأسرته بالأصل من جورجيا. وقد هجرتهما أمهما حين كانا صغيرين، مات أبوه في السجن، ربما اغتيالاً، بالرغم من أن الرواية الرسمية تقول انتحاراً، وقد تولى أخوه الأكبر مسؤوليته. لم يعمل آدم قط في عمل شريف، ولكنه لم يدخل كذلك في مشاكل مع القانون قطّ، مثل أخيه الأصغر الذي كان له ملف كجانح منذ بلوغه الثالثة عشرة من العمر. «كان علينا أن ننفصل أحدنا عن الآخر كيلا أُلحق الضرر بآدم بسبب مشاكلي»، اعترف لي براندون. وقد اتفقا كلاهما على أن نيفادا ستكون المكان المثالي له، حيث أكثر من مئة وثمانين كازينو مفتوحة ليلاً ونهاراً، ونقود تنتقل نقداً من يد إلى أخرى بسرعة جنونية، وأعداد مناسبة من الشرطيين الفاسدين.

قدم آدم لأخيه حزمة من بطاقات الهوية وجوازات السفر بأسماء مختلفة، يمكن لها أن تكون كبيرة الفائدة له، وأعطاه نقوداً ليبدأ العمل. لا يستخدم أي منهما بطاقات اعتماد مصرفية. وفي إحدى لحظات الحديث المسترسل بتهاون، أخبرني براندون ليمان أنه لم يتزوج قطّ، وأن صديقه الوحيد هو أخوه، وأن ابن أخيه آدم هو نقطة ضعفه العاطفية الوحيدة. أراني صورة عائلية يظهر فيها أخوه، متيناً وراسخاً، بهيئة مختلفة تماماً عن هيئته، وزوجة الأخ البدينة وابن الأخ، وهو ملاك صغير يدعى هانك. لقد رافقته مرات عديدة لاختيار العاب إلكترونية كي يرسلها إلى الطفل، وهي ألعاب غالية وغير مناسبة لطفل عمره سنتان.

لقد كانت المخدرات مجرد تسلية للسائحين الذين يذهبون إلى لاس فيغاس في نهاية الأسبوع هرباً من الضجر ولتجريب حظهم في الكازينوهات، ولكنها كانت السلوى الوحيدة للمومسات، والمتشردين، والمتسولين، والنشالين، وأفراد العصابات وغيرهم من التعساء الذين يتجولون في مبنى ليمان والمستعدين لبيع آخر ملمح إنساني مقابل جرعة مخدرات. يأتون في

بعض الأحيان دون أن يكون معهم سنتٌ واحد ويتوسلون إلى أن يعطيهم شيئاً على سبيل الإحسان أو من أجل إبقائهم عالقين. وآخرون يمضون متأبطين ذراع الموت وليست هنالك فائدة من إنقاذهم، يتقيؤون دماً، تصيبهم تشنجات واختلاجات، يفقدون العقل. وهؤلاء يأمر ليمان برميهم إلى الشارع. وبعضهم أشخاص لا يمكن نسيانهم، كحالة شاب من إنديانا ظل على قيد الحياة بعد انفجار في أفغانستان وانتهى به المطاف إلى لاس فيغاس وهو لا يتذكر اسمه. «تفقدُ ساقيك ويعطونك ميدالية، تفقد يدك ولا يعطونك شيئاً»، يكرر ذلك كترتيلة ما بين تنشقه جرعة كراك؛ أو مرغريت، وهي فتاة في مثل سني، لكنها بجسد منتهٍ، وقد سرقت لي إحدى الحقيبتين اليدويتين. رآها فريدي واستطعنا انتزاعها منها قبل أن تتمكن من بيعها، لأن براندون ليمان كان سيجعلها تدفع ذلك غالياً جداً. في إحدى المرات جاءت مرغريت مهلوسة إلى الشقة، وحين لم تجد أحداً يسعفها قطعت أوردة ذراعها بقطعة زجاج. وجدها فريدي في الممر وسط بركة من الدم فتدبر أمر إخراجها خارجاً، وتركها على بُعد شارع، وطلب مساعدة بالهاتف. عندما حُملت إلى سيارة الإسعاف كانت لا تزال حية، ولكننا لم نعرف ماذا حلّ بها ولم نعد إلى رؤيتها.

وكيف يمكنني نسيان فريدي؟ إنني مدينة له بحياتي. لقد شعرت بمحبة أخوية تجاه ذلك الصبي غير القادر على البقاء هادئاً. إنه نحيل، ضئيل، له عينان بلوريتان، وأنف سيال، صلب من الخارج وعذب من الداخل، مازال قادراً على الضحك والتكور إلى جانبي لمشاهدة التلفزيون. كنت أقدم إليه فيتامينات وكالسيوم كي ينمو، واشتريتُ طنجرتين وكتاب طبخ كي أدشن المطبخ، لكن أطباقي كانت تذهب مباشرة إلى القمامة؛ يأكل فريدي لقمتين ويفقد الشهية. كان يمرض بين حين وآخر ويعجز عن التحرك من فراشه، وفي أحيان أخرى يختفي عدة أيام دون أن يقدم تفسيراً. كان براندون ليمان يمده بالمخدرات، والكحول، والسجائر، وكل ما يطلبه. «ألا ترى أنك تقتله؟»،

كنت أسأله متذمرة. فيقاطعنا فريدي بمزاج طيب: «إنني ميت يا لورا، لا تقلقي بشأني». كان يستهلك كل ما يجده من المواد السامة. كل القذارات التي يمكنه ابتلاعها وتدخينها وشمها وحقنها! لقد كان شبه ميت بالفعل، ولكن الموسيقى تسري في دمه، ويمكنه استخراج الإيقاع من علبة بيرة أو يرتجل كلمات لأغنية راب مقفاة. كان حلمه أن يُكتشف ويُطلق في مسيرة نجومية، مثل مايكل جاكسون. «سوف نذهب إلى فلوريدا معاً يا فريدي. هناك ستبدأ حياة أخرى. سوف يساعدك مايك أوكلي، فقد أعاد تأهيل مئات من الشباب، بعضهم أسوأ من حالتك بكثير، ولكنك إذا رأيتهم الآن فلن تصدق. جدتي ستساعدك أيضاً، لديها خبرة جيدة في هذا الشأن. وسوف تعيش معنا، ما رأيك؟».



ذات ليلة، وفي صالونات فندق قيصر بالاس المغالية في البذخ، بتماثيلها ونوافيرها الرومانية، وحيث كنت أنتظر أحد الزبائن، التقيت بالضابط آرانا. حاولت التهرب، لكنه رآني واقترب مني وهو يمد يده، سألني كيف هي حال خالك. «خالي؟»، كررتها بتشوش، وعندئذ تذكرت أننا حين التقينا أول مرة في ماكدونالد، قدمني إليه براندون ليمان على أنني ابنة أخته من أريزونا. وبقلق، لأني كنت أحمل البضاعة في حقيبتي، بدأت أتلعثم بتفسيرات لم يطلبها مني.

ـ إنني هنا خلال الصيف فقط، وقريباً سوف أذهب إلى الجامعة.

ـ أي جامعة؟ ـ سألني آرانا وهو يجلس إلى جانبي.

ـ لا أدري بعد...

ـ يبدو لي أنك فتاة جدية، ولا بد أن خالك فخور بك. المعذرة، لا أتذكر اسمك...

ـ لورا. لورا بارون.

ـ يسعدني أنك ستذهبين للدراسة يا لورا. في مهنتي ألتقي بحالات مأساوية لشباب لديهم إمكانيات كبيرة، ولكنهم يضيعون تماماً. أترغبين في تناول شيء؟ ـ وقبل أن أتمكن من النفي طلب لي كوكتيل فواكه من نادلة ترتدي عباءة رومانية ـ. يؤسفني أنني لا أستطيع مرافقتك بتناول كأس بيرة معك، لأنني في الخدمة.

ـ في هذا الفندق؟

ـ إنه جزء من الجولة التي عليّ القيام بها.

أخبرني أن قيصر بالاس مؤلف من خمسة أبراج، ويضم ثلاثة آلاف وثلاثمئة وثمان وأربعين غرفة، مساحة بعضها قرابة مئة متر مربع، وتسعة مطاعم فاخرة، و*مول* يضم أرقى المتاجر في العالم، ومسرح يحاكي الكوليسيو الروماني، فيه أربعة آلاف ومئتان وستة وتسعون مقعداً، يمثل فيه أبرز المشاهير. هل رأيتِ سيرك دو سوليل؟ لم تشاهديه؟ عليّ أن أطلب من خالي أن يأخذني إليه، فاستعراضه هو أفضل ما في لاس فيغاس. وسرعان ما جاءت النادلة الرومانية المزيفة تحمل سائلاً ضارياً إلى الخضرة في كأس تتوجها ثمرة أناناس. كنت أحصي الدقائق، لأن جو مارتن والصيني ينتظرانني في الخارج والساعة في يدهما، وفي الداخل لا بد أن زبوني يتمشى بين الأعمدة والمرايا دون أن يخامره الشك في أن وسيلة اتصاله فتاة تخوض محادثة لطيفة مع شرطي يرتدي زيه النظامي. ما الذي يعرفه آرانا عن نشاطات براندون ليمان؟

شربت عصير الفاكهة، مذاقه شديد الحلاوة، وودعته بسرعة كبيرة، لا بد أنها بدت له مريبة. لقد وجدتُ الضابط طيباً، ينظر إلى العينين بملامح لطيفة، ويصافح بقوة، وهو متساهل في سلوكه. وبالنظر إليه جيداً، يبدو جذاباً، على الرغم من بضعة كيلوغرامات زائدة؛ أسنانه الناصعة تتناقض مع بشرته البرونزية، وعندما يبتسم تنطبق عيناه كأنهما خطان.

❖ ❖

بلانكا شناك هي أقرب شخص إلى مانويل، لكن هذا لا يعني الكثير، فهو لا يحتاج إلى أحد، حتى ولا بلانكا، ويمكنه أن يقضي بقية حياته دون كلام. الجهد في الإبقاء على الصداقة تقوم به هي وحدها. فهي من تدعوه لتناول الطعام، أو تأتي لزيارته بصورة مفاجئة ومعها قدر طعام وزجاجة نبيذ. وهي من تجبره على الذهاب إلى مدينة كاسترو لزيارة أبيها - **الميّالوبو** - الذي يغضب إذا لم يزوراه بصورة منتظمة. وهي من تقلق بشأن ملابس مانويل، وصحته، وراحته المنزلية، وكأنها مدبرة منزل. وأنا دخيلة جئت لأدمر خصوصيتهما. فقبل مجيئي كان بإمكانهما اللقاء على انفراد، أما الآن فيجدونني مندسة بينهما على الدوام. هؤلاء التشيليون متسامحون جداً، فأي منهما لم يبدِ ما يشير إلى استيائه من حضوري.

تناولنا الطعام منذ أيام في بيت بلانكا، مثلما نفعل بكثرة، لأن بيتها أكثر حميمية من بيتنا. كانت بلانكا قد أعدت المائدة ووضعت عليها أفضل سماط لديها، وفوطاً كتانية منشاة، وشموعاً وسلة خبز مخلوط بإكليل الجبل أحضرته أنا. مائدة بسيطة ومرهفة الذوق مثل كل أمورها. مانويل أعجز من أن يقدر هذه التفاصيل التي تستثير دهشتي، لأنني قبل التعرف إلى هذه المرأة كنت أظن أن الديكور الداخلي هو للفنادق والمجلات فقط. فبيت جديّ كان يبدو أشبه بسوق البراغيث، بوفرة أثاثه وأشيائه المريعة المتراكمة دون أية رؤية أخرى سوى منفعة الاستخدام أو التكاسل في رميها إلى القمامة. لقد راح ذوقي يُشحذ ويصبح مرهفاً مع بلانكا التي يمكنها إبداع عمل فني بثلاث زهرات أورتنسية زرقاء في إبريق زجاجي مملوء بثمار ليمون. وبينما هما يطهوان حساء ثمار بحر، خرجتُ إلى الحديقة لأقطف خساً وريحاناً قبل أن يغيب الضياء، ذلك أن الظلام يحل في وقت أبكر هذه الأيام. في عدد قليل من الأمتار المربعة، زرعت بلانكا أشجاراً مثمرة وتشكيلة متنوعة من الخضار، تهتم بها بنفسها. فدائماً تُرى وهي تضع قبعة من القش وقفازات وتعمل في

حديقتها. عندما يبدأ الربيع سأطلب منها أن تساعدني في زراعة أرض مانويل، حيث يوجد الكثير من الأعشاب الضارة والأحجار.

في أثناء تناول التحلية تحدثنا عن السحر ـ كان كتاب مانويل مستحوذاً على ذهني ـ وعن الظواهر الخارقة، وهما موضوعان يمكن لي أن أكون حجة فيهما لو أنني أوليت مزيداً من الاهتمام لجدتي. أخبرتهما بأنني ترعرعت مع جدي، وهو فلكي عقلاني ولا أدريّ، ومع جدتي المتحمسة للتاروت، والمتطلعة إلى أن تكون منجمة، وقارئة للأحاسيس والنشاط، ومفسرة أحلام، وهاوية جمع تعاويذ وبلورات وأحجار مقدسة، ولا حاجة لذكر أنها صديقة للأرواح التي تحيط بها.

ـ جدتي نيني لا تمل أبداً، إنها تتسلى بالاحتجاج ضد الحكومة والتحدث إلى الموتى ـ قلت لهما.

ـ أي موتى؟ ـ سألني مانويل.

ـ جدي بوبو وآخرون، مثل سان أنطونيو دي بادوا، وهو قديس يعثر على أشياء مفقودة وعلى عرسان للعازبات.

ـ جدتك نفسها تحتاج إلى عريس ـ ردّ عليّ.

ـ يا لما تقوله يا رجل! إنها عجوز مثلك.

ـ ألم تقولي لي إنني بحاجة إلى حب؟ فإذا كنت ترين أنني في سن مناسبة للحب، فالأحرى بذلك نيديا التي تصغرني بعدة أعوام.

ـ أنت مهتم بجدتي نيني! ـ هتفتُ وأنا أفكر في أننا نستطيع نحن الثلاثة أن نعيش معاً، وقد نسيت للحظة أن عروسه المثالية هي بلانكا.

ـ هذا استنتاج متسرع يا مايا.

ـ سيكون عليك أن تُبعد عنها مايك أوكلي ـ أخبرته ـ. إنه مشلول وأيرلندي، ولكنه وسيم ومشهور.

ـ يمكنه إذاً أن يقدم لها أكثر مما أستطيعه أنا ـ وضحك.

ـ وأنتِ أيتها العمة بلانكا، أتؤمنين بهذه الأمور؟ ـ سألتُها.

ـ إنني عملية جداً يا مايا. فحتى حين يتطلب الأمر معالجة ثؤلول صغير، أذهب إلى طبيب الجلدية، وأُضيفُ إلى ذلك، على سبيل الاحتياط، ربط إصبعي الصغرى بشعرة والتبول وراء شجرة بلوط.

ـ لقد قال لي مانويل إنك ساحرة.

ـ صحيح. وأجتمع مع ساحرات أخريات في ليالي اكتمال القمر. أتريدين المجيء معي؟ لدينا اجتماع يوم الأربعاء القادم. يمكننا الذهاب معاً إلى كاسترو وقضاء يومين مع أبي وسآخذك إلى اجتماعنا السري.

ـ اجتماع ساحرات سري؟ ليس لدي مكنسة ـ قلت لها.

ـ لو كنت مكانك يا مايا لوافقت ـ قاطعنا مانويل ـ لن تتوفر لك هذه الفرصة مرتين. فبلانكا لم تدعني قط.

ـ إنه ملتقى نسوي يا مانويل. سوف تختنق في الإستروجين.

ـ إنكما تسخران مني... ـ قلت لهما.

ـ بل أتكلم بجد يا غرينغيتا. ولكن ليس الأمر مثلما تتصورين، لا شيء كما في السحر الذي في كتاب مانويل، لا شيء من السترات المصنوعة من جلد ميت ولا من *الإنفونتيش*. جماعتنا جماعة مغلقة جداً، مثلما يجب أن تكون كي نشعر بأننا في ثقة تامة. لا يُقبل مدعوون، ولكننا سنقدم لك استثناء.

ـ لماذا؟

ـ يبدو لي أنك وحيدة جداً وتحتاجين إلى صديقات.

بعد أيام من ذلك رافقتُ بلانكا إلى مدينة كاسترو. وصلنا إلى بيت الميّالوبو في ساعة الشاي المقدسة التي استنسخها التشيليون عن الإنكليز. لدى بلانكا وأبيها روتين لا يتبدل، مشهد كوميدي، يتبادلان أولاً تحية حارة، كما لو أنهما لم يلتقيا منذ عدة أسابيع سابقة ولم يتحدثا يومياً بالهاتف. وبعد ذلك فوراً تؤنبه بلانكا لأنه «يزداد سمنة كل يوم، وإلى متى ستواصل

التدخين والشرب يا أبي، لأنك بهذا ستموت في أي لحظة». فيرد عليها بتعليقات عن النساء اللاتي يتركن الشيب ظاهراً في شعورهن ويرتدين ثياب بروليتاريات رومانيات. وعلى الأثر يُطلع كل منهما الآخر على الأقاويل والشائعات الرائجة، وبعد ذلك تطلب منه قرضاً فيطلق الصراخ حتى السماء بأنها تدمره، وأنه سينتهي عارياً، وسيضطر إلى إعلان إفلاسه، مما يفتح المجال لمفاوضات تستمر خمس دقائق، وأخيراً يوقعان الاتفاق بمزيد من القبلات. وفي أثناء ذلك أكون قد بدأت بتناول فنجان الشاي الرابع.

❖ ❖

عند الغروب أعارنا **المِيّالويو** سيارته، وأخذتني بلانكا إلى الاجتماع. مررنا قبالة الكاتدرائية ذات البرجين والمغطاة بصفائح معدنية، وبالساحة التي كان يشغل مقاعدها كلها أزواج من العاشقين، وخلّفنا وراءنا القسم القديم من المدينة وبعد ذلك الأحياء الجديدة ذات البيوت البيتونية القبيحة وتوغلنا في درب متعرج وموحش. توقفت بلانكا بعد قليل في فناء، حيث توجد سيارات أخرى متوقفة، وتقدمنا نحو البيت عبر سبيل يكاد يكون غير مرئي، مستعينتين بضوء مصباح يدوي. كانت هنالك في الداخل جماعة من عشر نساء شابات، يلبسن على الطريقة الحرفية اليدوية التي تلبس بها جدتي نيني: عباءات، تنانير طويلة أو سراويل فضفاضة من القطن مع عباءة بونتشو، لأن الجو بارد. كنّ ينتظرنني واستقبلنني بمودة التشيليين العفوية التي صدمتني في البدء، حين كنت حديثة المجيء إلى هذه البلاد، ولكنني صرت أتوقعها الآن. كان البيت مؤثثاً دون إدعاء، وكان هناك كلب هرم مستلق على الصوفا، وألعاب ملقاة على الأرض. أوضحت لي مضيفتنا أن أبناءها يذهبون للنوم في بيت جديهما في ليالي اكتمال القمر، وأن زوجها ينتهز الفرصة ليلعب البوكر مع أصدقائه.

خرجنا عبر المطبخ إلى فناء خلفي فسيح، تضيئه مصابيح كاز، حيث

يوجد بستان خضار مزروعة في صناديق، وخم دجاج، وأرجوحتان، وخيمة معسكر كبيرة، وشيء يبدو للوهلة الأولى كومة من تراب مغطاة بقماش مشمع، ولكن عموداً نحيلاً من الدخان كان يخرج من منتصفها. «هذه هي **الروكا**»، قالت لي صاحبة البيت. كان للروكا شكل مستدير مثل كوخ ثلجي أو *كيفا*، لا يظهر منها سوى السطح، أما ما تبقى فهو تحت الأرض. وقد بناها زملاء هؤلاء النسوة الذين يشاركون أحياناً في الاجتماعات، ولكنهم يلتقون جميعهم في تلك المناسبات في الخيمة، لأن **الروكا** هي مكان نسوي مقدس. قمت بمحاكاة ما فعلنه جميعهن، فخلعت ثيابي. بعضهن تعرين بالكامل، واحتفظت أخريات بسراويلهن الداخلية. أشعلت بلانكا باقة من المريمية من أجل «تطهيرنا» بالدخان العطري بينما نحن ندخل زحفاً عبر نفق ضيق.

الروكا من الداخل عبارة عن قبة دائرية قطرها حوالي أربعة أمتار وارتفاعها متر وسبعون سنتمتراً في أكثر أجزائها ارتفاعاً. في منتصفها يتأجج موقد حطب وأحجار، والدخان يخرج من الفتحة الوحيدة في السقف، فوق الموقد، وعلى امتداد الجدار تمتد مصطبة مغطاة ببطانيات صوفية، حيث جلسنا في دائرة. كان الحر شديداً، ولكنه محتمل، والهواء يعبق برائحة عضوية، رائحة فطور أو خميرة، والضوء الشحيح يأتي من نار الموقد. وكان هنالك تحت تصرفنا قليل من الفاكهة ـ مشمش، لوز، تين ـ وإبريقا شاي بارد.

بدت جماعة النساء تلك أشبه برؤيا من *ألف ليلة وليلة*، كأنهن جوارٍ في جناح حريم. يظهرن باهرات الجمال في عتمة **الروكا** الظليلة، كأنهن عذراوات واهنات ومتهتكات من لوحات عصر النهضة، بشعورهن الثقيلة، وراحة أجسادهن. الطبقات الاجتماعية تقسم الناس في تشيلي، مثلما هو نظام السلالات في الهند أو الأعراق في الولايات المتحدة، ولم أكن أتمتع بعين مجربة للتمييز بينهن، ولكن أولئك النسوة ذوات المظهر الأوروبي يجب أن يكنّ من طبقة مختلفة عن نساء تشيلوي اللاتي عرفتهن، الممتلئات عموماً،

وقصيرات القامة، مع ملامح من السكان الأصليين، والمستنفدات من العمل والكروب. كانت إحداهن حبلى في شهرها السابع أو الثامن بالنظر إلى حجم بطنها، وأخرى أنجبت وليداً منذ وقت قريب، فبدا صدرها منتفخاً مع هالتين بنفسجيتين حول الحلمتين. وكانت بلانكا قد أفلتت ربطة شعرها الأجعد والمشعث كالزبد والذي يصل حتى كتفيها. جسدها الناضج يلمع بطبيعية من كانت جميلة على الدوام، بالرغم من عدم وجود ثديين لديها، ومن أثر جرح قرصان يجتاز صدرها.

قرعتْ بلانكا جرساً صغيراً، تلته دقيقتان من الصمت من أجل التركيز وبعد ذلك ذكرت إحداهن **الباتشاماما**، أي أمنا الأرض، التي نجتمع في أحضانها. وانقضت الساعات الأربع التالية دون أن نشعر بها، ببطء، ونحن نمرر من يد إلى أخرى قوقعة بحرية كبيرة كي نتكلم بالتناوب، ونشرب الشاي، ونقضم الفاكهة، ونروي ما الذي يحدث في تلك اللحظة في حياتنا والآلام المحمولة من الماضي، نستمع باحترام، دون أسئلة ودون إبداء الرأي. معظمهن آتيات من مدن البلاد الأخرى، بعضهن بسبب عملهن، وأخريات برفقة أزواجهن. اثنتان من النساء كنّ «مداويات»، يتولين العلاج بوسائل مختلفة من أعشاب، ومواد عطرية، وجلسات تأمل، وأحجار مغناطيسية، وضوء، وطب تجانسي، وحركات طاقة، وأشكال أخرى من الطب البديل واسعة الانتشار في تشيلي. فهم هنا لا يلجؤون إلى أدوية الصيدليات إلا عندما تخفق جميع الوسائل الأخرى. تبادلن رواية قصصهن دون حياء، إحداهن كانت محطمة، لأنها فاجأت زوجها في غراميات مع صديقتها المفضلة، وأخرى غير قادرة على حسم أمرها والتخلص من رجل متعسف يسيء معاملتها عاطفياً وجسدياً. تكلمن عن أحلامهن، وأمراضهن، ومخاوفهن، وآمالهن. ضحكن، وبعضهن بكين، وجميعهن صفقن لبلانكا لأن فحوصها الأخيرة أثبتت أن سرطانها في انحسار. وواحدة شابة منهن،

توفيت أمها قبل قليل، طلبت منهن أن يغنين لروحها، فبدأت واحدة أخرى لها صوت فضي بالغناء، وشاركتها البقية ككورال.

بعد انتصاف الليل اقترحت عليهن بلانكا أن يختتمن الاجتماع بتكريم أسلافنا، وعندئذ ذكرت كل واحدة منهن اسم شخص ـ الأم المتوفاة حديثاً، جدة، اشبينة ـ ووصفت الأثر الذي خلّفه ذلك الشخص، فهو في نظر إحداهن موهبة فنية، ولأخرى صاحب وصفات دواء طبيعي، ولثالثة حب العلم، وهكذا قالت كل واحدة منهن كلمتها. كنت أنا الأخيرة، وحين جاء دوري ذكرت اسم جدي بوبو، ولكن صوتي لم يخرج لأخبر أولئك النسوة من كانه. بعد ذلك جرى تأمل صامت، مع إطباق العيون، من أجل التفكير بالسلف الذي استحضرناه، وشكره على هباته ووداعه. وبينما نحن في تلك الحال تذكرت العبارة التي كررها علي بوبو لسنوات: «عاهديني أنك ستبقين على الدوام مثلما أحبك أن تكوني». كانت الرسالة واضحة كما لو أنه يقولها لي بصوت عالٍ. رحت أبكي وواصلت بكاء بحر الدموع الذي سكبته عند موته.

وأخيراً أدرن بينهن مخروطاً خشبياً وحصلت على فرصة لوضع حصاة صغيرة فيه. أحصت بلانكا الحصى وكان عددها مساوياً لعدد النساء في **الروكا**. لقد كان تصويتاً، وقد نجحتُ بالإجماع، وهي الطريقة الوحيدة للانضمام إلى الجماعة. هنأنني وشربنا نخباً من الشاي.

رجعت فخورة إلى جزيرتنا وأخبرت مانويل آرياس بألا ينتظر مني شيئاً من الآن فصاعداً في ليالي اكتمال القمر.

❖ ❖

تلك الليلة مع الساحرات الطيبات دفعتني إلى التفكير في تجاربي في السنة السابقة. حياتي مختلفة جداً عن أولئك النساء، ولست أدري إذا ما كان بإمكاني أن أروي لهن ذات يوم، في حميمية **الروكا**، كل ما حدث لي، وأن أحدثهن عن الغضب الذي كان ينهشني من قبل، وعما يعنيه التلهف إلى

الكحول والمخدرات، وعن كيف كنت عاجزة عن البقاء ساكنة وصامتة. لقد شخصوا حالتي في أكاديمية أوريغون على أنها «قصور في الانتباه»، إنه واحد من تلك التصنيفات التي تبدو أحكاماً بالسجن المؤبد، ولكن تلك الحال لم تبدَ قط حين كان بوبو حياً، وليست موجودة لدي الآن. يمكنني أن أصف أعراض الإدمان، ولكنني لا أستطيع ذكر زخمها الفظيع. أين كانت روحي في ذلك الحين؟ لقد كانت هنالك في لاس فيغاس أشجار، وشمس، وحدائق، وضحكة فريدي ملك الراب، ومثلجات، وأعمال كوميدية في التلفاز، وشبان برونزيو الأجساد، وليمونادة في مسبح النادي الرياضي، وموسيقى وأضواء في ليل ستريب الأبدي، وكانت هناك لحظات محببة، وحتى حفلة زفاف صديقين لليمان، وكعكة عيد ميلاد لفريدي، ولكنني لا أتذكر سوى بهجة تعاطيٍّ السريعة العابرة والجحيم الطويل في البحث عن جرعة أخرى. لقد بدأ العالم يتحول آنذاك إلى لطخة في ذاكرتي، على الرغم من أنه لم تمض سوى شهور قليلة على ذلك.

طقوس النساء في بطن أمنا الأرض رسَّخت تواصلي بصورة نهائية مع تشيلوي الفاتنة هذه، ورسخت بطريقة غريبة تواصلي بجسدي نفسه. لقد عشت في السنة الماضية حياة مزعزعة، كنت أعتبر أن حياتي قد انتهت وأن جسدي مدنس بصورة لا تغتفر. إنني الآن مكتملة وأشعر باحترام لجسدي لم أشعر بمثله من قبل، حين كنت أعيش وأنا أتفحص نفسي في المرآة كي أحصي عيوبي. إنني معجبة بنفسي مثلما أنا عليه، لا أريد تغيير أي شيء. لا وجود في هذه الجزيرة المباركة لشيء يغذي ذكرياتي السيئة، ولكنني أسعى لكتابة ذلك في دفتري هذا كيلا يحدث لي ما حدث لمانويل الذي يحبس ذكرياته في مغارة، وإذا ما سها عنها تنقض عليه في الليل مثل كلاب مسعورة.

وضعت اليوم على منضدة مانويل خمس أزهار من حديقة بلانكا شناك، إنها آخر أزهار الموسم، لن يعرف هو كيف يقدرها، أما أنا فمنحتني

سعادة مطمئنة. من الطبيعي أن ينتشي المرء حيال اللون حين يكون آتياً من الرمادي. وقد كانت السنة الفائتة سنة رمادية بالنسبة إليّ. هذه الباقة الصغيرة متقنة: كأس زجاجية، خمس أزهار، حشرة، نور النافذة. لا شيء أكثر. معي حق في تكلف مشقة تذكّر القتامة السابقة. كم كانت مراهقتي طويلة! رحلة في سرداب تحت أرضي.

❖ ❖

لقد كان مظهري بالنسبة لبراندون ليمان جزءاً مهماً من تجارته: يجب أن أبدو بريئة، بسيطة، طازجة، مثل الفتيات البديعات الموظفات في الكازينوهات. فهكذا أوحي بالثقة وأتكيف مع الجو. كان معجباً بشعري الأبيض، والقصير جداً، مما يمنحني هيئة شبه ذكورية. وقد جعلني أستخدم ساعة يد رجالية أنيقة ذات حزام جلدي عريض لإخفاء وشم معصمي الذي رفضتُ إزالته بالليزر، مثلما حاول. وكان يطلب مني في المتاجر أن أتمشى أمامه بالملابس التي يختارها لي، ويبتهج بحركات عارضة الأزياء المبالغ فيها التي أقوم بها. لم أزدد بدانة على الرغم من المأكولات السريعة التي تشكّل غذائي كله، وعدم قيامي بتمارين رياضية، إذ لم أعد أجري مثلما كنت أفعل دوماً، بسبب ضيقي من ضرورة أن يمشي ورائي جو مارتن أو الصيني ملتصقاً بكعبي.

أخذني براندون ليمان مرتين إلى جناح في أحد فنادق **ستريب**، وكان يطلب شمبانيا ويرغب بعد ذلك في أن أتعرى ببطء بينما هو يطفو هائماً مع سيدته البيضاء وفي يده كأس بوربون، دون أن يلمسني. وقد فعلت ذلك أول الأمر بخجل، ولكنني سرعان ما انتبهت إلى أن ذلك أشبه بخلع ملابسي قبالة المرآة، لأن إيروتيكية الزعيم تقتصر على إبرة الهيروين والكأس. كان يكرر القول لي إنني محظوظة جداً بكوني معه، وإن فتيات أخريات يجري استغلالهن في صالونات المساج والمواخير، دون أن يرين ضوء النهار،

ويُضربن. وهل أعرفُ كم من مئات آلاف مستعبدات الجنس يوجد في الولايات المتحدة؟ بعضهن يتحدرن من آسيا ومن البلقان، ولكن كثيرات منهن أمريكيات مختطفات من الشارع، ومن محطات المترو والمطارات، أو مراهقات هاربات من بيوتهن. يبقونهن محبوسات ويُبلّعونهن المنشطات، وعليهن أن يقدمن الخدمة لثلاثين رجلاً أو أكثر كل يوم، وإذا رفضن يُعذبن بالكهرباء. أولئك التعيسات غير مرئيات، يُستخدمن ويُرمين، لا يساوين شيئاً. هنالك أمكنة متخصصة بالممارسات السادية، حيث يمكن للزبون أن يعذب الفتيات كما يحلو له، يجلدهن، يغتصبهن، بل ويقتلهن إذا كان يدفع ما يكفي لذلك. الدعارة مربحة جداً للمافيات، ولكنها فرم لحم للنساء، فهن لا يتحملن طويلاً وينتهين دوماً في أسوأ حال. «إنه عمل أشرار قساة يا لورا، أما أنا فرقيق القلب ـ يقول لي ـ أحسني التصرف، لا تخيبي أملي. يحزنني أن تنتهي في تلك الأجواء».

في ما بعد، عندما بدأت أربط بعض الوقائع غير المترابطة ظاهرياً، حيرني هذا المظهر من تجارة براندون ليمان. فأنا لم أره يتدخل بالدعارة، باستثناء بيعه المخدرات لنساء يطلبنها، ولكن له تعاملات غامضة مع قوادين، تتوافق مع اختفاء بعض الفتيات من زبائنه. وقد رأيته في عدة مناسبات مع فتيات صغيرات، حديثات الإدمان، يجتذبهن إلى المبنى بأساليبه اللطيفة، ويقدم لهن أفضل أصنافه ليجربنها، ثم يمونهن بها بالدين لأسبوعين، وبعد ذلك يختفين ولا يرجعن، وكأنهن يتحولن إلى دخان. لقد أكد فريدي شكوكي في أنهن يُبعن في النهاية للمافيات. وهكذا يكسب براندون ليمان حصة دون أن يلوث يديه كثيراً.

❖ ❖

أنظمة الزعيم بسيطة، ومادمتُ أنجز الجزء الخاص بي من الاتفاق، ينجز هو أيضاً ما عليه. شرطه الأول أن أتجنب الاتصال بأسرتي أو بأي

شخص له علاقة بحياتي السابقة، وهو ما تبين لي أنه بمنتهى السهولة، لأنني لم أكن أشتاق إلا لجدتي، وبما أنني كنت أفكر في الرجوع إلى كاليفورنيا قريباً، فبإمكاني الانتظار. ولم يكن يسمح لي كذلك بإقامة صداقات جديدة، لأنه يمكن لأي إهمال أن يعرض للخطر بنيان تجارته الهش، على حد قوله. في إحدى المرات أخبره الصيني بأنه رآني عند بوابة النادي الرياضي أتبادل الحديث مع امرأة. أمسكني ليمان من رقبتي وجعلني أنحني إلى أن جثوت على ركبتيّ، فعل ذلك ببراعة غير معهودة منه، لأني كنت أطول وأقوى منه. «غبية! تعيسة!»، قال وهو يوجه إليّ صفعتين وقد احمّر وجهه غضباً. كان ذلك جرس إنذار، لكنني لم أتوصل إلى محاكمة ما حدث؛ كان واحداً من تلك الأيام التي تتحلل فيها قدرتي على التفكير أكثر فأكثر.

بعد قليل طلب مني أن ألبس بأناقة لأننا سنذهب للعشاء في مطعم إيطالي جديد. افترضت أنها طريقته في الاعتذار. ارتديت ثوبي الأسود والحذاء المذهب، ولكنني لم أحاول إخفاء شفتي المجروحة أو آثار الصفع على خديّ بالمكياج. بدا المطعم أكثر لطفاً مما توقعته. فهو حديث جداً: بلور وفولاذ صقيل، مرايا سوداء، ولا شيء من الشراشف ذات المربعات ولا الندل المتنكرين بزي بحارة الجندولات. تركنا أطباق الطعام دون أن نمسها تقريباً، ولكننا شربنا زجاجتين من نبيذ كوينتيسا، محصول 2005، باهظتي الثمن، وكانت لهما فضيلة ترطيب الآمال. أوضح لي ليمان أنه تحت ضغط كبير، فقد جاءته فرصة صفقة رائعة، لكنها خطرة. ربطتُ ذلك برحلة لمدة يومين قام بها مؤخراً دون أن يقول إلى أين، ودون أن يرافقه أحد من شريكيه.

ـ الآن أكثر من أي وقت مضى يمكن شائبة في الأمن أن تكون قاتلة يا لورا ـ قال لي.

ـ لقد تحدثتُ مع تلك المرأة في النادي الرياضي أقل من خمس دقائق حول درس اليوغا، حتى إنني لا أعرف اسمها، أقسم لك يا براندون.

ـ لا تعودي إلى فعل ذلك. سأنسى الأمر هذه المرة، أما أنت فلا تنسيه، أتفهمينني؟ إنني بحاجة إلى الثقة بجماعتي يا لورا. عملي يسير معك على ما يرام، فأنت راقية، وهذا يروقني، وتفهمين بسرعة. يمكننا تحقيق الكثير معاً.

ـ مثل ماذا؟

ـ سأخبرك في اللحظة المناسبة. فأنت ما زلت تحت الاختبار.

وقد حانت تلك اللحظة في شهر أيلول. فمنذ حزيران حتى آب كنت كمن تمضي في الضباب. لم يكن الماء يخرج من أنابيب التمديدات الصحية في الشقة، وكانت الثلاجة خاوية، ولكن المخدرات متوفرة بكثرة. لم ألحظ كم كنتُ أمضي محلقة. فابتلاع قرصين أو ثلاثة أقراص مع جرعة فودكا أو إشعال لفافة ماريجوانا تحولا إلى حركة آلية لا يسجلها ذهني. كان مستوى استهلاكي ضئيلاً بالمقارنة مع الآخرين المحيطين بي، وكنت أفعل ذلك للتسلية، يمكنني التخلي عنه في أي لحظة، فأنا غير مدمنة، هذا ما كنت أظنه.

اعتدتُ على الإحساس بالطفو، وعلى الغمامة الضبابية التي تحجب ذهني، وعلى استحالة إكمال تفكير أو التعبير عن فكرة، وعلى رؤية تلاشي كلمات المعجم الواسع الذي تعلمته من جدتي نيني. وفي ومضات صحوي القليلة كنت أتذكر نيتي وأفكر في العودة إلى كاليفورنيا، لكنني كنت أقول لنفسي إنه مازال هنالك متسع من الوقت لذلك. وقت. أين تختبئ الساعات؟ إنها تتسرب كالملح من بين الأصابع، كنت أعيش في فرجار انتظار، ولكن لم يكن هنالك ما يُنتظر سوى يوم آخر مثل سابقه بالضبط، مخدرة قبالة التلفزيون مع فريدي. مهمتي النهارية الوحيدة هي وزن مسحوق وبلورات، وعدّ أقراص، وختم أكياس بلاستيكية صغيرة. وهكذا انقضى شهر آب.

وعند الغروب أُنعش نفسي ببضع شعيرات من الكوكايين وأنطلق إلى النادي الرياضي لأنقع بدني في المسبح. أنظر إلى نفسي بروح ناقدة في صف مرايا حجرة الملابس، باحثة عن آثار الحياة السيئة، ولكنني لا أراها؛ لا

يمكن أن يخامر الشك أحداً بماضيّ المضطرب أو بمجازفات حاضري. كنت أبدو طالبة، مثلما يرغب براندون ليمان. خط آخر من الكوكايين، حبوب، فنجان قهوة كثيف جداً وأكون جاهزة لعملي الليلي. ربما هنالك لدى براندون ليمان موزعون آخرون في النهار، لكنني لم أرهم قط. في بعض الأحيان كان يرافقني هو نفسه، ولكنني سرعان ما تعلمت الروتين وصار يثق بي، فأصبح يرسلني وحدي مع شريكيه.

اجتذبني الصخب، الأضواء، الألوان، بذخ الفنادق والكازينوهات، توتر المقامرين على آلات القمار والمناضد الخضراء، وقرقعة «فيشات» اللعب، والكؤوس المتوجة بأزهار أوريكديا وشمسيات ورقية. وكان زبائني المختلفون جداً عن زبائن الشارع يتمتعون بوقاحة وجرأة من هم واثقون من الإفلات من العقاب. ولم يكن لدى المهربين ما يخشونه أيضاً، كما لو أن هناك اتفاقاً مضمراً في هذه المدينة على خرق القانون دون التعرض للعواقب. كان ليمان يتفاهم مع عدد من الشرطيين الذين يتلقون حصتهم ويتركونه بسلام. لم أكن أعرفهم ولم يخبرني ليمان بأسمائهم قط، ولكنني كنت أعرف أين وكم يجب أن يُدفع لهم. كان الزعيم يقول لي: «إنهم خنازير كريهة، ملعونون ولا يشبعون، يجب الحذر منهم، فهم لا يتورعون عن عمل أي شيء، يفبركون أدلة لإدانة أبرياء، يسرقون مجوهرات وأموالاً أثناء عمليات التفتيش، يحتفظون لأنفسهم بنصف المخدرات والأسلحة التي يصادرونها، ويحمون بعضهم بعضاً. إنهم فاسدون، عنصريون، لديهم أمراض نفسية. وهم من يجب أن يكونوا وراء القضبان». التعساء الذين كانوا يأتون إلى المبنى في طلب مخدرات هم حبيسو إدمانهم، فقراء فقراً مدقعاً، ووحيدون وحدة مطلقة. هؤلاء أشباه الأحياء الملاحقين، المضروبين، المختفين في جحورهم كالمناجذ، والمعرضين لبراثن القانون. هؤلاء ليس لهم إفلات من العقاب، وإنما الألم والمعاناة وحسب.

نقود، كحول، حبوب، كلها تفيض عن حاجتي، يكفي أن أطلبها، ولكن ليس لدي ما هو أكثر من ذلك، لا أسرة، ولا صداقات أو حب، بل لا وجود لشمس في حياتي، لأنني أعيش في الليل، مثل الفئران.

❖ ❖

في أحد الأيام اختفى فريدي من شقة براندون ليمان، ولم نعرف عنه شيئاً حتى يوم الجمعة، عندما التقينا مصادفة بالضابط آرانا الذي كنت قد رأيته مرات قليلة، وكان في كل مرة يوجه إليّ كلمات لطيفة. وورد خلال الحديث ذكر فريدي فقال لنا الضابط إنهم عثروا عليه مصاباً بجراح خطرة. فقد غامر ملك الراب بالتوغل في منطقة معادية فضربه أفراد إحدى العصابات ضرباً مبرحاً وألقوا به في مكب للقمامة معتقدين أنه قد مات. وأضاف آرانا ليُطلعني على أن المدينة مقسمة إلى مناطق تتحكم بها عصابات مختلفة، وشخص لاتيني مثل فريدي، بالرغم من أنه خلاسي، لا يمكنه الذهاب للتوغل بين الزنوج. «هناك عدة أوامر اعتقال معلقة بحق الصبي، ولكن السجن سيكون ويلاً له. فريدي يحتاج لمساعدة»، قال لنا آرانا ذلك وهو يودعنا.

لم يكن من الملائم لبراندون ليمان الاقتراب من فريدي، لأنه تحت نظر الشرطة، ولكنه ذهب معي لزيارته في المستشفى. صعدنا إلى الطابق الخامس واجتزنا ممرات مضاءة بمصابيح نيون بحثاً عن غرفته، دون أن ينتبه إلينا أحد، كنا اثنين آخرين وسط ذهاب ومجيء العاملين الطبيين والمرضى وعائلاتهم، لكن ليمان كان يمضي ملتصقاً بالجدران، وينظر من فوق كتفه ويده في جيبه، حيث يحتفظ بالمسدس. وجدنا فريدي في قاعة فيها أربعة أسرة، جميعها مشغولة، وكان مثبتاً بأحزمة وموصولاً بعدة أنابيب. كان وجهه مشوهاً، ولديه أضلاع مكسورة، وإحدى يديه مهشمة إلى حد اضطروا معه إلى بتر اثنين من أصابعها. وكانت الركلات قد مزقت إحدى كليتيه، وكان لبوله في الجراب المتصل به رائحة الصدأ.

منحني الزعيم الإذن بمرافقة الفتى عدة ساعات في اليوم على ألا يحول ذلك دون إنجازي عملي في الليل. كانوا يُبقون فريدي في أول الأمر منوماً بالمورفين، ثم بدؤوا بعد ذلك بإعطائه ميتادون، لأنه في مثل حالته ما كان يمكن له أن يتحمل متلازمة الانقطاع المفاجئ عن المخدر، ولكن الميتادون لم يكن كافياً. لقد كان يائساً، أشبه بحيوان محتجز يجاهد بين أحزمة السرير. وفي لحظات سهو العاملين كنت أتدبر الأمر لأحقن له الهيروين في أنبوب السيروم مثلما أوصاني براندون ليمان. «إذا أنت لم تفعلي ذلك سيموت. لأن ما يعطونه إياه في المستشفى أشبه بالماء بالنسبة لفريدي»، قال لي.

❖ ❖

تعرفتُ في المستشفى على ممرضة زنجية في حوالي الخمسين وبضع سنوات، سمينة، لها صوت حلقي غليظ يتناقض مع عذوبة طبعها ومع اسمها البديع: أولمبيا بيتِفورد. كانت هي من استقبلت فريدي حين صعدوا به إلى قاعة الجراحة في الطابق الخامس. «تؤلمني رؤيته نحيلاً ومؤرقاً على هذا النحو، فهذا الصبي يمكن له أن يكون حفيدي»، قالت لي. لم أكن قد أقمت صداقة مع أحد منذ وصولي إلى لاس فيغاس، باستثناء فريدي الذي كان في تلك اللحظات بإحدى قدميه في القبر، فعصيت أوامر براندون ليمان لمرة واحدة، لأني بحاجة إلى التكلم مع أحد، وكانت تلك المرأة لا تُقاوم. سألتني أولمبيا عن علاقتي بالمريض، ومن أجل تسهيل الإجراءات أجبتُ أنه أخي، ولم تستغرب أن فتاة بيضاء ذات شعر فضي، ترتدي ثياباً غالية هي قريبة صبي ملون، مدمن مخدرات وربما هو جانح كذلك.

كانت الممرضة تستغل أي لحظة فراغ لتجلس إلى جانب الصبي وتصلي. «لا بد لفريدي من تقبل يسوع في قلبه، ويسوع سينقذه»، أكدت لي. لديها كنيستها في الجانب الغربي من المدينة، وقد دعتني لحضور قداس ليلي، لكنني أوضحت لها أنني أكون في العمل في ذلك الوقت ورئيسي في العمل صارم

جداً. «تعالي يوم الأحد إذاً يا صغيرتي. فبعد القداس نقدم نحن **أرامل في سبيل يسوع** أفضل فطور في نيفادا». **أرامل في سبيل يسوع** هي جماعة قليلة العدد، لكنها نشطة جداً، وتشكل العمود الفقري لكنيستها. وكون المرأة أرملة ليس شرطاً ضرورياً من أجل الانضمام إلى الجماعة، يكفي أن تكون الواحدة قد فقدت حباً في الماضي. «أنا على سبيل المثال متزوجة حالياً، ولكن كانت لي علاقة برجلين هجراني من قبل، وثالث مات، أي أنني أرملة تقنياً»، قالت لي أولمبيا.

تبين أن المرشدة الاجتماعية في مؤسسة حماية الطفولة المخصصة لفريدي هي امرأة ناضجة، سيئة الأجر، لديها على مكتبها حالات أكثر مما تستطيع متابعته، كانت ضجرة وتعدّ الأيام المتبقية لها للإحالة على التقاعد. يقضي الأطفال فترة قصيرة في خدمة حماية الطفولة، وتوفر هي لهم منزلاً مؤقتاً، وبعد وقت قصير يرجعون مرة أخرى وقد تعرضوا للضرب أو الاغتصاب. جاءت المرشدة لرؤية فريدي مرتين وتبادلت الحديث مع أولمبيا، وهكذا عرفت شيئاً عن ماضي صديقي.

❖ ❖

عمر فريدي أربعة عشر عاماً وليس اثني عشر عاماً مثلما كنت أعتقد. وقد ولد في الحي اللاتيني في نيويورك، لأم دومنيكانية وأب مجهول. أحضرته الأم إلى نيفادا في سيارة عشيقها المخلعة، وهو هندي من قبيلة بايوت، وكحولي مثلها. يعيشان بالتخييم متنقلين من مكان إلى آخر، ينتقلان إذا توفر لهما البنزين، ويراكمان مخالفات مرورية ويخلّفان وراءهما نثاراً من الديون. اختفى كلاهما من نيفادا بعد وقت قصير، ولكن هناك من عثر على فريدي، وكان عمره ستة شهور، مهجوراً في محطة بنزين، سيئ التغذية وتغطي جسده الرضوض والكدمات. تربى في بيوت للدولة، متنقلاً من يد إلى يد، ولم يكن يستمر طويلاً في أي بيت، فقد كانت لديه مشاكل في السلوك والطبع، ولكنه كان يذهب إلى المدرسة وكان تلميذاً جيداً. في التاسعة من عمره اعتقل في

عملية سطو مسلح، أمضى عدة شهور في إصلاحية وبعدها اختفى عن رادار خدمة حماية الطفولة والشرطة.

وكان من واجب المرشدة الاجتماعية أن تتحرى كيف وأين عاش فريدي خلال السنوات الأخيرة، ولكنه كان يتظاهر بالنوم أو يرفض الردّ عليها. كان يخشى أن يضعوه في برنامج إعادة تأهيل. «لن يظل حياً ولو ليوم واحد يا لورا، لا يمكنك أن تتصوري ما الذي يعنيه ذلك. لا شيء من إعادة التأهيل، وإنما هو عقاب وعذاب فقط.» كان براندون ليمان متفقاً معه وسعى للحيلولة دون ذلك.

عندما نزعوا أنبوب التغذية من الصبي، وصار بإمكانه النهوض وتناول مأكولات صلبة، ساعدناه على ارتداء ملابسه، واقتدناه إلى المصعد مختبئاً وسط حشد الناس في الطابق الخامس خلال موعد الزيارات، ومن هناك إلى الفناء، ومشى بخطوات سلحفاة حتى بوابة المستشفى، حيث كان جو مارتن بانتظارنا ومحرك السيارة دائر. يمكنني أن أقسم أن أوليمبيا بيتِفورد كانت في الممر، ولكن المرأة الطيبة تظاهرت بأنها لم ترنا.

أحد الأطباء ممن يزودهم براندون ليمان بعقاقير السوق السوداء، صار يأتي لرؤية فريدي وعلّمني كيفية استبدال ضمادات يده كيلا تلتهب. فكرتُ في انتهاز فرصة وجود الصبي تحت تصرفي لأوقف عنه المخدرات، ولكن قواي لم تتحمل رؤيته يعاني بتلك الصورة الفظيعة. استعاد فريدي عافيته بسرعة فاجأت الطبيب الذي توقع رؤيته واهن القوى لشهرين، وسرعان ما صار يرقص مثل مايكل جاكسون ويده معلقة بحمالة إلى عنقه، ولكنه ظل يتبول دماً.

تولى جو مارتن والصيني الانتقام من العصابة المعادية، لأنهما رأيا أنه لا يمكنهما السماح بمثل تلك الإهانة.

❖ ❖

الضرب الذي تلقاه فريدي في الحي الزنجي أثر فيَّ كثيراً. في عالم براندون

ليمان المفكك يمر الناس ويختفون دون أن يخلّفوا ذكريات، البعض يذهبون، وآخرون ينتهون إلى السجن أو الموت، ولكن فريدي لم يكن واحداً من تلك الأشباح المجهولة، فقد كان صديقي. عند رؤيته في المستشفى يتنفس بصعوبة، موجوعاً، وغائباً عن الوعي في بعض اللحظات، كانت دموعي تتساقط. أظن أنني كنت أبكي على نفسي أيضاً. بدأت أشعر أني عالقة وأنه لم يعد بإمكاني مواصلة خداع نفسي بشأن الإدمان، لأني متعلقة بالكحول والحبوب والماريجوانا والكوكايين وغيرها من المخدرات من أجل قضاء اليوم. ولدى الاستيقاظ في الصباح مع الأثر الشرس لليلة السابقة، أقرر بإصرار أن أنظف جسمي من السموم، ولكن قبل انقضاء نصف ساعة أتراجع أمام إغراء جرعة. وأعاهد نفسي: قليل من الفودكا فقط لأتخلص من ألم الرأس. ويستمر وجع الرأس والزجاجة في متناول يدي.

لا يمكنني خداع نفسي بأنني في إجازة، أقضي الوقت ريثما أذهب إلى الجامعة: إنني بين مجرمين. ويمكن لي لدى أدنى سهو أن أنتهي ميتة، أو موصولة بنصف دزينة من الأنابيب والمجسات في مستشفى، مثلما حدث لفريدي. كنتُ مرعوبة جداً، لكنني أرفض ذكر الخوف، هذا السنور الرابض عند مدخل المعدة. صوت ملح كان يذكرني بالخطر، كيف لا أراه، لماذا لا أهرب قبل فوات الأوان، ماذا أنتظر للاتصال بأسرتي. ولكنني أستاء من جديد وأرد بأن أحداً لا يهتم بمصيري؛ لو أن بوبو لا يزال حياً لقلب السماء والأرض ليجدني، أما أبي فلن يزعج نفسه من أجلي. «لم تتصلي بي لأنك لم تعاني الكثير يا مايا»، هذا ما قالته جدتي نيني عندما التقينا من جديد.

انقضى أسوأ ما في الصيف في نيفادا، بحرارة تبلغ أربعين درجة، ولكنني لم أعانِ كثيراً لأني أعيش في الهواء المكيف وأخرج في الليل. كانت عاداتي ثابتة لا تتبدل، مع تواصل العمل كالعادة. ولم أكن وحدي قطّ، فالنادي الرياضي هو المكان الوحيد الذي يتركني فيه شريكا براندون ليمان

بسلام، ومع أنهما ما كانا يدخلان معي إلى الفنادق والكازينوهات، إلا أنهما كانا ينتظرانني في الخارج وهما يعدّان الدقائق.

في تلك الأيام تعرض الزعيم لالتهاب رئوي حاد، هو يسميه حساسية، ولاحظتُ أنه ازداد نحولاً. لقد ضعفت قواه خلال الوقت القصير الذي عرفته فيه، كان جلد ذراعيه يبدو مثل قماش مجعد، وفقدت الوشوم عليهما شكلها الأصلي، وصار بالإمكان عدّ أضلاعه وفقرات ظهره. كان شاحباً، تحيط دوائر زرقاء بعينيه، ومتعباً جداً. لاحظ جو مارتن ذلك قبل الجميع وبدأ يبدي الصلف ويجادل في الأوامر، بينما الصيني الحذر لا يقول شيئاً، ولكنه يساعد الآخر في المتاجرة من وراء ظهر الزعيم وفي تعقيد الحسابات وخلطها. كانا يفعلان ذلك باستهتار جعلني أنا وفريدي نعلق على الوضع. وقد حذرني الصبي: «لا تفتحي فمك يا لورا، لأنهما سيجعلانك تدفعين الثمن، فهذان الشخصان لا يعرفان التسامح».

كان الغوريلان يهملان الحذر أمام فريدي ويعتبرانه مسالماً، مهرجاً، مدمناً ذائب الدماغ. ومع ذلك كان دماغه يعمل أفضل من أدمغة الآخرين جميعاً، وهذا لا شك فيه. كنتُ أحاول إقناع الصبي بأنه من الأفضل أن يعاد تأهيله، ويذهب إلى المدرسة، ويفعل شيئاً لمستقبله، ولكنه يرد عليّ بالعبارة الجاهزة بأنه ليس لدى المدرسة ما تعلمه إياه، لأنه يتعلم في جامعة الحياة. ويكرر كلمات ليمان المقتضبة نفسها: «لقد فاتني الوقت».

❖ ❖

في بدايات شهر تشرين الأول ذهب ليمان إلى أوتا بالطائرة ورجع يقود سيارة موستانج مكشوفة آخر موديل، زرقاء اللون مع شريط فضي، وسوداء من الداخل. أخبرني أنه اشتراها لأخيه الذي لا يستطيع، لأسباب معقدة، أن يشتريها بنفسه. فأخوه آدم الذي يعيش على بُعد عشرين ساعة من السفر على الطريق العام سيرسل من يأخذ السيارة بعد يومين. لا يمكن لسيارة بهذا

المستوى أن تبقى لحظة واحدة في شوارع هذه الحي دون أن تختفي أو تُنتزع أحشاؤها، ولهذا أودعها ليمان فوراً في أحد المرآبين اللذين لهما أبواب آمنة في المبنى، لأن بقية المرائب هي مجرد كهوف قمامة، ومغارات مدمنين عابرين وممارسي جنس مفاجئين. وهناك بعض الفقراء الذين يعيشون لسنوات في تلك المغاور، مدافعين عن مترهم المربع الخاص من الجرذان ومن بائسين آخرين.

في اليوم التالي أرسل براندون ليمان شريكيه ليستلما إرسالية في فورت روبي، وهذه واحدة من ستمئة قرية شبحية في نيفادا، يستخدمها عادة كنقطة لقاء مع ممونيه المكسيكيين. وعندما ذهبا دعاني لتجريب الموستانج. المحرك الجبار، رائحة الجلد الطبيعي الجديد، والهواء في الشَّعر، والشمس على البشرة، والمنظر الفسيح الذي تقطعه الطريق كالسكين، والجبال على خلفية سماء شاحبة وبلا غيوم، كل ذلك يتناقض مع واقع أننا كنا نمر بالقرب من عدة سجون فيدرالية. كان يوماً حاراً، وعلى الرغم أن أسوأ ما في الصيف قد انقضى، إلا أن المشهد صار ملتهباً فجأة واضطررنا إلى إعادة غطاء السيارة وشغلنا مكيف الهواء.

ـ أنت تعرفين أن جو مارتن والصيني يسرقانني، أليس كذلك؟ ـ سألني.

فضَّلتُ الصمت. فهذا موضوع لا يناقشه ليمان دون هدف معين. إنكاري سيعني أنني ساهية عما يجري، وأي ردّ يؤكد معرفتي بذلك سيعني الإقرار بأنني أخونه بعدم إخباره.

ـ كان لا بد من حدوث ذلك عاجلاً أو آجلاً ـ أضاف براندون ليمان ـ. لا يمكنني الاعتماد على وفاء أحد.

ـ يمكنك الاعتماد عليّ ـ دمدمتُ بإحساس من تنزلق في زيت.

ـ هذا ما آمل به. جو والصيني أحمقان. لن يكونا مع أي شخص آخر أفضل حالاً مما هما معي، لقد كنت كريماً جداً معهما.

ـ ماذا ستفعل؟

ـ سأستبدلهما قبل أن يستبدلاني.

ظللنا صامتين لعدة كيلومترات، ولكن عندما ظننت أن بوحه قد انتهى، عاد للهجوم.

ـ أحد رجال الشرطة يريد مزيداً من المال. إذا أعطيته سيطلب المزيد. ما رأيك أنت يا لورا؟

ـ لا أعرف شيئاً عن هذا...

تقدمنا مسافة عدة كيلومترات أخرى دون كلام. فبراندون ليمان الذي بدأ يضطرب، خرج عن الطريق بحثاً عن مكان متخف، ولكننا وجدنا نفسينا في أرض جرداء مكشوفة، فيها صخور ونباتات شوكية وأعشاب ضعيفة يابسة. نزلنا من السيارة على مرأى مكشوف من حركة المرور، انحنينا وراء الباب المفتوح وأمسكتُ الولاعة بينما راح هو يسخن المزيج. وخلال أقل من زفرة حقن نفسه بالمخدر. ثم تشاركنا في تدخين لفافة ماريجوانا احتفاءً بالرحلة. إذا ما فتشتنا دورية طرق فسوف تجد سلاحاً غير مرخص، وكوكايين، وهيروين، وماريجوانا، وديمرول وغيرها من الحبوب المتفرقة في جراب بلاستيكي. «سيجد أولئك الشرطة الخنازير شيئاً آخر لا يمكننا تقديم تفسير له أيضاً»، أضاف براندون ليمان بغموض وهو يختنق بالضحك. كان مخدراً إلى حدّ اضطررتُ معه إلى قيادة السيارة بنفسي، على الرغم من أن خبرتي وراء المقود ضئيلة جداً ومن أن لفافة الماريجوانا قد غبشت نظري.

دخلنا إلى بياتي، وهذه قرية تبدو مهجورة في ساعة الظهيرة تلك، وتوقفنا لتناول الغداء في نزل مكسيكي، على لوحة إعلانه رسوم رعاة بقر وقبعات وأنشوطات، تبين في الداخل أنه كازينو يملؤه الدخان. طلب ليمان في المطعم كأسين من كوكتيل التيكيلا، وطبقين من أي طعام وزجاجة من أغلى نبيذ في قائمة الطعام. بذلتُ جهداً كي آكل، بينما كان هو يحرك محتويات طبقه بالشوكة، ويرسم دروباً في بوريه البطاطا.

ـ أتدرين ما الذي سأفعله بجو والصيني؟ بما أنني سأعطي الشرطي ما أراده، سوف أطلب منه أن يقدم لي بالمقابل خدمة صغيرة.

ـ لست أفهمك.

ـ إذا كان يريد زيادة في عمولته عليه أن يتخلص من هذين الرجلين دون أن يورطني بأي حال.

فهمت المعنى وتذكرت الفتيات اللاتي وظفهن ليمان قبلي وكان قد «تخلص» منهن. رأيت بوضوح مرعب الهوة العميقة التي أقف عندها وفكرت مرة أخرى في الهروب، ولكن شلّني من جديد الإحساس بغرقي في دبس كثيف، وبخمودي وفقداني الإرادة. لم أستطع التفكير، كنت أشعر بدماغي ممتلئاً بالنشارة، بكثير من الحبوب، والماريجوانا، والفودكا، وما لا أدري ما تناولته اليوم، لا بد لي من تنظيف بدني من السموم، كنت أتلعثم في أعماقي بينما أنا أصب في جسدي كأس النبيذ الثانية، بعد أن كنت قد انتهيت من تناول التيكيلا.

كان براندون ليمان قد مال في مقعده، رأسه إلى المسند وعيناه شبه مغمضتين. كان الضوء ينعكس على جانب منه مضيئاً وجنتيه البارزتين، وخديه الغائرين، والزرقة الضاربة إلى الخضرة حول عينيه، فيبدو كأنه جثة. «فلنرجع»، اقترحت عليه بتشنج غثيان. فأجابني: «عليَّ قبل ذلك أن أفعل شيئاً في هذه القرية اللعينة. اطلبي لي قهوة».

❖ ❖

دفع ليمان الحساب نقداً، كما هي عادته، وخرجنا من الهواء المكيف إلى حرِّ بياتي القاسي، وهذه القرية على حدّ قوله هي مستودع فضلات مواد مشعة، ولا وجود لما يستحق السياحة فيها سوى وادي الموت الذي يقع على بعد عشر دقائق. قاد السيارة بصورة متعرجة حتى مكان تؤجر فيه محلات لحفظ أشياء؛ وقد كانت أبنية تافهة من الاسمنت مع صف من البوابات الحديدية

المطلية باللون الأزرق الفيروزي. لقد جاء إلى المكان من قبل، لأنه توجه دون تردد نحو إحدى البوابات. أمرني بالبقاء في السيارة بينما راح يدير بخراقة توليفة أرقام قفلين صناعيين ثقيلين وهو يطلق اللعنات، لأنه يجد صعوبة في تركيز بصره ولأن يداه ترتجفان كثيراً منذ بعض الوقت. عندما فتح الباب أشار لي كي أقترب.

أضاءت الشمس حجرة صغيرة، ليس فيها سوى صندوقين خشبيين كبيرين. أخرج من حقيبة السيارة الخلفية حقيبة رياضية من بلاستيك أسود تحمل اسم El Paso TX ودخلنا إلى المستودع الذي يغلي بالحر. لم أستطع تجنب التفكير المرعب في أنه يمكن لليمان أن يتركني مدفونة بالحياة في ذلك المخزن. أمسكني بقوة من ذارعي وصوب إليّ عينيه.

ـ أتذكرين أنني قلت لك إننا سنقوم بأمور كبيرة معاً؟

ـ أجل...

ـ لقد حان الوقت. وآمل ألا تخيبي ظني.

هززت رأسي موافقة وقد أرعبتني نبرة صوته المتوعدة، لاسيما أنني وحيدة معه في ذلك الفرن من دون أي روح حية أخرى. جلس ليمان القرفصاء وفتح الحقيبة الرياضية وأراني محتواها. احتجتُ للحظات كي أدرك أن تلك الحزم الخضراء هي حزم أوراق نقدية.

ـ ليست أموالاً مسروقة، وليس هنالك من يبحث عنها ـ قال لي ـ. وهذه عيِّنة فقط، وعما قريب سيكون لدينا أكثر بكثير. أنت تدركين أنني أقدم لك دليلاً رهيباً على ثقتي بك، أليس كذلك؟ أنت الشخص الوحيد المحترم الذي أعرفه، باستثناء أخي. أنت ونحن صرنا شركاء الآن.

ـ ماذا يجب عليّ أن أفعل؟ ـ دمدمتُ متلعثمة.

ـ لا شيء حالياً، ولكن إذا وجهتُ إليك الأمر، أو حدث لي أي شيء، عليك أن تتصلي فوراً بآدم وتخبريه أين هي حقيبة El Paso TX، أتفهمينني؟ كرري ما قلته لكِ.

ـ عليّ أن أتصل بأخيك وأخبره أين هي الحقيبة.

ـ حقيبة El Paso TX ، لا تنسي هذا. هل لديك أي استفسار؟

ـ كيف سيفتح أخوك القفلين؟

ـ هذا أمر لا يعنيكِ! ـ نبح براندون ليمان بعنف انكمشت به على نفسي منتظرة أن أُضرب، ولكنه هدأ، أغلق الحقيبة، وضعها فوق أحد الصندوقين وخرجنا.

❖ ❖

تسارعت الأحداث منذ ذلك اليوم الذي ذهبتُ فيه مع براندون ليمان لترك الحقيبة في مستودع بياتي، ولم أعد قادرة بعد ذلك على ترتيب تلك الأحداث في رأسي، لأن بعضها كان يحدث بالتزامن وبعضها الآخر لم أكن حاضرة فيه، وعلمتُ به في ما بعد. فبعد يومين أمرني براندون ليمان أن ألحق به في سيارة فورد أكورا أعيد تدويرها مؤخراً في الكراج السري، بينما قاد هو سيارة الموستانج التي اشتراها من أوتا لأخيه. لحقت به على الطريق 95، ثلاثة أرباع الساعة في حرّ لا يرحم عبر مشهد سراب متلألئ حتى وصلنا بولدير سيتي التي لا وجود لها على خريطة براندون ليمان الذهنية، لأنها إحدى المدينتين الوحيدتين في نيفادا اللتين يعتبر القمار فيهما غير مشروع. توقفنا في محطة وقود ورحنا ننتظر تحت أشعة الشمس الحارقة.

بعد عشرين دقيقة من الانتظار وصلت سيارة فيها رجلان، سلّم إليهما براندون ليمان مفاتيح الموستانج واستلم حقيبة سفر أخرى من الحجم المتوسط ثم صعد إلى جانبي في الفورد أكورا. انطلقت الموستانج والسيارة الأخرى باتجاه الجنوب واتخذنا نحن الطريق الذي جئنا منه. لم نمر من لاس فيغاس، وإنما توجهنا مباشرة إلى مستودع بياتي، حيث كرر براندون ليمان روتين فتح القفلين دون أن يسمح لي برؤية توليفة الأرقام. ووضع الحقيبة إلى جانب الأخرى السابقة ثم أقفل الباب.

ـ نصف مليون دولار يا لورا! ـ وفرك يديه بسعادة.

ـ لا يعجبني هذا... ـ تلعثمت متراجعة.

ـ ما الذي لا يعجبك أيتها الكلبة؟

شحب لونه، هزني من ذارعي، ولكني أبعدته بدفعه عني وأنا أتباكى. هذا الصعلوك المريض الذي يمكنني أن أسحقه بكعبي، والذي يوحي لي بالرعب، يمكنه الإقدام على أي شيء.

ـ اتركني!

ـ فكري يا امرأة ـ قال ليمان بنبرة مصالحة ـ أتريدين مواصلة عيش هذه الحياة التعسية؟ أنا وأخي رتبنا كل شيء، سنغادر هذه البلاد اللعينة وستأتين معنا.

ـ إلى أين؟

ـ إلى البرازيل. خلال أسبوعين سنكون على شاطئ أشجار جوز هند. ألا تريدين امتلاك يخت؟

ـ يخت؟ أي يخت؟ أنا أريد العودة إلى كاليفورنيا وحسب!

ـ العاهرة التعيسة تريد العودة إلى كاليفورنيا إذاً! ـ قال مهدداً بسخرية.

ـ أرجوك يا براندون. لن أخبر أحداً، أعدك، يمكنك الذهاب مطمئناً مع أسرتك إلى البرازيل.

تمشى بخطوات واسعة وهو يضرب بقدميه الأرضية الإسمنتية، هائجاً، بينما أنا أنتظر مبللة بالعرق إلى جانب السيارة، محاولة أن أفهم الأخطاء التي قادتني إلى ذلك الجحيم المعفر بالتراب وإلى الأوراق النقدية الخضراء تلك.

ـ لقد أخطأتُ الظن بك يا لورا، فأنت أشد غباء مما ظننته ـ قال أخيراً ـ يمكنك الذهاب إلى الجحيم إذا كان هذا ما تريدينه، ولكن عليك أن تساعديني خلال الأسبوعين القادمين. أيمكنني الاعتماد عليكِ؟

ـ يمكنك طبعاً يا براندون، مثلما تشاء.

ـ لن تفعلي شيئاً حالياً، اللهم إلا إطباق فمكِ. وعندما أطلب منك

ستتصلين بآدم. هل تتذكرين التعليمات التي أعطيتك إياها؟

ـ أجل، سأتصل به وأقول له أين هما الحقبتان.

ـ لا! ستقولين له أين هما حقيبتا El Paso TX ولا شيء سوى ذلك. مفهوم؟

ـ أجل، طبعاً، سأخبره أن حقيبتي El Paso TX موجودتان هنا. لا تقلق.

ـ كثير من التكتم يا لورا. ستندمين إذا ما خرجت منك كلمة واحدة عن هذا الأمر. أتريدين أن تعرفي ما الذي سيحدث لك بالضبط؟ يمكنني إخبارك بالتفاصيل.

ـ أقسم لك يا براندون، لن أخبر أحداً.

❖ ❖

رجعنا صامتين إلى لاس فيغاس وكنتُ أسمع أفكار براندون ليمان في رأسي، مثل قرع ناقوس: سوف «يتخلص» مني. وأحسست برد فعل الاشمئزاز والدوار الذي أحسست به حين قيّدني فيدجويك إلى السرير في ذلك الموتيل القذر؛ كنت أرى بريق الساعة الأخضر، وأشعر بالرائحة، بالألم، بالرعب. عليّ أن أفكر، يجب أن أفكر، إنني بحاجة إلى خطة... ولكن كيف سأفكر وأنا مسممة بالكحول ولا أتوصل إلى تذكر الحبوب التي تناولتها، كم عددها وفي أي وقت أخذتها. وصلنا إلى المدينة الساعة الرابعة بعد الظهر متعبين، وملابسنا ملتصقة ببدنينا من العرق والغبار، ونشعر بالظمأ. تركني ليمان في النادي الرياضي كي أتنشط قبل الجولة الليلية، وذهب هو إلى الشقة. وحين ودعني شدّ على يدي وقال لي أن أطمئن، وأن كل شيء تحت سيطرته. كانت تلك هي آخر مرة أراه فيها.

النادي الرياضي يفتقر إلى الرفاهية المبالغ بها في فنادق *الستريب* بحماماتها ذات أحواض المرمر التي تُملأ بالحليب ومدلكي المساج العميان فيها المجلوبين من شنغهاي، ولكنه أكبر أندية المدينة وأكثرها كمالاً، فيه عدة

قاعات تمارين، وأجهزة تعذيب رياضية متنوعة من أجل نفخ العضلات ومط الأوتار، وجناح تدليك وتجميل لديه قائمة منيو للعلاج الصحي والتجميل، وصالون حلاقة للبشر وللكلاب، ومسبح مغطى يتسع لحوت حسب تقديري. وكنت أعتبر النادي مقر قيادتي، لديّ فيه حساب مفتوح ويمكنني الذهاب إلى جناح التدليك والتجميل، والسباحة أو ممارسة اليوغا في المناسبات التي تسمح حالتي المعنوية بذلك، وهي تتضاءل أكثر فأكثر. كنت أقضي معظم الوقت مستلقية على كرسي مفتوح وبذهن خامل. وأحتفظ في خزائن تبديل الملابس ذات المفاتيح بأشيائي الثمينة، لأنها تختفي في الشقة على يد تعساء من أمثال مرغريت أو فريدي نفسه إذا كان محتاجاً.

عند العودة من بياتي، غسلت تعب الرحلة تحت الدوش وتعرقتُ الرعب في الساونا. وحين صرت نظيفة وهادئة، بدا لي وضعي أقل غماً، لدي أسبوعان كاملان، فترة كافية لأحسم أمر مصيري. فكرت في أن أي تصرف متهور من جانبي سيسرع نتائج قد تكون كارثية، يجب عليّ أن أُرضي براندون ليمان إلى أن أجد الطريقة للتحرر منه. فكرة الشاطئ البرازيلي ذي أشجار جوز الهند مع أسرته تسبب لي قشعريرة؛ لا بد لي من العودة إلى البيت.

❖ ❖

حين وصلتُ إلى تشيلوي كنت أشكو من أنه لا شيء يحدث هنا، ولكن عليّ أن أتراجع عن ذلك الرأي، فقد حدث شيء يستحق أن يُكتب بحبر الذهب وبحروف كبيرة: **إنني عاشقة**! ربما من المبكر قليلاً التحدث في هذا الأمر، لأنه حدث منذ أقل من خمسة أيام، ولكن الوقت لا يعني شيئاً في هذه الحالة، إنني واثقة تماماً من مشاعري. كيف يمكن لي أن أصمت إذا كنت أهيم طافية؟ هكذا هي نزوة الحب، كما تقول أغنية بلهاء تغنيها لي بلانكا مع مانويل في كورال، يضحكان عليّ مذ ظهر دانييل في الأفق. ماذا سأفعل بكل هذه السعادة، بهذا الانفجار في القلب؟

من الأفضل أن أبدأ من البداية. ذهبتُ مع مانويل وبلانكا إلى الجزيرة الكبرى لرؤية عملية «نقل بيت»، دون أن أحلم أنه هناك، فجأة، وبالمصادفة، سيحدث شيء سحري، سأتعرف إلى رجل قدري: دانييل غودريتش. عملية نقل بيت هي عملية فريدة في العالم، إنني متأكدة من ذلك. تتلخص في نقل بيت إبحاراً في البحر، مربوطاً إلى زورقين، ثم يسحب بعد ذلك إلى اليابسة بستة أزواج ثيران كي يوضع في المكان المخصص له. إذا ما أراد أحد أهالي تشيلوي أن يذهب للعيش في جزيرة أخرى أو إذا جف بئر مائه واضطر إلى الانتقال بضعة كيلومترات ليجد الماء، فإنه يحمل بيته معه، مثل حلزون. بسبب الرطوبة الشديدة تُصنع البيوت في تشيلوي من الأخشاب، بلا إسمنت، وهذا يتيح قطرها طافية ونقلها على جذوع. وتتم العملية عن طريق *مينغا* حيث يشارك الجيران والأقارب والأصدقاء في المهمة. البعض يقدمون الزوارق، وآخرون يقدمون الثيران، وصاحب البيت يقدم الشراب والطعام، ولكن *المينغا* في هذه الحالة كانت مصيدة للسياح، لأن البيت نفسه كان يذهب ويجيء عبر الماء واليابسة طوال شهور، إلى أن يتحول إلى فتات. وتلك المرة ستكون الأخيرة حتى الصيف القادم، حيث يكون هناك بيت آخر متنقل. والفكرة هي إظهار للعالم كم هم غير مغفلين أهالي تشيلوي ومنح بهجة للسذج الذين يأتون في حافلات وكالات السياحة. وبين أولئك السياح جاء دانييل.

كانت قد مرت علينا عدة أيام جفاف وحر، وهو أمر غير مألوف في هذه الفترة من السنة، حيث المطر دائم الهطول. وكان المشهد مختلفاً، لم أر سماء بمثل تلك الزرقة قطّ، ولا بحراً فضياً على ذلك النحو، ولا أرانب برية كثيرة في المروج، ولم أسمع قطّ مثل صخب الطيور المرحة ذاك على الأشجار. إنني أحب المطر، لأنه يوحي بالتمام الشمل والصداقة، ولكن في أوج الشمس يظهر بصورة أفضل بهاء هذه الجزر والقنوات. في جو الصحو

يمكنني المشي دون كسر عظامي في الماء المتجمد، ويمكنني اكتساب قليل من اللون البرونزي، ولكن بحذر شديد، لأن طبقة الأوزون هنا رقيقة جداً، وصار من المعهود ولادة أغنام عمياء وضفادع مشوهة. هذا ما يقولونه، ولكنني لم أره بعد.

كانت الاستعدادات جاهزة على الشاطئ من أجل عملية الجر: الثيران، الحبال، الخيول، وعشرون رجلاً من أجل العمل الشاق، وعدة نساء يحملن سلال الفطائر، والكثير من الأطفال والكلاب والسياح، وأناس من أهالي المكان ممن لا يضيعون على أنفسهم الحفلة، وشرطيان لإخافة النشالين، ونائب الكنيسة من أجل مباركة العملية. ففي سنوات الألف وستمئة، عندما كان السفر شاقاً جداً ولم يكن هنالك ما يكفي من الكهنة لتغطية أراضي تشيلوي الفسيحة والمجزأة، أقر الآباء الجزويت منصب النائب الكنسي، يمارسه شخص محترم السمعة. والنائب يعتني بالكنيسة، ويدعو إلى اجتماع الأخوية الدينية، ويترأس المآتم، ويوزع مناولات خبز القربان، ويبارك، ويمكن له في حالات الضرورة القصوى أن يعمّد الصغار ويعقد الزيجات.

مع ارتفاع المدّ تقدم البيت متأرجحاً في البحر مثل سفينة قديمة، يقطره زورقان، وغاطساً في الماء حتى النوافذ. وعلى السطح يرفرف علم تشيلي مثبتاً على عصا، وصبيان يمتطيان العارضة الكبرى فرشخة من دون سترة نجاة. لدى الاقتراب من الشاطئ، استُقبلت تلك السفينة بالهتاف وبادر الرجال إلى الرسو بها ريثما ينخفض المد. وقد قدروا الأمر جيداً كيلا يطول الانتظار. لقد مرّ الوقت علينا في كرنفال فطائر وكحول وجيتارات وألعاب كرة ومسابقة مغنين شعبيين يتحدون بعضهم بعضاً بأبيات مقفاة مزدوجة المعنى، وذات حرارة عالية كما بدا لي. فالسخرية هي آخر ما يتم تعلمه من لغة أخرى، وقد كان يفوتني الكثير في هذا المجال. وفي الوقت المناسب أُدخلت بعض الجذوع تحت البيت، وصُف الاثنا عشر ثوراً مثنى مثنى ورُبطت إلى

دعائم البيت بحبال وسلاسل وبدأت المهمة الهائلة يحييها صراخ المشاهدين وتصفيقهم، وصفير الشرطيين.

أحنت الثيران رقابها، وشدّت كل عضلة في أجسادها الضخمة، وتقدمت بأمر من الرجال وهي تخور. كانت محاولة الشَّد الأولى مترددة، أما في الثانية فضبطت الثيران قواها وراحت تمشي بسرعة أكبر مما تصورته، تحيط بها الجموع، البعض في المقدمة يفتحون الطريق أمامها بسرعة، وآخرون على الجانبين يحثونها، وغيرهم وراء البيت يدفعونه. يا للمرح! يا للجهد العظيم المشترك ويا للسعادة! كنت أركض بين الأطفال صارخة بسعادة، ومعي **فاكن** يتقافز بين قوائم الثيران. وكلما تم التقدم عشرين أو ثلاثين متراً يجري التوقف لترتيب صف الثيران، وتدوير زجاجات النبيذ على الرجال، واتخاذ الأوضاع أمام كاميرات السياح.

❖ ❖

لقد كانت *مينغا* سيركٍ مدبرة للسياح، ولكن ذلك لم يُنقص من قيمة جرأة الرجال ولا من قوة الثيران. وفي النهاية، عندما صار البيت في موقعه، بمواجهة البحر، رشه النائب الكنسي بماء مقدس وبدأ الجمهور بالتفرق.

وحين صعد الغرباء إلى حافلاتهم واقتاد أهالي تشيلوي ثيرانهم، جلستُ على العشب لمراجعة ما رأيته، متحسرة على عدم وجود دفتري معي لأسجل التفاصيل. وفي أثناء ذلك أحسستُ أن هناك من ينظر إليّ فرفعت رأسي ووجدت نفسي في مواجهة عيني دانييل غودريتش. عينان مدورتان لهما لون الخشب، عينا مهر. أحسست بتشنج رعب في معدتي، كما لو أن شخصية تخييل قد تجسدت أمامي، شخص عرفته في واقع آخر، في أوبرا أو لوحة من عصر النهضة، من تلك اللوحات التي رأيتها في أوروبا مع جديّ. يمكن لأي شخص أن يظن أني معتوهة: غريب يقف أمامي فيملأ رأسي بعصافير طنانة، أي شخص باستثناء نيني. فهي ستفهم، لأن حالها كانت هكذا حين تعرفت إلى بوبو في كندا.

عيناه. كان هذا هو أول ما رأيته. عينان برموش ناعسة. رموش امرأة وحاجبان ثخينان. تأخرت دقيقة تقريباً قبل أن ألحظ البقية: طويل القامة، قوي البنية، عظام طويلة، وجه حسي، شفتان سميكتان، والبشرة بلون السكر المحروق. ينتعل جزمة مشاء، ويحمل كاميرا فيديو وجعبة ضخمة مغبرة وكيس نوم مطوي فوقها. حياني بقشتالية جيدة، وأفلت الجعبة على الأرض، ثم جلس إلى جانبي وبدأ يهوي وجهه بالقبعة. كان شعره قصيراً، أسود، بتجعدات متراصة. مدّ لي يداً قاتمة طويلة الأصابع وأخبرني باسمه: دانييل غودريتش. قدمت له ما تبقى في قارورة مائي، فشربها في ثلاث جرعات دون أن يهتم بجراثيمي.

بدأنا التحدث عن عملية جرّ البيت التي صورها من عدة زوايا، وأوضحت له خدعة أن العملية معدّة للسائحين، ولكن ذلك لم يخمد حماسته. إنه آت من سياتل، وهو يجوب أنحاء أميركا الجنوبية منذ خمسة شهور، بلا مخططات أو وجهات محددة، مثل متشرد. هكذا عرّف نفسه: متشرد. يريد أن يعرف أكثر ما يمكن وأن يمارس التكلم بالإسبانية التي تعلمها في دروس وكتب، ومختلفة جداً عن اللغة المحكية. في أيامه الأولى في هذه البلاد لم يكن يفهم شيئاً، مثلما حدث لي، لأن التشيليين يتكلمون مستخدمين التصغير، وبنبرة مغناة، وبسرعة، يبتلعون المقاطع الأخيرة من الكلمات ويُبرزون السينات. «من الأفضل عدم الفهم، بسبب البذاءات التي يتفوه بها الناس»، هكذا هو رأي بلانكا.

دانييل يقوم بجولة في تشيلي، وقبل وصوله إلى تشيلوي كان في صحراء آتاكاما بمناظرها القمرية التي من ملح وأعمدتها التي من ماء ساخن، وفي سنتياغو ومدن أخرى لم تهمه كثيراً، وفي منطقة الغابات ببراكينها التي يتصاعد منها الدخان وبحيراتها التي بلون الزمرد، وهو يفكر بمواصلة رحلته إلى باتاغونيا وأرض النار كي يرى المضايق والأنهار الجليدية.

مانويل وبلانكا اللذان كانا قد ذهبا إلى القرية للشراء، رجعا بسرعة كبيرة لمقاطعتنا، ولكن دانييل وقع منهما موقعاً طيباً وأثر فيهما، فدعته بلانكا، لحسن حظي، إلى البقاء في بيتها عدة أيام. قالت له إنه لا يمكن لأحد أن يمر في تشيلوي دون أن يتذوق كورانتو حقيقياً، ولدينا يوم الخميس حفلة كورانتو في جزيرتنا، وهو الكورانتو الأخيرة في هذا الموسم السياحي، والأفضل في تشيلوي، ولا يمكنه أن يضيع الفرصة. لم يحتج دانييل إلى التوسل إليه، وكان قد أمضى ما يكفي من الوقت في تشيلي ليعتاد على ضيافة التشيليين المفاجئة، والمستعدين على الدوام لفتح بيوتهم لأي غريب ساهٍ يلتقون به صدفة. أظن أنه قبل الدعوة من أجلي، لكن مانويل نبهني إلى ألا أكون مغرورة، وقال إن دانييل سيكون أحمق لو أنه رفض الدعوة إلى إقامةٍ وطعام مجانيين.

❖ ❖

انطلقنا بالمركب *كاهويا* في بحر لطيف، ووصلنا في وقت مناسب لرؤية البجع ذي الرقاب السوداء يطفو في القناة، إنها طيور رشيقة وأنيقة كجندولات فينيسيا «مستقرة تمر البجعات»، قالت بلانكا التي تتكلم مثل التشيلويين. المشهد يبدو على ضوء الغروب أجمل مما هو في أي وقت آخر. أشرت بإيماءة واسعة من ذراعي تستوعب الأفق بكامله. وقال له مانويل: «أهلاً بكَ في جزيرة مايا بيدال أيها الصديق»وأرفق قوله بغمز من عينه استطعت أن ألمحه. يمكن له أن يسخر مني كما يشاء على انفراد، ولكنه إذا حاول عمل ذلك أمام دانييل فسوف يندم. هذا ما أخبرته به فور تواجدنا وحدنا.

صعدنا إلى بيت بلانكا، حيث انهمكت هي ومانويل في الطهو فوراً. وطلب دانييل الإذن بالاستحمام، لأنه بحاجة ماسة إلى حمام، وإلى غسل بعض ملابسه، بينما ذهبت أنا راكضة إلى بيتنا لإحضار زجاجتيّ نبيذ جيد كان ميّالوبو قد أهداهما إلى مانويل. قطعتُ الطريق في إحدى عشرة دقيقة،

وهذا رقم قياسي عالمي، وكأن هنالك أجنحة في كاحليّ. اغتسلتُ، وضعت مكياجاً حول عينيّ، ارتديت لأول مرة فستاني الوحيد، وانطلقت راكضة في طريق العودة حاملة صندلي وزجاجتيّ النبيذ في كيس بلاستيكي، ويلحق بي **فاكن** ولسانه خارج فمه وهو يجرجر قائمته العرجاء. احتجت لذلك كله أربعين دقيقة بالإجمال، وخلال هذا الوقت كان مانويل وبلانكا قد ارتجلا سلطة ومعكرونة مع ثمار البحر، وهو الطبق الذي يسمى في كاليفورنيا *tuti-mare* ويسمونها هنا معكرونة مع فضلات، لأنهم يستخدمون فيها بقايا طعام اليوم السابق. استقبلني مانويل بصفير إعجاب، لأنه لم يرني إلا ببنطال ولا بد أنه يظنني بلا أسلوب. الفستان اشتريته من محل ألبسة مستعملة في كاسترو، ولكنه يكاد يكون جديداً وليس من موضة قديمة.

خرج دانييل من الحمام بذقن حليقة وبشرة لامعه كخشب صقيل. تدثرنا بعباءات بونتشو كي نأكل على الشرفة، لأن الجو صار بارداً في هذه الفترة. أعرب دانييل عن شكره الكبير على الضيافة، قال إنه يسافر منذ شهور بميزانية ضئيلة وقد أضطر إلى النوم أحياناً في أقل الأمكنة راحة أو في العراء. وقد عرف كيف يقدّر المائدة، والطعام الجيد، والنبيذ التشيلي، ومنظر الماء والسماء والبجع. فقد كانت أنيقة جداً رقصة البجع البطيئة على حرير البحر بنفسجيّ اللون، وقد رحنا نراقبها بإعجاب صامتين. جاء سرب بجع آخر من جهة الجنوب ناشراً الظلال بأجنحته الكبيرة على آخر ومضات السماء البرتقالية، ومرّ دون توقف. هذه الطيور شديدة الوقار في المظهر وشديدة الضراوة في القلب، مصمَّمة للإبحار وحسب ـ ففي البر تبدو أشبه بطيور بط بدينة ـ ولكنها ليست بديعة في أي حال مثلما هي في أوج طيرانها.

أجهز الثلاثة على زجاجتيّ نبيذ **الميّالوبو** وشربتُ أنا ليمونادة، لم أحتج إلى النبيذ، فقد كنت شبه ثملة بالرفقة. وبعد تناول التحلية ـ تفاح بالفرن مع حلوى الحليب ـ سألنا دانييل إذا كنا نرغب في مشاطرته تدخين

لفافة ماريجوانا. أصابني السؤال بقشعريرة، فلمثل هذا الاقتراح وقع سيء على كبار السن، ولكنهما وافقا، وأمام مفاجأتي ذهبت بلانكا لإحضار شيشة تدخين. «إياكِ أن تقولي شيئاً حول هذا في المدرسة أيتها الغرينيتا»، قالت لي بنبرة متآمرة، ثم أضافت أنها تدخن بين حين وآخر مع مانويل. وتبين لي أن هنالك عدة عائلات في هذه الجزيرة تزرع الماريجوانا، وأنها تصدّرها منذ نصف قرن إلى أمكنة أخرى في تشيلوي. وأخبرتنا بلانكا: «دونيا لوثيندا تغني لشتولها، تقول إنه يجب التغني بها، كما بالبطاطا، كي تنمو بصورة أفضل، ولا بد أن قولها صحيح، لأنه لا يمكن لأحد منافسة عشبتها». إنني ساهية جداً، فقد ذهبت مئة مرة إلى فناء دونيا لوثيندا، لأساعدها في صباغة الصوف، دون أن أنتبه إلى شتلات الماريجوانا. ومع ذلك، فإن رؤية بلانكا ومانويل، هذين الجزرتين، يتبادلان شيشة الماء، كان أمراً يصعب تصديقه. لقد دخنتُ أنا أيضاً، أعرف أنه يمكنني عمل ذلك دون أن يتحول إلى حاجة ضرورية، ولكنني لا أجرؤ على تذوق الكحول. مازال ذلك غير ممكن، وربما إلى الأبد.



ما كان عليّ أن أعترف لمانويل وبلانكا بالصدمة التي سببها لي دانييل، فقد حدسا ذلك حين رأياني مرتدية الفستان ومستخدمة المكياج، وهما المعتادان على مظهري كلاجئة. لا بد أن بلانكا الرومانسية بطبعها ستُسهّل لنا الأمور، لأن الوقت المتوافر لنا قليل. أما مانويل بالمقابل فيحافظ على سلوكه كعجوز.

ـ من الأفضل لك قبل أن تموتي حباً يا مايا أن تتحري إن كان هذا الشاب يحتضر أيضاً من الداء نفسه، أم إنه يفكر في مواصلة رحلته وتركك مهجورة ـ نصحني.

ـ بمثل هذا الحذر لا يمكن لأحد أن يقع في الحب يا مانويل. ألا تكون غيوراً؟

ـ بالعكس يا مايا، إنني أشعر بالأمل. فربما يأخذك دانييل إلى سياتيل، وهذه مدينة ملائمة جداً للتخفي من مكتب التحقيقات الفيدرالي ومن المافيا.

ـ أتطردني!

ـ لا يا صغيرتي، كيف يمكن أن أطردك وأنت نور شيخوختي الكئيبة ـ قال بتلك النبرة الساخرة التي تُغضبني ـ ما يقلقني هو أن تقعي على وجهك في مسألة الحب هذه. هل لَمّح لك مانويل بمشاعره؟

ـ ليس بعد، لكنه سيفعل.

ـ تبدين واثقة جداً.

ـ لا يمكن لسهم مثل هذا أن يكون أحادي الجانب يا مانويل.

ـ لا، طبعاً، إنه لقاء روحين...

ـ بالضبط، ولكنه شيء لم يحدث لك قط، لهذا تسخر مني.

ـ لا تُبدي رأياً في ما لا تعلمينه يا مايا.

ـ أنت من تبدي آراء في ما تعلمه!

دانييل هو أول أمريكي في مثل سني أراه منذ وصولي إلى تشيلويي، والوحيد المثير للاهتمام الذي أتذكره، ففتيان المدرسة الثانوية وعصابيو أكاديمية أوريغون وفاسدو لاس فيغاس لا يدخلون في الحساب. لسنا في السن نفسها، فأنا أصغر منه بثماني سنوات، ولكنني عشت قرناً أكثر منه ويمكنني إعطاؤه دروساً في النضج والخبرة بالعالم. أحسست بالراحة معه منذ البداية؛ لدينا الذوق نفسه في الكتب والسينما والموسيقى، ونضحك للأشياء نفسها، ونحن نعرف معاً أكثر من مئة نكتة عن المجانين: نصفها اكتسبه في الجامعة، ونصفها الآخر حفظته أنا في الأكاديمية. وفي ما عدا ذلك نحن مختلفان.

فقد جرى تبني دانييل بعد أسبوع منذ ولادته، تبناه زوجان أبيضان لديهما موارد جيدة، ليبراليان ومثقفان، من نمط الناس المنضوين تحت مظلة العاديين الواسعة. وكان تلميذاً مقبولاً ورياضياً جيداً، عاش حياة عادية

ويمكنه تخطيط مستقبله بالثقة اللاعقلانية لمن لم يعرف المعاناة. إنه شخص سليم البنية، واثق من نفسه، ودود ومتساهل. وسيكون مثيراً للسخط لولا روحه المتفحصة وكثيرة الأسئلة. وقد سافر مستعداً للتعلّم، وهذا ينقذه من أن يكون مجرد سائح آخر. وهو مصمم على السير على خطى أبيه بالتبني، فقد درس الطب، وأنهى مرحلة إقامته كطبيب نفساني في منتصف العام الماضي، ووظيفته مأمونة، عند عودته إلى سياتيل، في عيادة إعادة التأهيل التي يملكها أبوه. يا لسخرية القدر، كان يمكن لي أن أكون أحد مرضاه.

سعادة دانييل، الخالية من التفخيم، كسعادة القطط، تستثير حسدي. وخلال تجواله في أميركا اللاتينية تعايش مع أناس شديدي التنوع: أثرياء من أكابولكو، وصيادو سمك في الكاريبي، وقاطعو أخشاب في الأمازون، مزارعو كوكا في بوليفيا، وسكان أصليون في البيرو، كما عرف رجال عصابات، وقوادين، وتجار مخدرات، ومجرمين، وشرطيين وعسكريين فاسدين. وانتقل طافياً من مغامرة إلى أخرى دون أن تتأثر براءته. أما أنا بالمقابل، فكل ما عشته خلّف فيَّ ندوباً وخدوشاً وكدمات. هذا الرجل محظوظ، وآمل ألا تكون هذه مشكلة بيننا. أمضى ليلته الأولى في بيت العمة بلانكا، حيث استراح في فراش الريش والملاءات الفاخرة، فهكذا هو ذوقها الرفيع، ولكنه جاء معنا بعد ذلك لأن بلانكا وجدت ذريعة لتذهب إلى كاسترو وتترك النزيل بين يدي. وضع دانييل كيس نومه في أحد أركان الصالة ونام هناك مع القطين. كنا نتناول العشاء كل ليلة في وقت متأخر، وننقع نفسينا في الجاكوزي ونحن نتبادل الحديث، هو يحدثني عن حياته ورحلته، وأنا أريه نجوم الجنوب، وأحدثه عن بيركلي وعن جديَّ، وكذلك عن أكاديمية أوريغون، ولكنني مازلت أصمت عن فصل حياتي في لاس فيغاس. لا يمكنني التحدث في هذا الأمر قبل التوصل إلى الثقة، لأنه سيرتعب. يبدو لي أنني هويت في العام الماضي إلى عالم مظلم. خلال وجودي تحت

الأرض، مثل بذرة أو درنة، كانت مايا بيدال أخرى تدفع نفسها للظهور من تحت الأرض، برزت لي شعيرات نحيلة تبحث عن الرطوبة، ثم صارت جذوراً كالأصابع تبحث عن غذاء، وأخيراً برزت لي ساق عنيدة وأوراق تبحث عن الضوء. ولا بد أنني أُزهر الآن، ولهذا يمكنني التعرف إلى الحب. فهنا، في جنوبي العالم، يمنح المطر الخصوبة لكل شيء.

❖ ❖

عادت العمة بلانكا إلى الجزيرة، ولكن على الرغم من ملاءتها الفاخرة، لم يرجع دانييل إلى بيتها بل ظل في بيتنا. علامة جيدة. لقد بقينا معاً طوال الوقت، لأني لم أعد أعمل، فقد حررني مانويل وبلانكا من المسؤوليات خلال وجود دانييل هنا. لقد تحدثنا عن أشياء كثيرة، ولكنه لم يوفر لي بعد موطأ قدم كي أقدم له بوحي. إنه أشد حذراً مني بكثير. سألني لماذا أنا في تشيلوي، وأجبته بأنني أساعد مانويل في عمله وأتعرف على هذه البلاد، لأن أسرتي من أصول تشيلية، وهذا الكلام هو نصف الحقيقة. أريته القرية، وصوَّر المقبرة والأكواخ البدائية المقامة على أوتاد في الماء، ومتحفنا المعفر بالغبار والمثير للأسى بمقتنياته التافهة ولوحاته الزيتية لشخصيات جليلة منسية، ودونيا لوثيندا التي بلغت عامها التاسع بعد المئة ومازالت تبيع الصوف وتجني محصولي البطاطا والماريجوانا، وشعراء زجل «التروكو» في حانة الميت، وأوريليو نيانكوبيل وحكاياته عن القراصنة والمورمونيين.

مانويل آرياس في غاية الافتتان، فلديه ضيف جيد الانتباه، يصغي إليه بإعجاب ولا ينتقده مثلي. وبينما هما يتبادلان الحديث، أُحصي أنا الدقائق الضائعة في أساطير الساحرات والمسوخ؛ وهي دقائق يمكن لدانييل أن يوظفها بصورة أفضل معي على انفراد. عليه أن ينهي رحلته بعد أسابيع قليلة ومازال عليه إكمال رحلته بالذهاب إلى أقصى جنوبي القارة وإلى البرازيل، ومن المؤسف أنه يبدد وقته الثمين مع مانويل. لقد أُتيحت لنا فرص حميمة،

ولكنها قليلة جداً برأيي، واقتصر على إمساك يدي لمساعدتي في القفز عن صخرة بارزة في الماء. نادراً ما نكون معاً، لأن نساء القرية العجائز كالأشواك، فضلاً عن أن خوانيتو كورّاليس وبيدرو بيلانتشوغاي و**فاكن** يلحقون بنا إلى أي مكان دائماً. لقد حدست الجدات مشاعري تجاه دانييل وأظن أنهن أطلقن تنهيدة راحة جماعية، لأن تقولات سخيفة كانت تتردد عني وعن مانويل. فالناس ينظرون بريبة إلى عيشنا معاً على الرغم من أن أكثر من نصف قرن يفصل بين عمرينا. تآمرت إدوفيخيس كورّاليس ونساء أخريات ليكن قوادات لي، إنما كان عليهن أن يتكتمن أكثر وإلا تسببن في هرب الشاب الذي من سياتيل. وقد تآمر مانويل وبلانكا أيضاً.

يوم أمس أقيم الكورانتو الذي تحدثت عنه بلانكا وتمكن دانييل من تصويره كاملاً. أهل القرية ودودون مع السياح، لأنهم يشترون مشغولات يدوية ووكالات السياحة تدفع مقابل الكورانتو، ولكن إحساساً عاماً بالراحة ينتشر بعد أن يغادر السياح. فالأهالي يدارون ضيقهم من فضول زمر الغرباء في بيوتهم والتقاط الصور لهم كما لو أن أهل المكان هم الغرباء. ولكن الحال مع دانييل مختلفة، فهو يعامل كضيف عند مانويل، وهذا وضع يفتح له الأبواب، كما أنهم يرونه معي، وهذا منحه تسهيلاً في تصوير ما يرغب فيه، بما في ذلك داخل بيوتهم.

كان معظم السياح هذه المرة ممن هم في المرحلة العمرية الثالثة، متقاعدين بيض الشعور آتين من سنتياغو، وسعداء جداً على الرغم من صعوبة المشي على الرمل. أحضروا جيتاراً وغنوا، بينما كان يجري طهو الكورانتو، وشربوا بيسكو سور بكثرة، مما أسهم في التراخي العام. استولى دانييل على الجيتار وأمتعنا بعزف أغنيات بوليرو مكسيكية وفالسات بيروية التقطها خلال رحلته؛ صوته ليس عظيماً، ولكنه يغني بترنم ومظهره البدوي أغوى الزائرين.

بعد الإجهاز على ثمار البحر، شربنا عصارة الكورانتو في القدور

الفخارية الصغيرة، وهي أول ما يوضع على الأحجار الساخنة من أجل تلقي هذا النكتار. من المستحيل وصف مذاق هذا المرق المركّز من لذائذ البر والبحر، لا يمكن لشيء أن يقارن بالنشوة التي يُحدثها، فهو يجوب الأوردة كنهر ساخن ويخلّف القلب طافراً. لقد قيل الكثير من المزاح حول قدرته الأفروديتية، ويقارنه مسنو سنتياغو الذين يزوروننا بالفياغرا وهم يتلوون من الضحك. لا بد أن قولهم صحيح، لأنني أحسست أول مرة في حياتي برغبة غير قابلة للتحويل في ممارسة الحب مع شخص محدد بالضبط: مع دانييل.

لقد تمكنتُ من مراقبته عن قرب والتعمق في ما يظنه هو صداقة وأعرف أنا أن له اسماً آخر. إنه في زيارة عابرة، وسيغادر قريباً، لا يرغب في التأخير، وربما لن أعود لرؤيته، ولكن هذه الفكرة لا تُطاق إلى حدّ أنني استبعدتها. من الممكن الموت حباً. مانويل يقول ذلك مازحاً، ولكنه صحيح، ففي صدري يتراكم ضغط مشؤوم، وما لم يهدأ سريعاً فسوف أنفجر. نصحتني بلانكا بأن أكون المبادرة، وهذه نصيحة لا تُطبقها هي على نفسها مع مانويل، ولكنني لم أتجرأ. الأمر مضحك، ففي مثل عمري وماضيّ، لا يمكن لي أن أتقبل صداً. أيمكن ذلك؟ إذا ما صدني دانييل فسألقي بنفسي رأساً وسط أسماك السلمون آكلة اللحم. لستُ قبيحة بالكامل كما يقولون. لماذا لا يقبلني دانييل؟

❖ ❖

قربي من هذه الرجل الذي أكاد لا أعرفه مسمِّم كالإدمان، وهو مصطلح أستخدمه بحذر، لأني أعرف معناه جيداً، ولكنني لا أجد مصطلحاً آخر لوصف هذا الهيجان في الحواس، وهذه التبعية الشبيهة بالإدمان. إنني أفهم الآن السبب في أن العاشقين في أعمال الأوبرا والأدب يقدمون على الانتحار، عند اضطرارهم إلى الانفصال، أو أنهم يموتون حزناً. هنالك عظمة ووقار في التراجيديا، ولهذا هي مصدر إلهام، لكنني لا أريد

تراجيديا، مهما كانت التراجيديا خالدة، أريد سعادة بلا صخب، سعادة حميمة وشديدة التكتم، كيلا أستثير غيرة الآلهة شديدي الانتقام والبطش دائماً. يا للبلاهات التي أقولها! لا أساس لهذه التخيلات، فدانييل يعاملني باللطف نفسه الذي يتعامل به مع بلانكا التي يمكن لها أن تكون بمقام أمه. ربما لستُ نموذجه المفضل. أم تراه مثلياً؟

أخبرتُ دانييل أن بلانكا كانت ملكة جمال في سنوات الستينيات وهنالك من يظن أنها ملهمة واحدة من قصائد الحب العشرين لبابلو نيرودا، على الرغم من أنها لم تكن قد ولدت بعد عند نشر تلك القصائد في العام 1924. هكذا هم الناس سيئو التفكير. نادراً ما تشير بلانكا إلى سرطانها، لكنني أظن أنها جاءت إلى هذه الجزيرة من أجل الشفاء من المرض ومن خيبة أملها بعد الطلاق. الشيء الأكثر شيوعاً هنا هو الأمراض، ولكن الحظ حالفني هنا بالتواجد مع الشخصين التشيليين الرواقيين الوحيدين اللذين لا يأتيان على ذكر أمراضهما، بلانكا شناك ومانويل آرياس، فهما يريان أن حياتيهما صعبة وأن الشكوى ستزيدها سوءاً. لقد كانا صديقين مقربين لسنوات عديدة، وكل شيء فيهما مشترك، باستثناء الأسرار التي يحتفظ بها مانويل وازدواجية سلوكها في ما يتعلق بالدكتاتورية. فهما يتسليان معاً، ويتبادلان الكتب، ويطبخان معاً، وفي بعض الأحيان أراهما يجلسان قرب النافذة ويراقبان مرور البجع صامتين. «بلانكا تنظر إلى مانويل بعين الحب»، قال لي دانييل، وهذا يعني أنني لست الوحيدة التي ألحظ ذلك. وفي تلك الليلة، بعد وضع بعض الحطب في المدفأة وإغلاق ستائر النوافذ، ذهبنا للنوم، هو في كيس نومه، وأنا في حجرتي. كان الوقت قد تأخر كثيراً. وبينما أنا أقبع في سريري، مؤرقة، تحت ثلاثة أغطية، وطاقيتي الخضراء على رأسي خوفاً من الخفافيش التي تعلق بالشَّعر على حدّ قول إدوفيخيس، كان بإمكاني سماع أنين أخشاب البيت، وفرقعة الحطب المشتعل، وزعاق البومة

على الشجرة قبالة نافذتي، وتنفس مانويل القريب الذي ما إن يضع رأسه على الوسادة حتى ينام، وشخير **فاكن** الخافت. رحتُ أفكر في أنني خلال قرابة عشرين سنة من حياتي لم أنظر لأحد بعين الحب سوى مانويل.

ألحت بلانكا على بقاء دانييل أسبوعاً آخر في تشيلوي، كي يذهب إلى القرى النائية، ويجوب دروب الغابات ويرى البراكين. ويمكنه بعد ذلك أن يسافر إلى باتاغونيا في طائرة صديق لأبيها، ملياردير اشترى ثلث أراضي تشيلوي ويفكر في التقدم إلى انتخابات رئاسة البلاد في شهر كانون الأول. أما أنا فأريد أن يبقى دانييل إلى جانبي، فقد تسكع طويلاً. ولا حاجة به للذهاب إلى باتاغونيا ولا إلى البرازيل، بل يمكنه البقاء هنا ثم الذهاب مباشرة إلى سياتيل في شهر حزيران.



لا يمكن لأحد البقاء في هذه الجزيرة أكثر من بضعة أيام دون أن يُعرف، وقد صار الجميع هنا يعرفون من هو دانييل غودريش. وقد كان أهل القرية ودودين معه، لأنه يبدو لهم غريب الأطوار، ويقدرون تكلمه للإسبانية ويفترضون أنه حبيبي (ليته يكون كذلك!). وقد تأثروا كذلك بمشاركته في قضية أثوثينا كورّاليس.

ذهبنا في الدراجة المائية إلى مغارة بينكويا متدثرين جيداً لأننا صرنا في أواخر شهر أيار، دون أن تخامرنا أية شكوك في ما ينتظرنا لدى العودة. كانت السماء صافية والبحر هادئاً والهواء شديد البرودة. من أجل الذهاب إلى المغارة، أسلكُ في العادة مساراً مختلفاً عن طريق السياح، وهو أكثر خطورة بسبب الصخور، لكنني أفضّله لأنه يتيح لي الاقتراب من ذئاب البحر. هذه هي ممارستي الروحية، وليس هنالك تسمية أخرى لتعريف النشوة التي يُحدثها فيَّ شارب «بينكويا» المتيبس، وبينكويا هو الاسم الذي عمّدتُ به صديقتي المبتلة، أنثى ذئب بحر. هنالك على الصخور ذكرٌ متوعد، عليّ أن

أتجنبه، وحوالي ثماني أو عشر أمهات مع صغارهن يتشمسن أو يلعبن في الماء بين الثعالب البحرية. في المرة الأولى ظللت أطفو في الدراجة المائية دون الاقتراب، ثابتة دون حراك، كي أرى ثعالب البحر عن قرب، وبعد قليل بدأت واحدة منها تدور حولي. هذه الحيوانات بليدة على اليابسة، ولكنها بالغة الظرافة وسريعة في الماء. كانت تمر من تحت الدراجة المائية مثل طوربيد ثم تعود للظهور فوق سطح الماء بشاربها القرصاني وعينيها السوداوين المدورتين الممتلئتين بالفضول. تصدم بخطمها مركبي الهش، كما لو أنها تعرف أنه يمكنها بنفخة أن تلقي بي إلى أعماق البحر، ولكن تصرفها كان محض مداعبة. رحنا نتعارف شيئاً فشيئاً. وصرت أزورها بكثرة وسرعان ما صارت تسبح للقائي كلما لمحت اقتراب دراجة الماء. كانت بينكويا تستمتع بحك مكنسة شاربها بذراعي العالي.

تلك اللحظات مع الذئبة البحرية كانت مقدسة، أشعر نحوها بمحبة فسيحة باتساع موسوعة الإنسكلوبيديا، وتراودني رغبة كبيرة في النزول إلى الماء واللعب معها. لا يمكنني أن أقدم دليل حبٍ لدانييل أكبر من أخذه إلى المغارة. كانت بينكويا تتشمس، وما إن رأتني حتى ألقت بنفسها إلى البحر كي تأتي لتحيتي، ولكنها توقفت على مسافة قريبة، وراحت تتأمل دانييل، ثم رجعت أخيراً إلى الصخور غاضبة لأني جئت معي بغريب. سوف أحتاج لوقت طويل كي أستعيد تقديرها.

حين رجعنا إلى القرية، قرابة الساعة الواحدة، وجدنا خوانيتو وبيدرو ينتظراننا بجزع في المرسى ليخبرانا بأن أثوثينا أصيبت بنزف شديد وهي في بيت مانويل، حيث ذهبت للتنظيف. وجدها مانويل وسط بركة من الدم، فاتصل بهاتفه المحمول بالشرطيين اللذين ذهبا إليها بسيارة الجيب. وقال خوانيتو إن الفتاة موجودة في مركز الشرطة بانتظار وصول زورق الإسعاف.

كان الشرطيان قد وضعا أثوثينا على السرير الضيق في زنزانة السيدات

وكان هوميلدي غاراي يعالجها بوضع كمادات مبللة على جبهتها لعدم توافر دواء أشد فعالية، بينما لورينثو كاركامو يتحدث بالهاتف مع مفوضية شرطة دالكاهوي طالباً منهم تعليمات. عرّف دانييل غودريتش بنفسه كطبيب، وأشار لنا أن نخرج من الزنزانة وبادر إلى فحص أثوثينا. خرج بعد عشر دقائق ليخبرنا بأن الصبية حبلى في الشهر الخامس تقريباً. فهتفتُ: «ولكنها في الثالثة عشرة من عمرها فقط!». لا أدري كيف لم ينتبه أحد إلى الأمر. لا إدوفيخيس ولا بلانكا ولا حتى الممرضة. فقد كانت أثوثينا تبدو بكل بساطة سمينة وحسب.

في هذه الأثناء وصل زورق الإسعاف وسمح الشرطيان لي ولدانييل بمرافقة أثوثينا التي كانت تبكي من الذعر. دخلنا معها إلى قسم الإسعاف في مستشفى كاسترو، وظللتُ أنتظر في الممر، أما دانييل فاستفاد من لقبه الطبي ولحق بعربة نقل المصابة إلى الجناح. في تلك الليلة بالذات أجروا العملية لأثوثينا من أجل إخراج الجنين الميت. سيُجرى تحقيق حول ما إذا كان الإجهاض متعمداً، هذا هو الإجراء القانوني في مثل تلك الحالة ويبدو أنه أهم لديهم من تقصي الظروف التي أدت بطفلة في الثالثة عشرة إلى الحبل، كما قالت بلانكا شناك بغضب مُحق.

رفضت أثوثينا كورّاليس أن تقول من الذي حبّلها، وكانت قد بدأت تدور في القرية إشاعة أنه التراوكو، وهذا قزم خرافي طوله أقل من متر وهو يحمي الغابات. يمكنه أن يلوي عنق رجل بنظرة، ويلاحق الفتيات العذراوات ليُحبِّلهن. لا بد أن الفاعل هو التراوكو، يقولون، لأن برازاً أصفر شوهد بالقرب من بيت آل كورّاليس.

بدا ردّ فعل إدوفيخيس غريباً، فقد رفضت رؤية ابنتها أو معرفة تفاصيل ما حدث. فإدمان الكحول والعنف المنزلي وزنا المحارم هي لعنات تشيلوي، ولاسيما في المجتمعات المعزولة، وخرافة التراوكو نشأت للتغطية على حبل الفتيات اللاتي يغتصبهن آباؤهن أو إخوتهن. وقد علمتُ مؤخراً

أن خوانيتو ليس حفيد كارميلو كورّاليس وحسب، وإنما هو ابنه كذلك. فأم خوانيتو التي تعيش في كييّون، قام باغتصابها أبوها كارميلو، وأنجبت الطفل وهي في الخامسة عشرة من عمرها. وقد ربته إدوفيخيس كما لو أنه ابنها، ولكن الحقيقة معروفة في القرية. إنني أتساءل كيف يمكن لمشلول طريح الفراش أن يستغل أثوثينا، لا بد أن ذلك قد حدث قبل أن يبتروا ساقه.



يوم أمس غادرنا دانييل! سيظل التاسع والعشرون من أيار 2009 في ذاكرتي باعتباره اليوم الثاني الأشد حزناً في حياتي، أما اليوم الحزين الأول فهو يوم موت جدي بوبو. سأنقش وشم 2009 على معصم يدي الأخرى كيلا أنساه أبداً. بكيتُ يومين متواصلين، وقال مانويل إنني سأصاب بالتجفاف، وإنه لم يرّ قط مثل كثرة تلك الدموع، وإنه لا وجود لرجل يستحق ذلك الألم. ما الذي يعرفه هو! فالفراق خطير جداً. ولا بد أن هناك في سياتيل مليون فتاة أجمل وأقل تعقيداً مني. لماذا أخبرته بتفاصيل ماضيّ؟ سيكون لديه الآن متسع من الوقت للتأمل فيها، بل يمكن له كذلك أن يناقشها مع أبيه ومن يدري النتائج التي سيستخلصها هذان الطبيبان النفسيان، سينعتانني بالمدمنة والعصابية. وبعيداً عني ستفتر حماسة دانييل ويمكن له أن يقرر أنه من غير المناسب له الارتباط بواحدة مثلي. لماذا لم أذهب معه! حسن، لم يطلب مني ذلك، هذه هي الحقيقة...

شتاء

حزيران، تموز، آب

لو أنني سُئلت قبل أسابيع قليلة عن أسعد مرحلة من حياتي، لقلت إنها قد مضت منذ زمن، وإنها مرحلة طفولتي مع جديّ في المنزل الكبير في بيركلي. ومع ذلك سيكون جوابي الآن بأن أسعد الأيام هي التي عشتها في أواخر شهر أيار مع دانييل وما لم تحدث كارثة فإنني سأعود لأعيشها في مستقبل قريب. أمضيت تسعة أيام برفقته، وكنا وحدنا في ثلاثة أيام منها في بيت روح أشجار السرو هذا. في تلك الأيام العجيبة انفتح لي باب، أطللتُ على الحب وكان الضياء شديداً عليَّ إلى حدّ لا يطاق. لقد كان جدي يقول إن الحب يحوّلنا إلى طيبين. ليس مهماً من نحب، وليس مهماً كذلك أن نتلقى استجابة أو أن تكون العلاقة دائمة. تكفي تجربة الحب، وهذا يبدلنا.

فلنر إن كنتُ قادرة على وصف أيام الحب الوحيدة في حياتي. لقد ذهب مانويل آرياس إلى سنتياغو في رحلة مستعجلة لمدة ثلاثة أيام لمسألة متعلقة بكتابه، ولكن بلانكا رأت أنه ذهب إلى الطبيب من أجل كشف على الفقاعة الشريانية التي في دماغه. وأنا أظن أنه ذهب ليتركني على انفراد مع دانييل. لقد ظللنا وحدنا بالكامل، لأن إدوفيخيس لم تعد تأتي للتنظيف بعد فضيحة حَبَل أثوثينا التي مازالت في مستشفى كاسترو، وهي تتعافى من التهاب أصابها، ومنعت بلانكا كلاً من خوانيتو كورّاليس وبيدرو بيلانتشوغاي من الإزعاج. كنا في الأيام الأخيرة من شهر أيار، وكانت الأيام قصيرة والليالي طويلة وجليدية، إنه المناخ المناسب تماماً للحميمية.

غادر مانويل عند الظهر وترك لنا مهمة صنع مربى بندورة، قبل أن تتعفن الثمار. بندورة، بندورة، والمزيد من البندورة. بندورة في الخريف أينما نظرت. ينمو منها الكثير في حديقة بلانكا، وكثيرون هم من يهدوننا إياها إلى

حدّ لا ندري ما الذي نفعله بها: صلصة، عجينة، بندورة مجففة. المربى هو حلّ أخير، لا أدري من الذي يمكن أن يعجبه مربى البندورة. قشرنا مع مانويل عدة كيلوغرامات، وقطعناها، وانتزعنا البذور منها، ثم وزناها ووضعناها في قدور، وقد استغرق ذلك منا أكثر من ساعتين، ولكنهما لم تضيعا سدى، لأن لسانينا أُفلتا في أثناء انهماكنا بالبندورة وتحدثنا في أمور كثيرة. أضفنا كيلوغرام من السكر لكل كيلوغرام من لب البندورة، وأضفنا قليلاً من عصير الليمون، وتركنا الخليط يغلي إلى أن تكثّف، خلال عشرين دقيقة تقريباً، بينما كنا نحرك المزيج، وعلى الفور أفرغناه في مرطبانات مغسولة جيداً. وغلينا المرطبانات الممتلئة مدة نصف ساعة، وبعد إغلاقها بإحكام صارت جاهزة لمقايضتها بمنتجات أخرى، مثل حلوى السفرجل الذي تصنعه ليليانا تريفينو أو صوف دونيا لوثيندا. وعندما انتهينا كان الظلام قد خيم والبيت يعبق برائحة سكر وحطب لذيذة.

جلسنا قبالة النافذة ننظر إلى الليل، وأمامنا صينية فيها خبز وجبن طري وسجق كان قد أرسله دون ليونيل شناك، وسمك مدخن أعده مانويل. فتح دانييل زجاجة نبيذ أحمر، سكب كأساً وعندما حاول سكب الكأس الثانية قاطعته، فقد حان الوقت لأطلعه على أسبابي في عدم تذوق النبيذ وأن أوضح له أنه يمكنه أن يشرب دون أن يقلق بشأني. أخبرته بأنواع إدماني عموماً، دون التعمق بعد في الحياة السيئة التي عشتها في العام الماضي، وأوضحت له بأنني لا أحن إلى جرعة من أجل إخماد حزن، ولكنني في اللحظات الاحتفالية، كما في هذه اللحظة قبالة النافذة، إلا أنه يمكننا أن نرفع نخباً معاً، هو بالنبيذ وأنا بعصير التفاح.

ظن أنه علي أن أكون حذرة من الكحول إلى الأبد، لأن مقاومته أصعب من المخدرات، ذلك أنه غير محظور ومتوافر ويُقدم إلى أحدنا في كل مكان. وإذا ما شربت كأساً ستضعف إرادتي ولن أتمكن من رفض الكأس الثانية، ومن

هناك إلى الوقوع في الهوة لا يبقى سوى بضع رشفات. لقد كنت محظوظة، قلتُ لدانييل، لأنني خلال الشهور الستة في لاس فيغاس لم تصل تبعيتي إلى الترسخ بقوة، وإذا ما راودني إغراء الشراب الآن فإنني أتذكر كلمات مايك أوكلي الذي يعرف الكثير في هذا الشأن، لأنه كحولي أعيد تأهيله، ويقول إن الإدمان مثل الحَبَل «إما نَعم، أو لا»، ولا وجود لحلول وسط.

❖ ❖

أخيراً، وبعد كثير من المداورة، قبّلني دانييل، في البدء بنعومة، ودون ملامسة تقريباً، وبعد ذلك بتصميم، شفتاه الغليظتان على شفتي، ولسانه في فمي. أحسست بطعم النبيذ الخفيف، وبتماسك شفتيه، وعذوبة أنفاسه الحميمة، ورائحة الصوف والبندورة التي يعبق بها، وبيده الدافئة على رقبتي. ابتعد عني ونظر إليّ بملامح متسائلة، عندئذ انتبهت إلى أنني متيبسة وإلى أن ذراعيّ ملتصقان بجانبيّ، وعيني زائغتان. «اعذريني»، قال لي منفصلاً عني. «أنت من عليه أن يعذرني!» هتفتُ بتفخيم شديد أرعبه. كيف أشرح له أن تلك في الواقع هي قبلتي الأولى، وأن كل ما سبق كان شيئاً آخر مختلفاً جداً عن الحب، وأنني كنت منذ أسبوع أتخيل هذه القبلة، ولكثرة استباقي لها أصابني القلق الآن، ولشدة خوفي من ألا تحدث، أكاد أن أنخرط الآن في البكاء. لم أدر كيف أقول له كل ذلك، فكان أسرع ما يمكنني عمله هو إمساك رأسه بكلتا يدي وتقبيله كما في وداع تراجيدي. وابتداء من تلك اللحظة صارت المسألة إفلات القيود والانطلاق بشراع مفتوح في مياه مجهولة، وإلقاء صروف الماضي من فوق سطح السفينة خارجاً.

وفي وقفة بين قبلتين، أعترفتُ له بأني أقمت علاقات جنسية، ولكنني لم أمارس الحب في الواقع قطّ. «أكنتِ تتخيلين أن ذلك يمكن أن يحدث لك هنا، في نهاية العالم؟»، سألني. فقلت له: «عند مجيئي إلى هنا عَرَّفتُ تشيلوي بأنها طيز العالم يا دانييل، ولكنني أعرف الآن أنها عين المجرة».

تبين لنا أن الصوفا المخلعة في بيت مانويل ليست مناسبة للحب، فنوابضها تبرز منها، وهي مغطاة بوبر أشهب من القط الغبي ووبر برتقالي من القط الأديب، ولهذا أحضرنا بطانيات من غرفتي وشكلنا عشاً لنا بجانب المدفأة. «لو أنني كنت أعلم أنك موجود يا دانييل لكنت أطعت جدتي وحفظتُ نفسي أكثر»، أقررت، وتأهبت لأروي له خطاياي كلها، ولكنني نسيت ذلك بعد لحظة، لأنه لا أهمية لأية شياطين في عظمة الرغبة. نزعتُ عنه بفظاظة كنزته وقميصه الداخلي طويل الكمين وبدأت أعالج الحزام وأزرار بنطال رعاة البقر ـ كم هي متعبة ملابس الرجال! ـ ولكنه أمسك يدي وعاد إلى تقبيلي. «لدينا ثلاثة أيام، يجب ألا نستعجل»، قال. داعبتُ صدره العاري، ذراعيه، كتفيه، وذرعتُ طبوغرافية ذلك الجسد المجهول، ووديانه وجباله، مقدّرة نعومة بشرته ذات اللون البرونزي العتيق، بشرة أفريقي، وهندسة عظامه الطويلة، وهيئة رأسه النبيلة، قبّلت فجوة أسفل الذقن، ووجنتي الهمجي، والرموش الفاترة، والأذنين البريئتين، وتفاحة آدم، وطريق قص الصدر الطويل، وحلمتي صدره العنبيتين بصغرهما وبنفسجيتهما. وعدت أعالج الحزام وعاد دانييل لإيقافي بحجة أنه يريد أن يراني.

بدأ بخلع ملابسي عني، وهذا عمل لانهائي: سترة مانويل الكشمير القديمة، وفانيلة شتائية سميكة، وتحتها فانلية أخرى أخفّ وحائلة الألوان إلى حدّ أن رسم أوباما الذي عليها قد تحول إلى مجرد لطخة، وحمّالة صدر من القطن ذات مشبك على شكل دبوس خطاف، وبنطال اشتريته مع بلانكا من متجر ألبسة مستعملة، ساقاه قصيرتان ولكنه يدفئ، وجرابان سميكان وأخيراً السروال الداخلي الأبيض الذي وضعته جدتي في جعبتي في بيركلي. مددني دانييل على ظهري في العش فأحسست بخرمشة البطانيات التشيلوية الخشنة والتي لا تطاق في ظروف أخرى، ولكنها حسية في تلك اللحظات. لحسني بطرف لسانه كأنني قطعة كراميلا، مسبباً لي دغدغة في بعض

الأمكنة، وموقظاً من يدري أي حيوان هاجع، مقارناً التضاد بين بشرته القاتمة ولوني الاسكندينافي الأصلي بشحوبه الميت في الأمكنة التي لا تصيبها الشمس.

أغمضت عيني واستسلمت للذة، متلوية لملاقاة تلك الأصابع المهيبة التي تلامسني كما لو أنها تعزف كماناً، وهكذا شيئاً فشيئاً إلى أن جاءت النشوة فجأة، مديدة، بطيئة، متماسكة، فأثارت صرختي ذعرَ فاكن الذي بدأ يزمجر كاشفاً عن أنيابه. «*It's okay, fucking dog*»، وتقوقعت بين ذراعي دانييل أُخرخر سعيدة في دفء جسده ورائحة كلينا المختلطة. «جاء دوري الآن»، قلتُ له أخيراً، بعد مرور وقت لا بأس به، وعندئذ سمح لي أن أنزع عنه ثيابه وأفعل به ما يحلو لي.

ظللنا محبوسين في البيت ثلاثة أيام لا تُنسى، هدية من مانويل: لقد تضاعفت ديوني لهذا الأنثروبولوجي العجوز بصورة مفزعة. كانت لدينا مناجيات معلقة وحبٌ علينا ابتكاره. كان علينا أن نتعلم كيف نريح جسدينا، وأن نكتشف بهدوء الطريقة التي يرضي كلٌ منا الآخر، وأن ننام معاً دون إزعاج لأحدنا للثاني. إنه يخلو من التجربة في هذا المجال، ولكنها أمر طبيعي بالنسبة إليّ، لأني ترعرعتُ في فراش جديَّ. فحين أكون ملتصقة بأحد لا أحتاج إلى عدّ خراف أو بجع أو دلافين كي أنام، ولاسيما إذا كان من ألتصق به شخصاً كبيراً، دافئاً وذا رائحة، يشخر بتكتم، فهكذا أعرفُ أنه حي. سريري ضيق جداً، ولأنه بدا لنا من غير اللائق احتلال سرير مانويل، لهذا وضعنا كومة من البطانيات والوسائد على الأرض، قرب المدفأة. كنا نطبخ، ونتبادل الحديث، ونمارس الحب. ننظر من النافذة، نطل على الصخور، نستمع إلى موسيقى، ونمارس الحب. نستحم في الجاكوزي، نحضر الحطب، نقرأ في كتب مانويل عن تشيلوي، ونمارس الحب من جديد. يهطل المطر فلا نشعر بالرغبة في الخروج، فكآبة غيوم تشيلوي تفتح الشهية للحب.

في تلك المناسبة الوحيدة التي كنت فيها على انفراد مع دانييل دون انقطاع قررت، مدفوعة منه، القيام بالمهمة اللذيذة في تعلم احتمالات الحواس المتعددة، متعة المداعبة دون هدف، لمجرد لذة احتكاك البشرة بالبشرة. فجسد الرجل يمنح ما يكفي أعواماً من التلهي، والنقاط الجلدية الباردة تتهيج بهذه الطريقة، ونقاط أخرى تتطلب نوعاً آخر من الاهتمام، وتلك التي لا تُلمس ويكفي النفخ عليها؛ وكل فقرة لها قصة، يمكن لإحدانا أن تضيع في ميدان الرجال الفسيح، باستعداده الطيب لتحمُّل الثقل والكروب، وفي عضلات الذراعين الصلبة المخلوقة لحمل العالم. وتحت البشرة تُخبأ رغبات لم يُعبر عنها قطّ، وميول خفية، وسمات لا تُرى بالمجهر. يجب أن توجد مراجع حول القبلات، قبلات عصفور نقار، قبلات سلام، وتشكيلة غير متناهية. اللغة ثعبان جريء ومتكتم، ولست أعني الأشياء التي تقولها. القلب والعضو الذكري هما المفضلان لدي: إنهما جامحان، وشفافان في نواياهما، ساذجان وسريعا العطب، يجب عدم التعسف معهما.

استطعت أخيراً أن أروي أسراري لدانييل. حدثته عن روي فيدجيويك وبراندون ليمان والرجلين اللذين قتلاه، عن توزيع المخدرات وفقدان كل شيء لأنتهي إلى التسول، وعن كم هو العالم خطير على النساء، وكيف علينا أن نجتاز شارعاً مقفراً إن كان هنالك رجل آت من الاتجاه المعاكس وتجنبهم تماماً إن كانوا جماعة، وأن ننتبه إلى ظهورنا، وننظر إلى جانبينا، ونتحول إلى لا مرئيات. في الفترة الأخيرة التي أمضيتها في لاس فيغاس، حين كنت قد فقدتُ كل شيء، صرت أحمي نفسي بالتظاهر أنني فتى؛ وقد ساعدني في ذلك طول قامتي وأنني كنت نحيلة كلوح خشبي، لي شعر مقصوص وأرتدي ملابس رجالية قدمها إلي جيش الخلاص. هكذا نجوت أكثر من مرة على ما أعتقد. فالشارع قاس.

أخبرته عن عمليات الاغتصاب التي رأيتها ولم أخبر بها أحداً سوى

مايك أوكلي الذي لديه معدة قادرة على تحمّل كل شيء. في المرة الأولى رأيت مخمورا مقرفاً، رجلاً يبدو متيناً بسبب طبقات الأسمال التي تغطيه، ولكنه يكون مجرد هيكل عظمي، انقض على بنت في زقاق مسدود، تملؤه القمامة والفضلات، في أوج النهار. مطبخ أحد المطاعم يطل على الزقاق، ولم أكن الوحيدة التي تبحث عن فضلات تنازع عليها الهررة المشردة. كانت هناك فئران أيضاً، يمكن سماعها، لكني لم أرها قطّ. البنت هي مدمنة فتية، جائعة، متسخة، كان يمكن أن أكون أنا مكانها. انقض عليها الرجل من الخلف، وأوقعها على وجهها فوق بلاط الزقاق، وسط الفضلات وبركة ماء نتنة، وشق بنطالها بسكين من الخاصرة. كنت على بعد أقل من ثلاثة أمتار، مختبئة بين دلاء القمامة الكبيرة، والمصادفة وحدها شاءت أن تكون هي الضحية وليس أنا. لم تدافع البنت عن نفسها. وخلال دقيقتين أو ثلاث دقائق انتهى منها، أعاد ترتيب أسماله وانصرف مبتعداً وهو يسعل. كان يمكن لي في تلك الدقائق أن أُفقده صوابه بضربة على قذاله بإحدى القوارير الملقاة في الزقاق، وكان عمل ذلك سهلاً وقد خطرت لي الفكرة، لكنني استبعدتها فوراً: فهذه اللعنة ليست مشكلتي. وعندما انصرف المهاجم مبتعداً لم أقترب كذلك لمساعدة البنت المطروحة على الأرض، مررتُ بجانبها وابتعدت مسرعة دون النظر إليها.

في المرة الثانية كانا رجلين شابين، ربما مهربي مخدرات أو أفراد في عصابة، وكانت الضحية امرأة كنت قد رأيتها من قبل في الشارع، مستنفدة جداً ومريضة. ولم أساعدها كذلك. جرّاها إلى تحت جسر قريب وهما يضحكان ويمزحان، بينما هي تحتج بغضب مركّز بقدر ما هو غير مجدٍ. وفجأة رأتني أيضاً. التقت عيناها بعيني للحظة طويلة، لا تنسى، لكنني استدرت وانطلقت راكضة.

❖ ❖

خلال تلك الشهور في لاس فيغاس، حيث كانت النقود وفيرة، لم أستطع أن أوفر ما يكفي لشراء تذكرة بالطائرة إلى كاليفورنيا. صار الوقت متأخراً للاتصال بجدتي. لقد تحولت مغامرتي الصيفية إلى شؤم، ولا يمكنني أن أورط جدتي البريئة في إساءات براندون ليمان.

بعد الخروج من الساونا ذهبتُ إلى مسبح النادي الرياضي ملتفة برداء، طلبتُ ليمونادا، وأصلحتها بسكب دفقة فودكا من القارورة الصغيرة التي أحملها دوماً في حقيبتي، تناولت قرصي مهدئ وحبة أخرى لم أحدد نوعها؛ كنتُ أستهلك الكثير من العقاقير متنوعة الألوان والأشكال لتمييزها. تمددت على كرسي مفتوح أبعد ما يمكن عن جماعة من الفتيان المتخلفين ذهنياً، ينزلون إلى الماء بمرافقة المشرفين عليهم. لقد كنتُ في ظروف أخرى ألعب معهم قليلاً، فقد رأيتهم مرات كثيرة، وكانوا الأشخاص الوحيدين الذين أتجرأ على الاتصال بهم، لأنهم لا يمثلون أي خطر على أمن براندون ليمان، ولكنني شعرت تلك المرة بألم في الرأس وبأنني أحتاج إلى الوحدة.

بدأت طمأنينة الأقراص المباركة تسيطر عليّ في الوقت الذي سمعت فيه اسم لورا بارون من مكبر الصوت، وهو ما لم يحدث قطّ من قبل. ظننتُ أنني أسأت السماع ولم أتحرك من مكاني إلى أن سمعت النداء الثاني، عندئذ ذهبت إلى الهاتف الداخلي، اتصلت بقسم الاستقبال فأخبروني بأن هناك من يريدني لأمر مستعجل. ذهبت إلى البهو حافية وبالرداء، ووجدت هناك فريدي قلقاً جداً. أمسك بيدي وأخذني جانباً كي يخبرني، بأعصاب مضطربة، أن جو مارتن والصيني قد قتلا براندون ليمان.

ـ دَرَزاه بالرصاص يا لورا!

ـ ما الذي تقوله يا فريدي!

ـ الدم في كل الأنحاء، يا للخنزيرين... يجب أن تهربي، لأنهما سيقتلانك أيضاً! ـ قال دفعة واحدة.

ـ يقتلانني أنا؟ لماذا أنا؟

ـ سأشرح لك في ما بعد، علينا أن نغادر فوراً، أسرعي.

ركضت لأرتدي ثيابي، أخذت نقودي التي هناك وذهبت إلى فريدي الذي كان يتمشى مثل فهد متيقظ من موظفي قاعة الاستقبال. خرجنا إلى الشارع وابتعدنا بسرعة محاولين ألا نلفت الانتباه كثيراً. وعلى بُعد شارعين تمكنا من إيقاف سيارة أجرة. وانتهينا إلى موتيل خارج لاس فيغاس، بعد أن استبدلنا سيارة الأجرة ثلاث مرات من أجل التضليل وشراء صباغ للشعر وزجاجة جن من أقوى صنف عادي في السوق. دفعت في الموتيل أجر الليلة واعتكفنا في الحجرة.

❖ ❖

وبينما أنا أصبغ شعري بالأسود، أخبرني فريدي بأن جو مارتن والصيني قد أمضيا النهار بالدخول إلى الشقة والخروج منها وفي التكلم بهاتفيهما الخلويين بعصبية، دون أن ينتبها إليّ. «فقد كنت في حالة سيئة في الصباح يا لورا، وأنت تعرفين كيف تكون حالتي أحياناً، ولكنني لاحظت أن ذينك البهيمتين يحضران لشيء ما وبدأت أصغي بانتباه دون أن أتحرك من الفراش. لقد نسيا وجودي أو ظنا أنني مخدر». ومن خلال اتصالاتهما الهاتفية وأحاديثهما استنتج فريدي أخيراً ما الذي يدبرانه.

لقد علم الرجلان بأن براندون ليمان قد دفع لشخص من أجل تصفيتهما، ولكن ذلك الشخص، لسبب ما، لم يفعل، بل أخبرهما بالمقابل وأعطاهما تعليمات لاختطاف براندون ليمان وإجباره على الكشف عن المكان الذي يخبئ فيه أمواله. وقد بدا لفريدي، من خلال لهجة جو مارتن والصيني، أن محدثهما المجهول هو شخص ذو سلطة. «لم أتمكن من تحذير براندون. فليس لدي هاتف، ولم يكن هنالك متسع من الوقت»، أجهش الصبي. فقد كان براندون ليمان أشبه بأسرة لفريدي. لقد التقطه من الشارع،

ووفر له سقفاً يأوي إليه، وطعاماً وحماية دون أن يفرض عليه أي شروط، ولم يحاول إصلاحه قط، بل تقبله بعيوبه وكان يحتفي بمزاحه وعروض الراب التي يقدمها. «لقد أمسك بي عدة مرات وأنا أسرقه يا لورا. أتدرين ما الذي كان يفعله بدل أن يضربني؟ كان يقول لي أن أطلب ما أسرقه وسيعطينني إياه».

رابط جو مارتن بانتظار ليمان في كراج المبنى، حيث عليه أن يركن سيارته، وقام الصيني بالحراسة في الشقة. ظل فريدي مستلقياً في الفراش ومتظاهراً بالنوم، ومن هناك سمع الصيني يتلقى بهاتفه الجوال الإشعار بأن الزعيم يقترب. نزل الفيليبيني راكضاً ولحق به فريدي عن مسافة حذرة.

دخلت سيارة الفورد أكورا إلى الكراج، أطفأ ليمان المحرك وبدأ بالخروج من السيارة، ولكنه رأى في المرآة العاكسة ظل رجلين يسدان المخرج. وبرد فعل غريزي اكتسبه من عادة الارتياب الطويلة، وبحركة سريعة واحدة أخرج سلاحه، وألقى بنفسه على الأرض وأطلق النار دون سؤال. لكن براندون ليمان، المهووس بالأمن، كان يجهل مسدسه. ففريدي لم يره ينظفه قط أو يتدرب على التصويب مثلما اعتاد أن يفعل جو مارتن والصيني اللذين يمكنهما فك مسدسيهما وإعادة تركيبهما خلال ثوان قليلة. وحين أطلق النار دون تصويب في الكراج على الشبحين، سرّع براندون ليمان موته، مع أنهما كانا سيقتلانه في كل الأحوال. أفرغ القاتلان سلاحيهما في الرئيس العالق بين السيارة والجدار.

تمكن فريدي من رؤية المذبحة ثم خرج راكضاً قبل أن تنجلي الضجة ويكتشف الرجلان وجوده.

ـ ولماذا تظن أنهما يريدان قتلي؟ فأنا لا علاقة لي بهذا كله يا فريدي ـ قلت له.

ـ كانا يظنان أنك في السيارة مع براندون. وأرادا أخذكما معاً، فهما يقولان إنكِ تعرفين أكثر مما يجب. أخبريني بماذا أنت متورطة يا لورا.

ـ لا شيء! لا أدري ما الذي يريدانه مني!

ـ من المؤكد أن جو والصيني قد ذهبا للبحث عنك في النادي الرياضي، لأنه المكان الوحيد الذي يمكن أن تكوني فيه. لا بد أن يكونا قد وصلا بعد دقائق من مغادرتنا.

ـ ماذا سأفعل الآن يا فريدي؟

ـ أن تبقي هنا إلى أن يخطر لنا شيء ما.

فتحنا زجاجة الجن، وبينما نحن مستلقيان على السرير شربنا بالتناوب إلى أن وصلنا إلى ثمالة موت كثيفة.

❖ ❖

انبعثت بعد ساعات طويلة في غرفة مجهولة وبإحساس أنني مسحوقة تحت ثقل خرتيت، وبأن إبراً في عيني، دون أن أتذكر ما حدث. نهضتُ بجهد هائل، انهرتُ على الأرض وزحفت إلى الحمام لأتمكن في الوقت المناسب من احتضان كرسي المرحاض وتقيؤ دفقات متواصلة من الوحل الكحولي. ظللت قابعة على الأرضية البلاستيكية، مرتجفة، بمرارة في فمي وتشنج في أحشائي، متلعثمة ما بين تجشؤات جافة أنني أريد أن أموت، أريد أن أموت. بعد وقت طويل من ذلك تمكنت من إلقاء ماء على وجهي ومضمضة فمي، مرتعبة من ذات الشعر الأسود والشاحبة كجثة التي رأيتها في المرآة. لم أستطع الوصول إلى السرير، فتمددت على الأرض وأنا ألهث.

في ما بعد سمعتُ ثلاث طرقات على الباب، أحسست كأنها قذائف مدفع، وصرخ صوت ذو لكنة هيسبانية أنه آت لتنظيف الغرفة. وصلت حتى الباب مستندة على الجدران، فتحته قليلاً بما يكفي لأقول للموظفة أن تذهب إلى الجحيم، وعلقت إشعار عدم الإزعاج، وانهرت بعد ذلك من جديد على ركبتي. عدت زاحفة إلى السرير يراودني هاجس بخطر وشيك ومشؤوم لم أتمكن من تحديده. ولم أتذكر لماذا أنا في هذه الغرفة، ولكنني كنت أحدس

أن ما أنا فيه ليس تهيؤات ولا كابوس، بل شيء واقعي ورهيب، شيء له علاقة بفريدي. تاج من حديد يثقب صدغيّ كلما ازددت ضيقاً وأنا أنادي على فريدي بصوت ضعيف. وأخيراً تعبت من مناداته، وفي ذروة يأسي رحت أبحث عنه تحت السرير، في الخزانة، في الحمام، لعله يريد المزاح معي. لم أجده في أي مكان، ولكنني اكتشفت أنه ترك لي كيساً بلاستيكياً صغيراً فيه جرعة كراك، وأنبوب زجاجي وولاعة. يا للبساطة والعائلية!

لقد كان الكراك فردوس فريدي وجحيمه، لقد رأيته يستخدمه يومياً، ولكنني لم أجربه قطّ بأمر من الرئيس. طفلة مطيعة. يا للعنة. يداي تكادان تكونان معطلتين، وكنت عمياء بسبب آلام الرأس، ولكنني تدبرت الأمر لإدخال الحبيبات في الأنبوب الزجاجي وإشعال الولاعة، مهمة جبارة. وبيأس، بجنون، انتظرت لثوانٍ أبدية أن تتأجج الحبيبات التي بلون الشمع، بينما الأنبوب يحرق أصابعي وشفتي، وأخيراً تفتت الحبيبات وتنشقتُ بعمق السحابة المنقذة، الأريج الحلو الذي له رائحة بنزين منعنع، عندئذ تلاشى التوعك واختفت الهواجس وارتقيتُ إلى المجد، خفيفة، نحيلة، كعصفور مع الريح. شعرت لوقت قصير بالنشوة، وبأنني عصية على الهزيمة، وفور ذلك هبطت بدوي مفاجئ إلى عتمة تلك الحجرة. مجة أخرى من الأنبوب الزجاجي، ثم أخرى. أين هو فريدي؟ لماذا تركني دون أن يودعني، ودون أي تفسير؟ لقد بقي لدي شيء من المال، خرجت بخطوات مترددة لشراء زجاجة شراب أخرى، ثم رجعت لأحبس نفسي في وكري.

وما بين الخمر والكراك طفوتُ على غير هدى ليومين متتاليين دون أن أنام أو آكل أو أغتسل، كان القيء يقطر مني، لأني لم أكن أتمكن من الوصول إلى الحمام. وعندما نفد الكحول والمخدر، أفرغت حقيبتي ووجدت فيها وريقة تحتوي جرعة كوكايين، استنشقتها فوراً، وقارورة فيها ثلاث حبات منوم، قررت أن أقنن تناولها. تناولت قرصين منها ولأنهما لم

يُحدثا أدنى تأثير ابتلعت القرص الثالث. لم أدر إن نمتُ أم إنني فقدت الوعي، كانت الساعة تشير إلى أرقام لا تعني لي شيئاً. أي يوم هذا؟ أين أنا؟ لم تكن لدي فكرة. أفتح عيني، أختنق، وكان قلبي قنبلة زمنية، تك، تك، تك، تك، أسرع فأسرع، أشعر بصفع تيارات، اهتزازات، حشرجات، وبعد ذلك الخواء.

❖ ❖

أيقظني قرع جديد على الباب وصرخات ملحة، هذه المرة من المسؤول عن الفندق. دفنت رأسي تحت الوسائد راغبة بشيء من الراحة، نفحة/مجة واحدة فقط من الدخان المبارك، رشفة واحدة فقط من أي شراب. خلع رجلان الباب ودخلا إلى الغرفة يطلقان اللعنات ويتوعدان. توقفا متجمدين أمام منظر مجنونة مرعوبة، مضطربة، تتلعثم بكلام غير مترابط في تلك الغرفة المتحولة زريبة خنازير نتنة، ولكنهم ممن كانوا قد رأوا كل شيء في هذا الموتيل سيئ السمعة وعرفوا حقيقة ما يحدث. أجبروني على ارتداء ملابسي، وحملوني من ذراعي، وجرجروني نزولاً على السلّم وألقوا بي إلى الشارع. لقد صادروا ممتلكاتي الوحيدة التي لها قيمة: الحقيبة اليدوية ذات الماركة والنظارة الشمسية، ولكنهم تلطفوا بتسليمي إجازة السوق ومحفظة نقودي، وفيها الدولاران والأربعون سنتاً المتبقية لي.

كان الحر في الخارج حريقاً والإسفلت شبه الذائب يحرق قدمي تحت الصندل، ولكن شيئاً من ذلك لم يهمني. فهاجسي الوحيد الحصول على شيء يهدئ جزعي وخوفي. ليس لدي مكان أذهب إليه أو أحد أطلب منه المساعدة. تذكرت أنني تعهدت بالاتصال بأخي براندون ليمان، ولكن هذا يمكنه الانتظار، وتذكرت كذلك الكنوز الموجودة في المبنى الذي عشت فيه تلك الشهور، جبال من المساحيق الفاخرة، وبلورات ثمينة، وأقراص

عجيبة، مما كنت أوضبه، أزنه، أعدّه، وأضعه بحذر في أكياس بلاستيكية صغيرة، هناك يمكن لأشد الأشخاص بؤساً أن يحصل على قطعة من السماء، مهما كانت قصيرة. كيف يمكن ألا أحصل على شيء في كهوف الكراجات، وفي مقابر الطابقين الأول والثاني، كيف يمكن ألا أجد من يعطيني شيئاً، حباً بالرب.ولكن بصحو الذهن الضئيل المتبقي لدي تذكرت أن الاقتراب من ذلك الحي يعني الانتحار.

فكري يا مايا، فكري، أكرر لنفسي بصوت عالٍ، مثلما كنت أفعل في كل لحظة خلال الشهور الأخيرة. هنالك مخدرات في كلِ مكان من هذه المدينة اللعينة، والمسألة هي البحث عنها، كنت أفكر وأنا أتمشى قبالة الموتيل مثل قبوط صغير جائع، إلى أن أزاحت الضرورةُ الغمامةَ عن ذهني واستطعت التفكير.

❖ ❖

بعد طردي من الموتيل الذي تركني فيه فريدي، سرت حتى محطة بترول، طلبتُ مفتاح الحمام العام فنظفت نفسي قليلاً، ثم حصلت على توصيلة مع سائق، تركني على مسافة بضعة شوارع من النادي الرياضي.

كنت أحتفظ بمفتاح الخزانة الصغيرة في جيب بنطالي. ظللت أمام الباب منتظرة فرصة للدخول دون أن ألفت الانتباه، وعندما رأيت اقتراب ثلاثة أشخاص يتبادلون الحديث فيما بينهم، انضممت إلى الجماعة بتستر. اجتزت بهو الاستقبال وعند وصولي إلى الدرج التقيت مواجهة بأحد الموظفين الذي تردد قبل أن يحيني، مستغرباً من لون شعري. لم أكن أتحدث مع أحد في النادي، وأعتقد أنه كانت لي سمعة متكبرة أو بلهاء، ولكن أعضاء آخرين في النادي كانوا يعرفونني بالوجه وعدداً من الموظفين يعرفونني بالاسم. صعدت راكضة إلى حجرة تبديل الملابس وأفرغت محتويات خزانتي الصغيرة على الأرض بهوس دفع امرأة كانت هناك إلى سؤالي إن كنت قد أضعتُ شيئاً؛

فأطلقت سلسلة من اللعنات، لأني لم أجد شيئاً مما يساعدني على التحليق، بينما المرأة تراقبني دون مداراة من خلال المرآة. «ما الذي تنظرين إليه أيتها السيدة؟»، صرخت بها، وعندئذ رأيت نفسي في المرآة مثلما تراني هي ولم أتعرف على تلك المخبولة ذات العينين الحمراوين والبقع على بشرتها وحيوان أسود فوق رأسها.

أعدت كل شيء كيفما اتفق إلى الخزانة الصغيرة، وألقيت في القمامة ملابسي المتسخة والهاتف الخلوي الذي أعطاني إياه براندون ليمان والذي يعرف القتلة رقمه، استحممت تحت الدوش وغسلت شعري بسرعة وأنا أفكر في أنه يمكنني أن أبيع الحقيبة ذات الماركة الأخرى التي مازالت بحوزتي، وسوف تكفيني للحصول على المخدرات عدة أيام. ارتديت الفستان الأسود، ووضعت غياراً داخلياً في كيس بلاستيكي ولم أحاول وضع أي مكياج، لأنني كنت أرتعش من رأسي حتى قدمي، وكانت يداي تكادان لا تستجيبان لي.

المرأة مازالت هناك، ملتفة بمنشفة، ومجفف الشعر في يدها، على الرغم من أن شعرها غير مبتل، تتجسس عليّ، تقدر إن كان عليها أن تستدعي موظفي الأمن. رسمتُ ابتسامة وسألتها إن كانت ترغب في شراء حقيبتي اليدوية، قلت لها إنها ماركة لويس فويتون أصلية وأنها جديدة تقريباً، وأن هنالك من سرق محفظة نقودي وأحتاج نقوداً للعودة إلى كاليفورنيا. زادتها تصعيرة الازدراء قبحاً، ولكنها اقتربت لتتفحص الحقيبة وقد غلبها الطمع، وعرضت عليّ مئة دولار. أشرت إليها بحركة بذيئة من أصابعي وخرجتُ مستعجلة.

لم أذهب بعيداً. فمن السلم يظهر مشهد بهو الاستقبال كاملاً، ومن خلال البوابة الزجاجية رأيتُ سيارة جو مارتن والصيني. ربما هما يستقران هناك يومياً لمعرفتهما أنني سأذهب، عاجلاً أو آجلاً، إلى النادي، أو ربما أن

واشياً قد أخبرهما بمجيئي، وفي هذه الحالة لا بد أن أحدهما يبحث عني في هذه اللحظات داخل المبنى.

تمكنتُ من التغلب على الرعب الذي جمدني للحظات، وتراجعت نحو قسم التدليك والتجميل، وهو يشغل جناحاً كاملاً من المبنى، وفيه تمثال لبوذا، وقرابين من بتلات الزهور، وموسيقى عصافير، وشذى عطر الونلّة، وجرار ماء فيها دوائر خيار مقطّع. يتميز مدلكو المساج من كلا الجنسين بأردية زرقاء اللون، أما بقية العاملين فهم فتيات متشابهات تقريباً بأردية وردية. وبما أنني كنت أعرف العادات في جناح التدليك، لأن المكان هو أحد أوجه الترف التي سمح لي براندون ليمان بها. استطعت التسلل عبر الممر دون أن يراني أحد ودخلت إحدى حجرات المساج. أغلقت الباب وأشعلت الضوء الذي يشير إلى أن الحجرة مشغولة. ليس هناك من يزعج حين يكون النور الأحمر مضاء. على إحدى المناضد يوجد سخان ماء فيه أوراق كينا، وأحجار مسطحة من أجل التدليك وعدة قوارير وآنية منتجات تجميل. استبعدت المراهم وشربت في ثلاث جرعات زجاجة محلول غسول، ولكنه إذا كان يحتوي كحولاً فإن المقدار ضئيل جداً إلى حدّ أنه لم يؤثر فيَّ.

❖ ❖

لقد كنت في تلك الحجرة بمنجى، لمدة ساعة على الأقل، وهو الوقت المعهود لجلسة علاج، ولكنني سرعان ما بدأت أشعر بالجزع في ذلك المكان المغلق الذي بلا نوافذ وبمخرج وحيد، وتلك الرائحة النفاذة كرائحة طبيب أسنان التي تقلب أحشائي. لا يمكنني البقاء هناك. ارتديت فوق ملابسي الرداء الموجود فوق السرير النقال، ووضعت منشفة على شكل عمامة فوق رأسي، وطليت وجهي بطبقة سميكة من مرهم أبيض وأطللت على الممر. طفر قلبي من مكانه: كان جو مارتن يتحدث إلى إحدى الموظفات من ذوات الرداء الوردي.

كان دافع الانطلاق راكضة لا يطاق، ولكنني أجبرت نفسي على الابتعاد عبر الممر بأقصى ما يمكن من الهدوء. بحثت عن مخرج العاملين، ويجب ألا يكون بعيداً. مررتُ أمام عدد من الحجرات المغلقة إلى أن وصلت إلى باب أكثر اتساعاً، فدفعته ووجدت نفسي على سلّم الخدمة. الأجواء هناك كانت مختلفة عن جو جناح التدليك العام، فالأرضية بلاط، والجدران إسمنتية بلا طلاء، والإضاءة ضعيفة، وهنالك رائحة تدخين لا يمكن الخطأ فيها وأصوات نسائية على مصطبة السلّم في الطابق الأسفل. انتظرت وقتاً أبدياً ملتصقة بالجدار، دون أن أتمكن من التقدم أو التراجع إلى جناح التدليك، وأخيراً انتهت النساء من التدخين وانصرفن. مسحت المراهم عن وجهي، وتركت المنشفة والرداء في أحد الأركان ونزلت إلى أحشاء المبنى التي لا نراها أبداً نحن أعضاء النادي. فتحتُ باباً لا على التعيين فوجدت نفسي في قاعة فسيحة، تخترقها تمديدات ماء وتهوية، ويملؤها دوي آلات غسل وتنشيف. مخرجها لا يؤدي إلى الشارع مثلما توقعت، وإنما إلى المسبح. تراجعتُ إلى الوراء وقبعت في أحد الأركان، مختفية وراء جبل من المناشف المستعملة، لا يمكنني التحرك وسط الضجيج والحر الذي لا يطاق في صالة الغسيل إلا بعد أن ييأس جو مارتين من العثور عليّ وينصرف.

مرت الدقائق وأنا في تلك الغواصة التي تبعث على الصمم، وحلّت حاجتي الملحة إلى التحليق محل خوفي من الوقوع في يد جو مارتين. لم أكن قد تناولت طعاماً منذ أيام، وكنت أعاني الجفاف، أشعر بدوي في رأسي وتشنجات في معدتي. تخدرت يداي وساقاي، كنت أرى أشكالاً حلزونية دوارية من نقاط ملونة، كما في كابوس عقار هلوسة. فقدتُ الإحساس بالزمن، يمكن أن تكون قد مضت عليّ ساعة أو أكثر، لست أردي إن كنت قد غفوت أم إنه كان يغمى عليّ أحياناً. وأظن أن موظفين دخلوا وخرجوا لغسل الملابس، ولكنهم لم يكتشفوا وجودي. وأخيراً خرجتُ زاحفة من

مخبئي، ثم مشيت على ساقين كأنهما من رصاص، مستندة إلى الجدران ودائخة.

في الخارج كان الوقت لا يزال نهاراً، لا بد أنها الساعة السادسة أو السابعة مساء، وكان المسبح ممتلئاً بالناس. إنه وقت الذروة في المجيء إلى النادي، حين يأتي موظفو الدوائر العامة جماعات. وهي كذلك الساعة التي يجب فيها على جو مارتن والصيني أن يستعدا لنشاطاتهما الليلية والاحتمال الأكبر أن يكونا قد غادرا. انهرت على أحدى الكراسي المفتوحة مستنشقة دفقات الكلور المنبعثة من ماء المسبح دون أن أتجرأ على الغطس في الماء، لأنني يجب أن أكون مستعدة للركض عند الضرورة. طلبتُ من أحد الخدم عصير فواكه مخفوقاً وأنا ألعن في نفسي، لأنهم لا يقدمون هنا سوى مشروبات صحية، ولا شيء من الكحول. وحمّلت الفاتورة على حسابي. شربت رشفة واحدة من ذلك السائل الكثيف، لكنه بدا لي مقززاً واضطررت إلى تركه. رأيت أنه لا جدوى من مواصلة إضاعة الوقت، وقررت المجازفة بالمرور في بهو الاستقبال، آملة أن يكون الواشي الذي أخبر الشريرين بوجودي قد أنهى وردية عمله. وقد حالفني الحظ وخرجت دون أية مصاعب.

ومن أجل الوصول إلى الشارع كان لا بد لي من اجتياز موقف السيارات الذي كان ممتلئاً في تلك الساعة. رأيت من بعيد أحد أعضاء النادي، وهو أربعيني لائق المظهر، وكان يضع حقيبته في مؤخرة السيارة، اقتربت منه مصطبغة بحمرة المذلة لأسأله إن كان لديه متسع من الوقت لدعوتي لتناول كأس. لا أدري من أين أتتني الجرأة. والرجل الذي فوجئ بهذا الهجوم المباشر تأخر لحظات في تصنيفي؛ إذا كان قد رآني من قبل لن يتمكن من التعرف إلي، كما أن مظهري لا يتوافق مع فكرته عن عاهرة الشوارع. تفحصني من أعلى إلى أسفل، ثم هز كتفيه وصعد إلى سيارته وانصرف.

لقد اقترفت الكثير من التهور خلال حياتي القصيرة، ولكنني لم أصل إلى الانحطاط بهذه الطريقة. فما حدث لي مع فيدجويك كان اختطافاً واغتصاباً، وقد جرى لي بسبب عدم حذري وليس بسبب صفاقتي. أما حالتي هذه فمختلفة ولها تسمية خاصة، لكنني أرفض التلفظ بها. وسرعان ما لاحظت وجود رجل آخر، في الخمسين أو الستين، له كرش، يرتدي بنطالاً قصيراً، وساقاه بيضاوان وفيهما أوردة زرقاء، كان يمضي نحو سيارته فلحقتُ به. في هذه المرة كنت أكثر حظاً... أو أقل حظاً، لست أدري. فلو صدَّني هذا الرجل أيضاً، ربما ما كانت حياتي ستنحرف كثيراً.

❖ ❖

عند التفكير في لاس فيغاس أشعر بالغثيان. ويذكّرني مانويل بأن ذلك كله قد جرى لي منذ بضعة شهور فقط وأنه مازال طازجاً في ذاكرتي، ويؤكد لي أن الزمن سيساعد في شفائي، وسيأتي يوم أتحدث فيه عن هذا الحدث من حياتي بسخرية. هذا ما يقوله، ولكن ليست هذه هي حاله، فهو لا يتكلم أبداً عن ماضيه. كنت أظن أنني قد اضطلعت بأخطائي، بل إنني كنت فخورة بها إلى حدّ ما، لأنها زادتني قوة، ولكنني الآن بعد أن تعرفت على دانييل، أرغب في ماض أقل إثارة كي أتمكن من تقديم نفسي إليه بكرامة. فتلك الفتاة التي اعترضت رجلاً أكرش بساقين مصابتين بالدوالي في موقف سيارات النادي هي أنا. لقد كنتُ أنا الفتاة المستعدة لتسليم نفسها مقابل جرعة من الكحول، ولكنني الآن فتاة أخرى. فهنا، في تشيلوي، تتوافر لي فرصة ثانية، تتوافر لي ألف فرصة أخرى، ولكني لا أتمكن أحياناً من إسكات صوت الضمير الذي يتهمني.

ذلك العجوز ذو البنطال القصير كان الأول من رجال كثيرين أبقوني طافية حوالي أسبوعين، إلى أن لم أعد قادرة على فعل ذلك. بيع نفسي بتلك الطريقة كان أسوأ من معاناة الجوع وأسوأ من عذاب الانقطاع عن الشراب.

لم أستطع قط، سواء أكنت مخمورة أو مخدرة، أن أتجنب الإحساس العميق بالانحطاط، وكان جدي ينظر إلي على الدوام، ويتألم من أجلي. لقد كان الرجال يستغلون خجلي وعدم خبرتي. فبالمقارنة مع نساء أخريات يفعلن الشيء نفسه، كنت صغيرة السن وجيدة المظهر، وكان يمكن لي أن أتدبر أموري بصورة أفضل، ولكنني كنت أُسلم نفسي مقابل جرعة خمر، أو قليل من المسحوق الأبيض، أو حفنة من الحبيبات الصفراء. أكثر الرجال احتراماً سمحوا لي بتناول الشراب بسرعة في بار، أو قدموا إليّ كوكايين قبل أن يأخذوني إلى غرفة في فندق؛ واكتفى آخرون بشراء زجاجة خمر رخيصة لي وممارسة عملهم في السيارة. وأعطاني بعضهم عشرة أو عشرين دولاراً، وآخرون ألقوا بي إلى الشارع بعد الانتهاء دون إعطائي شيئاً، كنت أجهل أنه يجب تقاضي السعر مسبقاً، وعندما تعلمتُ ذلك كنت قد توصلت إلى أنني لستُ مستعدة لمواصلة السير في ذلك الطريق.

وأخيراً جربتُ الهيروين مع أحد الزبائن، ولعنت براندون ليمان الذي حظر عليّ مشاركته في فردوسه. من المستحيل وصف تلك اللحظة التي يدخل فيها السائل الإلهي إلى الدم. حاولت أن أبيع ممتلكاتي القليلة، ولكنني لم أجد من يهتم بها، وحصلت فقط على ستين دولاراً مقابل الحقيبة ذات الماركة، بعد كثير من التوسل ببيعها لفيتنامي عند باب صالون حلاقة. لقد كانت الحقيبة تساوي عشرين ضعف هذا المبلغ، ولكنني كنت مستعدة لبيعها مقابل نصف ما دفعه.

لم أنس رقم هاتف آدم ليمان، ولا الوعد الذي قطعته لبراندون بالاتصال بأخيه إذا ما حدث له شيء، ولكنني لم أفعل، لأني كنتُ أفكر في الذهاب إلى بياتي والاستحواذ على الثروة التي في تينك الحقيبتين. لكن هذه الخطة بحاجة إلى إستراتيجية، وكنت أخلو بالكامل من صفاء الذهن الذي يتطلبه ذلك.

يقال إنه بعد عيش المرء بضعة شهور في الشارع ينتهي به الأمر نهائياً إلى أن يكون مهمشاً، يفقد هويته وشبكته الاجتماعية. أما بالنسبة إلي فكان الأمر أسرع. ثلاثة أسابيع كانت كافية لوصولي إلى القاع. لقد غرقت بسرعة مرعبة في ذلك البُعد البائس والعنيف والقذر الموازي للحياة العادية في أي مدينة. عالم مجرمين وضحايا، مجانين ومدمنين، عالم بلا تضامن أو رحمة، حيث يبقى المرء حياً بالدوس على الآخرين. كنتُ مخدرة على الدوام أو أبحث عن وسائل للتخدير، متسخة، كريهة الرائحة، مشعثة الشعر، وفي حالة من الخبل والمرض المتزايدين. أكاد لا أتحمل أكثر من لقمتين في معدتي، أسعل ويسيل مخاطي بصورة دائمة، أتكلف مشقة في فتح جفني الملتصقين بالقيح، ويُغمى عليّ وأغيب عن الوعي أحياناً. التهبت عدة وخزات في بدني، وكانت هناك قروح وكدمات في ذراعيّ. أقضي الليل في المشي من مكان إلى آخر، فالمشي أكثر أمناً من النوم، وفي النهار أبحث عن وكر أختبئ فيه لأستريح.

❖ ❖

تعلمتُ أن أكثر الأمكنة أمناً هي في البقاء على مرأى من الجميع، التسول بمخروط ورقي في الشارع عند مدخل **مول** أو كنيسة، وهذا يثير الإحساس بالذنب لدى المارة. بعضهم يلقي قطعاً نقدية، ولكن لا أحد يكلمني؛ فالفقر اليوم هو أشبه بالجذام في الماضي: يثير القرف والخوف.

تجنبتُ الأمكنة التي كنت أتجول فيها سابقاً، مثل جادة البوليفار، لأنها ملعب جو مارتن والصيني. المتسولون والمدمنون يضعون حدوداً لميادينهم، كما الحيوانات، ويقتصرون على منطقة لا يتعدى محيطها بضعة شوارع، ولكن اليأس كان يدفعني إلى ارتياد أحياء مختلفة، دون احترام الحدود العرقية للزنوج مع الزنوج، واللاتينيين مع اللاتينيين، والآسيويين مع الآسيويين، والبيض مع البيض. لم أكن أبقى أكثر من ساعة في المكان نفسه. كنت عاجزة

عن أكثر المهمات بدائية، مثل تغذيتي أو اغتسالي، ولكنني كنت أتدبر أموري للحصول على الكحول والمخدرات. وأظلّ متأهبة على الدوام، فقد كنت ثعلباً مطارَداً، أتحرك بسرعة، لا أكلم أحداً، فهنالك أعداء عند كل ناصية.

بدأت بسماع أصوات وأفاجئ نفسي أحياناً وأنا أرد عليها، مع أنني أعرف أنها ليست واقعية، لأني رأيت مثل هذه الأعراض من قبل لدى عدد من سكان بناية براندون ليمان. وكان فريدي يسميهم «الكائنات غير المرئية» ويسخر منهم، ولكن حين تسوء حاله تستعيد تلك الكائنات الحياة، مثل الجراثيم، وهذه غير مرئية أيضاً، وتعذبه أحياناً. إذا ما لمحت من بعيد سيارة سوداء مثل سيارة من يطاردانني، أو شخصاً معروف الهيئة، أنسل في الاتجاه المعاكس، لكنني لا أفقد الأمل في العودة للقاء فريدي. كنت أفكر فيه بمزيج من الامتنان والغضب، دون أن أفهم سبب اختفائه، ولماذا لا يستطيع العثور عليّ مادام يعرف كل ركن في المدينة.

المخدرات تهدئ الجوع وآلام الجسد المتعددة، ولكنها لا تهدئ التشنجات. أشعر بثقل في عظامي وبحكة في جلدي بسبب القذارة، وقد ظهرت لي بثور طفح جلدي في الساقين والظهر، وهي تنزف من شدة الحك. وفجأة أتذكر أنني لم آكل شيئاً منذ يومين أو ثلاثة أيام، فأمضي عندئذ مجرجرة قدمي إلى أحد ملاجئ النساء أو إلى رتل فقراء سان فيسنت دي بول، حيث يمكن على الدوام الحصول على طبق طعام ساخن. أصعب من ذلك بكثير كان الحصول على مكان للنوم. في الليل تبقى الحرارة عند حدّ عشرين درجة مئوية، ولكنني كنت أشعر ببرد شديد، بالنظر إلى ضعف بنيتي، إلى أن أعطوني سترة في منظمة جيش الخلاص، وقد تبين أن هذه المنظمة السخية عظيمة الفائدة، لم أكن بحاجة إلى المضي بأكياس محملة في عربة مسروقة من سوبرماركت، مثل تعساء آخرين، لأنني عندما تصيب

شدة النتانة ملابسي أو تصبح واسعة على مقاسي، أستبدلها لدى جيش الخلاص. لقد نحل جسمي كثيراً، وعظام الترقوة والوركين والساقين التي كانت قوية جداً في السابق، أصبحت مثيرة للرثاء. لم تسنح لي فرصة لأعرف وزني حتى شهر كانون الأول، عندئذ اكتشفت أنني خسرت ثلاثة عشر كيلوغراماً خلال شهرين.

الحمامات العامة كانت مغاور مجرمين ومثليين، ولكن لا وجود لوسيلة أخرى سوى إغلاق الأنف واستخدامها، فاستخدام مرحاض متجر أو فندق أمر بعيد المنال، لأنهم سيطردونني شر طردة. ولم يكن بإمكاني الوصول إلى مراحيض محطات الوقود، لأن الموظفين فيها يرفضون إعطائي المفتاح. وهكذا رحتُ أنحدر بسرعة على سلالم الجحيم، مثل كائنات أخرى كثيرة حقيرة تحافظ على بقائها في الشوارع بالتسول والسرقة من أجل حفنة من الكراك، أو شيء من الميتا أو أي مخدر رخيص، أو جرعة من أي شراب قوي، حريف، فظ. وكلما كان الكحول رخيصاً يكون أفضل، فهذا هو بالضبط ما أحتاج إليه. أمضيت شهري تشرين الأول والثاني في الحال نفسه، لا يمكنني أن أتذكر بوضوح كيف كنت أعيش، لكنني أتذكر جيداً لحظات الانبساط القصيرة وبعد ذلك حملة الصيد الساخطة من أجل الحصول على جرعة أخرى.

لم أجلس قطّ إلى مائدة، إذا ما حصلت على نقود أشتري تاكوس أو سجقاً أو همبرغر لا ألبث أن أتقيأه بغثيان وأنا مقرفصة في الشارع، فالمعدة متأججة، والفم مجروح، وقروح في الشفتين والأنف، لا شيء نظيف أو لطيف، زجاج مكسر، صراصير، لطخات قمامة، لا وجه في الحشود يبتسم لي، ولا يد تمتد لمساعدتي، العالم بأسره مسكون بالمهربين والمدمنين والقوادين والمجرمين والعاهرات والمجانين. يؤلمني جسدي كله. أكره هذا الجسد اللعين، أكره افتقاري إلى إرادة لعينة لإنقاذ نفسي، أكره روحي اللعينة، وقَدَري اللعين.

أمضيت في لاس فيغاس أياماً كاملة دون تبادل التحية مع أحد، دون تلقي كلمة أو إيماءة من كائن بشري آخر. الوحدة، هذا المخلب الجليدي في الصدر، هزمني بطريقة لم يخطر معها ببالي أن الحلّ بسيط في تناول هاتف والاتصال ببيتنا في بيركلي. كان ذلك كافياً، اتصال هاتفي؛ ولكنني كنت قد فقدت الأمل في ذلك الحين.

❖ ❖

في البدء، عندما كنت لا أزال قادرة على الركض، كنت أجوب مقاهي ومطاعم الأرصفة التي في الهواء الطلق، حيث يجلس المدخنون ويترك بعضهم علبة سجائره على المنضدة، فأمر راكضة بسرعة وأحمل علبة السجائر، لأني أستطيع استبدالها بجرعة كراك. لقد تعاطيت كافة مواد السموم الموجودة في الشارع، باستثناء التبغ، بالرغم من أن رائحته تروقني، لأنها تذكرني بجدي بوبو. كنت أسرق فواكه أيضاً من محلات البيع الذاتي أو ألواح شكولاتة من أكشاك المحطة، ولكنني بالطريقة نفسها التي لم أتمكن بها من إتقان مهنة العاهرة، لم أستطع كذلك تعلم السرقة. لقد كان فريدي خبيراً، بدأ يسرق مذ كان في القماط، هكذا يقول، وقد أراني عدة تجارب من أجل تعليمي حيله. أوضح لي أن النساء يهملن حقائبهن اليدوية، يعلقنها على الكرسي، ويتركنها في المتاجر بينما هن يخترن أو يجربن ملابس، يلقينها على الأرض في صالونات الحلاقة، ويضعنها على أكتافهن في الحافلات، هذا يعني أنهن يطلبن أن يأتي من يحررهن من هذه المشكلة. وقد كانت لفريدي يدان خفيتان، أصابع سحرية، وظرافة سرية كظرافة «شيتا». كان يتحداني: «انظري جيداً يا لورا، لا تغمضي عينيكِ». وندخل إلى **مول**، يدرس الناس بحثاً عن ضحيته، يمر وهو يضع الهاتف المحمول على أذنه متظاهراً بالاستغراق في محادثة بصوت صارخ، يقترب من امرأة ساهية، ينشل محفظة نقودها من المحفظة اليدوية قبل أن أتمكن من رؤيته ويبتعد بهدوء دون

أن يتوقف عن التكلم بالهاتف. ويمكنه بالأناقة نفسها أن يفتح قفل أي سيارة أو الدخول إلى أي متجر منوعات ويخرج بعد خمس دقائق من بوابة أخرى ومعه قارورتا عطر أو ساعتان يدويتان.

حاولتُ تطبيق دروس فريدي، لكنني كنت أفتقر إلى التلقائية، وتخونني أعصابي، ومظهري البائس يجعلني مشبوهة. ففي المتاجر يراقبونني، وفي الشارع يبتعد الناس عني، فلي رائحة مجرور، وشعري مزيت ولي مظهر يائس.

في منتصف شهر تشرين الأول تبدل الجو، بدأ يصبح بارداً في الليل، وكنتُ مريضة، أتبول في كل لحظة مع إحساس بحرقة وألم حاد لا يتلاشى إلا بتناولي المخدرات. إنه التهاب المجاري البولية. لقد عرفته لأني أصبت به من قبل، وأنا في السادسة عشرة من عمري، وأعرف أنه يشفى سريعاً بتناول مضاد حيوي، لكن المضاد الحيوي دون وصفة طبية أصعب منالاً في الولايات المتحدة من الحصول على كيلوغرام من الكوكايين أو بندقية أوتوماتيكية. كنت أجد مشقة في المشي، والوقوف، ولكنني لم أتجرأ على الذهاب إلى خدمات الإسعاف في المستشفى، لأنهم سيوجهون إليّ أسئلة، وهناك شرطة حراسة على الدوام.

عليّ أن أجد مكاناً آمناً لقضاء الليل. جربت الذهاب إلى ملجأ للمعوزين، وتبين أنه مهجع فسيح سيئ التهوية، فيه أسرة ضيقة متراصة، حيث يوجد حوالي عشرين امرأة وكثير من الأطفال. فوجئت بأن قلة من أولئك النسوة مستسلمات للبؤس مثلي؛ بعضهن فقط يكلمن أنفسهن كالمعتوهين أو يبحثن عن الشجار، وتبدو الأخريات سليمات جداً. من لهن أطفال كن الأكثر تصميماً ونشاطاً ونظافة، بل وسعادة أيضاً، يعتنين بصغارهن، يحضِّرن زجاجات رضاعة، يغسلن ملابس. رأيت واحدة منهن تقرأ كتاباً للدكتور سو لطفلتها ذات الأربع سنوات التي تعرف الكتاب عن ظهر قلب وتردده مثل أمها. ليس جميع أناس الشارع مصابين بالفصام

وفاسدين، كما يُعتقد، إنهم ببساطة فقراء أو مسنون أو عاطلون عن العمل، ومعظمهم نساء معهن أطفال، هُجرن أو هربن من أشكال مختلفة من العنف.

على جدار الملجأ يوجد ملصق يحمل عبارةً حُفرت في ذهني إلى الأبد: «الحياة بلا كرامة لا تستحق أن تُعاش». كرامة؟ وأدركت فجأة، بيقين مرعب، أنني قد تحولت إلى مدمنة مخدرات وكحول. أظن أنه مازالت لدي جذوة من كبرياء مدفونة تحت الرماد، ما يكفي لأن تشعرني بقلق شديد كوخزة في الصدر. رحت أبكي قبالة الملصق، ولا بد أن غمي كان كبيراً، لأن إحدى المشرفات سارعت إلى الاقتراب مني، اقتادتني إلى مكتبها الصغير، قدمت لي كأس شاي بارد وسألتني بلطف عن اسمي، وما الذي أتعاطاه، وبأي إيقاع، ومتى كانت آخر مرة، وهل تلقيتُ علاجاً، وإذا كان بالإمكان الاتصال بأحد.

كنت أحفظ في ذاكرتي رقم هاتف جدتي، فهذا لم أنسه، ولكن الاتصال بها يعني قتلها من الألم والعار، ويعني كذلك بالنسبة إلي إعادة تأهيل إجباري وانقطاع عن الشراب والمخدرات. ولا بأي حال. «ألديك أسرة»، ألحت المرشدة بالسؤال. انفجرتُ بالغضب، مثلما يحدث لي في كل وقت، ورددتُ عليها بكلمات نابية. سمحتْ لي بأن أفرج عن نفسي دون أن تفقد هدوءها، وبعد ذلك سمحت لي بالبقاء تلك الليلة في الملجأ، خارقة بذلك النظام، لأن أحد شروط القبول هو عدم تعاطي الكحول أو المخدرات.

كان هنالك عصير فاكهة وحليب وبسكويت للأطفال، وقهوة وشاي في كل الأوقات، وحمامات، وهاتف وآلات غسيل، وهي غير مفيدة لي، لأنه ليس لدي سوى الملابس التي أرتديها، فقد أضعت الكيس البلاستيكي الذي يضم ممتلكاتي الضئيلة. قمت بالاستحمام لوقت طويل تحت الدوش، وهي أول مرة منذ أسابيع، مستمتعة بالماء الدافئ على جلدي، وبالصابون، بالرغوة في شعري، وبرائحة الشامبو العذبة. وكان علي بعد ذلك أن أرتدي

الملابس النتنة نفسها. تكورت في سريري الضيق مستدعية بصوت خافت جدتي نيني وجدي بوبو، متوسلة إليهما أن يأتيا ويحملاني بين ذراعيهما، كما في السابق، وليقولا لي إن كل شيء سينتهي على ما يرام، وألا أقلق، وإنهما سيسهران علي، ونامي يا صغيرتي، نامي يا شمسي، نامي يا قطعة من قلبي. النوم هو مشكلتي الدائمة، منذ ولدت، ولكنني استطعت الراحة على الرغم من الهواء المثقل وشخير النساء. بعضهن كن يصرخن في نومهن.

❖ ❖

بالقرب من سريري كانت تستقر أم مع طفليها، أحدهما رضيع والأخرى طفلة رائعة في السنة الثانية أو الثالثة من العمر. الأم شابة بيضاء، كثيرة النمش، سمينة، ويبدو أنها فقدت منزلها قبل وقت قصير، لأنه مازال لديها هدف كما يبدو، خطة ما. عندما تصادفنا في الحمام ابتسمت لي، وظلت طفلتها تنظر إليّ بعينيها الزرقاوين وسألتني إن كان لدي كلب. فقلت: «لقد كان لدي في ما مضى كلب، وكان اسمه توني». عندما بدّلت الأم أقمطة الرضيع، رأيت ورقة من فئة الخمسة دولارات في أحد جيوب محفظتها اليدوية، فلم أستطع أن أنتزع ذلك الأمر من ذهني. وعند الفجر، حين ساد الصمت أخيراً في المهجع وكانت المرأة تنام بسلام محتضنة طفليها، انسللتُ نحو سريرها، بحثت في حقيبتها وسرقت الورقة النقدية. رجعت بعد ذلك إلى سريري زاحفة، وذيلي بين ساقي، مثل كلبة.

بين جميع الأخطاء والخطايا التي اقترفتها في حياتي، تلك الخطيئة هي التي لا أستطيع أن أغفرها لنفسي. فقد سرقتُ من هي بحاجة أكثر مني، سرقتُ أماً كانت ستستخدم تلك الورقة النقدية لشراء طعام لطفليها. هذا لا يغتفر. فدون الكرامة يصبح المرء أعزل، يفقد إنسانيته ويفقد روحه.

في الساعة الثامنة صباحاً، وبعد فنجان قهوة وخبز محلى، قدمت لي المشرفة نفسها التي استقبلتني قصاصة ورق عليها معلومات عن مركز لإعادة

التأهيل. وقالت لي: «تحدثي إلى ميشيليه، إنها أختي، وسوف تساعدك». خرجتُ مسرعة دون أن أشكرها وألقيت قصاصة الورق في حاوية زبالة في الشارع. الدولارات الخمسة المباركة كانت كافية لشراء جرعة من مخدر رخيص وفعال. لست بحاجة إلى شفقة أي ميشيليه.

في ذلك اليوم بالذات أضعتُ صورة جدي التي أعطتني إياها نيني وأنا في أكاديمية أوريغون وكنت أحملها معي على الدوام. بدا لي ذلك إشارة مرعبة، إشارة تعني أن جدي قد رآني أسرق تلك الدولارات الخمسة، وأنه يشعر بخيبة الأمل، وأنه قد ذهب ولم يعد هناك من يسهر عليّ. خوف، غم، اختباء، هرب، تسول، كل ذلك مختلط في كابوس واحد، النهارات فيه والليالي متماثلة.

في بعض الأحيان يباغتني وأنا في الشارع أحدُ مشاهد تلك الأزمنة، يظهر لي في ومضة خاطفة ويخلّفني مرتجفة. وفي أحيان أخرى أستيقظ متعرقة وفي رأسي صور، صور حية كما لو أنها حقيقية. أرى نفسي في الحلم أركض عارية، صارخة بلا صوت، في متاهة أزقة ضيقة تتعرج مثل أفعى، عمارات بأبواب ونوافذ مسدودة، دون نفس واحدة يمكن أن أطلب منها العون، الجسد متوقد، القدمان داميتان، مرارة في فمي، وحيدة. في لاس فيغاس كنت أظن أنني محكومة بوحدة لا خلاص منها، وأنها بدأت بموت جدي. فكيف كان يمكن لي أن أتصور آنذاك أنني سأكون هنا ذات يوم، في هذه الجزيرة بتشيلوي، معزولة بلا اتصالات، مختبئة، بين غرباء، وبعيدة جداً عن كل ما له علاقة بأسرتي، دون أن أشعر أنني وحيدة.

❖ ❖

حين تعرفتُ على دانييل، كنت أريد أن أترك لديه انطباعاً طيباً، أن أمحو ماضيّ وأبدأ من جديد بصفحة بيضاء، أن أختلق رواية أفضل عن نفسي، ولكنني في حميمية الحب المتقاسم، أدركت أن ذلك غير ممكن وغير

مناسب. فالشخصية التي أنا عليها هي حصيلة معايشاتي السابقة، بما في ذلك الأخطاء الفادحة. الاعتراف له كان تجربة طيبة، تأكدتْ من خلالها صحة ما يؤكده مايك أوكلي بأن الشياطين تفقد قدرتها عندما نُخرجها من الأعماق التي تختبئ فيها وننظر إليها في ضوء النهار، ولكنني الآن لا أعرف إن كان عليّ عمل ذلك. أظن أنني أخفت دانييل ولهذا لم يردّ عليّ بالعاطفة نفسها التي أشعر بها نحوه، من المؤكد أنه يرتاب بي، هذا طبيعي. فقصة مثل قصتي يمكن لها أن ترعب أشجع الشجعان. وصحيح أيضاً أنه هو نفسه كان يستحث اعترافاتي. كان من السهل عليّ أن أروي حتى أشد الأحداث مهانة، لأنه كان يصغي إليّ دون أن يقول شيئاً، أعتقد أن ذلك جزء من تكوينه العلمي. أوليس هذا هو كل ما يفعله الأطباء النفسانيون؟ الاستماع والصمت. لم يسألني قط ما الذي حدث، بل كان يسألني عما أشعر به الآن، وأنا أرويه، فأصف له حرقة بشرتي، خفق صدري، وثقل الصخرة الساحقة الذي أشعر به. يطلب مني ألا أرفض هذه الأحاسيس، أن أتقبلها دون تحليلها، لأنني إذا وجدت الشجاعة على ذلك ستأخذ بالانفتاح مثل علب ويمكن لروحي أن تتحرر.

ـ لقد عانيتِ كثيراً يا مايا، ليس بسبب ما جرى لك في مرحلة المراهقة وحسب، وإنما بسبب التخلي عنك في الطفولة أيضاً ـ قال لي.

ـ تخلٍ؟ لا شيء من التخلي عني، أؤكد لك. لا يمكنك أن تتصور كم دللني جدايّ.

ـ أجل، ولكن أمك وأباك تخليا عنكِ.

ـ هذا ما يقوله أطباء أوريغون النفسيون، ولكن جديَّ...

ـ عليك أن تراجعي هذا الأمر ذات يوم في العلاج النفسي ـ قاطعني.

ـ أنتم الأطباءَ النفسيين تحلون كل شيء بالعلاج النفسي!

ـ لا جدوى من إلقاء التراب على الجراح النفسانية، يجب تهويتها كي تلتئم.

ـ لقد مللت العلاج النفسي في أوريغون يا دانييل، ولكن إذاً كان هذا هو ما أحتاج إليه، فيمكنك أن تساعدني.

كان جوابه أكثر عقلانية مما هو رومانسي، قال إن ذلك سيكون مشروعاً طويل النفس وإن عليه أن يغادر قريباً، كما أنه لا يمكن أن يكون هنالك جنس في علاقة المريض بطبيبه النفساني.

ـ سأطلب من جدي بوبو إذاً أن يساعدني.

ـ فكرة جيدة ـ وضحك.

في أزمنة لاس فيغاس التعيسة، جاء جدي بوبو لرؤيتي مرة واحدة فقط. كنت قد حصلت على جرعة هيروين رخيصة جداً إلى حدّ كان عليّ أن أرتاب في أنها غير مضمونة. وكنت أعلم أن مدمنين قد ماتوا مسممين بقذارات تُخلط أحياناً مع المخدر، ولكنني كنت بحاجة ماسة إلى جرعة ولم أستطع المقاومة. استنشقتها في مرحاض عام مقرف. لم يكن لدي إبرة لأحقنها في الوريد، وربما ذلك كان السبب في نجاتي. ما كدت أتنشق المسحوق حتى أحسست برفسات بغلة في صدغي، وطفر قلبي وخلال أقل من دقيقة وجدت نفسي محاطة بغلالة من السواد، مختنقة وعاجزة عن التنفس. انهرتُ على الأرض، في الأربعين سنتمتراً ما بين كرسي المرحاض والجدار، فوق أوراق تواليت مستعملة، ووسط أبخرة الأمونياك.

أدركتُ بصورة مبهمة أنني أموت، وبدل الخوف داهمني إحساس براحة عظيمة. كنت أطفو في مياه قاتمة، وأغطس أعمق فأعمق، وبمزيد من التخلي، كما في حلم، سعيدةً بسقوطي بنعومة نحو قاع تلك الهوة المائعة ووضع حد للعار، أن أذهب، أذهب إلى الجانب الآخر، أن أهرب من المهزلة التي كانت عليها حياتي، من أكاذيبي وذرائعي، من هذا الكائن غير المحترم، المخزي والجبان الذي هو أنا نفسي، هذا الكائن الذي يُحمِّل الذنب في غيابه لأبي وجدتي وبقية العالم، هذه التعيسة التي أكملت للتو تسعة عشر عاماً من

عمرها وقد أحرقت سفنها كلها ودمرت نفسها، أضاعتها، هذا الهيكل العظمي المغطى بالطفح الجلدي والقمل الذي تحوّلتُ إليه، هذه البائسة التي تضاجع مقابل جرعة خمر، وتسرق أماً فقيرة محتاجة. كنت آمل بالهرب وحسب إلى الأبد من جو مارتن والصيني، من جسدي ومن حياتي المشؤومة.

عندئذ، بينما أنا في تلك الغيبوبة، سمعت من بعيد جداً صرخات: «مايا، مايا، تنفسي! تنفسي! تنفسي!» ترددت برهة طويلة مضطربة، راغبة في فقدان الوعي من جديد كيلا أتمكن من اتخاذ قرار، كنت أحاولت التفلت والانطلاق كسهم نحو العدم، ولكنني كنت مقيدة إلى هذا العالم بذلك الصوت الصارخ الحازم الذي يناديني. تنفسي يا مايا! وبصورة غريزية فتحت فمي، ابتلعت هواء وبدأت أشهق بحشرجات محتضر قصيرة. وشيئاً فشيئاً، ببطء متدرج، رجعت من النوم الأخير. لم يكن أحد معي، ولكن في شبر الفراغ بين باب المرحاض والأرض تمكنت من رؤية حذاء رجل في الجانب الآخر وتعرفت على ذلك الحذاء. بوبو؟ أهذا أنت يا بوبو؟ لم يأتني جواب. وظلت فردتا حذاء الموكاسين الإنكليزي في المكان نفسه للحظات ثم ابتعدتا دون ضجة. بقيتُ جالسة هناك، أتنفس بصورة متقطعة وأعلني من ارتجاف في ساقيّ اللتين لا تستجيبان لي، بينما أنا أناديه: بوبو، بوبو.

لم يُبدِ دانييل أي استغراب من أن جدي قد زارني، ولم يحاول أن يقدم لي تفسيراً عقلانياً لما حدث، مثلما كان يمكن أن يفعل أي واحد من الأطباء النفسيين الكثيرين الذين عرفتهم. بل إنه لم يتطلع إليّ بواحدة من تلك النظرات الساخرة التي اعتاد مانويل آرياس توجيهها إليّ عندما أتحول إلى باطنية على حدّ قوله. كيف لا أقع في حب دانييل الحساس فضلاً عن كونه وسيماً؟ إنه وسيم قبل أي شيء آخر. يشبه *داود* مايكل أنجلو، ولكن لونه أكثر جاذبية. في فلورنسا اشترى جداي نسخة مصغرة من تمثال *داود*. عرضوا عليهما في المتجر داود تغطيه ورقة تين، ولكن أكثر ما أعجبني في التمثال هي

أعضاؤه التناسلية، ولم أكن قد رأيت بعد ذلك الجزء في كائن بشري حقيقي، وإنما فقط في كتب التشريح عند جدي بوبو. وباختصار، لقد شردتُ، سأعود إلى دانييل الذي يعتقد أن نصف مشكلات العالم ستُحل لو أن لكل منا بوبو غير مشروط بدلاً من أنا أعلى متطلب، لأن أفضل الفضائل تزدهر في الحنان.

❖ ❖

حياة دانييل غودريتش تبدو هدية بالمقارنة مع حياتي، ولكن كانت له آلامه هو أيضاً. إنه شخص جديّ في مراميه، يعرف منذ فتوته الطريق الذي سيمضي فيه، على العكس مني أنا التي أمضي على غير هدى. إنه يخدع للوهلة الأولى بسلوكه كولد ثري وابتسامته بالغة السهولة، ابتسامة شخص راضٍ عن نفسه وعن العالم. مزاج السعادة الأبدية هذا غريب، لأنه في أثناء دراسته الطب، وممارسته العملية في المستشفيات، ورحلاته مشياً على الأقدام وبجعبة على الكتفين، لا بد أن قد شهد الكثير من الفقر والآلام. ولو أنني لم أنم معه لظننت أنه متطلع آخر لأن يكون سيدهارتا، ومُفرغ آخر من انفعالاته، مثل مانويل.

قصة آل غودريتش تكفي لرواية. دانييل يعرف أن أباه البيولوجي كان زنجياً وأن أمه بيضاء، ولكنه لم يعرفهما ولم يهتم بالبحث عنهما، لأنه يحب إلى حدّ العبادة الأسرة التي ترعرع معها. روبرت غودريتش، أبوه بالتبني، إنكليزي من أولئك الذين يحملون لقب سير، وإن كان لا يستخدمه، لأنه سيكون محط سخرية في الولايات المتحدة. وكدليل على ذلك توجد صورة ملونة يظهر فيها وهو يصافح الملكة إيزابيل الثانية وميدالية فاخرة معلقة بشريط برتقالي اللون. إنه طبيب نفساني واسع الشهرة، له كتابان مطبوعان وجاءه لقب «سير» لجدارته العلمية.

السير الإنكليزي تزوج من أليس ويلكنز، الشابة الأمريكية عازفة

الكمان التي مرت من لندن، وانتقل معها إلى الولايات المتحدة واستقر الزوجان في سياتيل حيث أقام عيادته الخاصة، بينما انضمت هي إلى الأوركسترا السيمفونية. وحين علما أن أليس غير قادرة على الإنجاب، تبنيا دانييل بعد كثير من التردد. بعد أربع سنوات من ذلك، وبصورة غير متوقعة، حبلت أليس. في البدء ظنا أنه حمل هستيري، ولكنهما سرعان ما تأكدا أنه حبل حقيقي، وفي موعدها المحدد وضعت أليس صغيرتها فرنسيس. وبدل أن يشعر بالغيرة من مجيء منافسته، تعلق دانييل بأخته في حب مطلق واستحواذي راح يتزايد مع مرور الزمن وقوبل بمثله من جانب الطفلة. كان روبرت وأليس يشتركان بالإعجاب بالموسيقى الكلاسيكية التي حبباها إلى ابنيهما، وتروقهما كلاب الكوكير سبانيل وكانت لديهما دوماً، والرياضات الجبلية التي ستتسبب بنكبة فرانسيس.

كان دانييل في التاسعة من عمره وأخته في الخامسة عندما انفصل أبويهما وذهب روبرت غودريتش ليعيش على بعد عشرة شوارع مع ألفونس زاليسكي، عازف البيانو في الفرقة التي تعزف فيها أليس أيضاً، وهو بولوني موهوب، خشن التصرفات، وله جسد حطاب، وشعر كثيف جامح ومزاج سوقي، يتناقض تماماً مع مزاج السخرية البريطانية ورهافة السير روبرت غودريتش. تلقى دانييل وفرانيس توضيحاً شاعرياً حول صديق أبيهما اللافت للأنظار وظنا أن المسألة مجرد ترتيب مؤقت، ولكن تسعة عشر عاماً مضت وظل الرجلان معاً. في أثناء ذلك كانت أليس قد ارتقت إلى موقع عازفة الكمان الأولى في الأوركسترا، وظلت تعزف مع ألفونس زاليسكي كرفيقين جيدين مثلما كانا بالفعل، لأن البولوني لم يحاول قط في انتزاع زوجها منها، وإنما مشاركتها إياه وحسب.

ظلت أليس في البيت مع نصف الأثاث واثنين من كلاب الكوكير سبانيل، بينما استقر روبرت في الحي نفسه مع عشيقه في بيت مماثل، وأخذ معه

بقية الأثاث والكلب الثالث. ترعرع دانييل وفرنسيس وهما يذهبان ويجيئان بين البيتين بحقيبتيهما، أسبوع في كل بيت. وكانا يذهبان إلى المدرسة نفسها، حيث لم يكن وضع أبويهما يلفت الانتباه، ويقضيان الأعياد والمناسبات مع كليهما. وقد ظنا لبعض الوقت أن أسرة زاليسكي كبيرة العدد التي تأتي من واشنطن لتحط في جماعة واحدة يوم عيد الشكر، هي فريق بهلوانات سيرك، لأن تلك كانت واحدة من القصص الكثيرة التي اختلقها ألفونس كي يكسب محبة الطفلين. كان يمكن له أن يوفر على نفسه ذلك الإزعاج، لأن دانييل وفرنسيس كانا يحبانه لأسباب أخرى: فقد كان أماً لهما. لقد كان البولوني يعبدهما، ويكرس لهما وقتاً أكثر مما يكرسه لهما أبواهما الحقيقيان وهو شخص مرح وحيوي، اعتاد أن يقدم إليهما عروض رقصات رياضية روسية وهو بالبيجاما وبوسام السير روبرت معلق حول عنقه.

انفصل الزوجان غودريتش دون أن يكلفا نفسيهما مشقة الطلاق القانوني وتمكنا من الحفاظ على صداقتهما. إنهما متحدان بالاهتمامات نفسها التي كانا يشتركان بها قبل ظهور ألفونس زاليسكي، باستثناء تسلق الجبال الذي لم يعودا إلى ممارسته بعد حادثة فرنسيس.

أنهى دانييل المدرسة الثانوية بمعدل جيد وهو في السابعة عشرة من عمره، وقُبل في الجامعة ليدرس الطب، ولكن عدم نضجه كان ظاهراً بجلاء، فأقنعه ألفونس بأن ينتظر عاماً آخر ويتمرس قليلاً في الحياة. «مازلتَ طفلاً يا دانييل، كيف ستصبح طبيباً وأنت لا تعرف كيف تنف أنفك». وبالرغم من معارضة روبرت وأليس أرسله البولوني إلى غواتيمالا في برنامج دراسي كي يصير رجلاً ويتعلم الإسبانية. عاش دانييل تسعة شهور ضمن عائلة من السكان الأصليين في قرية من قرى منطقة لاغو أتيتلان، يزرع الذرة ويجدل حبالاً من ألياف السيزال، دون أن يرسل أية أخبار، ورجع بلون بترولي، وبشعر أشبه بأجمة كثيفة، وبأفكار مقاتل حرب عصابات، ويتقن

التكلم بلغة الكيتشه. بعد هذه التجربة، بدت له دراسة الطب مجرد لعب أطفال.

ربما كان يمكن لمثلث آل غوريتش وزاليسكي أن يتفكك بعد أن كبر الطفلان اللذان ترعرعا معاً، ولكن الحاجة إلى رعاية فرنسيس وحدَّتهم أكثر من السابق. ففرانسيس تعتمد عليهم بالكامل.

❖ ❖

قبل تسع سنوات تعرضت فرانسيس غودريتش لسقوط مدوٍ حين كانت الأسرة كلها، باستثناء البولوني، تتسلق الجبال في سييرا نيفادا، تكسرت في جسدها عظام أكثر من أن تُحصى، وبعد ثلاث عشرة عملية جراحية معقدة وتمارين بدنية متواصلة، صارت قادرة على قليلٍ من الحركة. صمم دانييل على دراسة الطب حين رأى أخته وقد تحولت إلى فُتات في سرير وحدة العناية المركزة، واختار الطب النفسي لأنها هي نفسها طلبت منه ذلك.

ظلت الفتاة غارقة في كوما عميقة خلال ثلاثة أسابيع مديدة. أخذ أبواها في الاعتبار الفكرة التي لا رجعة فيها بفصل جهاز المَنْفَسة عنها، لأنها عانت من نزيف دماغي ولأنها، وفقاً للتنبؤات الطبية، ستعيش في حالة نباتية، غير أن ألفونس زاليسكي لم يسمح بذلك، لأنه حدس أن فرانسيس معلقة بين الحياة والموت، وإذا هم لم يفلتوها سوف تعود. صارت الأسرة تتناوب البقاء في المستشفى ليلاً ونهاراً، والتحدث إليها، ومداعبتها، ومناداتها، وفي اللحظة التي فتحت فيها عينيها أخيراً، كان يوم سبت في الساعة الخامسة صباحاً، كان دانييل هو المناوب إلى جانبها. وكانت فرنسيس عاجزة عن الكلام، لأنهم فتحوا لها شقاً في الرغامى، لكنه ترجم تعبيرات عينيها وأخبر الجميع أن أخته سعيدة جداً بالعيش ومن الأفضل التخلي عن خطة الإحسان الرحيم بمساعدتها على الموت. لقد ترعرعا معاً كتوأمين، ويعرف كل منهما الآخر خيراً مما يعرف نفسه، وليسا بحاجة إلى الكلام كي يتفاهما.

لم يؤثر النزيف على دماغ فرانسيس بالصورة التي كان يُخشى منها، وتسبب لها فقط في فقدان مؤقت للذاكرة، أصيبت بالحول، وفقدت السمع في إحدى أذنيها، ولكن دانييل انتبه إلى أن شيئاً أساسياً قد تبدل. فأخته كانت من قبل عقلانية ومنطقية مثل أبيه، تميل إلى العلوم والرياضيات، ولكنها بعد الحادث صارت تفكر بقلبها، مثلما أوضح لي. يقول إن فرنسيس تستطيع أن تحزر نوايا الناس وحالاتهم المعنوية، ومن المستحيل إخفاء شيء عنها أو خداعها، وتتمتع بومضات تنبؤ بالغة الصواب إلى حدّ راح زاليسكي يدربها كي تتكهن بأرقام اليانصيب الرابحة. وتطورت مخيلتها بصورة مدهشة، وقدرتها الإبداعية والحدسية. «الذهن أهم بكثير من الجسد يا دانييل. يجب أن تصير طبيباً نفسياً، مثل أبينا، كي تتحرى لماذا لديّ كل هذه الحماسة لمواصلة العيش بينما أشخاص آخرون أصحاء ومعافون ينتحرون»، قالت له فرنسيس عندما تمكنت من الكلام.

الشجاعة نفسها التي كانت توظفها في الرياضات الخطرة، أفادت فرنسيس في تحمل العذاب والمعاناة. وأقسمت على أنها ستستعيد عافيتها. وهي تعيش حالياً مشغولة بالكامل ما بين إعادة التأهيل البدني ـ وتستغرق منها عدة ساعات يومياً ـ، وحياتها الاجتماعية المذهلة من خلال الانترنت ودراستها، فهي ستتخرج هذه السنة بإجازة في تاريخ الفن. تعيش مع أسرتها المثيرة للفضول. فقد قرر آل غودريتش وزاليسكي أنه من المناسب لهم أكثر أن يعيشوا جميعهم معاً ومعهم كلاب الكوكير سبانيل التي ازداد عددها إلى ستة، وانتقلوا إلى بيت كبير في طابق، حيث يمكن لفرانسيس أن تتحرك من جانب إلى آخر على كرسيها ذي العجلات براحة أكبر. وقد تلقى زاليسكي عدة دورات كي يساعد فرنسيس في تمارينها البدنية، ولم يعد هناك من يتذكر بوضوح ما هي العلاقة بين الزوجين غودريتش وعازف البيانو البولوني؛ ليس مهماً، إنهم ثلاثة أشخاص يقدرون بعضهم بعضاً ويعتنون بابنة، ثلاثة

أشخاص يحبون الموسيقى، والكتب والمسرح، ويجمعون أصنافاً من النبيذ ويتشاركون في حبهم للكلاب نفسها والأصدقاء أنفسهم.

لا تستطيع فرنسيس تسريح شعرها أو تفريش أسنانها بنفسها، ولكنها تحرك أصابعها وتستخدم كمبيوترها، وهكذا تتواصل مع الجامعة والعالم. دخلنا الانترنت وأراني دانييل صفحة أخته على الفيسبوك، حيث توجد عدة صور لها قبل الحادث وبعده: طفلة لها وجه سنجاب، كثيرة النمش، شعر ضارب إلى الحمرة، رقيقة وسعيدة. وعلى صفحتها الكثير من التعليقات، والصور ومقاطع فيديو من رحلة دانييل.

ـ أنا وفرنسيس مختلفان جداً ـ قال لي ـ. فأنا هادئ ومحب للركون، بينما هي حادة الطبع كالبارود. في صغرها كانت تريد أن تصير مستكشفة وكان كتابها المفضل ***ناجون من الغرق وتعليقات*** لألبارو نونييث كابيثا دي باكا، وهذا مغامر إسباني من القرن الخامس عشر. كانت ترغب في الذهاب إلى أقاصي الأرض، إلى أعماق البحر، إلى القمر. رحلتي إلى أميركا الجنوبية كانت فكرتها، هذا ما كانت تخطط له ولم تستطع تحقيقه. وعليّ أن أرى بعينيها، وأن أسمع بأذنيها، وأصور بكاميرتها.

❖ ❖

كنت ومازلت خائفة من أن يرتعب دانييل من اعترافاتي ويرفضني باعتباري غير متوازنة، ولكن كان عليّ أن أخبره بكل شيء، لا يمكن بناء شيء راسخ على أكاذيب وتجاهل أمور أو حذفها. وحسب رأي بلانكا، وقد حدثتها في هذا الشأن إلى حد إتعابها، لكل شخص الحق في أسراره وسعيي هذا في عرض نفسي تحت أضواء أقل مواتاة هو طريقة من الغطرسة. لقد فكرتُ في هذا الأمر أيضاً. فالغطرسة تتمثل في محاولة جعل دانييل يحبني على الرغم من مشاكلي وماضيّ. جدتي نيني تقول إن حب الناس لأحفادهم غير مشروط، ولكن ليس للقرين. أما مانويل فيصمت حول هذه المسألة، لكنه

حذرني من التهور في الوقوع في حب شخص مجهول يعيش بعيداً جداً. وأي نصيحة أخرى يمكنه تقديمها إليّ؟ فهكذا هو: لا يجازف عاطفياً، يفضل عزلة مغارته، حيث يشعر بالأمان.

في شهر تشرين الثاني من العام الماضي، كانت حياتي في لاس فيغاس خارج السيطرة، وكنتُ مريضة إلى حد تختلط عليّ معه التفاصيل. كنت أرتدي ملابس رجال وقلنسوة سترة تحجب عيني، ورأسي غاطس بين كتفي، أتحرك بسرعة، دون أن أعرض وجهي لأحد. ولكي أستريح أستند إلى جدار، ويكون أفضل إلى زاوية بين جدارين، متكورة وفي يدي قارورة زجاج مكسورة قلما أفادتني في الدفاع عن نفسي. توقفت عن طلب الطعام في ملجأ النساء وصرت أذهب إلى ملجأ الرجال، أنتظر لأقف في نهاية الرتل، أتناول طبقي وأبتلع بسرعة في أحد الأركان. فبين هؤلاء الرجال يمكن لنظرة أن تُفسر على أنها اعتداء، ويمكن لأي كلمة زائدة أن تكون خطراً، إنهم أشخاص مجهولون، غير مرئيين، باستثناء المسنين منهم، وهؤلاء خرفون بعض الشيء وقد جاؤوا إلى هناك بسبب التقدم في السن، فهذا هو ميدانهم ولا يمكن لأحد التدخل معهم. كنت أظهر كصبي مخدر آخر من الصبية الكثيرين الذين يأتون متجرجرين بسبب في مدّ البؤس البشري. كان مظهري غير مكشوف إلى حدّ أن أحداً ممن مازال لديه بقية من الشفقة يقترب مني أحياناً ويحييني بالقول: «*hi, buddie*». ولكني لا أردّ عليه، لأنه يمكن للصوت أن يشي بي.

المهرب نفسه الذي كنت أستبدل لديه علب السجائر بجرعات كراك، يشتري أيضاً أجهزة إلكترونية، CD، وDVD، وiPod، وهواتف نقالة، وألعاب فيديو، غير أن الحصول عليها لم يكن سهلاً. فسرقة ذلك النوع من الأشياء يتطلب الكثير من الجرأة والسرعة، وهو ما أفتقر إليه. لقد شرح لي فريدي إحدى الطرق. يجب القيام أولاً بزيارة استطلاع لدراسة مواقع المخارج

وكاميرات الأمن، وبعد ذلك الانتظار إلى وقت يكون المتجر فيه مزدحماً والموظفون مشغولين، وهذا ما يحدث بصورة خاصة أثناء عروض التصفية، وأيام الأعياد، وفي بداية الشهور ومنتصفها، أي أيام دفع الرواتب. هذا كله جيد نظرياً، ولكن حين تكون الحاجة ماسة لا يمكن انتظار الظروف المواتية.

اليوم الذي فاجأني فيه الضابط آرانا كان عذاباً متواصلاً. لم أكن قد حصلت على شيء، وكنت قد أمضيت ساعات من التشنج، أرتجف من الحرمان من الخمر والمخدر، ومنحنية من آلام الأزمة التي تفاقمت ولم يعد بالإمكان تهدئتها إلا بالهيروين أو بعقاقير باهظة الثمن في السوق السوداء. لم يعد بإمكاني الاستمرار في تلك الحال ولو ساعة واحدة وقمت بما هو مخالف تماماً لما ينصح به فريدي: دخلتُ يائسة إلى متجر إلكترونيات لم أكن أعرفه، والفرصة المناسبة الوحيدة فيه هي عدم وجود حارس مسلح عند الباب، مثلما هي الحال في متاجر أخرى، ودون أن أهتم بالموظفين أو كاميرات المراقبة، رحت أبحث بغباء أو جنون عن قسم ألعاب الفيديو. لا بد أن سلوكي ومظهري قد لفتا الانتباه. وجدت الألعاب، تناولت لعبة حرب يابانية كان فريدي يحبها، خبأتها تحت قميصي الداخلي وسارعت في الخروج. تسبب رمز لعبة الفيديو السري في إطلاق صفير الإنذار بدوي يبعث على الصمم فور اقترابي من الباب.

انطلقت راكضة بنشاط مفاجئ، بالنظر إلى الحالة المؤسفة التي كنت عليها، قبل أن يتمكن الموظفون من الإتيان بأي ردّ فعل. واصلتُ الركض، في منتصف الشارع أول الأمر، متجنبة السيارات، ثم على الرصيف بعد ذلك، مزيحة الناس دفعاً وصارخة بكلمات بذيئة، إلى أن أدركت أنه ليس هنالك من يطاردني. توقفت لاهثة، منقطعة الأنفاس، وكأن طعنة رمح في رئتيّ، وبألم أصم في خاصرتي ومثانتي، وبلل بول دافئ بين ساقيّ، فانهرت جالسة على الرصيف وأنا أحتضن العلبة اليابانية.

بعد دقائق من ذلك أمسكتني يدان ثقيلتان وثابتتان من كتفيّ. وحين التفتُ التقت عيناي مواجهة بعينين زرقاوين في وجه شديد البرونزية. لقد كان الضابط آرانا، لم أتعرف عليه فوراً، لأنه لم يكن بالزي الشرطي ولأني كنت عاجزة عن تركيز بصري، إذ كنت على وشك الإغماء. إذا ما فكرتُ جيداً سيبدو لي مفاجئاً أن آرانا لم يجدني من قبل. فعالم المتسولين والنشالين والعاهرات والمدمنين يقتصر على أحياء وشوارع معينة تعرفها الشرطة جيداً وتراقبها، مثلما تُبقي عيونها مفتوحة على ملاجئ المعوزين التي سيأتي إليها الجائعون آجلاً أو عاجلاً. أخرجت العلبة من تحت قميصي بإحساس بالهزيمة، وسلّمتها إليه.

❖ ❖

أنهضني الشرطي عن الأرض بإحدى ذراعية وكان عليه أن يسندني، لأن ساقي تراختيا. «تعالي معي»، قال لي بشهامة أكبر مما يمكن توقعه. «أرجوك... لا تعتقلني، أرجوك...»، أفلتُ الكلمات بتدفق. «لن أعتقلك، اطمئني». اقتادني عشرين متراً إلى الأمام نحو **لاتاكيريا**، وهو مطعم مكسيكي، حيث حاول النُّدل منعي من الدخول حين رأوا حالتي المزرية، ولكنهم تراجعوا عندما كشف لهم آرانا عن هويته. انهرتُ على كرسي ورأسي بين ذراعي، تهزني تشنجات لا يمكن التحكم بها.

لا أدري كيف تعرّف آرانا إليّ. لقد رآني مرات قليلة والدمار الذي أمامه لا يشبه في شيء الفتاة المعافاة التي عرفها وكانت ذات شعر له شكل ريشة فضية، وتلبس حسب الموضة. انتبه على الفور إلى أن ما أحتاج إليه بإلحاح ليس طعاماً، فساعدني كما لو أنني مقعدة واقتادني إلى الحمام. ألقى نظرة في ما حوله كي يتأكد من أننا وحدنا، ثم وضع شيئاً في يدي ودفعني برفق إلى الداخل، وظل في الخارج يحرس الباب. مسحوق أبيض. نففتُ أنفي في ورق صحي بجزع وتسرع، وتنشقت المخدر الذي صعد مثل سكين إلى

جبهتي. وعلى الفور داهمتني تلك الرائحة العجائبية التي يعرفها أي مدمن، فتوقفت عن الارتعاش والأنين، وصفا ذهني.

بللت وجهي بالماء وحاولت ترتيب شعري قليلاً بأصابعي، دون أن أتعرف في المرآة على تلك الجثة ذات العينين الحمراوين وخصل الشعر المزيتة ذات اللونين. لم أتحمل رائحتي، ولكن لم تكن ثمة فائدة من الاغتسال مادمت لا أستطيع تبديل ملابسي. كان آرانا ينتظرني في الخارج متقاطع الذراعين، ومستنداً إلى الجدار. «إنني أحمل معي على الدوام شيئاً من أجل الحالات الطارئة مثل هذه الحالة»، وابتسم لي بعينين كأنهما خطان.

رجعنا إلى المنضدة واشترى لي الضابط زجاجة بيرة شعرت بها تنزل كماء مبارك إلى معدتي، وأجبرني على أكل بضع لقيمات فاهيتا من لحم الدجاج قبل أن يقدم لي قرصين. لا بد أنهما مسكّن قوي جداً، لأنه أصر على أنني لا أستطيع تناولهما على معدة خاوية. وخلال أقل من عشر دقائق شعرتُ بالانبعاث.

ـ عندما قتلوا براندون ليمان بحثتُ عنك كي آخذ أقوالك ولتتعرفي على الجثة. إنها مجرد شكليات، لأنه لم يكن هنالك شك في أنه هو. لقد كانت جريمة تقليدية بين مهربين ـ قال لي.

ـ هل عرفتم من فعل ذلك أيها الضابط؟

ـ لدينا فكرة ما، ولكن تنقصنا الأدلة. لقد أصابوه بإحدى عشرة رصاصة ولا بد أن أكثر من شخص سمعوا إطلاق النار، ولكن لا أحد يتعاون مع الشرطة. كنت أظن أنك قد رجعت إلى أسرتك يا لورا. أين صارت خططك في الذهاب إلى الجامعة؟ لم أتصور قطّ أن أجدك في مثل هذه الحال.

ـ لقد أصابني الرعب أيها الضابط. عندما علمت أنهم قد قتلوه لم أتجرأ على العودة إلى المبنى واختبأت. لم أتمكن من الاتصال بأسرتي وانتهى بي الأمر إلى الشارع.

ـ وإلى الإدمان كما أرى. أنت بحاجة...

ـ لا ! ـ قاطعته ـ إنني في حالة جيدة حقاً أيها الضابط، لا أحتاج إلى شيء. سأذهب إلى بيتي، سيرسلون لي نقوداً من أجل السفر بالحافلة.

ـ أنت مدينة لي ببعض التوضيحات يا لورا. عملك المزعوم لم يكن يدعى براندون ليمان ولا أي اسم آخر من الأسماء التي ظهرت في نصف دزينة من بطاقات الهوية المزيفة لديه. لقد تم تحديد شخصيته على أنه هانك تريفور، وعليه حكمان بالسجن في أطلنطا.

ـ لم يحدثني قط عن أي شيء من ذلك.

ـ ألم يحدثك كذلك عن أخيه آدم؟

ـ يمكن أن يكون قد أتى على ذكره، لست أذكر.

طلب الشرطي زجاجة بيرة أخرى لكل منا، وروى لي على الفور أن آدم تريفور هو أحد أفضل مزيفي النقود في العالم. ففي الخامسة عشرة من عمره دخل للعمل في مطبعة في شيكاغو، وهناك تعلم مهنة الأحبار والورق، وطوّر بعد ذلك تقنية تزوير أوراق نقدية متقنة تماماً، تتجاوز بنجاح فحوص النظر والضوء فوق البنفسجي. وكان يبيعها بأربعين أو خمسين سنتاً للدولار لمافيات الصين والهند والبلقان، فيخلطونها بأوراق نقدية حقيقية قبل أن يُدخلوها في دورة السوق. تجارة الأموال المزيفة إحدى أكثر أنواع التجارة ربحاً في العالم، وتتطلب تكتماً تاماً وبرودة أعصاب.

ـ براندون ليمان، أو بكلمة أصح هانك تريفور، يفتقر إلى موهبة وذكاء أخيه، لقد كان مجرماً ضئيل الشأن. والشيء الوحيد المشترك بين الأخوين هو عقليتهما الإجرامية. لماذا إنهاك النفس في عمل شريف ما دام الإجرام أكثر ربحاً ومتعة؟ ولم يكن ينقصهم الحق في هذا القول، أليس كذلك يا لورا؟ أعترف لك بأنني أشعر بشيء من الإعجاب بآدم تريفور، إنه فنان وهو لم يُلحق الأذى بأحد قطّ، اللهم إلا الحكومة الأمريكية ـ أنهى آرانا كلامه.

شرح لي أن القاعدة الأساسية لأي مزيف نقود هي عدم إنفاق نقوده وإنما بيعها أبعد ما يمكن، دون أن يخلف أثراً يمكن أن يُوصل إلى الفاعل أو إلى المطبعة. وقد خرق آدم تريفور هذه القاعدة وقدم مبلغاً لأخيه الذي بدل أن يخبئها، مثلما كانت تعليماته له بكل تأكيد، راح ينفقها في لاس فيغاس. وأضاف آرانا أن لديه خبرة خمسة وعشرين عاماً في إدارة الشرطة ويعرف جيداً ما الذي كان يعمله براندون ليمان وما الذي كنت أفعله معه، ولكنه لم يعتقلنا لأن مدمنين مثلنا ليس لهم أهمية؛ لأنهم إذا اعتقلوا كل متعاط للمخدرات ومتاجر بها في نيفادا فلن يكون لديهم سجون كافية لإيوائهم. ومع ذلك، عندما طرح ليمان نقوداً مزيفة في التداول، وضع نفسه في مرتبة أخرى، أعلى بكثير من مستواه. والسبب الوحيد في عدم اعتقاله فوراً هو إمكانية التوصل من خلاله إلى اكتشاف مصدر الأوراق النقدية المزيفة.

ـ أمضيتُ شهوراً وأنا أراقبه على أمل أن يقودني إلى آدم تريفور، فتصوري مدى إحباطي عندما قتلوه. كنت أبحث عنك لأنك تعرفين أين يخبئ عشيقك النقود التي يتلقاها من أخيه...

ـ لم يكن عشيقي! ـ قاطعته.

ـ لا فرق. أريد أن أعرف أين وضع النقود وكيف يمكنني معرفة مكان آدم تريفور.

ـ لو كنت أعرف أين توجد النقود أيها الضابط، فهل تظن أنني كنت سأبقى في الشارع؟

لو أن هذا الحديث جرى قبل ساعة لكنت أخبرته دون تردد، ولكن المخدر، والقرصين، وزجاجتي البيرة وبعدهما كأس تيكيلا خلصتني مؤقتاً من حالة الغم وتذكرت أنه عليّ عدم إدخال نفسي في تلك المشكلة. كنت أجهل إذا كانت الأوراق النقدية التي في مستودع بياتي مزيفة أم حقيقية، أم أنها مزيج من الاثنين معاً، ولكن لا يناسبني في كل الأحوال أن يربط آرانا

بيني وبين تلك الحقائب. وكما ينصح فريدي، الأمان الأكبر على الدوام هو الصمت. لقد قُتل براندون ليمان بوحشية، ومازال قتلته طليقين، وقد أتى الشرطي على ذكر المافيات وأي معلومات أعرفها ستستفز انتقام آدم تريفور.

ـ كيف يخطر لك أنه يمكن لبراندون ليمان أن يأتمنني على أمر كهذا أيها الضابط. لقد كنت فتاة توصيل طلباته. وكان جو مارتن والصيني شريكاه، وهما كانا يشاركان في أعماله ويرافقانه إلى كل مكان، أما أنا فلا.

ـ أكانوا شركاء؟

ـ هذا ما أظنه، ولكنني لست متأكدة، لأن براندون ليمان لم يكن يخبرني بشيء. بل إنني لم أكن أعرف حتى هذه اللحظة أن اسمه هانك تريفور.

ـ هذا يعني أن جو مارتن والصيني يعرفان أين هي النقود.

ـ عليك أن تسألهما. النقود الوحيدة التي كنت أراها هي الإكراميات التي يمنحني إياها براندون ليمان.

ـ والتي كنت تتقاضينها له في الفنادق.

واصل استجوابي ليتحرى تفاصيل التعايش في وكر المجرمين الذي كانه مبنى براندون ليمان وأجبته بحذر، دون أن أذكر فريدي ودون أي إشارة إلى حقائب El Paso TX. حاولت توريط جو مارتن والصيني بالظن أنه جرى اعتقالهما فسوف أتحرر منهما، ولكن لم يبدُ على آرانا أنه مهتم بهما. كنا قد انتهينا من تناول الطعام منذ وقت طويل، وكانت الساعة تقارب الخامسة مساء، ولم يبق في المطعم المكسيكي المتواضع سوى نادل واحد ينتظر مغادرتنا. وكما لو أنه لم يفعل ما يكفي من أجلي، أهدى إليّ الضابط آرانا عشرة دولارات وأعطاني رقم هاتفه الجوال، كي نظل على اتصال ولأتصل به إذا وجدت نفسي في مأزق. وحذرني بأنه علي أن أخبره قبل أن أغادر المدينة، ونصحني بتوخي الحذر، لأن هنالك أحياء خطرة في لاس فيغاس،

ولاسيما في الليل، كما لو أنني لا أعرف ذلك. وعند الوداع خطر لي أن أسأله لماذا يتجول دون الزي الشرطي، فأسرّ لي بأنه يتعاون مع مكتب التحقيقات الفيدرالي: فتزييف النقود جريمة فيدرالية.

❖ ❖

الحذر الذي أتاح لي الاختفاء في لاس فيغاس لم يكن مجدياً حيال قوة القدر، بالحرف الكبير كما تقول جدتي مشيرة إلى إحدى أوبريهات فيردي المفضلة لديها. كان جدي بوبو يتقبل فكرة القدر الشاعرية، وإلا أي تفسير آخر لعثوره على امرأة حياته في تورينتو، ولكنه كان أقل قَدَرِية من جدتي التي ترى أن القدر شيء مؤكد ومحدد مثل الوراثة الجينية. فكلاهما، القدر والجينات، يحددان من نحن، ولا يمكن أن يتبدلا. فإذا كانت المعادلة حادة، فإننا واقعون في ورطة، أما إذا لم تكن كذلك، فيمكن لنا ممارسة بعض التحكم بحياتنا، شريطة أن تكون ورقة البروج مواتية. وكانت تشرح الأمر لي بأننا نأتي إلى العالم وفي يدنا بعض أوراق اللعب ونلعب لعبتنا، ويمكن لشخص أن يغرق ولآخر أن يطفو مع أن أوراقهما متماثلة. «إنه قانون التعويض يا مايا. فإذا كان قدرك أن تولدي عمياء، لن تكوني مضطرة إلى الجلوس في المترو لتعزفي على الناي، بل يمكنك تطوير حاسة الشم والتحول إلى ذواقة نبيذ». إنه مثال نموذجي من أمثلة جدتي.

وفق نظرية جدتي، أنا ولدت مكرسة مسبقاً للإدمان، ولا يمكن لأحدنا أن يعرف السبب، لأن الأمر غير موجود في جيناتي، فجدتي لا تتعاطى الخمور، وأبي يتناول كأساً واحدة من النبيذ الأبيض بين حين وآخر، وأمي، أميرة لابونيا، خلّفت لدي انطباعاً جيداً في المرة الوحيدة التي رأيتها فيها. طبعاً كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً وفي هذا الوقت يكون الناس جميعهم متزنين. على أي حال، هنالك بين أوراقي ورقة الإدمان، ولكنني أستطيع بالإرادة والذكاء أن أفكر بألعاب بارعة من أجل إبقاء إدماني تحت

السيطرة. ولكن الإحصائيات مع ذلك كارثية، فهناك عميان يتحولون إلى ذواقة نبيذ أكثر مما يوجد مدمنون أعيد تأهيلهم. ومع الأخذ في الاعتبار عثرات أخرى وضعها لي القدر، مثل تعرفي على براندون ليمان، فإن احتمالات أن أعيش حياة طبيعية كانت في أدنى الحدود قبل أن تتوافر الفرصة لتدخل أولمبيا بيتفورد. هذا ما قلته لجدتي وقد ردّت عليّ بأن هنالك على الدوام إمكانية للتحايل بأوراق اللعب. وهذا ما فعلته هي بإرسالي إلى هذه الجزيرة في تشيلوي: خدعة بأوراق اللعبة.

في اليوم نفسه الذي التقيت فيه مع بآرانا، بعد ساعة تقريباً، وصل إليّ جو مارتن والصيني أخيراً على بُعد شوارع قليلة من المطعم المكسيكي الذي ساعدني الضابط فيه. لم أرَ السيارة السوداء المرهوبة ولم أشعر بهما يقتربان إلى أن وجدتهما ينقضان عليّ، لأنني كنت قد أنفقت الدولارات العشرة في شراء مخدرات، وكنت أهيم محلقة. أمسكاني من جانبي ورفعاني عن الأرض وأدخلاني بالقوة إلى السيارة بينما أنا أصرخ وأرفس بيأس. توقف بعض الأشخاص بسبب الضجة، ولكن أحداً لم يتدخل، ومن سيتدخل مع قاتلين خطيرين ومتسولة هستيرية. حاولتُ إلقاء نفسي من السيارة وهي سائرة، ولكن جو مارتين شلّني بضربة على رقبتي.

أخذاني إلى المبنى الذي أعرفه، ميدان براندون ليمان، حيث صارا الزعيمين، وعلى الرغم من ذهولي استطعت ملاحظة أن البناء أكثر تردياً، فقد تزايدت البذاءات المكتوبة بالطلاء على الجدران، وكذلك القمامة والزجاج المكسر، وكانت تنتشر رائحة براز. أصعداني بينهما إلى الطابق الثالث، فتحا البوابة الحديدية ودخلنا إلى الشقة التي كانت خاوية. «ستعترفين الآن أيتها العاهرة اللعينة»، هددني جو مارتن عن بعد سنتمترين عن وجهي وهو يشد على صدغي بيد الغوريلا التي له. «ستخبريننا أين خبأ ليمان النقود وإلا سأكسر عظامك واحداً فواحداً».

في تلك اللحظة رنَّ موبايل الصيني الذي تبادل جملتين مع محدثه ثم قال لجو مارتن إنه سيكون لديه متسع من الوقت لتكسير عظامي، ولكن لديهما أوامر بالذهاب، فهناك من ينتظرهما. كمَّما فمي بخرقة وشريط لاصق، وألقيا بي على أحد الفراشين اللذين على الأرض وقيدا كاحليّ ومعصميّ بسلك كهرباء وربطا قيد الكاحلين بقيد اليدين، بحيث صرت منحنية إلى الوراء. ثم غادرا بعد أن نبهاني مرة أخرى إلى ما سيفعلانه بي عند عودتهما، ظللت وحدي غير قادرة على الصراخ أو التحرك، كان السلك الكهربائي يجرح كاحلي ومعصمي، بينما رقبتي متيبسة بسبب الضربة التي تلقيتها، وأشعر بالاختناق من الخرقة المدسوسة في فمي، ومرعوبة مما ينتظرني على أيدي ذينك القاتلين ولأن مفعول الكحول والمخدر بدأ يتلاشى. كنت أشعر بالخرقة في فمي وببقية من مذاق فاهيتا دجاج الغداء. حاولت التحكم بالقيء الذي راح يصعد عبر الحلق ويمكن له أن يخنقني.



كم من الوقت ظللت فوق الفراش؟ من المستحيل معرفة ذلك بصورة دقيقة، ولكن بدا لي أنها عدة أيام، مع أن الوقت يمكن أن يكون أقل من ساعة. وسرعان ما بدأت اختلج بعنف وأعض الخرقة التي صارت مبللة باللعاب، كيلا أبتلعها. ومع كل اختلاجة كانت أسلاك القيد تنغرس أكثر في لحمي. الخوف والألم يحولان دون قدرتي على التفكير، وراح الهواء يتناقص عني فبدأت أصلي من أجل أن يرجع جو مارتن والصيني كي أخبرهما بكل ما يريدان معرفته، كي آخذهما بنفسي إلى بياتي، ولأرى إن كان بإمكانهما نسف قفلي المستودع بالرصاص، ثم يطلقان بعد ذلك رصاصة على رأسي، لأنه سيكون أفضل من أن أموت معذبة كحيوان. لا تهمني بأي حال تلك النقود اللعينة، لماذا لم أثق بالضابط آرانا، لماذا، لماذا. والآن، بعد أن أمضيتُ شهوراً في تشيلوي، في سكينة البعاد، أدرك أن تلك هي الطريقة لجعلي أعترف، دون

الحاجة إلى تكسير عظامي، فعذاب حرماني من الخمر والمخدر كان كافياً. وقد كان هذا هو، بكل تأكيد، الأمر الذي صدر إلى الصيني عبر الهاتف الخلوي.

كانت الشمس قد غابت في الخارج، إذ لم يعد يتسرب ضوء من بين ألواح الخشب التي تسد النافذة، وفي الداخل كان الظلام شاملاً، بينما حالتي تزداد سوءاً وأواصل التضرع أن يرجع القاتلان. قوة القدر. لم يكن جو مارتن والصيني هما من أشعلا النور وانحنيا فوقي، وإنما فريدي، شديد النحول وبالغ الخبل، لم أستطع التعرف إليه للحظات. «يا للعنة يا لورا، يا للعنة، يا للعنة»، كان يتلعثم بينما هو يحاول أن ينزع الكمامة بيديه المرتجفتين. وأخيراً أخرج الخرقة من فمي وتمكنتُ من أخذ نفس عميق وملء رئتي بالهواء، بينما أنا أسعل مع إحساس بالغثيان. فريدي، فريدي، فلتتبارك يا فريدي. لم يستطع فك قيدي، فقد تيبست عقد الأسلاك، ولم تكن له سوى يد واحدة، لأن اليد الأخرى فقدت اثنين من أصابعها ولم تستعد الحركة قطّ بعد أن هرسوها له. ذهبَ بحثاً عن سكين في المطبخ وبدأ الصراع مع السلك إلى أن تمكن من قطعه، وبعد دقائق أبدية، استطاع تحريري. كانت هناك جروح دامية في كاحلي ومعصمي، ولكنني لم أنتبه إليها إلا في ما بعد، فقد كنت في تلك اللحظات تحت وطأة لهفة انقطاعي عن المخدر، والشيء الوحيد الذي يهمني هو الحصول على جرعة أخرى.

لم تكن ثمة جدوى من محاولتي النهوض، فقد كنت أرتعش في اختلاجات تشنج لا إرادية، وبلا قدرة على التحكم بأطرافي. «اللعنة، اللعنة، اللعنة، يجب أن تخرجي من هنا، اللعنة يا لورا، اللعنة»، كان الصبي يكرر كترتيلة. ذهب فريدي مرة أخرى إلى المطبخ ورجع ومعه أنبوب زجاجي وولاعة غاز وحفنة كراك. أشعلها ووضعها في فمي. استنشقت بعمق فأعاد لي ذلك شيئاً من قواي. «كيف سنخرج من هنا يا فريدي؟»، تلعثمت. كانت أسناني تصطك. «الطريقة الوحيدة هي المشي. انهضي يا لورا»، أجابني.

ومشياً خرجنا بأسهل طريقة، عبر البوابة الرئيسية. كان لدى فريدي جهاز تحكم عن بعد بالبوابة الحديدية، وتسللنا على السلم في الظلام، ملتصقين بالجدار، وكان يسندني من خاصرتي، وأنا أستند إلى كتفه. كم كان ضئيلاً! لكن قلبه الشجاع يفوق كثيراً هشاشته. ربما رآنا بعض أشباح الطابقين السفليين وأخبرا جو مارتن والصيني بأن فريدي قد خلصني، ولكنني لن أعرف ذلك أبداً. وإذا لم يخبرهما أحد بذلك، فقد استنتجاه بنفسيهما، فمن سواه سيقامر بحياته من أجل مساعدتي.

مشينا مسافة شارعين في ظل البيوت مبتعدين عن المبنى. حاول فريدي إيقاف عدة سيارات أجرة، ولكنهم عندما كانوا يروننا ويواصلون قُدماً، لا بد أننا كنا في حالة يرثى لها. اقتادني إلى موقف حافلات وصعدنا إلى أول حافلة مرت بنا، دون أن نهتم إلى أين هي ذاهبة ودون أن نعير التفاتاً إلى وجوه الركاب المشمئزة ولا إلى نظرات السائق من خلال المرآة العاكسة. كنت أعبق برائحة البول، متشعثة الشعر، وعلى ذارعي وحذائي آثار دم. كان يمكن لهم أن يجبرانا على النزول من الحافلة أو تنبيه الشرطة، ولكننا كنا محظوظين أيضاً في هذا الشأن ولم يفعلوا.

نزلنا في الموقف الأخير، حيث اقتادني فريدي إلى حمام عمومي ونظفني بأفضل طريقة ممكنة، ولم تكن بالشيء الكثير، لأن ثيابي وشعري كانت مقرفة. صعدنا بعد ذلك إلى حافلة أخرى، ثم أخرى، وقمنا بجولة في لاس فيغاس استمرت لساعات من أجل التضليل. وأخيراً اقتادني فريدي إلى حي زنجي لم أذهب إليه من قبل، سيئ الإنارة وشوارعه مقفرة في تلك الساعة، فيه بيوت صغار موظفين وعمال، ودهاليز فيها كراسي خيزران، وأفنية فيها أشياء عتيقة ومهملات. بعد الضرب الرهيب الذي تلقاه هذا الصبي لأنه توغل في حي ليس له، لا بد أنه احتاج لشجاعة كبيرة كي يأخذني إلى هناك، ولكنه لم يكن يبدو قلقاً، وكما لو أنه قد سار في هذه الشوارع مرات كثيرة.

وصلنا إلى بيت لا يختلف في شيء عن البيوت الأخرى، قرع فريدي الجرس عدة مرات بإلحاح. وأخيراً سمعنا صوتاً راعداً: «من الذي تجرأ على الإزعاج في هذا الوقت المتأخر!» أضيء نور في الدهليز، وفُتح الباب قليلاً وتفحصت عينٌ المكان. «فليتبارك الرب، ألستَ أنت يا فريدي؟».

كانت أولمبيا بيتِفورد برداء وردي، إنها الممرضة التي اعتنت بفريدي في المستشفى عندما ضُرب، الماردة العذبة، أم المخذولين، المرأة الرائعة التي تدير كنيستها الخاصة، كنيسة **أرامل في سبيل يسوع**. فتحت أولمبيا باب بيتها على مصراعيه وأخذتني في حضنها كربة أفريقية، « صغيرتي المسكينة، صغيرتي المسكينة». حملتني بين ذراعيها إلى أريكة في صالة بيتها ومددتني هناك برفق أم لوليدها حديث الولادة.



في بيت أولمبيا بيتفورد علقتُ تماماً في هول متلازمة الانقطاع عن الخمر والمخدر، وهذا أسوأ من أي ألم جسدي كما يقال، ولكنه أقل من الألم المعنوي بإحساسي بانعدام الجدارة، أو ألم فقدان شخص عزيز، كما في حالة جدي بوبو. ولا أريد التفكير في ما سيعنيه فقدان دانييل... لقد كان جيرميه بيتفورد، زوج أولمبيا، ملاكاً حقيقياً، وكانت **أرامل في سبيل يسوع** سيدات زنجيات ناضجات معانيات، آمرات وكريمات، وقد تناوبن على مساندتي في أسوأ الأيام. فعندما تصطك أسناني بشدة إلى حد يكاد لا يخرج معه صوتي للمطالبة بجرعة، جرعة وحسب من شراب قوي، أي شيء لأظل على قيد الحياة، وعندما كان الارتعاش والتلويات تعذبني وإخطبوط الجزع يطوق صدغيّ ويعصرني بألف ذراع، وعندما كنت أتعرق وأجاهد وأكافح وأحاول الهرب، كانت الأرامل الرائعات يثبتنني، يهدهدنني، يواسينني، يصلين ويغنين من أجلي ولا يتركنني وحيدة لحظة واحدة.

«لقد دمرتُ حياتي، لا يمكنني تحمل المزيد، أريد أن أموت»، كنت

أقول منتحبة في بعض اللحظات، عندما صار بمقدوري صياغة عبارات غير الشتائم والتوسلات واللعنات. أمسكتني أولمبيا من كتفيّ وأجبرتني على النظر إلى عينيها، وأن أركز بصري، وأن أعيرها انتباهاً، وأسمعها: «من قال لك إن الأمر سيكون سهلاً أيتها الصغيرة؟ تحملي. هذا لا يميت أحداً. أمنعك من الكلام عن موتك، هذه خطيئة. سلمي نفسك ليدي يسوع وستعيشين بوقار السبعين عاماً المتبقية لك في الحياة».

تدبرت أوليمبيا الأمر بطريقة ما لتحصل لي على مضاد حيوي، لتخليصي من التهاب المجاري البولية، وفاليوم لمساعدتي في أعراض الانقطاع عن المخدر، أتصور أنها اختلستها من المستشفى بضمير نقي، لأنها كانت تعتمد على الغفران المسبق من يسوع. كان التهاب المجاري البولية قد وصل إلى الكليتين، حسب ما أوضحت لي، وقد أعطتني علبة أقراص لأتناولها خلال الأسبوعين التاليين.لا أذكر الوقت الذي أستمر فيه احتضاري بسبب الانقطاع عن المخدر، لا بد أنه استمر يومين أو ثلاثة أيام، ولكنه بدا لي أكثر بكثير.

رحت أخرج من البئر شيئاً فشيئاً وأطللت على السطح. تمكنت من ابتلاع حساء وشوفان مع الحليب، وأن أستريح وأنام في بعض اللحظات. كانت ساعة الجدار تسخر مني فتمدد الساعة لتصير أسبوعاً. حممتني الأرامل، وقصصن أظفاري وانتزعن القمل مني، وعالجن جراحي الملتهبة من الإبر وأسلاك الكهرباء التي مزقت معصمي وكاحلي، ودلكن جسدي بزيوت أطفال رضّع من أجل تطرية قشرة الجراح، وحصلن لي على ملابس نظيفة وحرسنني كيلا أقفز من النافذة وأخرج للبحث عن مخدرات. وعندما تمكنتُ أخيراً من الوقوف على قدميّ والمشي دون مساعدة، أخذنني إلى كنيستهن، وهي عنبر مطلي بطلاء أزرق سماوي، حيث يجتمع أعضاء الأخوية القليلون. لا وجود لشباب بينهم، وجميعهم من الأفروأمريكيين،

ومعظمهم نساء وقد علمت أن الرجال القليلين ليسوا مترملين بالضرورة. قام جيرميه وأولمبيا، وهما يرتديان رداءين بنفسجيين وشالين أصفرين، بقيادة قداس شكر ليسوع على نيتي. يا لتلك الأصوات! إنهم يغنون بالجسد كله، يتأرجحون مثل أشجار نخيل، أيديهم مرفوعة إلى السماء، سعداء، سعداء جداً إلى حدّ أن غناءهم طهرني من الداخل.

❖ ❖

لم تشأ جيرميه وأولمبيا تقصي أي شيء عني، ولا حتى معرفة اسمي. يكفيهما أن فريدي قد حملني حتى باب بيتهما ليحتضناني. تكهنا بأنني أهرب من شيء ما وفضّلا عدم معرفة ما الذي أهرب منه، فربما يأتي من يسأل أسئلة محرجة. كانا يصليان من أجل فريدي يومياً، ويطلبان من يسوع أن يخلصه من السموم ويجعله يتقبل المساعدة والحب، «ولكن يسوع يتأخر في الاستجابة أحياناً، لأنه يتلقى الكثير من الطلبات»، أوضحا لي. وأنا أيضاً لم أكن أزيح فريدي من رأسي، وأخشى عليه من الوقوع في يدي جو مارتن والصيني، ولكن أولمبيا تثق بدهائه وبقدرته المذهلة على البقاء حياً.

بعد أسبوع من ذلك، وعندما اختفت أعراض الالتهاب، وصرت قادرة على البقاء هادئة إلى هذا الحد أو ذاك دون تناول فاليوم، طلبتُ من أوليمبيا أن تتصل بجدتي في كاليفورنيا، لأني لم أكن قادرة على الاتصال بها بنفسي. كانت الساعة السابعة صباحاً عندما طلبت أوليمبيا الرقم الذي أعطيتها إياه، وردّت جدتي على الفور، كما لو أنها تجلس منتظرة إلى جانب الهاتف منذ ستة شهور. «حفيدتك جاهزة للعودة إلى البيت، تعالي لأخذها».

بعد إحدى عشرة ساعة من ذلك، توقفت سيارة كبيرة أمام منزل آل بيتفورد. ألصقت جدتي إصبعها على الجرس بتعجل الحنان وألقيت بنفسي بين ذراعيها أمام نظرات صاحبي البيت الراضية وعدد من **الأرامل** ومايك أوكلي الذي كان يسحب كرسيه ذي العجلات من السيارة المستأجرة. «كم

جعلتِنا نعاني يا ابنة الخراء! ما الذي كان يكلفك الاتصال بنا لنعرف أنك حية!»، كانت هذه هي تحية نيني لي، وقد قالتها بالإسبانية وبصوت صارخ، مثلما تتكلم عندما تكون منفعلة جداً، وأتبعت ذلك على الفور بالقول: «تبدين في أسوأ حال يا مايا، ولكن لك هالة خضراء، لون الشفاء، وهذا مظهر طيب». بدت جدتي أضأل بكثير مما أتذكرها، لقد تقلصت خلال شهور قليلة، وعيناها البنفسجيتان، وكانتا حسيتين في السابق، تبديانها عجوزاً هرمة. «لقد أخبرتُ أباكِ، وهو آت في رحلة من دبي وسينتظرك غداً في البيت»، قالت لي وهي متشبثة بيدي وتنظر إليّ بعيني بومة لتحول دون اختفائي مجدداً، ولكنها امتنعت عن الإثقال علي بالأسئلة. سرعان ما استدعتنا **الأرامل** إلى المائدة: دجاج مقلي، بطاطا مقلية، وخضروات معجونة ومقلية، وزلابية مقلية، وليمة كولسترول للاحتفال باللقاء العائلي.

❖ ❖

بعد تناول العشاء ودّعتنا أرامل يسوع وانصرفن، بينما اجتمعنا نحن في الصالة الضيقة، حيث وجد مايك أوكلي بصعوبة مكاناً لكرسيه ذي العجلات. قدمت أوليمبيا إلى جدتي ومايك ملخصاً عن حالتي الصحية ونصيحة بإرسالي إلى برنامج تأهيل فور وصولنا إلى كاليفورنيا، وهو أمر كان مايك الذي يعرف الكثير في هذا الشأن قد صمم عليه بنفسه، ثم انسحبت بتكتم. عندئذ أطلعتهم باختصار على ما كانت عليه حياتي منذ شهر أيار، متجاوزة الليلة مع روي فيدجويك في الموتيل وممارستي الدعارة، لأن التحدث عنهما سيحطم نيني. وبينما أنا أخبرهما بما جرى مع براندون ليمان، أو بالأصح هانك تريفور، وعن النقود المزيفة، والقاتلين اللذين اختطفاني والأمور الأخرى، كانت جدتي تتململ في مقعدها مرددة بين أسنانها «يا صغيرة الخراء»، لكن عينيّ بياض الثلج الزرقاوين كانتا تلمعان كأضواء طائرة. لقد كان مفتوناً بوجوده أخيراً في خضم قضية بوليسية.

ـ تزييف النقود جريمة خطيرة جداً، عقوبتها أشد من عقوبة القتل مع سبق الإصرار ـ أخبرنا بسعادة.

ـ هذا ما قاله لي الضابط آرانا. وأفضل ما نفعله هو الاتصال به وإخباره بكل شيء، فقد أعطاني رقم هاتفه ـ اقترحتُ عليهما.

ـ يا للفكرة العبقرية! فكرة جديرة بحفيدتي البغلة! ـ صاحت جدتي نيني ـ أترغبين في قضاء عشرين عاماً في سان كينتين وتنتهين إلى الكرسي الكهربائي أيتها الصغيرة البلهاء؟ هيا إذاً، أسرعي لإخبار الشرطي بأنك متواطئة.

ـ اهدئي يا نيديا. أول ما يجب علينا فعله هو تدمير الأدلة، كيلا يتمكنوا من الربط بين حفيدتك والنقود. وبعد ذلك نأخذها إلى كاليفورنيا دون أن نخلّف أثراً لمرورها من لاس فيغاس، وعندما تستعيد عافيتها نخفيها لبعض الوقت، ما رأيك؟

ـ وكيف سنفعل هذا كله؟ ـ سألته نيني.

ـ الجميع يعرفونها هنا باعتبارها لورا بارون، باستثناء **أرامل في سبيل يسوع**، أليس كذلك يا مايا؟

ـ **الأرامل** لا يعرفن اسمي الحقيقي أيضاً ـ أوضحت له.

ـ رائع. سنرجع إلى كاليفورنيا في السيارة التي نستأجرها ـ قرر مايك.

ـ فكرة جيدة يا مايك ـ تدخلت نيني التي بدأ البريق يشع من عينيها ـ. ففي الطائرة ستحتاج مايا إلى تذكرة باسمها وطريقة ما للتعريف بهويتها، وهذا يخلّف آثاراً، أما في السيارة فيمكننا اجتياز البلاد دون أن يعلم بنا أحد. ويمكننا أن نعيد تسليم السيارة في بيركلي.

وبهذه الطريقة السريعة رتب عضوا نادي المجرمين أمر خروجي من مدينة الخطيئة. كان الوقت متأخراً، وكنا متعبين ولا بد لنا من النوم قبل أن نضع الخطة موضع التطبيق. ظللتُ تلك الليلة مع أوليمبيا، بينما ذهب مايك وجدتي إلى فندق. في صباح اليوم التالي اجتمعنا مع الزوجين بيتفورد لتناول

الفطور، وغادرنا بأسرع ما يمكن، لأن وداع من أحسنا إليّ أصابني بالحزن. **وأعربت** جدتي عن شكرها وعن أنها مدينة إلى الأبد للزوجين بيتفورد، **وعرضت** عليهما استضافتها غير المشروطة في بيركلي، «بيتي هو بيتكم»، **ولكنهما** على سبيل الحيطة لم يشاءا معرفة اسم أسرتي أو عنوانها. ومع **ذلك**، عندما أخبرهما بياض الثلج بأنه أنقذ فتياناً مثل فريدي وأنه يمكنه **مساعدة** الفتى، وافقت أوليمبيا على أخذ بطاقته. «سنبحث عنه نحن **الأرامل في سبيل يسوع** إلى أن نجده، وسوف نأخذه إليك ولو مقيداً»، أكدت له. **ودّعتُ** ذلك الثنائي الرائع بعناق طويل وبوعد أن أعود لزيارتهما.



انطلقت أنا وجدتي ومايك في السيارة الحمراء باتجاه بياتي، وخلال الطريق تناقشنا بالطريقة التي سنفتح بها القفلين. الأمر غير ممكن بنسف الباب بالديناميت كما اقترحت جدتي نيني، لأننا إذا تمكنا من الحصول على الديناميت، فإن الانفجار سيلفت الانتباه، فضلاً عن أن استخدام القوة الفظة هي الملاذ الأخير لأي تحري جيد. جعلاني أكرر عشر مرات أدق تفاصيل الرحلتين اللتين قمت بهما مع براندون ليمان إلى المستودع.

ـ وماذا كانت بالضبط الرسالة التي عليكِ أن تبلغيها لأخيه بالهاتف؟ ـ سألتني نيني مرة أخرى.

ـ العنوان الذي توجد فيه الحقيبتان.

ـ هذا كل شيء؟

ـ لا! لقد تذكرتُ الآن. فقد ألح ليمان كثيراً على أنه عليّ أن أقول لأخيه أين هما حقيبتا El Paso TX.

ـ أهو يعني مدينة الباسو في تكساس؟

ـ هذا ما أظنه، ولكنني غير متأكدة. فالحقيبة الثانية ليس عليها إشارة ماركة، وإنما هي حقيبة سفر عادية.

استنتج هذان التحريان الهاويان أن شيفرة فتح القفلين موجودة في الرسالة، ولهذا السبب أكد ليمان على أن أحفظ الرسالة بحرفيتها. احتاجا لثلاث دقائق كي يترجما الحروف إلى أرقام. إنها شيفرة سهلة أحبطتهما ببساطتها، لأنهما كانا ينتظران تحدياً على مستوى قدراتهما. تكفي رؤية هاتف: فالحروف الثمانية تتوافق مع ثمانية أرقام، أربعة لشيفرة كل قفل، 3578 و7689.

مررنا لشراء قفازات مطاطية، وخرقة ممسحة، ومكنسة، وكبريت، وكحول تعقيم، ثم ذهبنا بعد ذلك إلى متجر معدات لشراء بيدون بلاستيكي ورفش، ثم مررنا أخيراً على محطة بنزين لملء خزان السيارة والبيدون البلاستيكي. وواصلنا طريقنا إلى المستودع الذي كنت أتذكره لحسن الحظ، لأن هنالك عدة مستودعات مماثلة في المكان. حددتُ باب المتجر وفتحت جدتي القفلين، وهي تضع قفازين، من المحاولة الثانية؛ ولم أرها بمثل تلك السعادة إلا في مرات معدودة. كانت الحقيبتان في الداخل، مثلما تركهما براندون ليمان. قلتُ لهما إنني لم ألمس شيئاً خلال الزيارتين السابقتين، وإن ليمان هو من فتح القفلين، وأخرج الحقيبتين من السيارة وأعاد إقفال المستودع، ولكن نيني قالت إنني إذا كنت مخدرة فلا يمكنني أن أكون متأكدة من أي شيء. نظف مايك بالخرقة المبللة بالكحول كافة السطوح التي يمكن أن تكون عليها بصمات أصابع، ابتداء من الباب وحتى الداخل.

ومن باب الفضول ألقينا نظرة على الصندوقين فوجدنا فيهما بنادق ومسدسات وذخائر. رأت نيني أن نخرج مسلحين كرجال حرب العصابات، لاسيما وأننا توغلنا حتى أنوفنا في أجواء إجرامية، وبدت الفكرة لبياض الثلج رائعة، ولكنني لم أسمح لهما. فجدي لم يشأ امتلاك سلاح قط، وكان يقول إن الشيطان يحشوها، وإن من يسعى لامتلاكها ينتهي به الأمر إلى استخدامها ويندم بعد ذلك. وتعتقد جدتي نيني بأنه لو امتلك زوجها

سلاحاً، لكان قتلها هي نفسها عندما ألقت إلى القمامة نوتات الأوبرا بعد أسبوع من زواجهما. يا لما يقوله عضوا نادي المجرمين بشأن صندوقي الألعاب القاتلة! وضعنا الكيسين في السيارة، وكنست جدتي الأرض كي تمحو آثار أحذيتنا وآثار الكرسي ذي العجلات، ثم أقفلنا القفلين وابتعدنا غير مسلحين.

❖ ❖

ذهبنا، والحقيبتين في السيارة لنستريح بضع ساعات في موتيل، بعد أن اشترينا ماءً وتموينا للرحلة التي ستتطلب منا حوالي عشر ساعات. كان مايك وجدتي قد جاءا بالطائرة واستأجرا السيارة في مطار لاس فيغاس، ولم يكونا يعرفان كم هي طويلة ومستقيمة ومملة الطريق، ولكن الجو في تلك الفترة لم يكن قِدراً يغلي كما هي الحال في شهور أخرى، حين ترتفع درجة الحرارة إلى ما فوق أربعين درجة. حمل مايك أوكلي حقيبتي الكنز إلى حجرته، وتقاسمتُ سريراً واسعاً في حجرة أخرى مع جدتي التي ظلت ممسكة بيدي طيلة تلك الليلة الطويلة. «لستُ أفكر في الهرب يا نيني، فلا تقلقي»، أكدتُ لها وأنا شبه مغمى عليّ من الإرهاق، ولكنها لم تفلتني. لم تستطع أي منا النوم كثيراً وانتهزنا الفرصة لتبادل الحديث، كان لدينا الكثير مما نقوله. حدثتني عن أبي، وكم عانى بسبب هروبي، وكررت لي أنهما لن يسامحاني أبداً على أنني أبقيتهما طيلة خمسة شهور وأسبوع ويومين بلا أخبار عني، وأنني حطمت أعصابهما ومزقت قلبيهما. «سامحيني يا نيني، لم أفكر في الأمر...» والحقيقة أنه لم يخطر لي أي شيء من ذلك، ولم أكن قد فكرتُ إلا بنفسي.

سألتها عن سارا وديبي فأخبرتني أنها ذهبت لحضور حفل تخريج تلاميذ صفي في بيركلي هاي بدعوة خاصة من السيد هاربير الذي توصلت إلى صداقة معه، لأنه كان مهتماً على الدوام بمعرفة أخباري. وأخبرتني أن

ديبي قد تخرجت مع بقية زملائي، أما سارا فأخرجوها من المدرسة وهي في مستشفى منذ شهور، وبأقصى حالات الضعف، متحولة إلى هيكل عظمي. وفي نهاية الاحتفال اقتربت منها ديبي لتسألها عني. كانت ترتدي الملابس الزرقاء، وبدت طازجة وجميلة، لم يبق فيها شيء من الخرق القوطية السابقة ولا من المكياج القبوري. وجدتي التي أصابتها لسعة، أخبرتها بأنني قد تزوجت من وريث ثري وسافرتُ إلى جزر الباهاما. «ولماذا سأقول لها إنكِ قد اختفيت يا مايا؟ لم أشأ منحها تلك المتعة، انظري الضرر الذي ألحقته بك تلك التعسة بعاداتها الخبيثة»، هذا ما أخبرتني به **دون كورليوني** المافيا التشيلية التي لا تغفر ولا تسامح.

أما بشأن ريك لاريدو، فقد جرى اعتقاله بسبب حماقة لا يمكن أن تخطر إلا له: اختطاف مقابل فدية. وكانت عمليته سيئة التخطيط تتلخص في سرقة كلب مترف، ثم الاتصال بالأسرة من أجل طلب مكافأة مقابل إعادته. «خرج بالفكرة من اختطاف المليونيرات في كولومبيا، وأنت تعرفين، أولئك المتمردين، ما اسمهم؟ **فارك**؟ حسن، شيء من هذا القبيل. ولكن لا تقلقي، فمايك يساعده وعما قريب سيطلقون سراحه»، أنهت جدتي. أوضحت لها أنني لستُ قلقة بأي حال من وجود لاريدو وراء القضبان، بل على العكس، أظن أنه المكان المناسب له في النظام الكوني. «لا تكوني غليظة يا مايا، ذلك الفتى المسكين كان مغرماً بك. وعندما يطلقون سراحه سيحصل له مايك على عمل في جمعية حماية الحيوان، كي يتعلم احترام كلاب الآخرين. ما رأيك؟» هذه الفكرة لا يمكن أن تكون قد خطرت لذهن بياض الثلج، ولا بد أنها فكرة نيني.

اتصل بنا مايك بالهاتف من غرفته في الساعة الثالثة فجراً، ووزع علينا موزاً وخبزاً محلى، ثم وضعنا الأمتعة القليلة في السيارة، وبعد نصف ساعة كنا نمضي باتجاه كاليفورنيا وجدتي وراء المقود. كان الليل قاتماً، وهو وقت

جيد لتجنب ازدحام حركة المرور ودوريات الشرطة. كنتُ أشعر بالنعاس، وكما لو أن نشارة خشب في عيني، وكذلك في قلبي، وقطن في ركبتي، وكنت مستعدة لتقديم أي شيء مقابل أن أنام لقرن كامل، مثل حسناء قصة بيرولت. وبعد أن تقدمنا مئة وتسعين كيلومتراً خرجنا عن الطريق العام وسلكنا درباً ضيقاً اختاره مايك على الخريطة لأنه لا يؤدي إلى أي مكان، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في قفر قمري.

كان الجو بارداً، ولكنني سرعان ما شعرت بالدفء وأنا أحفر حفرة، وهو عمل من المستحيل أن يقوم به مايك وهو في كرسيه ذي العجلات أو جدتي نيني بسنوات عمرها السبع والسبعين، كما أنه شاق على شبه نائمة مثلي. كانت الأرض حصوية، تتخللها نباتات زاحفة جافة وقاسية، خارت قواي، فلم أكن قد أمسكت رفشاً من قبل، ولم تفد تعليمات مايك وجدتي إلا في زيادة إحباطي. بعد نصف ساعة من ذلك لم يكن ما توصلتُ إلى حفره يزيد عن شق في الأرض، ولكن بعد ظهور ثآليل في يدي تحت قفازيّ المطاط وعجزي عن رفع الرفش اضطر عضوا نادي المجرمين الاكتفاء بما فعلت.

تبين أن إحراق مليون دولار أشد تعقيداً مما توقعناه، لأننا لم نضع في اعتبارنا عامل الرياح، ونوعية النسيج المقوى في الورق، ولا كثافة حزم الأوراق النقدية المرصوصة. وبعد عدة محاولات، اخترنا أكثر الطرق بدائية، فصرنا نضع حفنات من أوراق النقد في الحفرة، ونرشها بالبنزين ثم نشعل بها النار ونهوي الدخان لنحول دون رؤيته من بعيد، بالرغم من أن ذلك الاحتمال ضئيل في الليل.

ـ هل أنتِ متأكدة من أن هذه النقود كلها مزيفة يا مايا؟ ـ سألتني جدتي.

ـ كيف يمكن لي أن أكون متأكدة يا نيني؟ الضابط آرانا قال إنهم يخلطون الأوراق المزيفة بأخرى حقيقية.

ـ سيكون من التبذير إحراق أوراق نقد جيدة، بعد كل النفقات التي تكبدناها. يمكننا الاحتفاظ بالقليل منها للطوارئ... ـ اقترحت الجدة.

ـ هل أنت مجنونة يا نيديا؟ هذه الأوراق أخطر من النتروغليسرين ـ قاطعها مايك.

واصلا الجدال بحماسة بينما أنهيتُ إحراق محتوى الحقيبة الأولى وفتحت الثانية. وجدت فيها أربعة حزم أوراق نقدية فقط وعلبتين كل منهما بحجم كتاب ملفوفتين ببلاستيك وشريط تغليف لاصق. مزقنا الشريط اللاصق بالأسنان والشد، لأنه لم تكن لدينا أداة قاطعة، وكان علينا أن نسرع لأن ضياء الفجر بدأ بالانبلاج مع غيوم رمادية تنزلق بسرعة في سماء قرمزية. كان في العلبتين أربعة بلاكات معدنية لطباعة أوراق نقدية من فئتي المئة والخمسين دولاراً.

ـ هذه البلاكات تساوي ثروة! ـ هتف مايك ـ إنها أثمن من أوراق النقد التي أحرقناها.

ـ وكيف تعرف ذلك؟ـ سألته.

ـ حسب ما قاله لك الشرطي يا مايا، أوراق آدم تريفور النقدية متقنة إلى حد يكاد يكون كشفها محالاً. المافيات تدفع ملايين مقابل هذه البلاكات.

ـ هذا يعني أننا نستطيع بيعها ـ قالت نيني آملة.

ـ ولا بأي حال يا دون كورليوني ـ قاطعها مايك بنظرة كالسكين.

ـ لا يمكن إحراقها ـ تدخلتُ.

ـ علينا أن ندفنها أو أن نلقي بها إلى البحر ـ قرر مايك.

ـ يا للأسف، إنها أعمال فنية ـ تنهدت نيني، وبادرت إلى لفها بحذر كيلا تُجرح.

أنهينا إحراق الغنيمة، ثم طمرنا الحفرة بالتراب، وقبل أن ننصرف ألح بياض الثلج على أن نعلّم المكان. سألتُه: «لماذا؟». فأوضح لي: «على سبيل

الاحتياط. فهذا ما يفعلونه في روايات الإجرام». فكان عليّ أن أبحث عن حجارة لأشكّل منها هرماً فوق الحفرة، بينما قامت جدتي بقياس الخطوات حتى أقرب العلامات البارزة من الحفرة، وتولى مايك رسم خريطة للموقع على أحد الأكياس الورقية. كان ذلك أشبه بلعبة قراصنة، ولكنني لم أجد الحماسة للمناقشة في الأمر. قمنا بالرحلة إلى بيركلي مع ثلاث توقفات للذهاب إلى الحمام، وتناول القهوة، وملء خزان السيارة بالوقود والتخلص من الحقيبتين والرفش والبيدون والقفازات في حاويات قمامة مختلفة. اشتعال ألوان الفجر أفسح المجال لضوء النهار الأبيض، وكنا نتعرق في بخار الصحراء الحُمِّي، لأن جهاز التكييف في السيارة كان شبه معطل. لم تقبل جدتي التنازل لي عن المقود، لأنها تعتقد أن دماغي مازال ذاهلاً وأن حركاتي اللاإرادية مخدرة، وظلت تقود السيارة على ذلك الشريط اللامتناهي طيلة النهار وبداية الليل، دون أن تشكو مرة واحدة. «بشيء ما يفيدني أنني كنت ذات يوم سائقة سيارة ليموزين»، علقتْ في إشارة إلى الفترة التي تعرّفتْ فيها إلى بوبو.

عندما أخبرتُ دانييل غودريتش بهذا كله، أراد أن يعرف ماذا فعلنا ببلاكات الطباعة. لقد تولت جدتي نيني مسؤولية أن تلقي بها، من العبارة، إلى خليج سان فرانسيسكو.



أتذكر أن برودة أعصاب دانييل غودريتش كطبيب نفساني قد ضعفت حين أخبرته بهذا الجزء من القصة، وكان ذلك في شهر أيار. كيف استطعتُ أن أعيش هذه الفترة الأبدية من دونه؟ استمع إليّ دانييل فاغر الفم ومن خلال ملامحه استنتجتُ أنه لم يحدث له قطّ شيء بمثل إثارة مغامراتي في لاس فيغاس. قال لي إنه حين يرجع إلى الولايات المتحدة سيتصل بجدتي نيني وبياض الثلج، ولكنه لم يفعل ذلك بعد. «جدتك هذه حالة فريدة يا مايا. يمكن لها أن تشكل ثنائياً مع ألفونس زاليسكي»، قال لي معلقاً.

ـ أنت تعرف الآن لماذا أعيش هنا يا دانييل. لست في نزوة سياحية كما يمكن لك أن تتصور. لقد قررت جدتي وأوكلي أن يرسلاني أبعد ما يمكن ريثما يتضح قليلاً الوضع الذي أنا فيه. جو مارتن والصيني يبحثان عن النقود، لأنهما لا يعرفان أنها مزيفة، والشرطة تريد اعتقال آدم تريفور بينما يريد هو استعادة بلاكات طباعته قبل أن يصل إليها مكتب التحقيقات الفيدرالي. وأنا الرابط، وحين يكتشفون ذلك سأجدهم جميعهم يلاحقونني.

ـ لورا بارون هي الرابط ـ ذكّرني دانييل.

ـ لا بد أن الشرطة قد اكتشفت أن لورا تلك هي أنا. فبصماتي ظلت في أمكنة كثيرة، خزائن الأمانات في النادي الرياضي، مبنى براندون ليمان، وحتى في بيت أوليمبيا بيتِفورد، وإذا أمسكوا بفريدي وجعلوه يتكلم، لا قدّر الله ذلك.

ـ لم تذكري آرانا.

ـ إنه شخص طيب. وهو يتعاون مع مكتب التحقيقات الفيدرالي، ولكنه حين كان قادراً على اعتقالي لم يفعل، بالرغم من أنه يشك فيّ. لقد حماني. فهو غير مهتم إلا بكشف النقاب عن صناعة الدولارات المزيفة واعتقال آدم تريفور. سيمنحونه ميدالية مقابل ذلك.

وافق دانييل على خطة بقائي معزولة لبعض الوقت، ولكنه لم يرَ خطورة في تبادلنا الرسائل، وأنه لا حاجة إلى المبالغة في دوار الملاحقة. فتحتُ حساباً في البريد الإلكتروني باسم خوانيتو كورّاليس juanitocorrales@gmail.com. لن يخامر الشك أحداً في علاقة دانييل غودريتش في سياتيل مع صبي في تشيلوي، صديق آخر تعرّف إليه خلال رحلته ويتصل به بانتظام. ومنذ مغادرة دانييل صرت استخدم هذا الحساب يومياً. لم يؤيد مانويل الفكرة، فهو يعتقد أن جواسيس مكتب التحقيقات الفيدرالي والهاكر المتعاونين معه في المعلوماتية هم أشبه بالرب، موجودون في كل مكان ويرون كل شيء.

خوانيتو كورّاليس هو الأخ الذي أتمنى لو أنه كان لي، مثلما كان فريدي أيضاً. «خذيه إلى بلادك يا غرينغيتا، فأنا لا ينفعني في شيء هذا المخاطي»، قالت لي ذات مرة إدوفيخيس مازحة، وقد أخذ خوانيتو الأمر على محمل الجد، وصار يضع الخطط للعيش معي في بيركلي. إنه الشخص الوحيد الذي يقدرني في العالم. «عندما أكبر سأتزوجك أيتها العمة الغرينغية»، يقول لي. لقد صرنا في الجزء الثالث من هاري بوتير، وهو يحلم في الذهاب إلى مدرسة هوغورتس للسحر وفي أن يمتلك مكنسته الطائرة. وهو فخور لأني استعرت اسمه لحساب في البريد الإلكتروني.

وكما هو طبيعي، رأى دانييل في إحراقنا النقود في الصحراء تصرفاً غير معقول، حيث كان يمكن لدورية أن تفاجئنا، لأن الطريق رقم 15 عبر الولايات تجوبه الكثير من الشاحنات وهو مراقب من البر ومن طائرات الهيلوكبتر. كان بياض الثلج وجدتي قد تداولا في خيارات عديدة، بما في ذلك إذابة الأوراق النقدية في محلول درانو، مثلما فعلا ذات مرة بكيلوغرام من اللحم، ولكن كافة الاحتمالات كانت تتضمن مجازفات ولم يكن بينها احتمال أكثر حسماً ومسرحية من النار. فبعد سنوات، حين يصبح بإمكانهما رواية القصة دون أن يُعتقلا، سيكون الحديث عن محرقة في الصحراء أفضل من سائل لفتح أنابيب المجارير المسطومة.

❖ ❖

قبل تعرفي إلى دانييل لم أكن قد فكرت في الجسد الذكوري ولم أهتم بتأمله، باستثناء تلك النسخة التي لا تُنسى من تمثال *داود* في فلورنسا، بحجمه ذي الخمسة أمتار وسبعة عشر سنتمتراً. الفتيان الذين ضاجعتهم لم يكونوا يشبهون بأي حال تمثال *داود* ذاك، فقد كانوا يفتقدون المهارة وكثيفي الشعر ويملأ وجوههم حب الشباب. مررت بمرحلة المراهقة بعشق بعض ممثلي السينما الذين لم أعد أتذكر أسماءهم، لمجرد أن سارا وديبي وبعض بنات

أكاديمية أوريغون كانوا يعشقونهم أيضاً، ولأنهم أشخاص لا جسديين مثلما هم قديسو جدتي. ويتسع المجال للشك في أنهم من البشر الفانين حقاً، بسبب نصاعة بياض أسنانهم ونعومة صدورهم منزوعة الشعر بالشمع واكتسابهم اللون البرونزي تحت شمس المحيطات. فأنا لن أراهم أبداً عن قرب، وأقل من ذلك احتمال توصلي إلى لمسهم، فقد اختُلقوا من أجل شاشة وليس من أجل مداعبة حب ممتعة. لا يظهر أي منهم في تخيلاتي الإيروتيكية. عندما كنت صغيرة، أهدى جدي بوبو إليّ مسرحاً كرتونياً لطيفاً مع شخوص بملابس ورقية من أجل توضيح حبكات أعمال الأوبرا العويصة. وعشاقي المتخيلون كانوا، مثل تلك الشخوص الكرتونية، ممثلين بلا هوية أحركهم أنا نفسي على منصة. وقد استُبدلوا جميعهم الآن بدانييل الذي يحتل لياليّ ونهاراتي، أفكر وأحلم به. لقد غادر بسرعة كبيرة، ولم نتوصل إلى ترسيخ شيء.

الحميمية تتطلب وقتاً كي تنضج، قصةً مشتركة، دموعاً مذروفة، عوائق مُتَجَاوَزة، صوراً في ألبوم، إنها نبتة بطيئة النمو. مع دانييل كنا معلقين معاً في فضاء افتراضي ويمكن لهذا الفراق أن يدمر الحب. لقد ظل في تشيلوي عدة أيام أكثر مما خطط له، ولم يتمكن من الذهاب إلى باتاغونيا، بل ذهب إلى البرازيل بالطائرة ومن هناك إلى سياتيل، حيث بدأ العمل في عيادة أبيه. وفي أثناء ذلك يجب عليّ أن أكمل منفاي في هذه الجزيرة، وحين يحين الوقت، أعتقد أننا سنقرر أين نلتقي. سياتيل مكان جيد، المطر هناك أقل من تشيلوي، ولكنني أفضّل أن أعيش هنا، لست راغبة في ترك مانويل وبلانكا وخوانيتو و**فاكن**.

لا أدري إن كان هناك عمل لدانييل في تشيلوي. فالأطباء النفسيون، على حدّ قول مانويل، يعانون الجوع في هذه البلاد، على الرغم من وجود مجانين أكثر مما في هوليود، لأن التشيليين يرون في السعادة تفاهة، وهم ينفرون من إنفاق نقود لتجاوز التعاسة. هو نفسه مثال جيد على ذلك، كما

يبدو لي، لأنه لو لم يكن تشيلياً لكان استكشف جراحه النفسية مع طبيب محترف وعاش بقدر أكثر قليلاً من السعادة. هذا لا يعني أنني صديقة للمعالجين النفسانيين، كما يمكن لي أن أكون بعد تجربتي في أكاديمية أوريغون، ولكنهم يقدمون مساعدة في بعض الأحيان، كما في حالة جدتي نيني حين ترملت. ربما يمكن لدانييل أن يعمل في شيء آخر. إنني أعرف أكاديمياً من أكسفورد، من أولئك الذين يرتدون سترة التّوِيد ذات الرقعتين الجلديتين عند المرفقين، وقد وقع في حب امرأة تشيلية، وبقي يعيش في الجزيرة الكبرى، وهو يدير الآن شركة سياحية. وماذا أقول عن النمساوية ذات المؤخرة الملحمية ومعجنات ستردل التفاح. فهذه كانت طبيبة أسنان في انسبروك وهي صاحبة نُزل الآن. يمكنني أنا ودانييل أن نصنع بسكويتاً، وهذا عمل له مستقبل كما يقول مانويل، أو أن نقيم محطة لتربية حيوانات الفيكونيا، مثلما كنت أنوي في أوريغون.

في ذلك التاسع والعشرين من شهر أيار ودّعتُ دانييل بهدوء متصنع، لأن عدة فضوليين كانوا في المرسى ـ وكانت التعليقات على علاقتنا أكثر من التعليقات على الرواية التلفزيونية ـ ولم أشأ منح أولئك التشيليين طليقي الألسنة مشهداً استعراضياً، ولكنني حين صرت وحدي مع مانويل في البيت، بكيت إلى أن تعبنا كلانا. كان دانييل يسافر من دون كمبيوتر محمول، ولكنه حين وصل إلى سياتيل وجد بانتظاره خمسين رسالة مني وردّ عليّ، لا وجود لما هو أكثر رومانسية، لا بد أنه مستنفد القوى. ومنذ ذلك الحين لم يعد تواصلنا ينقطع، متجنبة كل ما يمكن له أن يحدد هويتي، وكانت لدينا قواعد محددة للتحدث عن الحب، وهو يستخدمها باحتشام شديد، بما يتوافق مع طبعه، بينما أتعسف أنا بلا حدود، وفقاً لطبعي.

❖ ❖

ماضيَّ قصير ويجب أن أبقية واضحاً في ذهني، لكنني لا أثق بنزوات

الذاكرة، لا بد لي من كتابته قبل أن أبدأ بتغييره أو رقابته. لقد قالوا في التلفزيون إن بعض العلماء الأمريكيين قد طوروا عقاراً جديداً لمحو الذكريات، وإنهم يفكرون في استخدامه لعلاج الصدمات النفسية، وبخاصة لدى الجنود الذين يرجعون مختلين من الحرب. مازال ذلك العقار في طور التجربة، وعليهم إتقانه كيلا يمحو الذاكرة بالكامل. فإذا ما امتلكته، ما الذي سأختار نسيانه؟ لا شيء. فأمور الماضي السيئة هي دروس للمستقبل وأسوأ ما حدث لي، موت جدي بوبو، أريد تذكره إلى الأبد.

في الجبل، بالقرب من مغارة البينكويا، رأيت بوبو. كان يقف عند حافة الوهدة وينظر نحو الأفق، بقبعته الإيطالية، وثياب السفر وحقيبته اليدوية، كما لو أنه جاء من بعيد ويقف متشككاً بين الذهاب أو البقاء. ظل هناك للحظات قصيرة جداً، بينما أنا جامدة، أحبس أنفاسي كيلا أخيفه، وأناديه دون صوت. ثم مرت بعض النوارس زاعقة واختفى. لم أخبر أحداً بذلك، كي أتجنب تفسيرات غير لائقة، مع أنهم قد يصدقونني هنا. فإذا كانت أرواح هائمة تولول في كوكاو، وإذا كانت سفينة يقودها مسوخ تبحر في خليج أنكود، وإذا كان السحرة يتحولون إلى كلاب في كيكافي، فإن ظهور عالم فلكيٍّ ميت في مغارة البنكويا هو أمر ممكن تماماً. يمكن له ألا يكون شبحاً، بل تخيل مني يجسده في الجو، كما في عرض سينمائي. تشيلوي مكان جيد لتجلي جد ولمخيلة حفيدة.

لقد حدثتُ دانييل كثيراً عن جدي بوبو عندما كنا وحيدين وكل منا يروي قصة حياته للآخر. وصفت له طفولتي التي مرت سعيدة في بعبع الهندسة المعمارية في بيركلي. ذكرى تلك السنوات ومحبة الجدين الحريصة كانت سندي في أزمنة نكبتي. لقد كان تأثير أبي ضعيفاً عليّ، لأن عمله كطيار يبقيه في الجو أكثر من بقائه على الأرض. وقبل أن يتزوج كان يعيش في البيت نفسه معنا، في غرفتين من الطابق الثاني، لهما مدخل مستقل عبر سلّم

خارجي ضيق، ولكننا كنا نراه قليلاً، لأنه إذا لم يكن محلقاً في الجو يمكن له أن يكون بين ذراعي واحدة من أولئك العشيقات اللاتي يتصلن هاتفياً في ساعات غير متوقعة، بينما لا يأتي هو على ذكرهن. وكانت مواعيد عمله تتغير كل أسبوعين وقد اعتدنا في الأسرة على عدم انتظاره أو توجيه أسئلة إليه. لقد تولى جدايّ تربيتي، وكانا يذهبان إلى اجتماعات الآباء في المدرسة، ويأخذانني إلى طبيب الأسنان، ويساعدانني في واجباتي المدرسية، وعلّماني كيف أعقد رباط حذائي، وركوب الدراجة، واستخدام الكمبيوتر، ومسحا دموعي، وضحكا معي؛ ولستُ أتذكر لحظة واحدة من سنوات عمري الخمس عشرة الأولى إلا ويكون حاضراً فيها جدي بوبو وجدتي نيني. والآن، بعد موت بوبو، أشعر به أقرب إليّ من أي وقت، لقد أنجز وعده بأنه سيكون معي على الدوام.



مضى شهران منذ ذهاب دانييل. شهران دون رؤيته، شهران بقلبٍ تحول إلى عقدة، شهران وأنا أكتب في هذا الدفتر عن الأمور التي كان يجب أن أتحدث فيها معه. كم أفتقده! إن هذا لاحتضار، مرض قاتل. في شهر أيار، حين رجع مانويل من سنتياغو، تظاهر بأنه لم يلحظ أن البيت بأسره يعبق برائحة قبلات، وأن **فاكن** كان عصبياً لأني لم أهتم به وصار يخرج للنزهة وحيداً، مثل جميع كلاب هذه البلاد؛ قبل زمن قصير كان مجرد كلب متشرد وهو يمضي الآن بزهو كلب مدلل. ترك مانويل حقيبته وقال لنا إنه بحاجة إلى حلّ بعض الأمور مع بلانكا شناك ونظراً إلى أن المطر سيهطل، سوف يبيت ليله في بيتها. هنا يعرفون أن المطر سيهطل عندما تتراقص التونينات وعندما تكون هناك «قضبان نور»، كما يسمون أشعة الشمس التي تخترق الغيوم. لم يذهب مانويل قطّ، على حدّ علمي، للنوم في بيت بلانكا. شكراً، شكراً، همستُ في أذنه في واحدة من تلك المعانقات الطويلة

التي يمقتها. لقد أهدى إليّ ليلة أخرى مع دانييل الذي كان في تلك اللحظات يزود المدفأة بالحطب لنطهو عليها فروجاً بالخردل وفتات الخبز، وهو طبق من اختراع أخته فرانسيس التي لم تطبخ شيئاً في حياتها، ولكنها تجمع كتب الطبخ وقد تحولت إلى شيف نظري. كنت قد قررتُ عدم النظر إلى ساعة السفينة المعلقة على الجدار، لأنها تبتلع بسرعة الوقت المتبقي لي معه.

خلال شهر عسلنا القصير حدثتُ دانييل عن عيادة إعادة التأهيل في سان فرانسيسكو، حيث أمضيتُ قرابة شهر، والتي يجب أن تكون مشابهة جداً لعيادة أبيه في سياتيل.

خلال رحلة الـ 919 كيلومتر بين لاس فيغاس وبيركلي وضعت جدتي ومايك أوكلي خطة لإخفائي عن الخريطة قبل أن ينقض عليّ مخلب السلطات أو المجرمين. لم أكن قد رأيت أبي منذ عام، ولم أشعر بافتقاده، وكنت أحمله مسؤولية نكباتي، ولكن ضغينتي تلاشت في نفخة واحدة عندما وصلنا إلى البيت في السيارة الحمراء، وكان هو بانتظارنا عند الباب. لقد كان أبي، مثل جدتي نيني، أشد نحولاً وانكماشاً. ففي شهور غيابي تلك هرم كثيراً ولم يعد ذلك الغاوي الذي له هيئة ممثل السينما التي أتذكرها. احتضنني بقوة وهو يكرر اسمي بحنان أجهله فيه. «ظننت أننا قد فقدناكِ يا ابنتي». لم أر أبي من قبل مشوش الذهن بسبب الانفعال. لقد كان آندي بيدال صورة للرصانة، وجيهاً جداً ببدلته كطيار، لم تنل منه مشقات الحياة، مرغوباً من أجمل النساء، مثقفاً، مرحاً، معافى. «فلتكوني مباركة، فلتكوني مباركة يا ابنتي»، كان يردد. وصلنا ليلاً، ولكنه كان قد أعدّ لنا فطوراً بدل العشاء: شوكولا مذابة وخبزاً فرنسياً محمصاً مع زبد وموز، إنها وجبتي المفضلة.

وبينما نحن نتناول الفطور، أشار مايك أوكلي إلى برنامج إعادة التأهيل الذي ذكرته أولمبيا بيتِفورد وأكد على أنها أفضل طريقة معروفة للتخلص من

الإدمان. ارتعش أبي وجدتي كما لو أنهما يتلقيان صدمة كهربائية في كل مرة يذكر فيها تلك الكلمات المرعبة، مدمنة مخدرات، كحولية، ولكنني كنت قد أضفت تلك الكلمات إلى واقعي بفضل **الأرامل في سبيل يسوع**، فخبرتهن الواسعة في هذه الأمور أتاحت لهن أن يكنَّ واضحات جداً معي. قال مايك إن الإدمان وحش ماكر وصبور، له أساليب لامتناهية وهو دائم الترصد، وذريعته الأقوى هي أن الشخص يظن أنه غير مدمن فعلاً. ولخص الخيارات المتوافرة لنا، ابتداء من مركز إعادة التأهيل الذي يديره، وهو مجاني ومتواضع جداً، وحتى عيادة في سان فرانسيسكو التي تكلف ألف دولار يومياً وقد استبعدتُها فوراً، لأنه لا سبيل إلى الحصول على ذلك المبلغ. استمع أبي وهو يضغط على أسنانه وقبضتيه، وكان شاحباً، وأخيراً أعلن أنه سيستخدم مدخرات تقاعده من أجل علاجي. ولم تكن هنالك طريقة لإقناعه بعكس ذلك، على الرغم من تأكيد مايك أن برنامج العيادة مماثل لبرنامجه، والفارق الوحيد هو فخامة المنشآت والإطلالة على البحر.

أمضيتُ شهر كانون الأول في العيادة، هندسة عمارتها اليابانية تدعو إلى الطمأنينة والتأمل: خشب، نوافذ فسيحة، وشرفات، وكثير من الضياء، وحدائق بدروب متكتمة، ومقاعد للجلوس متدثرة لرؤية الضباب، ومسبح ماء دافئ. مشهد الماء والغابات يساوي الألف دولار اليومية. كنت أصغر المقيمين سناً، الآخرون كانوا رجالاً ونساء أعمارهم بين الثلاثين والستين عاماً، لطفاء، يحيونني في الممرات ويدعونني للعب السكرييل وطاولة التنس، كما لو أننا في إجازة. وباستثناء طريقتهم القسرية في استهلاك السجائر والتبغ، كانوا يبدون عاديين، ولا يمكن لأحد أن يظن أنهم مدمنون.

البرنامج يشبه برنامج أكاديمية أوريغون، مع أحاديث، ودورات تدريبية، وجلسات جماعية، ورطانة الأطباء النفسانيين والمستشارين نفسها التي أعرفها جيداً، إضافة إلى **الخطوات الاثنتي عشرة**، انقطاع، استرداد

العافية، القناعة. احتجت أسبوعاً للبدء في إقامة علاقات مع المقيمين الآخرين والتغلب على الإغراء الدائم بالمغادرة، لاسيما وأن الباب يبقى مفتوحاً والبقاء إرادي. «هذا المكان ليس لي»، كان هذا هو ديدني خلال ذلك الأسبوع، ولكن كبحني واقع أن أبي قد وظف مدخراته في تلك الأيام الثمانية والعشرين، وقد دفع المبلغ مقدماً، ولا يمكنني أن أخيب أمله من جديد.

❖ ❖

زميلتي في الغرفة تدعى لوريتا، وهي امرأة جذابة، في السادسة والثلاثين، أم لثلاثة أطفال، كحولية. «هذه هي فرصتي الأخيرة. لقد أخبرني زوجي أنه سيطلب الطلاق ما لم أترك الشراب، وسيأخذ الأطفال»، قالت لي. وفي أيام الزيارة كان يأتي زوجها والأبناء، يُحضرون معهم رسوماً وأزهاراً وشوكولا، يبدون أسرة سعيدة. وكانت لوريتا تريني، مرة بعد أخرى، ألبومات الصور: «عندما ولد ابني الكبير، باتريك، كنت أشرب البيرة والنبيذ فقط، إجازة في هاواي، كؤوس دايكيري ومارتيني؛ وفي عيد الميلاد عام 2002، شمبانيا وجن؛ وفي ذكرى زواجنا عام 2005، احتجت إلى غسيل معدة وبرنامج تأهيل؛ ثم رحلة في عيد الرابع من تموز، أول ويسكي بعد أحد عشر شهراً من الانقطاع؛ حفلة عيد ميلاد في 2006، بيرة وتيكيلا، وروم، وأماريتو». وهي تعرف أن أربعة أسابيع البرنامج لن تكون كافية، عليها أن تبقى شهرين أو ثلاثة أشهر قبل أن تعود إلى أسرتها.

إضافة إلى جلسات الأحاديث لرفع المعنويات، كانوا يعطوننا دروساً حول الإدمان ونتائجه، وكانت هنالك جلسات خاصة مع المستشارين. والألف دولار اليومية تمنحنا الحق باستخدام المسبح وقاعة الألعاب الرياضية، ومسيرات في حدائق قريبة، ومساجات وبعض أساليب الاسترخاء والتجميل، وكذلك دروس في اليوغا، والتأمل، والبستنة، والفن، ولكن على الرغم من كثرة الأنشطة، كان كل واحد منا يحمل مشكلته كمن يحمل

حصاناً ميتاً على كاهله، من المستحيل عليه تجاهله. وكان حصاني الميت الذي أحمله هو الرغبة القاهرة في الهرب أبعد ما يمكن، الهرب من هذا المكان، ومن كاليفورنيا، ومن العالم، ومن نفسي بالذات. الحياة تكلف الكثير من المشقة، لا وجود لما يستحق عناء الاستيقاظ في الصباح، ورؤية جرجرة الساعات بلا نهاية. الراحة. الموت. أكون أو لا أكون، مثل هملت. «لا تفكري يا مايا، حاولي أن تشغلي نفسك طيلة الوقت. مرحلة السلبية الأولى هذه طبيعية وستنقضي بسرعة»، كانت هذه هي نصيحة مايك أوكلي.

ولكي أُبقي نفسي مشغولة صبغت شعري عدة مرات، أمام ذهول لوريتا. فمن اللون الأسود الذي صبغني به فريدي في أيلول، لم تبق سوى آثار رمادية في أطراف الشعر. شغلت نفسي في صباغ خصل منه بألوان تُرى عادة في الأعلام. وقد قومت مستشارتي ذلك بأنه اعتداء على نفسي، وطريقة لمعاقبة الذات. وأنا كنت أفكر في الطريقة نفسها بشأن عقيصة شعرها كما النساء المسنات.

مرتان في الأسبوع يُعقد اجتماع للنساء مع طبيبة نفسية تشبه أوليمبيا بيتِفورد بحجمها وطيبتها. كنا نجلس على الأرض في قاعة مضاءة ببعض الشموع، وتُسهم كل واحدة منا بشيء من أجل تشكيل مذبح: إحدانا تقدم صليباً، وأخرى تمثالاً لبوذا، أو صوراً للأبناء، أو دباً من الفرو، أو علبة رماد شخص عزيز ميت، أو خاتم زفاف. في تلك العتمة الظليلة، وذلك الجو الأنثوي، كان التحدث أكثر سهولة. فكانت النساء يروين كيف يدمر الإدمان حيواتهن، كن مليئات بالشكوك، هجرهن أصدقاء، وأسرة وحبيب، يعذبهن الشعور بالذنب لأنهن صَدَمن أحداً وهن يقدن السيارة مخمورات أو تركهن ابناً مريضاً للذهاب بحثاً عن مخدرات. بعضهن يتحدثن كذلك عن الانحطاط الذي هوين إليه، المناكدة، السرقة، الدعارة، بينما أنا أستمع بروحي، لأنني مررت بالأمور نفسها. كثيرات منهن كن من ذوات السوابق

اللاتي لا يمتلكن ذرة من الثقة بأنفسهن، لأنهن يعرفن كم يمكن أن يكون الانقطاع عن المخدر أو الشراب عابراً ومتهرباً. الإيمان يساعد، يمكّنهن من وضع أنفسهن بين يدي الرب أو سلطة عليا، ولكن ليس لديهن جميعاً ذلك الملاذ. جماعة المدمنات تلك، بحزنهن، كانت الوجه النقيض لجماعة ساحرات تشيلوي الجميلات. ففي **الروكا** لم يكن هنالك من تشعر بالخجل، وكل شيء كان وفرة وحياة.

❖ ❖

في أيام السبت والأحد هنالك جلسات مع الأسرة، وهي موجعة جداً، ولكنها ضرورية. كان أبي يوجه أسئلة منطقية: ما هو الكراك وكيف يُستخدم، ما هو سعر الهيروين، ما مفعول فطور الهلوسة، ما هي نسبة نجاح الكحوليين المجهولين، وقد كانت الإجابات غير مطمئنة. وكانت عائلات أخرى تعرب عن يأسها وعدم ثقتها، فقد تحملوا المدمن لسنوات دون أن يدركوا تصميمه على تدمير نفسه وتدمير ما كان لديهم من الطيبة ذات يوم. أما في حالتي فلم يكن هنالك إلا الحنان في نظرات أبي ونيني، دون أي كلمة تأنيب أو شك واحدة. «أنت مختلفة عنهم يا مايا، لقد أطللتِ على الهوة، ولكنك لم تسقطي إلى القاع»، قالت لي نيني في إحدى المرات. وهذا بالضبط ما حذرتني منه أوليمبيا وكذلك مايك، من إغراء الاعتقاد أن أحدنا أفضل من الآخرين.

وبالتناوب، كانت كل أسرة تقف في منتصف الدائرة لتتقاسم تجاربها معنا جميعاً. وكان المستشارون يديرون حلقات الاعتراف تلك ببراعة ويتوصلون إلى خلق جو من الأمان نكون متساوين فيه، فلا أحد منا اقترف خطيئة أصليه. لا أحد يظل دون مبالاة، ينكسرون واحداً فواحداً، وفي بعض الأحيان يرتمي أحدهم على الأرض منتحباً، ولا يكون من المدمنين دوماً. آباء متعسفون، أزواج عنيفون، أمهات كريهات، زنا محارم، وراثة كحولية، هنالك من كل شيء.

عندما جاء دور عائلتي، انتقل مايك معنا إلى المركز في كرسيه ذي العجلات وطلب أن يضعوا كرسياً آخر في منتصف الحلقة، وظل الكرسي شاغراً. كنت قد رويت لجدتي نيني الكثير مما جرى منذ هربي من الأكاديمية، لكنني استبعدتُ ما يمكن أن يسبب لها جراحاً مميتة. وبالمقابل استطعت أن أخبر مايك بكل شيء على انفراد، عندما كان يأتي لزيارتي، لأنه لا شيء يستثير استنكاره.

تحدث أبي عن عمله كطيار، وعن أنه ظل بعيداً عني، وعن طيشه وكيف أنه تركني بأنانية مع جديَّ دون أن يولي اهتماماً لدوره كأب، إلى أن وقعت لي حادثة الدراجة وأنا في السادسة عشرة؛ عندئذ فقط بدأ يعيرني اهتمامه. وقال إنه ليس غاضباً ولم يفقد ثقته بي، وسيفعل كل ما يستطيعه لمساعدتي. وقدمت جدتي وصفاً للطفلة المعافاة والمرحة التي كنتُ عليها، وعن تخيلاتي، وقصائدي الملحمية ومبارياتي بكرة القدم، وكررت كم تحبني.

في تلك الأثناء دخل جدي بوبو مثلما كان قبل مرضه، ضخماً، يعبق برائحة التبغ الفاخر، بنظارته الذهبية وقبعته البورسالينو، جلس على الكرسي المخصص له وفتح لي ذراعيه. لم يظهر لي من قبل قطّ بمثل ذلك الرسوخ، وهو أمر غير معهود في شبحه. بكيتُ وبكيت على ركبتيه، طلبتُ الصفح وتقبلت الحقيقة المطلقة بأنه لا يمكن لأحد أن ينقذني من نفسي، وأنني المسؤولة الوحيدة عن حياتي. «أعطني يدك يا بوبو»، طلبتُ منه ولم أفلتها منذ ذلك الحين. ما الذي رآه الآخرون؟ رأوني احتضن كرسياً فارغاً، غير أن مايك كان ينتظر بوبو، ولهذا طلب ذلك الكرسي، وتقبلت جدتي ظهوره غير المرئي بصورة طبيعية.

لا أتذكر كيف انتهت تلك الجلسة، وإنما أتذكر فقط إنهاكي حتى الأحشاء، وأن جدتي رافقتني حتى حجرتي، وأنها ساعدتني مع لوريتا على

الاضطجاع في فراشي، وقد نمت لأول مرة أربع عشرة ساعة متواصلة. نمت عن ليالي أرقي الكثيرة، نمت عن السخط المتراكم والخوف العنيد. لقد كان نوماً مُصلِحاً لم يتكرر ثانية، لأن الأرق كان ينتظرني بصبر وراء الباب. ابتداء من تلك اللحظة أسلمت نفسي بالكامل للبرنامج وتجرأت على استكشاف كهوف ماضيّ المظلمة واحدة فواحدة. كنت أدخل في العماء إلى أحد تلك الكهوف لأصارع تنانين، وحين يبدو لي أنني قد تغلبت عليها تنفتح مغارة أخرى ثم أخرى، متاهة بلا نهاية. كان عليّ أن أواجه أسئلة روحي التي لم تكن غائبة، مثلما ظننتُ في لاس فيغاس، وإنما هي مخدرة، منكمشة، مذعورة. لم أشعر قطّ بأنني في منجى وأنا في تلك الكهوف السوداء، لكنني لم أعد أخاف الوحدة ولهذا أنا الآن سعيدة، في حياتي الجديدة، في تشيلوي. أية حماقات أكتبها في هذه الصفحات؟ فأنا في تشيلوي لستُ وحيدة. والحقيقة أنني لم أكن قطّ محاطة برفقة مثلما أنا في هذه الجزيرة، في هذا البيت الصغير، مع هذا السيد العصابي المدعو مانويل آرياس.

بينما كنتُ أكمل برنامج إعادة تأهيلي، جددت لي جدتي نيني جواز سفري، واتصلت بمانويل وهيأت لرحلتي إلى تشيلي. ولو توافرت لها الموارد لجاءت بنفسها لتضعني بين يدي صديقها في تشيلوي. قبل يومين من انتهاء العلاج وضعت أشيائي في جعبتي وما كاد الظلام يخيم حتى خرجتُ من العيادة، دون أن أودّع أحداً. كانت جدتي تنتظرني على بعد شارعين في سيارتها الفوكسفاغن المتردية، وفق اتفاقنا المسبق. «منذ هذه اللحظة ستختفين يا مايا»، قالت لي مرفقة قولها بغمزة تواطؤ ماكرة. سلّمتني صورة أخرى بلاستيكية لجدي بوبو، مثل تلك التي فقدتها، وأوصلتني إلى مطار سان فرانسيسكو.

❖ ❖

إنني أحطم أعصاب مانويل: هل تعتقد أن الرجال يُحبون إلى حدّ الضياع مثل النساء؟ هل يمكن لدانييل أن يكون قادراً على المجيء لدفن نفسه

لي تشيلوي من أجلي؟ هل أبدو لك سمينة يا مانويل؟ أأنت متأكد؟ قل لي الحقيقة! ومانويل يقول إنه لا يمكن التنفس في هذا البيت، وإن الهواء مشبع بالدموع والزفرات الأنثوية، وعواطف حارقة، ومخططات مضحكة. حتى الحيوانات تبدو غريبة الأطوار، فالقط الأديب الذي كان شديد النظافة من قبل، صار يخطر له الآن أن يتقيأ على كيبورد الكمبيوتر، والقط الغبي الذي كان مهملاً وفظاً من قبل، صار الآن ينافس فاكن على محبتي، ويطلع عليه الصباح وهو في فراشي رافعاً قوائمه الأربع إلى أعلى كي أحك له بطنه.

لقد جرت بيننا عدة أحاديث حول الحب، بل أكثر من عدة مرات حسب رأي مانويل. «ليس هنالك ما هو أعمق من الحب»، أقول له بين عبارات مبتذلة أخرى، أما هو، ذو الذاكرة الأكاديمية، فيلقي عليّ بيتاً من أشعار ت. هـ. لورنس حول وجود ما هو أعمق من الحب، وحدة كل شخص، وكيف أنه في أعماق تلك الوحدة تتأجج النار المتسلطة للحياة العارية، أو شيء من هذا القبيل مُحبِّط لي أنا التي اكتشفت النار المتسلطة لدانييل العاري. وباستثناء الاستشهاد بشعراء ميتين، كان مانويل يصمت. محادثاتنا أقرب إلى مونولوجات أفضفض بها عن نفسي بشأن دانييل، ولا آتي على ذكر بلانكا شناك، لأنها منعتني من عمل ذلك، لكن حضورها يطفو كذلك في الجو. مانويل يظن أنه عجوز جداً على حبها، وليس لديه ما يقدمه لامرأة، ولكنني أشتم أن مشكلته في أنه جبان، فهو خائف من المشاركة مع أحد، والتبعية، والمعاناة، والخوف من أن يعود السرطان إلى بلانكا وتموت قبله، أو حدوث عكس ذلك وتركه إياها أرملة أو تحوله إلى هرم الشيخوخة بينما يكون لازال لديها شيء من الشباب، وهذا أمر محتمل جداً، لأنه أكبر سناً منها بكثير. فلولا الفقاعة القاتلة في دماغه، يمكن لمانويل أن يصل إلى سن التسعين سليماً وقوياً. كيف يمكن أن يكون حب المسنين؟ أيفعلون... ذلك الشيء؟ عندما بلغت الثانية عشرة من عمري وبدأت التجسس على جديّ،

وضعا مزلاجاً لباب حجرتهما. وقد سألتُ جدتي عما يفعلانه وهما وراء الباب المقفل فقالت لي إنهما يصليان صلاة المسبحة.

في بعض الأحيان أقدم نصائح لمانويل، لا أستطيع كبح نفسي، فيحبطها بسخرية، لكنني أعرف أنه يصغي إليَّ ويفهم. لقد بدأ يغير ببطء عادات رهبانيته، فهو أقل هوساً بولعه بالنظام وأكثر اهتماماً بي، لم يعد يتجمد عندما ألمسه ولا يهرب عندما أبدأ القفز والرقص وأنا أسمع أنغام سماعتي الأذنين؛ لا بد لي من ممارسة التمارين وإلا سأنتهي مثل سابيناس روبنيس، أولئك البدينات العاريات اللاتي رأيتهن في متحف بيناكوتيكا بميونخ. فقاعته في الدماغ لم تعد سراً، لأنه لا يستطيع أن يخفي عني نوبات صداعه ولا حالات ازدواجية الرؤية، إذ تختلط عليه الحروف في الصفحات وعلى الشاشة. عندما علم دانييل بمسألة الانتفاخ في الجدار الشرياني أقترح علي مستشفى مايو في منيابولس، الأفضل في جراحة الأعصاب في الولايات المتحدة، وأكدت لي بلانكا أن أباها سيمول العملية، ولكن مانويل لم يشأ مجرد الحديث في الموضوع؛ لأنه مدين بالكثير لدون ليونيل. «لا فرق يا رجل، فبين أن تكون مديناً بمعروف أو مديناً بمعروفين لا يوجد فرق»، فندت بلانكا حجته. إنني نادمة لإحراقي تلك الكومة من الأوراق النقدية في صحراء موجاف؛ فقد كانت ستنفع، سواء أكانت مزيفة أم لم تكن.

❖ ❖

عدت إلى الكتابة في دفتري الذي هجرته لبعض الوقت لانهماكي بإرسال رسائل إلكترونية إلى دانييل. أفكر في إعطائه الدفتر حين نلتقي من جديد، وهكذا سيستطيع معرفتي بصورة أفضل ومعرفة أسرتي. لا يمكنني أن أخبره بما ما أرغب فيه بوساطة الإيميل، حيث المجال متاح للأخبار اليومية فقط وكلمة حب أو اثنتين. مانويل ينصحني بمراقبة اندفاعاتي العاطفية، لأن الجميع يندمون في ما بعد على رسائل الحب التي كتبوها، فلا وجود لما هو

أكثر منها تكلفاً وإضحاكاً، كما أنها في حالتي لا تجد صدى لدى المرسل إليه. فردود دانييل مقتضبة وقليلة. لابد أنه مشغول جداً بعمله في العيادة، أو ربما أنه يتقيد بصرامة بإجراءات الأمن التي فرضتها جدتي عليّ.

إنني أشغل نفسي على الدوام كيلا أحترق في اشتعال مفاجئ وأنا أفكر في مانويل. لقد وقعت حوادث من هذا النوع، أناس دون سبب ظاهر يشتعلون ويختفون في اللهب. جسدي ثمرة دراق ناضجة، جاهز لأن يجري تذوقه وإلا سيسقط عن الشجرة ويتحول فتاتاً للنمل على الأرض. الإمكانية الأكبر أن يحدث لي الاحتمال الثاني، لأن دانييل لا يبدي ما يشير إلى أنه سيأتي لتذوقي. حياة الراهبة هذه تجعلني في أسوأ مزاج، أنفجر لأقل مشكله، ولكنني أوافق على أنني أنام جيداً للمرة الأولى مذ بدأت أعي، وأحلامي مشوقة، وإن لم تكن جميعها إيروتيكية مثلما أرغب. منذ موت مايكل جاكسون المفاجئ حلمتُ عدة مرات بفريدي. فقد كان جاكسون معبوده ولابد أن صديقي المسكين في حداد. ماذا حلّ به يا ترى؟ لقد جازف فريدي بحياته لإنقاذي ولم تُتح لي الفرصة لشكره.

فريدي يشبه دانييل بطريقة ما، له لون البشرة نفسه، والعينان الواسعتان والأهداب الكثيفة، والشعر الأجعد. إذا ما أنجب دانييل ابناً، يمكن له أن يكون مثل فريدي، ولكن إذا كنتُ أنا أم ذلك الابن، فسوف نجازف بأن يخرج دنمركياً. جينات مارتا أوتير قوية جداً، فأنا لم آخذ قطرة دم لاتينية واحدة. في الولايات المتحدة يعتبر المرء زنجياً حتى لو كان فاتح اللون ويمكن له أن يبدو يونانياً أو عربياً. «الرجال الزنوج الشباب في أميركا جنس مُهدَّد، كثيرون منهم ينتهي بهم الأمر إلى السجن أو الموت قتلاً قبل بلوغهم الثلاثين»، هذا ما قاله لي دانييل عندما تحدثنا في الموضوع. لقد ترعرع بين أناس بيض، في مدينة ليبرالية من مدن الغرب الأمريكي، ويتحرك ضمن دائرة تتمتع بامتيازات، حيث لم يشكل لون بشرته عائقاً في أي أمر، ولكن

وضعه سيكون مختلفاً في أمكنة أخرى. فالحياة أكثر سهولة للبيض، وهذا ما كان جدي يعرفه أيضاً.

كان جدي بوبو ينضح براحة قوة، بقامته ذات المتر وتسعين سنتمتراً ووزنه ذي المئة وأربعين كيلوغراماً، وشعره الرمادي، ونظارته ذات الإطار الذهبي، وقبعاته الدائمة التي يحضرها له أبي من إيطاليا. إلى جانبه كنتُ أشعر أنني بمنجى من أي خطر، فليس هنالك من يتجرأ على لمس ذلك الرجل المهيب. هذا ما كنت أظنه إلى يوم حادثة الدراج، حين كنت في حوالي السابعة من عمري.

دعت جامعة بوفالو جدي لإلقاء بعض المحاضرات. وكنا نقيم في فندق في جادة دِلوير، واحد من تلك المنازل التي كانت لمليونيرات القرن الماضي وهي اليوم مبانٍ عامة أو تجارية. كان الجو بارداً وتهب رياح جليدية، ولكنه وضع في رأسه أن نذهب لنتمشى في حديقة قريبة. كنت أنا وجدتي نيني نمشي بضع خطوات أمامه ونقفز عن برك الماء، ولم نرَ ما حدث، سمعنا فقط الصرخة والمشادة التي تعالت على الفور. وراءنا كان يأتي شاب على دراجة، وقد انزلق كما يبدو في بركة متجمدة، فاصطدم بجدي وتدحرج على الأرض. ترنح جدي من الصدمة، وطارت قبعته وسقطت منه المظلة المغلقة التي يحملها معلقة بذراعه، ولكنه ظل منتصباً. ركضتُ وراء القبعة بينما انحنى هو لالتقاط المظلة، ثم مدّ يده لمساعدة الدراج على النهوض.

وخلال لحظة تحول المشهد إلى العنف. فالدراج المذعور بدأ يصرخ، توقفت سيارة، ثم أخرى وخلال دقائق وصلت سيارة دورية شرطة. لست أدري كيف استنتج الناس أن جدي هو الذي تسبب في الحادث وهدّد الدراج بمظلته. ودون مزيد من الأسئلة دفعه رجال الشرطة بعنف وألصقوه بسيارة الدورية، أمروه أن يرفع يديه عالياً، باعدوا ما بين ساقيه بالركل، فتشوه وقيدوا معصميه وراء ظهره. تدخلت جدتي كلبوءة، وواجهت ذوي الزي

الشرطي بوابل من التفسيرات بالإسبانية، وهي اللغة الوحيدة التي تتذكرها في لحظات الأزمات، وعندما أرادوا إبعادها أمسكت أضخمهم من ملابسه بقوة تمكنت معها من رفعه بضعة سنتمترات عن الأرض، وهو أمر مثير للإعجاب من شخص مثلها يزن أقل من خمسين كيلوغراماً.

انتهى بنا الأمر في مفوضية الشرطة، ولكن ذلك المكان لم يكن بيركلي، ولم يكن هناك رقيب مثل ولزاك يؤمن لها التغطية. حاول جدي الذي كان ينزف من أنفه ومن جرح في حاجبه أن يوضح ما جرى بنبرة ذليلة لم نسمعها منه قطّ، وطلب هاتفاً كي يتصل بالجامعة. فكان الردّ الوحيد عليه هو التهديد باحتجازه إذا لم يصمت. وجدتي التي وضعوا قيداً في يديها خشية أن تعود لمهاجمة أحدهم، أمروها بأن تجلس على مقعد خشبي بينما هم يملؤون استمارة. لم يلتفت أحد إليّ، وكنت أرتجف إلى جانب جدتي. «عليكِ أن تفعلي شيئاً يا مايا»، همستْ جدتي في أذني. ومن نظرتها فهمتُ ما تطلبه مني. أخذت نفساً كي أملأ رئتي، وأطلقت أنيناً حلقياً دوى في القاعة وسقطتُ على الأرض متقوسة إلى الوراء، مصابة بنوبة تشنجات ومطلقة زبداً من فمي بعينين يغشاهما البياض. كنت قد تصنعت الصرع مرات كثيرة خلال نوبات عصبيتي حين كنت ذبابة مدللة كيلا أذهب إلى المدرسة، بحيث يمكن لي خداع طبيب أعصاب، فما بالك ببعض شرطة بوفالو. سمحوا لنا باستخدام الهاتف. وأخذوني مع نيني في سيارة إسعاف إلى المستشفى، فوصلتُ إليه معافاة تماماً من النوبة أمام مفاجأة المرأة الشرطية التي تحرسنا، وفي أثناء ذلك أرسلت الجامعة محامياً لإخراج أستاذ الفلك من الحجز الذي تقاسمه مع مخمورين ونشالين.

اجتمعنا في الليل في الفندق مستنفدين. اقتصر عشاؤنا على طبق حساء ونمنا ثلاثتنا معاً في السرير نفسه. كانت صدمة الدراجة قد خلّفت في بوبو كدمات كبيرة، وجرح القيدُ المعدني معصميه. وفي الظلمة، بينما أنا محتمية

بين جسديهما مثل شرنقة، سألتهما عما حدث. «ليس بالشيء الخطير يا مايا، نامي»، أجابني بوبو. ظلا صامتين لبعض الوقت، متظاهرين بالنوم، إلى أن تكلمت نيني أخيراً: «ما حدث يا مايا هو أن جدك زنجي». كان هنالك الكثير من الغضب في صوتها، فلم أوجه أي سؤال آخر.

كان ذلك هو درسي الأول حول اختلاف الأعراق الذي لم أكن قد انتبهت إليه من قبل، والذي لا يمكن إهماله جانباً على حدّ قول دانييل غودريتش.

❖ ❖

مانويل وأنا نقوم بكتابة كتابه. أقول «نقوم» لأنه يضع الأفكار وأتولى أنا صياغتها كتابة، فحتى بالإسبانية أكتب أفضل منه. برزت الفكرة عندما روى هو نفسه لدانييل أساطير من تشيلوي فبدأ هذا الأخير، كنفساني جيد، بالبحث عن قائمة خامسة للقطّ. قال إن الآلهة يمثلون عدة مظاهر من علم النفس والأساطير هي قصص الخلق، أو الطبيعة أو قصص المآسي الإنسانية الأساسية، وأنها مرتبطة بالواقع، ولكن الأساطير هنا تعطي الانطباع بأنها ملصقة بعلكة اللبان، إنها تخلو من التماسك. استغرق مانويل في التفكير، وأعلن لي بعد يومين أنه قد كتب ما يكفي حول أساطير تشيلوي وأن كتابه الجديد لن يضيف شيئاً ما لم يتمكن من تقديم تفسير للميثولوجيا. وقال إنه تحدث إلى ناشريه فمنحوه مهلة أربعة شهور ليقدم مخطوطته الجديدة؛ علينا أن نسرع. ساهم دانييل في العمل عن بعد، لأن الموضوع يهمه، وهكذا توافرت لي ذريعة أخرى للتواصل المستمر مع مستشارنا في سياتيل.

المناخ الشتوي يحدّ من النشاطات في الجزيرة، ولكن هنالك عملاً على الدوام: لابد من الاهتمام بالأطفال والحيوانات، وجمع الأصداف البحرية عند تراجع المد البحري، وإصلاح شباك الصيد، والإصلاح المؤقت للبيوت التي تضربها العواصف، والحياكة وعدّ الغيوم حتى الساعة الثامنة، وهو

الوقت الذي تلتقي فيه النساء لمشاهدة التلفزيون والرجال للشرب ولعب «التروكو». لقد تواصل هطول المطر طيلة الأسبوع، بكاء سماء الجنوب العنيد، الماء يتسرب من الفجوات بين قرميد السقف الذي أزاحته عاصفة يوم الثلاثاء. نضع علباً تحت أمكنة التنقيط ونتنقل والممسحة في اليد لتنشيف الأرض. عندما يتوقف المطر سأصعد إلى السطح، لأن مانويل لم يعد في سن تسمح له بتلك المهمات البهلوانية، كما أننا فقدنا الأمل بالعودة لرؤية «معلم الطقطقة» قبل حلول الربيع. قرقعة المطر تسبب القلق عادة لخفافيش بيتنا الثلاثة المعلقة، ورؤوسها إلى أسفل، بعارضة السقف العالية، بعيداً عن ضربات مخالب القطّ الغبي. إنني أكره تلك الفئران المجنحة وعمياء العيون، لأنه يمكن لها أن تمتص دمي في الليل، على الرغم من أن مانويل يؤكد أن تلك الخفافيش لا تربطها صله بمصاصي الدماء في ترانسلفانيا.

إننا نعتمد أكثر من أي وقت آخر على الحطب وعلى المدفأة الحديدية السوداء، حيث الإبريق جاهز على الدوام من أجل المتة أو الشاي. هنالك أثر دخان خفيف، عبق لاذع في الثياب والبشرة. المعايشة مع مانويل أشبه برقصة حساسة، أنا أنظف، وهو يأتي بالحطب، ونتعاون معاً في طهو الطعام. وبين فترة وأخرى نقوم بحملة تنظيف كذلك، لأن إدوفيخيس لم تعد تأتي إلى بيتنا، مع أنها ترسل خوانيتو ليأخذ الثياب المتسخة ويعيدها مغسولة، ولكنها عادت إلى العمل. فبعد إجهاض أثوثينا كانت إدوفيخيس تمضي صامتة، ولا تظهر في القرية إلا لأمر ضروري، ولا تتكلم إلى الناس. كانت تعرف بأمر النمائم التي يجري تداولها عن أسرتها من وراء ظهرها. الكثيرون يحمّلونها مسؤولية السماح لكارميلو كورّاليس باغتصاب بناتها، ولكن لا يُعدم من يحمّل البنات المسؤولية. «لأنهن يغررن بالأب الذي يكون مخموراً ولا يعرف ما يفعله»، مثلما سمعتُ أحدهم يقول في **حانة الميت**. وقد أوضحت لي بلانكا أن إذعان إدوفيخيس لتعسف الرجل أمر عام في هذه الحالات ومن

الظلم اتهامها بالتواطؤ، لأنها هي ضحية أيضاً، مثل بقية الأسرة. تخاف زوجها ولا تتمكن من مواجهته. وأنهت بلانكا كلامها بالقول: «من السهل محاكمة الآخرين حين لا يعاني أحدنا تلك المحنة». وقد دفعتني إلى الاستغراق في التفكير، لأنني كنت من أول من اتهموا إدوفيخيس. فذهبتُ نادمة لزيارتها في بيتها. وجدتها منحنية على طستها وغسل ملاءاتنا بمكنسة من أغصان وصابون أزرق. مسحت يديها بمريولها ودعتني لتناول «شاي صغير»، دون أن تنظر إليّ. جلسنا قبالة المدفأة بانتظار غليان الماء، ثم شربنا الشاي بصمت. كانت نية المصالحة واضحة في زيارتي، وسيكون من غير المريح لها أن أطلب منها المعذرة، وقلة أدب أن آتي على ذكر كارميلو كورّاليس. كلتانا كانت تعرف سبب وجودي هناك.

ـ كيف حالك يا دونيا إدوفيخيس؟ـ سألتها أخيراً، بعد أن انتهينا من تناول كأس الشاي الثانية.

ـ عائشة وحسب. وأنت يا ابنتي؟

ـ عائشة أيضاً، شكراً. وبقرتك، هل هي في حالة جيدة؟

ـ أجل، أجل، ولكنها تقدمت كثيراً في العمر ـ تنهدت ـ تعطي القليل من الحليب. أرى أنها تضعف كثيراً.

ـ أنا ومانويل صرنا نستخدم حليباً مكثفاً.

ـ يا يسوع! قولي للسيد أن خوانيتو سيوصل إليه منذ الغد حليباً وجبناً.

ـ شكراً جزيلاً يا دونيا إدوفيخيس.

ـ ولا بد أن بيتكم لم يعد نظيفاً جداً...

ـ لا، لا، إنه متسخ كثيراً، لماذا أقول لك غير هذا ـ أجبتها.

ـ يا يسوع، اعذريني.

ـ لا، لا، ليس هنالك ما يستدعي الاعتذار.

ـ أخبري السيد أن يعتمد عليّ.

ـ كالعادة إذاً يا دونيا إدوفيخيس.

ـ أجل، أجل يا غرينغيتا، كالعادة.

تحدثنا بعد ذلك عن الأمراض والبطاطا، مثلما يتطلب البرتوكول.

❖ ❖

هذه هي الأخبار الحديثة. الشتاء في تشيلوي بارد وطويل، ولكنه محتمل أكثر بكثير من شتاءات شمال العالم. فهنا لا حاجة إلى أكواخ الجليد ولا لف الأجساد بالفراء. لدينا دروس في المدرسة حين تسمح حالة الجو بذلك، ولكن هنالك «تروكو» في الحانة كل يوم، حتى لو كانت السماء تتفتت بالبروق. ولا تُفتقد البطاطا في الحساء أبداً، ولا الحطب في المدفأة، ولا المتة للأصدقاء. في بعض الأحيان يكون لدينا كهرباء، وفي أحيان أخرى نستضيء بالشموع.

حين لا يهطل المطر، يقوم فريق *الكايونشي* بالتدرب بشراسة من أجل مباريات البطولة في شهر أيلول، لم تكبر قدما أي من الأطفال، ومازالوا يستخدمون أحذية كرة القدم. خوانيتو عضو احتياط في الفريق، وبيدرو بيلانتشوغاي اختير بالتصويت حارس مرمى الفريق. كل شيء في هذه البلاد يُحل بالتصويت الديمقراطي أو بتشكيل لجان، وهي ممارسات معقدة بعض الشيء؛ فالتشيليون يرون أن الحلول البسيطة غير شرعية.

أكملت دونيا لوثيندا مئة وعشر سنوات وقد اكتسبت في الأسابيع الأخيرة مظهر دمية من خرق يغطيها الغبار، ولم تعد لديها قدرة على صباغة الصوف، وهي تقضي الوقت جالسة تنظر إلى جهة الموت، ولكن أسناناً بدأت تظهر لها من جديد. ليس لدينا ولائم كورانتو ولا سائحون حتى الربيع، وفي أثناء ذلك تحوك النساء، ويصنعن مشغولات يدوية، لأن بقاء اليدين دون شغل يعتبر خطيئة، فالكسل من شؤون الرجال. إنني أتعلم الحياكة كيلا أعتبر كسولة. وأقوم حالياً بحياكة لفاع للتعلّم، بغرزات غير منتظمة وخيوط صوف ثخينة.

نصف سكان الجزيرة مصابون بالزكام، مع التهاب في الرئات وآلام في العظام، ولكن حين يتأخر زورق الخدمات الصحية الوطنية أسبوعاً أو أسبوعين، فإن الشخص الوحيد الذي يتشوق لمجيئه هي ليليانا تريفينو التي لديها غراميات مع الدكتور الأمرد، حسب ما يقولون. الناس هنا لا يثقون بالأطباء الذين لا يتقاضون أجراً، ويفضلون العلاج بوسائل من الطبيعة، وإذا كانت الحالة حرجة، يلوذون بالأساليب السحرية التي تقدمها إحدى ساحرات *الماتشي*. أما الكاهن بالمقابل، فيأتي دائماً لتقديم قداس يوم الأحد، كي يحول دون أن يسبقه الأنجليكانيون وجماعةُ العَنصَرة إلى رعيته. بينما يرى مانويل أنه لا يمكن حدوث ذلك بسهولة، لأن الكنيسة الكاثوليكية في تشيلي أقوى مما هي عليه في الفاتيكان. أخبرني أن هذه البلاد هي الأخيرة في العالم التي أقرت قانوناً للطلاق وهو قانون شديد التعقيد، بحيث يكون قتل الشريك أسهل من الطلاق، ولهذا لا أحد يريد الزواج ومعظم الأطفال يولدون خارج الزواج. أما عن الإجهاض فلا مجال للكلام، إنها كلمة بذيئة، مع أنه يمارس بصورة واسعة. التشيليون يوقرون البابا، ولكنهم لا يولونه اهتماماً في الأمور الجنسية ونتائجها، لأن عجوزاً أعزب مثله، يعيش وضعاً اقتصادياً مريحاً، دون أن يمارس عملاً في حياته، لا يمكن أن يفهم إلا قليلاً في هذه الأمور.

المسلسل التلفزيوني يتقدم ببطء شديد، فقد وصل إلى الحلقة التسعين ومازلنا في الحال نفسها التي كانت عليها الأمور في البداية. إنه الحدث الأهم في الجزيرة، والناس هنا يتألمون لتعاسة الشخصيات أكثر من ألمهم لتعاستهم الشخصية. مانويل لا يشاهد التلفزيون، وأنا لا أفهم كثيراً ما يقوله الممثلون وأكاد لا أفهم شيئاً من القصة، يبدو أن فتاة تدعى إيليسا قد اختطفها عمها، وقع في حبها وحبسها في مكان ما، بينما زوجة عمها تبحث عنها لقتلها، بدل أن تقتل زوجها، كما تستدعي العقلانية.

صديقتي البينكويا وعائلتها من ذئاب البحر لم يعودوا في المغارة. لقد هاجروا إلى بحار أخرى وصخور أخرى، لكنهم سيعودون في الموسم القادم؛ وقد أكد لي الصيادون أن ذئاب البحر مخلوقات لها عادة الهجرة، وهي تعود دوماً في الصيف.

توصل ليفنغستون، كلب الشرطيين، إلى حجمه النهائي وتبين أنه خطير: إنه يفهم الأوامر بالإنكليزية والإسبانية وباللهجة التشيلوية على السواء. علمته أربع حيل أساسية يعرفها أي حيوان مدجن، وما تبقى تعلمه بنفسه، وهكذا كان يحث تحرك الأغنام والسكارى، ويجمع الطرائد حين يؤخذ إلى الصيد، ويطلق نباح الإنذار عند حدوث حريق أو فيضان، ويكتشف المخدرات ـ باستثناء الماريجوانا ـ ويهاجم بمزاح الشرطي هوميلدي غاراي إذا أعطاه الأمر بذلك في الاستعراضات، ولكنه في الحياة الواقعية وديع جداً. وهو لم يعثر على أية جثة، لأنه لم يقع عندنا للأسف أي حادث مميت، كما قال لي غاراي، ولكنه عثر على حفيد أويليو نياكوبيل ذي الأربع سنوات الذي ضاع في الجبل. يمكن لزوجة أبي السابقة أن تدفع ذهباً مقابل كلب مثل ليفنغستون.

تغيبتُ مرتين عن اجتماع ساحرات **الروكا** الطيبات، المرة الأولى عندما كان دانييل هنا، والمرة الثانية في هذا الشهر، لأننا أنا وبلانكا لم نتمكن من الذهاب إلى الجزيرة الكبرى، فقد كان هنالك تهديد بحدوث عاصفة وحظر عمدة البحر الإبحار. وقد حزنتُ كثيراً لأننا كنا سنبارك وليد إحداهن وكنت أتلهف لشمه، فأنا أحب الأطفال حين لا يكونون قادرين على الردّ. لم يؤثر كثيراً تغيبنا عن ذلك الاجتماع السري الشهري في بطن أمنا الأرض، **باتشاماما**، مع أولئك النساء الشابات، الحسيات، سليمات الذهن والقلب. أشعر بينهن بأنني مقبولة، لست الغرينغية، وإنما مايا، واحدة من الساحرات، وأنتمي إلى هذه الأرض. عندما نذهب إلى كاسترو نبقى للنوم

ليلة أو ليلتين عند دون ليونيل شناك الذي كنت سأقع في حبه لو لم يمر دانييل غودريتش في بطاقتي الفلكية. إنه رجل لا يُقاوم، مثل الميّالوبو الأسطوري، فهو ضخم، متورد، كث الشارب، وشبق. «انظر كم أنت محظوظ أيها الشيوعي، لقد سقطت عليك في بيتك هذه الغرينغية الفاتنة!»، كان يهتف في كل مرة يرى فيها مانويل.

❖ ❖

التحريات في قضية أثوثينا كورّاليس لم تتوصل إلى شيء بسبب انعدام الأدلة، لم يكن هنالك من أثر يدل على أن الإجهاض قد نتج بتحريض متعمد، وهذه هي فضيلة النقيع المركز لأوراق الأفوكاتو ولسان الثور. لم نعد نرى الطفلة، لأنها ذهبت لتعيش في كيّون مع أختها الكبرى، أم خوانيتو، التي لم أتعرف إليها بعد. وكان الشرطيان كاركامو وغاراي قد قاما بتحريات لحسابهما عن أبي الجنين الميت، وتوصلا إلى ما هو معروف للجميع، أن من اغتصب أثوثينا هو أبوها نفسه، مثلما فعل من قبل مع بناته الأخريات. هذا «شأن خاص»، كما يقال هنا، ولا أحد يشعر بأن له حق التدخل في ما يحدث وراء باب أي بيت، فالغسيل القذر يُغسل في البيت.

حاول الشرطيان دفع الأسرة للتقدم بشكوى، وهكذا يمكنهما التدخل بصورة مشروعة، ولكنهما لم يتوصلا إلى ذلك. كما لم تستطع بلانكا شناك إقناع أثوثينا أو إدوفيخيس بالتقدم بالشكوى. كانت تتطاير أقاويل واتهامات، والقرية بأسرها تتحدث في الأمر إلى أن ذابت الفضيحة في الكلام؛ ومع ذلك تحققت العدالة بالطريقة الأقل توقعاً عندما أصيبت قدم كارميلو كورّاليس الوحيدة المتبقية بالغرغرينا. استغل الرجل ذهاب إدوفيخيس إلى كاسترو لملء الاستمارات الخاصة بعملية البتر الثانية وحقن نفسه بعلبة كاملة من الأنسولين. وجدته زوجته غائباً عن الوعي وظل كذلك إلى أن مات بعد لحظات. لا أحد، بمن في ذلك الشرطيان، أتى على ذكر

الانتحار؛ فقد مات المريض، بتوافق عام، ميتة طبيعية، وهكذا استطاعوا أن يدفنوه دفناً مسيحياً، وجنبوا أسرته التعيسة المذلة والهوان.

دفنوا كارميلو كورّاليس دون أن ينتظروا مجيء الكاهن الجوال، وفعلوا ذلك في طقس مقتضب تولاه النائب الكنسي الذي امتدح مهارة المتوفى كنجار مراكب، وهي الفضيلة الوحيدة التي استطاع إخراجها من كمه، وأوكل روحه إلى القدرة الإلهية. حضر الجنازة حفنة من الجيران إشفاقاً منهم على الأسرة، وكان بينهم مانويل وأنا نفسي. أما بلانكا فكانت غاضبة جداً بسبب ما حدث لأثوثينا، ولم تظهر في المقبرة، ولكنها اشترت في كاسترو أكليل زهور بلاستيكية لوضعه على القبر. لم يحضر أي من أبناء كارميلو الدفن، وخوانيتو وحده كان حاضراً، يرتدي بدلة مناولته الأولى التي صارت صغيرة على مقاسه، وكان يمسك بيد جدته التي ارتدت السواد من رأسها حتى قدميها.



انتهينا للتو من الاحتفال بعيد الناصري في جزيرة كاغواتش. توافد آلاف الحجاج، بمن فيهم أرجنتينيون وبرازيليون. وقد جاء معظمهم في مراكب كبيرة تتسع لمئتي أو ثلاثمئة شخص وقوفاً، ومحشورين جيداً، ولكن هناك من يأتون في زوارق يصنعها حرفيون. وكانت المراكب تبحر بصورة غير مستقرة في بحر هائج، وتحت غيوم كثيفة في السماء، ولكن لم يكن أحد يشعر بالقلق، لأن هناك اعتقاداً بأن الناصري يحمي الحجاج. وهذا غير دقيق، فأكثر من زورق قد غرق في الماضي ومات بعض المسيحيين غرقاً. في تشيلوي يغرق أناس كثيرون لأنه ليس فيها من يعرف السباحة، باستثناء جنود الأسطول الذين يتعلمون السباحة مكرهين.

تمثال يسوع المقدس، صاحب المعجزات، يتكون من هيكل من الأسلاك ورأس ويدين من خشب، وله باروكة مصنوعة من شعر بشري،

وعينان من زجاج، ووجهٌ معذب تغطيه الدموع والماء. وإحدى مهمات خادم الكنيسة تتمثل في إعادة إبراز الدم باستخدام طلاء أظفار قبل بدء الموكب الديني. رأس التمثال متوج بإكليل شوك، ويرتدي عباءة بنفسجية، ويحمل صليباً ثقيلاً. لقد كتب مانويل عن عيد الناصري الذي يُحتفل به منذ ثلاثمئة عام، وهو رمز لإيمان أهالي تشيلوي، ولم يكن الاحتفال الديني أمراً جديداً عليه، ولكنه ذهب معي إلى كاغواتش. أما بالنسبة إليّ، أنا التي ترعرعت في بيركلي، فلم أرَ في المشهد أكثر من طقس وثني.

مساحة كاغواتش عشرة كيلومترات ويسكنها خمسمئة نسمة، لكن أعداد المتدينين خلال المواكب الدينية في كانون الثاني وآب تصل إلى الآلاف، مما يتطلب مساعدة الأسطول والشرطة للحفاظ على النظام خلال الإبحار وأيام الاحتفالات الأربعة، حيث يتوافد المتدينون جماعات لتقديم طلباتهم ونذورهم. فيسوع المقدس لا يغفر لمن لا يدفع ديونه عن الأفضال التي تلقاها. وخلال القداديس تمتلئ سلال جمع النقود والمجوهرات حتى الحافة، فالحجاج يدفعون كيفما استطاعوا، حتى إن بعضهم يتخلى عن هاتفه المحمول. لقد شعرت بالخوف، أولاً في المركب *كاهوييا*، ونحن نتأرجح لساعات وسط الأمواج، تدفعنا رياح غادرة، ومعنا الأب ليون ينشد تراتيل في المقدمة، وخفت بعد ذلك في الجزيرة، بين المتعصبين، وأخيراً لدى العودة، عندما انقض علينا الحجاج للصعود إلى المركب، لأن وسائل النقل لم تكن كافية للحشود. أحضرنا معنا أحد عشر شخصاً وقوفاً في *كاهوييا*، يتشبثون بعضهم ببعض، بعضهم سكارى وخمسة أطفال نائمين بين أذرع أمهاتهم.

لقد ذهبتُ إلى كاغواتش بلا شكوك، لمجرد حضور الاحتفال وتصويره فيلمياً مثلما وعدت دانييل، ولكنني أوافق على أن عدوى الحماسة الدينية قد انتقلت إليّ وانتهيتُ إلى الركوع أمام الناصري وتقديم الشكر له بسبب خبرين رائعين أرسلتهما إليّ نيني. فنزواتها في الملاحقة تقودها إلى توليف

رسائل مشفرة، ولكن بما أنها تكتب رسائل طويلة وبكثرة، فقد تمكنتُ من تكهن ما تعنيه. الخبر الأول هو استعادتها أخيراً المنزل المتهالك الذي أمضيتُ فيه طفولتي، بعد ثلاث سنوات من المعارك القضائية لطرد التاجر الهندي الذي لم يدفع الإيجار قطّ ويحتمي بقوانين بيركلي التي تعطي الأفضلية للمستأجرين. وقد قررت جدتي تنظيف البيت، وإصلاح الأضرار الأكثر وضوحاً وتأجير غرف منه لطلاب من الجامعة، وهكذا يمكنها الإنفاق عليه والعيش فيه. يا لرغبتي في التجوال في تلك الحجرات الرائعة! والخبر الثاني، وهو أكثر أهمية بكثير، يتعلق بفريدي. فقد ظهرت أولمبيا بيترفورد ترافقها سيدة أخرى بمثل ضخامتها، وأحضرتا فريدي جرجرة لوضعه تحت رعاية مايك أوكلي.

❖ ❖

وفي كاغواتش، أقمت أنا ومانويل في خيمة، لأنه لا وجود لما يكفي من أمكنة الإيواء. يجب أن يكونوا أكثر استعداداً لاستقبال ذلك الغزو من المؤمنين الذي يتكرر سنوياً منذ أكثر من قرن. كان النهار رطباً وبارداً، ولكن الليل أسوأ بكثير. كنا نرتجف في أكياس النوم، ونحن بملابس سميكة وقفازات، بينما المطر يهطل على مشمع الخيمة ويتسرب تحت أرضيتها البلاستيكية. وأخيراً قررنا ضم كيسي النوم أحدهما إلى الآخر. والتصقتُ بظهر مانويل كجعبة، ولم يأتِ أي منا على ذكر الاتفاق الذي توصلنا إليه في شهر شباط بألا أدخل أبداً إلى فراشه. وقد نمنا كمباركين إلى أن بدأ صخب الحجاج في الخارج.

لم نعانِ جوعاً، إذ كان هناك الكثير من أكشاك المأكولات: فطائر وسجق وبحريات، وبطاطا مشوية في الرماد، وخراف كاملة مشوية على السفود، فضلاً عن حلويات تشيلية ونبيذ كثير يخبأ في عبوات مياه غازية، لأن الرهبان لا ينظرون بعين الرضا إلى الكحول في الأعياد الدينية. أما

الحمامات، وهي صف من المراحيض النقالة، فكانت قليلة وتصبح مقززة بعد ساعات قليلة من الاستخدام. وكان الأطفال والرجال يريحون أنفسهم بالتواري وراء الأشجار، ولكن مسألة النساء أكثر تعقيداً.

في اليوم التالي اضطر مانويل إلى استخدام المرحاض، وبطريقة لا تفسير لها انغلق الباب بطريقة لا يمكن فتحها وظل محبوساً في الداخل. كنتُ في تلك اللحظات أتجول بين أكشاك المشغولات اليدوية المصطفة عند حائط الكنيسة الجانبي، وقد علمت بالمشكلة من خلال الصخب الذي وقع. اقتربتُ بدافع الفضول دون أن تكون لدي فكرة عما يحدث، ورأيت جماعة من الناس يهزون الكوخ البلاستيكي الصغير بطريقة تهدد بقلبه، بينما مانويل في الداخل يصرخ ويضرب الجدران كمجنون. بعض الأشخاص كانوا يضحكون، ولكنني أدركت أن غمّ مانويل هو غم شخص مدفون حياً. كان الاضطراب يتزايد إلى أن حضر «معلم الطقطقة» فابعد المتطوعين وبادر بهدوء إلى تفكيك القفل بوساطة سكين صغير. وبعد خمس دقائق فتح الباب وخرج مانويل مندفعاً كنيزك، وسقط على الأرض متشنجاً ومختلجاً من الغثيان. فتوقف الجميع عن الضحك.

في تلك الأثناء تقدم الأب ليون وتعاونتُ معه لمساعدة مانويل على النهوض. أسندناه من ذارعيه وتقدمنا بضع خطوات مترنحة باتجاه الخيمة. اجتذب الصخب شرطيان ليسألا إن كان السيد مريضاً، ومن المؤكد أنهما ارتابا في أنه قد شرب خمراً أكثر مما يتحمل، لأن سكارى كثيرين كانوا يترنحون آنذاك. لا أدري ما الذي ظنه مانويل، ولكنه بدا كما لو أن الشيطان قد ظهر له، فأبعدنا عنه بملامح رعب، وتعثر وسقط على ركبتيه وتقيأ زبداً ضارباً إلى الخضرة. حاول الشرطيان التدخل، غير أن الأب ليون اعترض سبيلهما بالسلطة التي توفرها له سمعته كقديس، وأكد لهما أنها مسألة عسر هضم وأنه بإمكاننا تولي مسؤولية المريض.

اقتدتُ أنا والكاهن مانويل إلى الخيمة، نظفناه بخرقة مبللة وتركناه يستريح. نام ثلاث ساعات متواصلة، منكمشاً على نفسه كمضروب بعصي. «اتركيه وحده يا غرينغيتا، لا توجهي إليه أسئلة»، أمرني الأب ليون قبل أن ينصرف لإنجاز واجباته، ولكنني لم أشأ تركه وحيداً، وظللتُ في الخيمة لحراسة نومه.

في الفسحة التي أمام الكنيسة وضعتْ عدة موائد، وهناك استقر أساقفة ليوزعوا خبز القربان خلال القداس. بعد ذلك بدأ الموكب وتمثال الناصري يحمله المؤمنون على محفة وهم يغنون صارخين بأعلى أصواتهم، بينما عشرات التائبين يجثون على ركبهم في الطين أو يحرقون أيديهم بما يذوب من شموع يحملونها متضرعين من أجل مغفرة خطاياهم.

لم أتمكن من إنجاز وعدي بتصوير الحدث لدانييل، لأن الكاميرا سقطت مني في البحر خلال الرحلة المضطربة إلى كاغواتش، وهي خسارة ضئيلة إذا أخذنا في الاعتبار أن سيدة سقط منها كلبها في الماء. وقد أخرجوه من البحر شبه متجمد، لكنه كان يتنفس. معجزة أخرى من معجزات الناصري، كما قال مانويل. وقد ردّ عليه الأب ليون: «لا تأتني الآن بمزاح إلحادي يا مانويل، فقد يؤدي ذلك إلى غرقنا».



بعد أسبوع من الحج إلى كاغواتش ذهبت أنا وليليان تريفينو لزيارة الأب ليون في رحلة غريبة وشبه سرية، لتجنب أن يعلم بالأمر مانويل أو بلانكا. فالتفسيرات ستكون مزعجة، لأنه لا حق لي في التقصي عن ماضي مانويل، وبخاصة أنني أفعل ذلك من وراء ظهره. تحركني المحبة التي أشعر بها نحوه، وهي محبة راحت تنمو مع تعايشي معه. فبعد مغادرة دانييل بدأ الشتاء بالحلول، وقد أمضينا وقتاً طويلاً وحدنا في هذا البيت الذي بلا أبواب، حيث الحيز ضيق جداً لا يمكن إخفاء أسرار فيه. أصبحت علاقتي بمانويل أكثر حميمية، فقد صار يثق بي أخيراً وصار بإمكاني الدخول إلى أوراقه،

وملاحظاته، وتسجيلاته، وكمبيوتره. لقد منحني العمل ذريعة للبحث في أدراجه. سألته لماذا لا توجد لديه صور للأسرة أو الأصدقاء، فأوضح لي أنه سافر كثيراً، وأنه بدأ من الصفر عدة مرات في أنحاء مختلفة وخلال الطريق راح يتخلص من العبء المادي والعاطفي. فهو يقول إنه من أجل تذكر الناس الذين يهمونه لا يحتاج إلى صور. لم أجد في أرشيفه شيئاً عن الجزء الذي يهمني من ماضيه. أعرف أنه كان سجيناً لأكثر من عام في أزمنة الانقلاب العسكري، وأنه أُبعد إلى تشيلوي، وفي العام 1976 غادر البلاد؛ وأعرف عن زوجتيه، وطلاقه منهما، وعن كتبه، ولكنني لا أعرف شيئاً عن رهابه من الأمكنة المغلقة أو كوابيسه. وإذا لم أكتشف ذلك سيكون من المستحيل عليّ أن أساعده ولن أتوصل إلى التعرف إليه بصورة حقيقية.

أشعر بانسجام شديد مع ليليان تريفينو. لها شخصية جدتي: نشيطة، مثالية، متشددة وعاطفية، ولكنها ليست متسلطة مثلها. وقد تدبرت الأمر كي نذهب بتكتم لزيارة الأب ليون، بالسفر في زورق الخدمات الصحية الوطنية، وبدعوة من الدكتور، عشيقها، الذي يدعى خورخي بيدراثا. إنه يبدو أصغر سناً بكثير مما هو عليه في الحقيقة، فقد أكمل للتو الأربعين من العمر، وهو يعمل منذ عشر سنوات في الأرخبيل. منفصل عن زوجته، ويتابع إجراءات الطلاق البطيئة، وله ابنان صغيران، أحدهما مصاب بمتلازمة دوون. يفكر في الزواج من ليليان فور تحرره، وإن كانت هي لا ترى منفعة في الزواج، وتقول إن أبويها قد عاشا تسعة وعشرين عاماً معاً، وربوا ثلاثة أبناء بلا وثائق رسمية.

كانت الرحلة طويلة جداً، لأن الزورق توقف في عدة أمكنة، وعندما وصلنا إلى حيث الأب ليون كانت الساعة قد بلغت الرابعة مساء. تركنا الدكتور بيدراثا هناك وواصل جولته المعهودة، مع الوعد بأن يرجع لأخذنا بعد ساعة ونصف من أجل العودة إلى جزيرتنا. الديك ذو الرياش التي بلون

قـوس قـزح والخـروف البـدين اللـذان رأيتهمـا في المـرة السـابقة مـازالا في مكانيهما، يحرسان بيت الكـاهن. بـدا لـي المكـان مختلفـاً في الضـوء الشـتائي، وحتى الأزهار البلاستيكية في المقبرة بدت باهتة الألوان. كان الكـاهن ينتظرنـا بالشاي، وقطع حلوى، وخبز طـازج، وجـبن وجـامبون، أعـدتها جـارة لـه تعنى به وتراقبه كما لو أنه طفلها. «ضع عباءتك وتنـاول قرص الأسـبيرين يـا كـاهني، وانتبـه إلى أنـني لا أنفـع في رعايـة مسـنين مرضـى»، تـأمره باللهجـة التشـيلية المترعـة بصـيغ التصـغير والتـدليل، بينمـا هـو يهمهـم متـذمراً. انتظـر الكاهن إلى أن صرنا وحدنا وتوسل إلينا أن نأكل قطـع الحلـوى، لأننـا إذا لم نفعل سيضطر إلى أكلها وستقع في معدته كالصخور وهو في هذه السن.

كان علينا أن نرجـع قبـل حلـول الظـلام، وبمـا أن الوقـت المتـوفر قصـير جداً، فقد توجهنا مباشرة إلى الموضوع.

ـ لماذا لا تسألين مانويل عمـا تريـدين معرفتـه أيتهـا الغرينغيتـا؟ ـ اقـترح عليّ الكاهن بين رشفتين من الشاي.

ـ لقد سألته يا أبتِ، ولكنه يتهرب مني.

ـ لا بد إذاً من احترام صمته يا صغيرتي.

ـ المعـذرة يـا أبتـاه، ولكـنني لم آتِ لإزعـاجـك لمجـرد الفضـول. مانويـل مريض في الروح وأنا أريد مساعدته.

ـ مـريض في الـروح... ومـا الـذي تعرفينـه أنـت في هـذا الشـأن أيتهـا الغرينغيتا؟ ـ سألني الكاهن باسماً.

ـ أعرف الكثير، لأني جئت إلى تشيلوي مريضة الروح، وقد احتضنني مانويل وساعدني على الشفاء. عليّ أن أرد له الجميل، ألا ترى ذلك؟

حدثنا الكاهن عن الانقلاب العسكري، وعن القمـع القاسـي الـذي تـلا ذلك، وعن عمله في النيابة الرسولية للتضامن، وهو عمل لم يستمر طويلاً، لأنه اعتُقل هو أيضاً.

ـ كنتُ أوفر حظاً من آخرين يا غرينغيتا، لأن الكردينال شخصياً أنقذني خلال يومين، ولكنني لم أستطع تجنب إبعادهم لي.

ـ وماذا كان يحدث للمعتقلين؟

ـ الأمر يعتمد على الظروف. قد يقع المرء في يد الشرطة السياسية، جهازي DINA أو CNI، أو في يد قوات الدرك، أو أحد أجهزة الأمن التابعة لفروع القوات المسلحة. ومانويل أخذوه في أول الأمر إلى الستاد الوطني، وبعد ذلك إلى بييّا غريمالدي.

ـ ولماذا يرفض مانويل الحديث في هذا الأمر؟

ـ ربما لا يتذكره يا غرينغيتا. فالذهن يُجمد في بعض الأحيان العذابات الشديدة كوسيلة دفاعية ضد الجنون أو الاكتئاب. اسمعي، سأقدم لك مثالاً رأيته في مقر القاصد الرسولي. في العام 1974 كان عليّ مقابلة رجل أُطلق سراحه للتو من معسكر اعتقال وكان مدمراً جسدياً ومعنوياً. سجلتُ المحادثة معه، مثلما نفعل دوماً. وقد تمكنا من إخراجه من البلاد ولم أعد للقاء به لزمن طويل. بعد خمسة عشر عاماً من ذلك ذهبت إلى بروكسل وبحثت عنه، لأنني كنت أعرف أنه يعيش في المدينة، وأردتُ مقابلته من أجل بحث كنت أكتبه لمجلة *رسالة* التي يصدرها الآباء الجزويت. لم يكن يتذكرني، ولكنه وافق على التحدث إليّ. والتسجيل الثاني لا يشبه في أي شيء التسجيل الأول.

ـ بأي معنى؟ ـ سألته.

ـ الرجل يتذكر أنه كان معتقلاً، ولكن لا شيء أكثر من ذلك. لقد محا من ذاكرته الأمكنة والتواريخ والتفاصيل.

ـ أفترض أنك أسمعته تسجيله الأول.

ـ لا، عمل ذلك سيكون ضرباً من القسوة. ففي التسجيل الأول تحدث عن التعذيب والامتهان الجنسي الذي تعرض له. لقد نسي الرجل ذلك كله كي يواصل العيش سليم الذهن. ربما يكون مانويل قد فعل الشيء نفسه.

ـ إذا كان الأمر كذلك فإن ما كبحه مانويل ينبثق في كوابيسه ـ تدخلت
ليليان تريفينو التي كانت تصغي إلينا باهتمام كبير.

ـ يجب أن أكتشف ما حدث له يا أبتاه، أرجوك أن تساعدني ـ طلبتُ من الكاهن.

ـ سيكون عليكِ أن تذهبي إلى سنتياغو يا غرينغيتا، وأن تبحثي في الأركان المنسية. يمكنني أن أضعك على اتصال مع أناس يساعدونك...

ـ سأفعل ذلك فور استطاعتي. أشكرك جزيل الشكر.

ـ اتصلي بي عندما تشائين يا صغيرتي. لدي الآن هاتفي المحمول، ولكن لا شيء من البريد الإلكتروني، لم أستطع تعلم أسرار الكمبيوتر. لقد ظللتُ متخلفاً جداً في الاتصالات.

ـ أنت على اتصال مباشر بالسماء يا أبتاه، ولا تحتاج إلى كمبيوتر ـ قالت له ليليان تريفينو.

ـ لقد صار لديهم فيسبوك في السماء يا ابنتي.

❖ ❖

منذ مغادرة دانييل بدأ جزعي يتزايد. لقد مضى أكثر من ثلاثة أشهر مديدة وأنا قلقة. جدايّ لم يكونا يبتعدان أحدهما عن الآخر قطّ خشية احتمال ألا يتمكنا من العودة للقاء؛ وأخشى أن يحدث ذلك لي ولدانييل. لقد بدأت أنسى رائحته، والنبض الدقيق ليديه، ورنة صوته، وثقله فوقي، وتنتابني شكوك منطقية حول إذا ما كان يحبني، وإن كان يفكر في العودة، أم أن لقاءنا كان مجرد نزوة جوال يحمل جعبة. شكوك ومزيد من الشكوك. إنه يكتب إليّ، ويمكن لهذا أن يطمئنني، كما يعلل مانويل عندما أخرجه عن طوره. ولكنه لا يكتب لي ما يكفي ورسائله مقتضبة؛ ليس الجميع قادرون على التواصل كتابة مثلي، ولندع التواضع جانباً، وهو لا يتحدث عن المجيء إلى تشيلي، وهذه إشارة سيئة.

إنني بحاجة ماسة إلى من أبوح له، بحاجة إلى صديقة، إلى شخص في مثل سني أفرّج له عن نفسي. بلانكا تضجر من شكواي كعاشقة محبطة، ومانويل لا أتجرأ على إزعاجه كثيراً، لأن نوبات ألم رأسه الآن أكثر تواتراً وشدة، صار يسقط مصعوقاً فجأة، ولا وجود لمهدئات أو كمادات باردة قادرة على تسكين أوجاعه. حاول لبعض الوقت تجاهل ذلك، ولكنه حيال ضغوط بلانكا وضغوطي اتصل بطبيب أعصاب وصار عليه أن يذهب سريعاً إلى العاصمة لإجراء فحص للفقاعة اللعينة. لا يعرف أنني أفكر في مرافقته بفضل كرم **ميّالوبو** العجيب الذي قدّم إليّ نقوداً لبطاقة السفر ومبلغاً صغيراً آخر كمصروف جيب. هذه الأيام في سنتياغو ستتيح لي أخيراً أن أضع قطع البزل المختلفة في أمكنتها للتأكد من ماضي مانويل. عليّ أن أستكمل معلومات الكتب والانترنت. المعلومات متوافرة، ولم يكلفني شيئاً الحصول عليها، ولكن ذلك كان أشبه بتقشير بصلة، طبقات وطبقات رقيقة وشفافة دون الوصول إلى اللب قطّ. لقد بحثت عن شكاوى بشأن ممارسات التعذيب والاغتيالات الموثقة بصورة واسعة، ولكنني بحاجة إلى الاقتراب من الأمكنة التي جرت فيها إذا كنت أرمي إلى فهم مانويل. آمل في أن تفيدني اتصالات الأب ليون.

من الصعب التكلم مع مانويل وأشخاص آخرين في هذا الشأن؛ فالتشيليون حذرون، يخشون الإساءة أو إعطاء رأي مباشر، اللغة هي رقصة تلطيف للكلام، عادة الاحتراس متأصلة ويوجد الكثير من الغيظ تحت السطح وليس هنالك من يرغب في تهويته؛ كما لو أن هناك نوعاً من الإحساس الجماعي بالخجل، البعض لأنهم عانوا وآخرون لأنهم استفادوا، البعض لأنهم غادروا وآخرون لأنهم ظلوا في البلاد، البعض لأنهم فقدوا عائلاتهم، وآخرون لأنهم غضوا النظر. لماذا لم تشر جدتي قطّ إلى ذلك كله؟ لقد ربتني وهي تتكلم القشتالية، على الرغم من أنني كنت أرد عليها

بالإنكليزية، وكانت تأخذني إلى النادي التشيلي في بيركلي، حيث يجتمع أمريكيون لاتينيون لسماع موسيقى، ومشاهدة أعمال مسرحية أو أفلام سينمائية، وكانت تجعلني أحفظ عن ظهر قلب قصائد لبابلو نيرودا أكاد لا أفهمها. من خلالها عرفت تشيلي قبل أن تطأها قدماي. كانت تحدثني عن جبال وعرة وشاهقة تغطيها الثلوج، وعن براكين هاجعة تستفيق أحياناً بهزات قيامية، وعن ساحل الباسفيكي الطويل وأمواجه المجعدة وحافته الزبدية، وعن صحراء الشمال القاحلة كسطح القمر، لكنها تزهر أحياناً كلوحة لمونيه، وعن الغابات الباردة، وعن بحيرات صافية، وأنهار خصيبة، وعن جبال جليدية زرقاء. كانت جدتي تتكلم عن تشيلي بصوت عاشقة، ولكنها لم تقل شيئاً عن الناس أو التاريخ، كما لو أن تلك البلاد أراض بكر، غير مأهولة، ولدت بالأمس من زفرة أرضية، عالقة في الزمان والمكان. وعندما تلتقي بتشيليين آخرين يتسارع لسانها وتتبدل لهجتها، فلا أستطيع متابعة خيط المحادثة. المهاجرون يعيشون وعيونهم على البلد البعيد الذي تركوه، ولكن جدتي لم تحاول يوماً زيارة تشيلي. لها أخ في ألمانيا تتواصل معه في حالات نادرة، أبواها ماتا وأسطورة الأسرة القبيلة لا تنطبق على حالتها. «لم يبق لي شيء هناك، فلماذا سأذهب؟»، هذا ما كانت تقوله لي. عليّ أن أنتظر كي أسألها وجهاً لوجه عما حدث لزوجها الأول ولماذا ذهبت إلى كندا.

صيف

أيلول، تشرين الأول، تشرين الثاني، وكانون الأول الدراماتيكي

الجزيرة مبتهجة، فقد جاء آباء الأطفال ليحتفلوا بالعيد الوطني وبداية الربيع. أمطار الشتاء التي بدت لي شاعرية في البدء، لم تعد تطاق في النهاية. وأنا سأحتفل بعيد ميلادي في يوم 25 ـ أنا من برج الميزان ـ، وسأكمل العشرين من العمر وتنتهي مراهقتي أخيراً، يسوع! يا للراحة! في العادة يأتي بعض الشبان دوماً خلال عطلة نهاية الأسبوع لزيارة أسرهم، ولكن في شهر أيلول هذا جاؤوا في جماعات، الزوارق تأتي ممتلئة. أحضروا معهم هدايا لأبنائهم الذين لم يروهم في حالات كثيرة منذ عدة شهور، ونقوداً للأجداد من أجل شراء ملابس وأشياء للبيت، وسقوف جديدة لاستبدال ما خربه الشتاء. وبين الزائرين جاءت لوثيا كورّاليس، أم خوانيتو، امرأة لطيفة، شابة طيبة وفتية جداً، أصغر من أن تكون أماً لابن في الحادية عشرة. أخبرتنا أن أثوثينا حصلت على عمل في تنظيف نُزل في كيّون، وهي لا تريد مواصلة الدراسة ولا تفكر في العودة إلى جزيرتنا، كيلا تواجه تعليقات الناس الخبيثة. «فالعادة في حالات الاغتصاب أن تُلقى المسؤولية على عاتق الضحية»، قالت لي بلانكا، مؤكدة ما كنتُ قد سمعته في **حانة الميت**.

خوانيتو يتصرف بخجل وارتياب مع أمه التي لا يعرفها إلا من خلال الصور، لأنها تركته بين ذراعي إدوفيخيس حين كان عمره شهرين أو ثلاثة شهور ولم تعد لرؤيته أثناء وجود كارميلو كورّاليس حياً، مع أنها كانت تتصل به هاتفياً بكثرة وترسل نفقاته على الدوام. لقد حدثني الطفل عنها مرات عديدة بمزيج من الفخر، لأنها تبعث إليه هدايا جيدة، ومن الغضب لأنها تركته مع جديه. قدّمها إليّ للتعارف بخدين محمرين ونظره إلى الأرض: «هذه هي لوثيا، ابنة جدي»، قال. وقد أخبرتُه في ما بعد بأن أمي تركتني وأنا

رضيعة، ورباني جدّاي أيضاً، لكنني كنت محظوظة جداً، وكانت طفولتي سعيدة لا أبدلها بأخرى. نظر إليّ طويلاً بعينيه القاتمتين، فتذكّرتُ عندئذ آثار ضربات الحزام التي تلقاها على ساقيه قبل شهور قليلة، عندما كان كارميلو كورّاليس لا يزال قادراً على الوصول إليه. احتضنته بأسى لأني لا أستطيع حمايته من ذلك، وسيحمل آثار الضرب طوال ما تبقى من حياته.

أيلول هو شهر تشيلي. الأعلام ترفرف من الشمال إلى الجنوب، حتى في أقصى الأمكنة النائية تُرفع «عرائش»، أي أربعة أعمدة خشبية وسقف من أغصان الكينا، حيث يتوافد الناس للشرب وتحريك عظامهم على إيقاعات أمريكية وبرقصة الكويكا، الرقصة الوطنية التي تحاكي مغازلة الديك والدجاجة. هنا أيضاً أقمنا عريشة وكانت لدينا فطائر بالجملة وأنهار من النبيذ والبيرة والتشيتشا؛ وانتهى الأمر بالرجال إلى الشخير مطروحين على الأرض، وعند الغروب ألقى بهم الدركيان والنساء في شاحنة الخضار ووزعوهم على بيوتهم. ففي يومي 18 و19 أيلول لا يُحمل أي مخمور إلى السجن، إلا إذا أخرج سكيناً.

شاهدتُ في تلفزيون نيانكوبيل العرض العسكري في سنتياغو، حيث استعرضت الرئيسة ميتشيله باتشيليت القوات وسط هتافات الحشود التي توقّرها كأم لها. لم يعرف أي رئيس تشيلي محبة كمحبة الناس لها. منذ أربعة أعوام، قبل الانتخابات، لم يكن هنالك من يراهن عليها، إذ كان يُعتقد أن التشيليين لن يصوتوا لامرأة، وهي فوق ذلك اشتراكية، وأم عازبة، ولا أدرية، ولكنها كسبت الانتخابات واكتسبت كذلك احترام المورو والمسيحيين، كما يقول مانويل، مع أنني لم أرَ أي مورو في تشيلوي.

شهدنا أياماً دافئة وسماء زرقاء، فقد تراجع الشتاء أمام انفجار الحماسة الوطنية. ومع قدوم الربيع شوهدت بعض ذئاب البحر على مقربة من المغارة، وأظن أنها سرعان ما ستعود للاستقرار حيث كانت من قبل

وسأتمكن من تجديد صداقتي مع ذئبة البحر بينكويا، إذا كانت لا تزال تتذكرني. إنني أصعد طريق الجبل باتجاه المغارة كل يوم، لأنني ألتقي عادة مع بوبو هناك. وأفضل دليل على حضوره هو أن فاكن يصبح عصبياً وفي بعض الأحيان يبتعد راكضاً وذيله بين قائمتيه. إن ما يظهر هو شبح غائم المعالم فقط، أو رائحة تبغه الإنكليزي اللذيذة في الجو، أو الإحساس بأنه يحتضنني. عندئذ أُغمض عينيّ وأستسلم لدفء وأمان صدره العريض، وكرش الشيخ الذي له، وتينك الذراعين القويتين. في إحدى المرات سألته أين كان حين كنتُ بأمس الحاجة إليه في العام الماضي، ولم أكن بحاجة إلى انتظار ردّه لأنني أعرف الجواب في أعماقي: لقد كان معي على الدوام. فحين كان الكحول والمخدرات يهيمنان على حياتي لم يكن بإمكان أحد الوصول إليّ، فقد كنتُ رخوية في قوقعتها، ولكن في أشد ساعات يأسي، كان جدي يحملني بين ذراعيه. ولم يرفع نظره عني قطّ، وعندما كنت معرضة لخطر الموت من ابتلاع الهيروين وممارسة البغاء في المراحيض، هو من أنقذني.

والآن، بعد أن لم تعد هنالك ضجة في رأسي، أشعر به قريباً مني على الدوام. وإذا ما خُيرت بين متعة جرعة من الكحول سريعة الزوال أو المتعة الدائمة بنزهة في الجبل مع جدي، فإنني أفضل الثانية دون تردد. لقد عثر بوبو على نجمته أخيراً. فهذه الجزيرة النائية، غير المرئية في اشتعال العالم، الخضراء، دائمة الخضرة، هي كوكبه الضائع؛ وبدلاً من أن يبحث طويلاً عن كوكبه في السماء، كان يمكن له أن ينظر باتجاه الجنوب.

❖ ❖

خلع الناس معاطفهم وخرجوا للتشمس، أما أنا فمازلت أضع طاقيتي الصوفية الخضراء بلون إفرازات الغدة الصفراوية، لأننا خسرنا مباراة بطولة كرة القدم. أعضاء فريق «**الكاليوتشي**» عاثرو الحظ يمضون مطأطئي الرؤوس، وقد تحملوا كامل المسؤولية عن حلاقة شعري كله. لقد جرت

المباراة في كاسترو وحضرها نصف أهالي جزيرتنا الذين ذهبوا لتشجيع **الكاليوتشيين**، بمن في ذلك دونيا لوثيندا التي نقلناها في زورق مانويل مقيدة إلى كرسي وملتفة بشالات. ودون ليونيل شناك الذي بدا أكثر توردأ وصخباً من أي وقت آخر، يساند فريقنا بصرخات محتدمة. كنا على وشك أن نكسب، وكان يكفينا تعادلاً. لقد كانت مزحة من القدر قبل ثلاثين ثانية من انتهاء المباراة، فقد أدخلوا هدفاً في مرمانا. صدَّ بيدرو بيلانتشوغاي كرة قوية برأسه وسط تهليل مناصرينا المدوي وصفير الخصوم، لكن الضربة خلّفته نصف دائخ، وقبل أن يستعيد وعيه جاء تعيس وأدخل الكرة بمقدم قدمه إلى المرمى بطمأنينة. كان الذهول العام عظيماً إلى حدّ أننا ظللنا مشلولين لثوان عديدة قبل أن تنفجر صرخات الحرب وتبدأ بالتطاير علب البيرة وزجاجات المرطبات. وكنت أنا دون ليونيل على وشك أن نصاب بجلطة قلبية مشتركة.

في مساء ذلك اليوم بالذات ذهبت إلى بيته لأدفع الدين المترتب عليّ. «ولا بأي حال يا غرينغيتا! فذلك الرهان كان مجرد مزاح»، أكد لي **الميّالوبو** المتودد دائماً، ولكنني إذا كنت قد تعلمتُ شيئاً في حانة نيانكوبيل فهو أن المراهنات مقدسة. ذهبت إلى صالة حلاقة رجالية بائسة، من تلك التي يقوم صاحبها نفسه بالخدمة، وعلى بابها أنبوب أسطواني ثلاثي الألوان، وفي الداخل كرسي واحد قديم ومهيب، جلستُ عليه بشيء من الأسى، لأن ذلك لن يروق بأي حال لدانييل غودريتش. كان الحلاق محترفاً جداً، فجز شعري تماماً ولمع صلعتي بقطع من جلد الغزال. ظهرت أذناي هائلتان، أشبه بأذني جرةٍ إتروية، ولديّ لطخات ملونة على جلدة رأسي، مثل قارة أفريقيا، بسبب أصبغة الشعر الرخيصة، كما قال الحلاق. وقد نصحني بغسول بعصير الليمون والكلور. الطاقية ضرورية، لأن البقع تبدو كمرضٍ مُعدٍ.

شعر دون ليونيل بالذنب ولم يعد يدري كيف يتودد إليّ، ولكن ليس هناك ما يستدعي الاعتذار، فالمراهنة مراهنة. طلب من بلانكا أن تشتري لي

بعض القبعات المزركشة، لأنني أبدو أشبه بسحاقية عولجت بمر عمل، كيميائية، مثلما أعلن صراحة، ولكن الطاقية التشيلوية تناسب شخصيتي أكثر. الشَّعر في هذه البلاد هو رمز للأنوثة والجمال، النساء الشابات يحتفظن به طويلاً ويعتنين به ككنز. ولا مجال للحديث عن صرخات الشفقة التي تعالت في **الروكا** عندما ظهرت صلعاء مثل مريخي بين أولئك النساء الجميلات الذهبيات بشعورهن النهضوية الغزيرة.



أعدّ مانويل حقيبة صغيرة وضع فيها القليل من الثياب ومخطوطة كتابه الذي ينوي مناقشته مع الناشر، واستدعاني إلى الصالة ليعطيني تعليمات قبل سفره إلى سنتياغو. خرجتُ إليه حاملة جعبتي وبيدي بطاقة السفر وقلت له إنه سيتمتع بمرافقتي، بفضل كرم دون ليونيل شناك. «ومن سيبقى مع الحيوانات؟»، سألني بضعف. فأوضحت له أن خوانيتو كورّاليس سيأخذ **فاكن** إلى بيته وسيأتي مرة كل يوم لإطعام القطين، وأن كل شيء مرتب. لم أقل له شيئاً عن الرسالة المغلقة التي أعطاني إياها **ميّالوبو** المدهش كي أسلّمها سراً إلى طبيب الأعصاب الذي تربطه صلة نسب مع آل شناك، ذلك أنه متزوج من ابنة عم لبلانكا. شبكة العلاقات في هذه البلاد هي أشبه بشبكة عنكبوت مجرات بوبو المضيئة. لم يخرج مانويل بشيء للتعلل به واستسلم أخيراً إلى مرافقتي له. ذهبنا إلى بويرتو مونتي، حيث أخذنا الطائرة إلى سنتياغو. والطريق الذي قطعته في اثنتي عشرة ساعة كي أصل إلى تشيلوي لم يستمر سوى ساعة واحدة بالطائرة.

ـ ماذا أصابك يا مانويل؟ ـ سألته عندما كنا على وشك الهبوط في سنتياغو.

ـ لا شيء.

ـ كيف لا شيء. لم تكلمني منذ خروجنا من البيت. أتشعر بالتوعك؟

ـ لا.

ـ أنت غاضب إذاً.

ـ قرارك بالمجيء دون التشاور معي غير لائق.

ـ انظر يا رجل، لم أشاورك لأنك كنت ستقول لا. ومن الأفضل طلب الاعتذار على طلب الإذن. هل تعذرني؟

أسكته كلامي، وبدا بعد قليل أفضل مزاجاً. ذهبنا إلى فندق صغير في وسط المدينة، كل منا في حجرة، لأنه لم يشأ أن ينام معي في غرفة واحدة، بالرغم من أنه يعرف كم يكلفني النوم وحيدة، ثم دعاني بعد ذلك لأكل بيتزا والذهاب إلى السينما لمشاهدة فيلم *أفاتار* الذي لم يكن قد وصل إلى جزيرتنا بعد، وكنت أتلهف لمشاهدته. أما مانويل فكان يفضل، بالطبع، مشاهدة فيلم مُحبِط عن عالمٍ ما بعد قيامي يغطيه الرماد وتجوبه عصابات من أكلة اللحم البشري، وقد حللنا الأمر برمي قطعة عملة في الهواء، فحطت على الأرض على الوجه الذي يحمل الشعار، وكسبت أنا كالعادة. فالخدعة لا تخطيء أبداً: نقش الشعار أكسب أنا وصورة الوجه تخسر أنت. أكلنا فشار ذرة وبيتزا ومثلجات، وهذه وليمة بالنسبة إليّ، لأني منذ شهور لا آكل سوى مأكولات طازجة ومغذية وأتشوق إلى شيء من الكولسترول.

يعمل الدكتور أرتورو بوغا في الصباح في مستشفى للفقراء، حيث استقبل مانويل، ويعمل في المساء في عيادته الخاصة في المستشفى الألماني، وسط حي الأثرياء. ومن دون رسالة ميّالوبو الغامضة التي أوصلتها إليه عن طريق موظفته ومن وراء ظهر مانويل، ربما ما كان سيسمح لي بالدخول إلى العيادة. لقد فتحت لي الرسالة الأبواب على مصراعيها. المستشفى يشبه فيلماً عن الحرب العالمية الثانية، إنه قديم وهائل، غير مرتب، تمديدات الأنابيب فيه مكشوفة، والمغاسل صدئة، والبلاط مكسر، والجدران مقشرة، ولكنه نظيف والعناية فعالة، مع الأخذ في الاعتبار أعداد المرضى. انتظرنا حوالي

ساعتين في قاعة فيها صفوف كراسٍ معدنية إلى أن استدعونا برقمنا. الدكتور بوغا، رئيس قسم الأعصاب، استقبلنا بلطف في مكتبه المتواضع وملف مانويل وصوره الشعاعية على المنضدة. «ما هي علاقتك بالمريض يا آنسة؟»، سألني. فأجبته دون تردد أمام نظرة المريض الذاهلة: «إنني حفيدته».

كان مانويل على قائمة الانتظار من أجل عملية جراحية محتملة منذ نحو عامين ومن يدري كم من الوقت سيمر قبل أن يحين دوره، لأنه ليس حالة مستعجلة. وهم يفترضون أنه إذا كان قد عاش مع تلك الفقاعة أكثر من سبعين عاماً، فيمكن له الانتظار بضعة أعوام أخرى. فالعملية الجراحية تنطوي على مجازفة، وبسبب خصائص فقاعة التوسع الشرياني يُفضل تأخير العمل الجراحي أطول ما يمكن، على أمل أن يموت المريض لسبب آخر، ولكن بالنظر إلى الازدياد المتفاقم لنوبات الصداع الشديد والدوار التي تصيب مانويل، يبدو أن الوقت قد حان للتدخل الجراحي.

تتلخص طريقة العمل الجراحي التقليدية في فتح الجمجمة، وفصل النسيج الدماغي ووضع شبكة للحيلولة دون تدفق الدم إلى الفقاعة المتوسعة وإعادة إغلاق الجرح. ويتطلب الشفاء التام قرابة العام ويمكن له أن يخلّف نتائج صعبة. وبالإجمال، لوحة غير مطمئنة كثيراً. ومع ذلك، يمكن لهم في المستشفى الألماني أن يحلوا المشكلة بفتح ثقب في الساق، يدخلون منه قثطرة إلى الشريان، ويصلون إلى الفقاعة الشريانية بالإبحار في جهاز الدوران فيملؤونه بسلك من البلاتين يُلف في الداخل مثل عقيصة شعر سيدة عجوز. المجازفة في هذه الحالة أقل بكثير، ومدة البقاء في المستشفى ست وثلاثون ساعة وفترة النقاهة شهر واحد.

ـ طريقة أنيقة وبسيطة وبعيدة بالكامل عن إمكانيات جيبي يا دكتور ـ قال مانويل.

ـ لا تقلق يا سيد آرياس، هذه مسألة يمكن تدبرها. بإمكاني أن أُجري

لـك العمليـة دون أيـة تكـاليف. فهـذا أسـلوب جديـد تعلمتـه في الولايـات المتحدة، حيث صار يمارس بصورة روتينية، وعليّ أن أدرب جراحاً آخر من أجل العمل في فريق. وستكون جراحتك أشبه بدرس عملي ـ أوضح له بوغا.

ــ أي أن «معلـم الطقطقـة» سيُدخل سـلكاً في دمـاغ مانويـل ــ قاطعتـه مرعوبة.

انفجر الطبيب في الضحك ووجه إليّ غمزة تواطؤ، عندئذ تذكرت الرسالة وأدركت أن المسألة هي تآمر من **ميّالوبو** لتغطية تكاليف العملية دون أن يعلم مانويل بذلك إلا في ما بعد، عندما لا يكون بإمكانه عمل شيء في هذا الشأن. وأنا متفقة مع بلانكا بأنه لا فرق حين تدين بمعروف أن تدين بمعـروفين. ومـن أجـل الاختصـار، أُدخـل مانويـل إلى المستشـفى الألمـاني، وأجـروا لـه الفحـوص اللازمـة، وفي اليـوم التـالي قـام الـدكتور بوغـا ومعـه متـدرب مزعـوم بإجراء المداخلة الجراحية بنجاح كامـل، مثلمـا أكـدا لنـا، بالرغم من أنهما لا يستطيعان تأكيد بقاء الفقاعة مستقرة.

تركت بلانكا مدرستها بعهدة نائبتها وطارت إلى سنتياغو فور إخباري لهـا بـأمر العمليـة. وقـد رافقـتْ مانويـل كـأم خـلال النهـار، بينمـا كنتُ أقـوم بتحرياتي. وفي الليل ذهبتْ إلى بيت أخت لها وأمضيتُ أنا الليل مع مانويل في المستشفى الألماني على أريكة مريحة أكثر من سريري في تشيلوي. وكانـت نوعيـة الطعـام في كافيتريـا المستشـفى خمـس نجـوم كـذلك. واسـتطعت الاستحمام وراء باب مغلق للمرة الأولى منذ شهور، ولكن بعد ما صرت أعرفه الآن، لا يمكن لي أن أزعج مانويل أبداً بطلب وضع أبواب لبيته.

❖ ❖

يعيش في سنتياغو ثلاثة ملايين نسمه وهي مازالت تنمو نحو الأعلى في هذيان أبراج قيد البناء. إنها مدينة محاطة بهضاب وجبال عالية تكللها الثلوج، نظيفـة، مزدهـرة، متعجلـة، وفيهـا حـدائق معتنـى بهـا جيـداً. حركـة المـرور

عدوانية، لأن التشيليين ـ بالغو اللطف في الظاهر ـ يفرغون شحنة إحباطهم وراء المقود. ويعج بين السيارات باعةُ فاكهة وهوائيات تلفزيون وأقراص منعنعة وكل ما هنالك من أصناف الترهات، وعند كل إشارة مرور يوجد بهلوانات يقفزون في حركات سيرك قاتله من أجل الحصول على صدقة. لقد حالفنا الحظ بأيام جيدة، بالرغم من أن التلوث كان يحول أحياناً دون رؤية السماء.

بعد أسبوع من المداخلة الجراحية رجعنا مع مانويل إلى تشيلوي، حيث كانت الحيوانات الثلاثة تنتظرنا. استقبلنا **فاكن** بقفزات رقص مؤثرة وأضلاعه بارزة، لأنه رفض الأكل في غيابنا، مثلما شرح لنا خوانيتو بذهول. لقد رجعنا قبل أن يعطي الدكتور باغا الإذن لمانويل بالمغادرة، لأن هذا الأخير لم يشأ قضاء شهر النقاهة في بيت أخي بلانكا في سنتياغو، حيث كنا نسبب الإزعاج على حدّ قوله. طلبتْ مني بلانكا أن أتجنب التعليقات أمام أفراد الأسرة، لأنها أسرة يمينية متطرفة، حول ما تقصينا عنه من ماضي مانويل، لأن وقعه سيكون سيئاً جداً عليهم. لقد احتضنونا بمحبة جميعهم، بمن في ذلك أبناء الأسرة المراهقون، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف مانويل لمرافقته إلى الفحوص والعناية به.

تقاسمتُ الحجرة مع بلانكا واستطعت تقدير كيف يعيش الأثرياء في رفاهيتهم المسورة بسياج حديدي، مع خدم منزليين، وبستانيين، ومسبح، وكلاب راقية، وثلاث سيارات. كانوا يأتوننا بالفطور إلى السرير، ويحضّرون لنا حوض الاستحمام بأملاح عطرة، بل إنهم يكوون لي سراويل البلوجنز. لم أرَ مثل ذلك في حياتي قطّ، وقد راقني كثيراً؛ إنني قادرة على التأقلم بسرعة مع الثراء. «ليسوا أغنياء في الحقيقة يا مايا، فهم لا يملكون طائرة خاصة»، قال مانويل ساخراً عندما تحدثت معه في الأمر. «كل ما في الأمر أن لكَ ذهنية فقير، هذه هي المشكلة مع اليساريين»، أجبته مفكرة في نيني ومايك أوكلي، الفقيرين بالفطرة. أنا لستُ مثلهما، لأن المساواة والاشتراكية يبدوان لي ضرباً من الابتذال.

أحسست في سنتياغو بالاختناق من التلوث، ومن حركة المرور وتعامل الناس اللاشخصي. ففي تشيلوي يُعرف الغريب من كونه لا يحيي أحداً في الشارع، أما في سنتياغو فالتحية في الشارع تبدو مريبة. ففي مصعد المستشفى الألماني كنت أوجه التحية بغباء فيتوجه الآخرون بوجوههم إلى الحائط كيلا يضطروا إلى الردّ عليّ. لم تعجبني سنتياغو وكنت أعدّ الساعات للعودة إلى جزيرتنا، حيث الحياة تنساب كنهر وديع، والهواء نقي، وهنالك صمت ووقت للتمعن في الأفكار.

سيحتاج شفاء مانويل لبعض الوقت، فرأسه مازال يؤلمه وقواه تضعف. وقد كانت أوامر الدكتور بوغا حاسمة، عليه أن يتناول نصف دزينة من أقراص الدواء يومياً، وأن يظل في استراحة حتى شهر كانون الأول، وعليه عندئذ أن يعود إلى سنتياغو من أجل إجراء تصوير طبقي محوري آخر، ويجب أن يتجنب الجهد البدني طوال ما تبقى من حياته، وأن يثق بالحظ أو الرب، حسب معتقده، لأن سلك البلاتين ليس معصوماً. وأنا أفكر في أننا لن نخسر شيئاً باستشارة ساحرة *ماتشي* إذا تطلب الأمر...

قررتُ أنا وبلانكا أن ننتظر إلى أن تحين الفرصة للتحدث مع مانويل في الموضوع الذي علينا التحدث فيه، دون الضغط عليه. إننا نعتني به حالياً بأفضل طريقة ممكنة. لقد كان معتاداً على أساليب تسلط بلانكا وهذه الغرينغية التي تعيش في بيته، ولهذا صار لطفنا المفاجئ يربكه، يعتقد أننا نخفي عنه الحقيقة وأنه في وضع أشد خطورة بكثير مما يقوله الدكتور بوغا. فكان يقول متذمراً: «إذا كنتما تفكران في معاملتي كمشلول فإنني أفضّل أن تتركاني وحيداً».

❖ ❖

بالاستعانة بخريطة وقائمة أمكنة وفرها لي الأب ليون، استطعتُ إعادة بناء ما كانت عليه حياة مانويل في سنوات الانقلاب العسكري الحاسمة حتى

خروجه إلى المنفى. ففي العام 1973 كان في السادسة والثلاثين من العمر، وواحداً من الأساتذة الشباب في كلية العلوم الاجتماعية. كان متزوجاً، وقد تبين لي أن زواجه كان يتعثر. لم يكن شيوعياً مثلما يظن **ميّالوبو**، كما أنه لم يكن منضماً إلى أي حزب سياسي آخر، ولكنه يتعاطف مع إدارة سلفادور ألليندي ويشارك في تجمعات تلك الفترة الحاشدة التي يدعم بعضها الحكومة ويعارضها آخرون. عندما وقع الانقلاب العسكري، يوم الثلاثاء 11 أيلول 1973، كانت البلاد منقسمة إلى طرفين لا سبيل إلى المصالحة بينهما، ولم يكن بمقدور أحد الوقوف على الحياد. بعد يومين من الانقلاب رُفع حظر التجوال الذي فُرض خلال الثماني والأربعين ساعة الأولى، ورجع مانويل إلى عمله. وجد الجامعة محتلة، يحتلها جنود مسلحون للحرب، يرتدون ملابس الميدان ووجوههم ملطخة بالسناج كي يصعب التعرف إليهم. رأى ثقوب رصاص في الجدران ودماءً على الدرج، وأخبره أحدهم بأنهم قد اعتقلوا طلاباً وأساتذة كانوا في المبنى.

مثل ذلك العنف كان أمراً لا يمكن تصوره في تشيلي الفخورة بديمقراطيتها ومؤسساتها، فلم يستطع مانويل تقدير خطورة ما حدث ومضى إلى أقرب مفوضية شرطة للسؤال عن زملائه. لم يعد للخروج من هناك إلى الشارع. اقتادوه معصوب العينين إلى الستاد الوطني الذي تحوّل إلى مركز اعتقال. كان هناك آلاف الأشخاص الذين تم اعتقالهم خلال اليومين السابقين، وكانوا يعانون سوء المعاملة والجوع، ينامون على الأرض الإسمنتية ويقضون النهار جالسين على مدرجات الملعب، متضرعين بصمت ألا يكونوا ضمن التعساء الذين يجري اقتيادهم إلى عيادة الملعب لاستجوابهم. كانت تُسمع ولولات الضحايا، ويُسمع في الليل رصاص الإعدامات. كان المعتقلون معزولين، بلا تواصل مع عائلاتهم، وإن كان بإمكان هؤلاء أن يتركوا لهم أكياس مأكولات وألبسة، على أمل أن يوصلها الحراس إلى

المعتقلين. زوجة مانويل التي كانت تنتمي إلى حركة اليسار الثوري، الجماعة التي يلاحقها العسكريون أكثر من الجميع، هربت فوراً إلى الأرجنتين ومن هناك إلى أوروبا. ولم تعد للقاء مع زوجها إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك، عندما لجأ كلاهما إلى أستراليا.

كان يمر على مدرجات الستاد رجلاً مُقَنَّعاً، بشحنته من الشعور بالذنب والغم، يحرسه عن قرب جنديان. يشير الرجل إلى مناضلين اشتراكيين أو شيوعيين مزعومين، فيجري اقتيادهم فوراً إلى أحشاء المبنى لإخضاعهم للتعذيب أو قتلهم. وبسبب الخوف أو الخطأ أشار إلى مانويل آرياس.

يوماً فيوماً، وخطوة فخطوة، تابعتُ طريق آلامه، وتلمست في أثناء ذلك جراحاً لا يمكن لها أن تندمل خلّفتها الدكتاتورية في تشيلي وفي روح مانويل. لقد عرفتُ الآن ما يختفي وراء المظاهر في هذه البلاد. وبينما أنا جالسة في الحديقة قبالة نهر مابوتشي، حيث كان من المعهود العثور على جثث معذبين طافية قبل خمسة وثلاثين عاماً، قرأتُ تقرير لجنة تقصي فظائع ذلك الحين، رواية طويلة من الآلام والقسوة. وقد سهَّل لي كاهن صديق للأب ليون الوصول إلى أرشيف النيابة الرسولية للتضامن، وهو مكتب تابع للكنيسة الكاثوليكية عمل على مساعدة ضحايا القمع وإحصاء أعداد المختفين، متحدياً بذلك الدكتاتورية في قلب الكاتدرائية بالذات. تفحصتُ آلاف الصور لأناس تم اعتقالهم ثم تبخروا دون أن يخلّفوا أثراً، معظمهم من الشباب، وشكاوى النساء اللاتي مازلن يبحثن عن أبنائهن وأزواجهن، وفي بعض الحالات عن أحفادهن.

❖ ❖

أمضى مانويل صيف وخريف العام 1974 في الستاد الوطني ومراكز اعتقال أخرى، حيث خضع للاستجواب عدة مرات، ليس هناك من يعرف عددها. فالاعترافات لا تعني شيئاً وينتهي بها الأمر إلى الضياع في الملفات

الدامية التي لا يهتم بها أحد سوى الفئران. ومثل معتقلين كثيرين آخرين، لم يدرِ قطّ ما الذي يريد أن يسمعه سجانوه، وقد أدرك أخيراً أن ذلك غير مهم، لأنهم هم أنفسهم أيضاً لا يدرون ما الذي يبحثون عنه. لم تكن استجوابات، وإنما عقوبات لفرض نظام جائر وتصفية أي مظهر للمقاومة بين الأهالي. وكانت الذريعة مستودعات أسلحة، يُزعم أن حكومة ألليندي سلّمتها للشعب، ولكن لم يُعثر على شيء من ذلك بعد مضي شهور، ولم يعد هنالك من يصدق وجود ترسانات الأسلحة المتخيلة تلك. شلّ الرعب الناس، وكان أشد الأساليب فعالية لفرض نظام الثكنات المتجمد. فقد كانت خطة طويلة الأجل لتغيير البلاد تغييراً تاماً.

خلال شتاء 1974، كان مانويل معتقلاً في منزل كبير في ضواحي سنتياغو تملكه أسرة متنفذة، آل غريمالدي، من أصل إيطالي، جرى اعتقال ابنتهم لمقايضتها في ما بعد بالمنزل. فانتقلت الملكية إلى إدارة المخابرات الوطنية، جهاز مخابرات الـ DINA المشؤوم الذي كان شعاره القبضة الحديدية، والمسؤول عن جرائم كثيرة، بما في ذلك في الخارج، مثل اغتياله في بوينس آيرس القائد العام للقوات المسلحة المقال، واغتياله وزيراً سابقاً في منتصف قلب واشنطن، على بُعد بضعة شوارع من البيت الأبيض. تحولت فيلا آل غريمالدي إلى أشد مراكز الاستجواب رهبة، مرّ منه أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة معتقل، وكثيرون منهم لم يخرجوا أحياء.

في نهاية أسبوعي في سنتياغو، قمت بزيارتي الإجبارية إلى فيلا غريمالدي التي تحولت الآن إلى حديقة صامتة تتعذب هناك ذاكرة من عانوا فيها. عندما حان الوقت لم أستطع الذهاب وحدي. فجدتي تؤمن بأن الأمكنة تظل موسومة بالتجارب الإنسانية، وقد افتقدتُ الشجاعة على مواجهة الشر والألم العالقين إلى الأبد في ذلك المكان دون أن تكون معي يدٌ صديقة. طلبتُ من بلانكا شناك أن ترافقني، لأنها الشخص الوحيد الذي

أخبرته بما أبحث عنه، فضلاً عن ليليان والأب ليون. فقامت بلانكا بمحاولة ضعيفة لثنيي عن عزمي، «لماذا مواصلة النبش عن شيء حدث منذ زمن بعيد»، ولكنها كانت تهجس بأن سر حياة مانويل آرياس يكمن هناك، وكان حبها له أقوى من رفضها مواجهة شيء تفضل أن تتجاهله. فقالت لي: «لا بأس يا غرينغيتا، فلنذهب فوراً، قبل أن أندم وأتراجع».

فيلا غريمالدي صارت تسمى اليوم حديقة السلام، إنها هكتار أخضر من أشجار ناعسة. لم يبق إلا القليل من الأبنية التي كانت قائمة حين كان مانويل هناك، فقد قوضتها الدكتاتورية في محاولة لمحو الأدلة على ما لا يُغتفر. ومع ذلك لم تستطع الجرارات أن تزيح الأشباح اللجوجة ولا أن تُسكت عويل الاحتضار التي مازال بالإمكان الإحساس بها في الجو. مشينا بين صور وتماثيل ولوحات كبيرة لوجوه الموتى والمفقودين. وشرح لنا مرشدٌ عن المعاملة التي كان يعامل بها السجناء، وأساليب التعذيب التي استُخدمت، مع رسوم توضيحية لأشكالٍ بشرية معلقة من الأذرع، ورؤوس مغطسة في براميل ماء، وأسرّة حديدية مكهربة، واغتصاب نساء بوساطة كلاب، ورجال تُدس في مؤخراتهم عصي مكانس. وعلى جدار حجري، بين مئتين وستة وستين اسماً، وجدتُ اسم فيليبه بيدال واستطعت عندئذ أن أركّب آخر قطع البزل. ففي غم فيلا غريمالدي تلك تعارف البروفسور مانويل آرياس والصحفي فيليبه بيدال، وهناك عانيا معاً، وظل أحدهما على قيد الحياة.

❖ ❖

قررتُ أنا وبلانكا أنه يجب علينا التحدث إلى مانويل عن ماضيه، وتأسفنا لعدم قدرة دانييل على مساعدتنا، لأن هناك مسوغاً، في مداخلة من هذا النوع، لوجود مهني محترف، حتى لو كان طبيباً نفسانياً مستجداً مثله. وتؤكد بلانكا أن محن مانويل تلك يجب أن تُعامل بالحذر والحساسية نفسيهما اللتين تتطلبهما فقاعة شريان دماغه، لأنها مضغوطة في كبسولة فقاعة في

الذاكرة، ويمكن لها إذا انفجرت فجأة أن تودي به. كان مانويل قد ذهب في ذلك اليوم إلى كاسترو بحثاً عن بعض الكتب، وانتهزنا فرصة غيابه كي نحضّر العشاء، مع معرفتنا أنه يرجع دوماً مع غياب الشمس.

انهمكتُ في صنع خبز، مثلما أفعل عادة عندما أكون عصبية. لأنني أشعر بالهدوء والطمأنينة وأنا أعجن كتلة العجين بقوة، وأمنحها شكلاً، وأنتظر تضخم الأرغفة النيئة تحت شرشف أبيض، ثم خَبزها إلى أن تكتسب اللون الذهبي، وتقديمها بعد ذلك وهي ما تزال دافئة إلى الأصدقاء. إنه طقس بطيء ومقدس. وقامت بلانكا بطهو الفروج الذي لا بد منه مع الخردل وفتات الخبز الفرنسي، طبق مانويل المفضل، وجاءت بكستناء في القَطر للتحلية. كان البيت مُرَحِّباً، يعبق بشذى الخبز الطازج والطعام الذي يُطهى ببطء في قِدر من الفخار. وكان مساء أقرب إلى البرود، هادئاً، بسماء رمادية، وبلا رياح. عما قريب سيكتمل القمر ويكون هناك اجتماع حوريات آخر في **الروكا**.

منذ عملية الانتفاخ الشرياني، حدث تغير في العلاقة بين مانويل وبلانكا، فمحياهما يلمعان، مثلما يمكن لجدتي أن تقول، وفيهما ذلك النور المتلألئ لحديثي الولادة. وهناك أيضاً إشارات أخرى أقل ظهوراً، منها التواطؤ في النظرات، الحاجة إلى التلامس، الطريقة التي يحدس كل منهما نوايا ورغبات الآخر. إنه أمر يسعدني من جهة، لأنه ما سعيت إليه منذ شهور، ولكنني قلقة من جهة أخرى على مستقبلي. فما الذي سيكون عليه وضعي حين يقرران الغوص في حبهما هذا الذي أجّلاه سنوات طويلة؟ لا متسع في هذا البيت لنا نحن الثلاثة، وبيت بلانكا سيكون ضيقاً علينا كذلك، وآمل أن يكون مستقبلي مع دانييل غودريتش قد اتضح حتى ذلك الحين.

جاء مانويل حاملاً كيس كتب أوصى عليها أصدقاءه المكتبيين، وروايات بالإنكليزية أرسلتها جدتي إلى مركز بريد كاسترو.

ـ ألدينا حفلة عيد ميلاد؟ ـ سألنا وهو يشم رائحة الهواء.

ـ إننا نحتفل بالصداقة. كم تغير هذا البيت منذ مجيء الغرينغيتا! ـ علقت بلانكا.

ـ هل تعنين الفوضى؟

ـ أعني الزهور، والطعام الجيد والرفقة يا مانويل. لا تكن جاحداً. سوف تفتقدها وتشتاق إليها عندما ترحل.

ـ وهل هي تفكر في الذهاب؟

ـ لا يا مانويل. أفكر في الزواج من دانييل والعيش هنا معك ومع أطفالنا الأربعة الذين ننوي إنجابهم ـ قلتُ مازحة.

ـ آمل أن يوافق حبيبك على هذه الخطة ـ قال بالنبرة المازحة نفسها.

ـ ولماذا لا يوافق؟ إنها خطة محكمة.

ـ ستموتان ضجراً في هذه الجزيرة الصخرة يا مايا. فالغرباء الذين يعتزلون بأنفسهم هنا هم أناس خاب أملهم في العالم. ولا يأتي أحد إلى هنا وهو لم يبدأ عيش حياته بعد.

ـ أنا جئت لأختبئ هنا ولاحظ كل ما وجدته: وجدتك أنت، وجدت دانييل، ووجدت الأمان والطبيعة وقرية فيها ثلاثمئة شخص تشيلويين أحبهم. حتى جدي بوبو يرى أنه على ما يرام هنا، لقد رأيته يتمشى في الجبل.

ـ هل كنت تشربين! ـ صاح مانويل مذعوراً.

ـ لم أشرب جرعة واحدة يا مانويل. كنت أعرف أنك لن تصدقني، ولهذا لم أخبرك بالأمر.

لقد كانت ليلة استثنائية، تواطأ كل شيء فيها للمساعدة على البوح: الخبز ووجبة الفروج، والقمر الذي يطل بين الغيوم، والمودة المجربة التي تجمع بيننا، والحديث الذي يتخلله مزاح وطرائف خفيفة. لقد رويا لي كيف تعارفا، والانطباع الذي خلّفه كل منهما في الآخر. قال مانويل إن بلانكا في شبابها كانت جميلة جداً ـ ولا زالت كذلك ـ؛ كانت فالكيرا مذهبة، كلها

ساقان وشعر طويل وأسنان، وكانت تشع أماناً وسعادة من هي محبوبة ومدللة. «كان من المفروض أن أكرهها لما لديها من امتيازات، لكنها هزمتني بلطفها، وكان من المحال عدم حبها. غير أنني لم أكن في ظروف تسمح لي بالوقوع في حب أحد، ناهيك عن شابة بعيدة المنال مثلها». أما بالنسبة إلى بلانكا، فكان مانويل يتمتع بجاذبية ما هو محظور وخطير، آت من عالم مناقض تماماً لعالمها، من وسط اجتماعي آخر يمثل العدو السياسي، وكانت مستعدة لقبوله على الرغم من أنه ضيف على أسرتها. وحدثتهما أنا عن بيتنا في بيركلي، وعن السبب في أنني أبدو اسكندينافية، وعن المرة الوحيد التي رأيت فيها أمي. حدثتهما عن بعض الأشخاص الذين عرفتهم في لاس فيغاس، مثل امرأة بدينة تزن مئة وثمانين كيلوغراماً ولها صوت مدغدغ، تكسب حياتها من الجنس الهاتفي، أو ثنائي متقاطعي الميول الجنسية وصديقين لبراندون ليمان، تزوجا في احتفال رسمي، هي ببدلة سموكن وهو بثوب زفاف من الأورغنزا البيضاء. تناولنا العشاء بتمهل ثم جلسنا بعد ذلك، مثلما هي العادة، لتأمل الليل من خلال النافذة، أمامهما كأسي نبيذهما، وأمامي كأس الشاي. كانت بلانكا تجلس على الصوفا ملتصقة بمانويل، وأنا على حشية على الأرض مع **فاكن** الذي يعاني من متلازمة الفراق مذ تركناه وذهبنا إلى سنتياغو. يتابعني بعينيه ولا يبتعد عني، إنه مزعج.

ـ لدي انطباع بأن هذه الحفلة هي فخ ـ تلعثم مانويل ـ هنالك شيء غريب يطفو في الجو منذ أيام. تحدثا في ما تدبران مباشرة يا نساء.

ــ لقد أفسدت خطتنا يا مانويل، كنا نود التطرق إلى الموضوع بدبلوماسية ـ قالت بلانكا.

ـ ما الذي تريدانه؟

ـ لا شيء، تبادل الحديث وحسب.

ـ عن أي شيء؟

عندئذ أخبرته بأنني أتحرى لحسابي منذ شهور عما جرى بعد الانقلاب العسكري، لأني كنت أرى أن ذكرياته أشبه بقرحة في أعمق أعماق ذاكرته، وأنها تسممه. طلبت منه المعذرة لتدخلي، لأن محبتي له هي التي حركتني. وأنني أحزن لرؤيته يتألم في الليل عندما تداهمه الكوابيس. وقلت له إن الصخرة التي يحملها على كاهله ثقيلة جداً، وإنها تسحقه، ولا يعيش ملء حياته بسببها، وأنه كمن هو ينتظر مرور الوقت ليموت. فقد انغلق على نفسه إلى حدّ لا يشعر معه بالسعادة أو الحب. وأضفتُ أن بلانكا وأنا يمكننا مساعدته في حمل تلك الصخرة. لم يقاطعني مانويل، كان شاحباً، يتنفس مثل كلب متعب، يمسك بيد بلانكا وهو مغمض العينين. «أتريد أن تعرف ما الذي اكتشفته الغرينيغيتا يا مانويل؟»، سألته بلانكا بصوت هامس، وهز هو رأسه موافقاً بصمت.

اعترفتُ له بأنني، خلال نقاهته بعد العملية، نبشت ملفات مقر النيابة الرسولية للتضامن وتحدثتُ إلى الأشخاص الذين دلني عليهم الأب ليون، وهم محاميان وكاهن وأحد واضعي تقرير ريتيغ، حيث ترد أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمئة شكوى خرق لحقوق الإنسان جرى اقترافها خلال الدكتاتورية. وبين تلك الحالات ترد حالة فيليبه بيدال، زوج نيني الأول، وكذلك حالة مانويل آرياس.

ـ أنا لم أشارك في ذلك التقرير ـ قال مانويل بصوت متهدج.

ـ حالتك تحدث عنها الأب ليون. فأنت رويت له تفاصيل تلك الشهور الأربعة عشر التي كنت معتقلاً فيها يا مانويل. وكنت قد خرجت للتو من معسكر الاعتقال في تريس ألَموس، وكنت مُبعداً هنا في تشيلوي، حيث عشت مع الأب ليون.

ـ لا أذكر ذلك.

ـ الكاهن يتذكره، لكنه لم يستطع إخباري به، لأنه يعتبره سر

اعـتراف، واكتفـى بـأن دلـني علـى الطريـق. الشـكوى في حالـة فيليبـه بيـدال قدمتها زوجته، جدتي نيني، قبل خروجها إلى المنفى.

وكـررتُ لمانويـل مـا اكتشـفته خـلال ذلـك الأسبوع الخطير في سنتياغو والزيارة التي قمت بها مع بلانكا إلى فيلا غريمالـدي. لم يُثر فيه ذكـر الاسم أي ردّ فعل خاص، لديه فكرة غامضة عن أنه كان هنـاك، ولكنهـا تختلط في ذهنه بصورة غامضة مع مراكز اعتقال أخرى. فخلال البضعة والثلاثين عاماً التي انقضت منذ ذلك الحين ألغى من ذاكرته تلك التجربة، ويتذكرها كما لو أنه قرأها في كتاب، وليس كشـيء شخصـي، علـى الـرغم مـن وجـود قـروح حروق قديمة في جسده، ومـن أنـه لا يستطيع رفـع ذراعيـه أعلـى مـن كتفيه لأنهم كانوا قد خلعوهما له.

ـ لا أريد معرفة التفاصيل ـ قال لنا.

أوضحت له بلانكا أن التفاصيل موجودة في مكـان بداخلـه وأنـه يحتـاج إلى شجاعة هائلة كي يدخل إلى ذلك المكان، ولكنه لن يـذهب إليـه وحيـداً، فهي وأنا سنرافقه. وأنه لم يعد سجيناً عـاجزاً بـين أيـدي جلاديـه، ولكنـه لـن يصير حراً حقاً ما لم يواجه معاناة الماضي.

ـ أسوأ ما مرّ بك كان في فـيلا غريمالـدي يـا مانويـل. ففـي نهايـة زيارتنـا أخـذنا الـدليل إلى زنـازين المـوت. كانـت هنـاك زنـازين عرضـها مـتر وطولهـا متران، يضعون فيها عـدة سـجناء وقوفـاً، محشـورين، لأيـام ولأسـابيع، ولا يُخرجونهم منها إلا للتعذيب أو الذهاب إلى المرحاض.

ـ أجل، أجل... كنت في واحدة منها مع فيليبه بيدال ورجال آخرين. لم يكن يُقدم لنا ماء... كانت علبة بلا تهوية، ننضح فيها العرق، والدم، والبراز ـ تلعثم مانويـل منحنيـاً، ورأسـه يلامـس ركبتيـه ـ، وكانـت هنالـك زنـازين أخـرى عبـارة عـن كـوى فرديـة، أشـبه بقبـور، ببيـوت كـلاب... التشـنجات، العطش... أخرجوني من هنا!

أحطته أنا وبلانكا بدائرة من الأذرع والصدور والقبلات، أسندناه وبكينا معه. فقد رأينا واحدة من تلك الزنازين. وتوسلتُ كثيراً إلى الدليل كي يسمح لي بالدخول إليها. كان عليَّ أن أفعل ذلك زاحفة على ركبتي، وصرت في الداخل منكمشة، منطوية على نفسي، عاجزة عن تبديل الوضع الذي أنا عليه أو التحرك، وعندما أغلقوا الباب أصبحت محتجزة في الظلام. لم أتحمل أكثر من بضع ثوانٍ وبدأت أصرخ إلى أن أخرجوني بشدي من ذراعي. «قلة هم الذين خرجوا أحياء من هنا، وهؤلاء الأحياء أصيبوا بالجنون»، قال لنا الدليل.

ـ لقد صرنا نعرف أين تكون وأنت تحلم يا مانويل ـ قالت بلانكا.

❖ ❖

وأخيراً أخرجوا مانويل من قبره، ليحبسوا فيه سجيناً آخر. فقد تعبوا من تعذيبه، وأرسلوه إلى مركز اعتقال آخر. وبعد أن أنهى فترة الحكم عليه بالإبعاد إلى تشيلوي تمكن من الذهاب إلى استراليا، حيث كانت زوجته التي لم تعرف شيئاً عن أخباره طوال أكثر من سنتين، وقد اعتبرته ميتاً وصارت لها حياة أخرى ليس فيها متسع لمانويل الذي يعاني صدمة نفسية. توصلا إلى الطلاق بعد وقت قصير، مثلما جرى لمعظم المتزوجين في المنفى. وعلى الرغم من كل شيء، كان مانويل أوفر حظاً من منفيين كثيرين، لأن أستراليا بلاد مرحبة؛ فقد حصل هناك على عمل في مهنته واستطاع أن يؤلف كتابين، بينما كان يغرق في الكحول وفي مغامرات عابرة لا تؤدي إلا إلى مفاقمة هوة وحدته. ولم يستمر مع زوجته الثانية ــ وهي راقصة إسبانية تعرّف إليها في سيدني ـ سوى أقل من سنة. لقد كان عاجزاً عن الثقة بأحد أو الاستسلام لعلاقة حب، وكان يمر بفصول من العنف ونوبات رعب، لأنه ظل عالقاً دون خلاص في زنزانته في فيلا غريمالدي، وهو عارٍ ومثبت إلى سرير معدني ضيق بينما سجانوه يستمتعون بتعذيبه بشحنات كهرباء.

وذات يوم، في سيدني، اصطدم بسيارته بعمود اسمنت مسلح، وهو حادث غير محتمل حتى لشخص مشوش بالخمر، مثلما كانت حاله عندما حملوه من هناك. وقد توصل أطباء المستشفى، حيث ظل ثلاثة عشر يوماً في حالة حرجة وشهراً غير قادر على الحركة، إلى أنه حاول الانتحار. وضعوه على اتصال مع منظمة عالمية لمساعدة ضحايا التعذيب. وقد زاره وهو لا يزال في المستشفى طبيب نفساني له خبرة واسعة بحالات مثل حالته. ولم يستطع التوغل في رهاب مريضه، لكنه ساعده على تصريف تبدلات المزاج وفصول العنف والرعب، والتوقف عن الشرب وعيش حياة طبيعية في الظاهر. اعتبر مانويل أنه قد شفي، دون أن يولي اهتماماً لكوابيسه، أو للخوف المريع من المصاعد والأمكنة المغلقة، وواصل تناول مضادات الكآبة واعتاد على الوحدة.

في أثناء رواية ما جرى لمانويل انقطعت الكهرباء، مثلما يحدث عادة في الجزيرة في مثل هذا الوقت، ولم ينهض أي منا نحن الثلاثة لإشعال شموع. كنا نجلس في الظلام متلاصقين.

ـ سامحني يا مانويل ـ تلعثمت بلانكا بعد صمت طويل.

ـ أسامحك؟ ما عليّ إلا أن أشكرك ـ قال لها.

ـ سامحني بسبب عدم التفهم والعمى. لا يمكن لأحد أن يصفح عن المجرمين يا مانويل، ولكن ربما يمكنك أن تصفح عني وعن أسرتي. لقد ارتكبنا خطيئة الإهمال. والأمر أسوأ في حالتي، لأنني سافرتُ كثيراً في تلك السنوات، وكنت أعرف ما تنشره الصحافة الأجنبية عن بينوشيت، وفي أثناء ذلك كنت أفكر في أنها دعاية شيوعية.

جذبها مانويل إليه، وعانقها. فنهضتُ متلمسة طريقي لألقي بعض الحطب في المدفأة وأبحث عن شموع، وعن زجاجة نبيذ ومزيد من الشاي. كان البيت قد برد. وضعتُ بطانية فوق أرجلهما وتكورتُ على الصوفا المخلعة على الجهة الأخر من مانويل.

ـ لقد أخبرتك جدتك عنا إذاً يا مايا ـ قال مانويل.

ـ أخبرتني أنكما كنتما صديقين، ولا شيء أكثر. فهي لا تتكلم عن تلك الحقبة، ونادراً ما كانت تأتي على ذكر فيليبه بيدال.

ـ كيف عرفت إذاً أنني جدك؟

ـ بوبو هو جدي ـ أجبته وأنا أبتعد عنه.

كان كشفه أمراً غير مسبوق، حتى إنني تأخرت أكثر من دقيقة في فهم أبعاده. راحت الكلمات تفتح طريقها بضربات منجل متشيتي في ذهني المخدر وقلبي المشوش، ولكن معناها كان يتفلت مني.

ـ لم أفهم... ـ تلعثمت.

ـ أبوكِ أندريس هو ابني ـ قال مانويل.

ـ غير ممكن. لا يمكن لجدتي أن تكتم مثل هذا الأمر طيلة بضعة وأربعين عاماً.

ـ ظننتُ أنك تعرفين ذلك يا مايا. فقد قلتِ للدكتور بوغا أنك حفيدتي.

ـ كي يسمح لي بالدخول إلى العيادة!

في 1964 كانت نيني تعمل سكرتيرة وكان مانويل آرياس أستاذاً مساعداً في الكلية نفسها. كانت عمرها اثنين وعشرين عاماً، وهو في السابعة والعشرين من عمره، ولديه منحة في جيبه لدراسة دكتوراه العلوم الاجتماعية في جامعة نيويورك. لقد ربطت بينهما علاقة غرامية في فترة المراهقة، ولم يلتقيا خلال سنوات وحين التقيا مصادفة في الكلية جرفتهما عاطفة جديدة ومتلهفة، مختلفة جداً عن قصة الحب العذرية السابقة. وقد انتهت تلك العاطفة بصورة مؤثرة عند ذهابه إلى نيويورك واضطراهما إلى الفراق. وفي أثناء ذلك كان فيليبه بيدال ينطلق في مسيرة عمل صحفي ناجح. فقد كان في كوبا، دون أن تخطر بباله خيانة زوجته إلى حدّ أنه لم يشك قط في أن الابن الذي ولد في العام 1965 ليس ابنه. لم يعرف شيئاً عن مانويل

آرياس إلى أن تقاسما زنزانة مشؤومة، أما مانويل فكان يتابع عن بُعد نجاحاته كصحفي تحقيقات. تعرض حب مانويل ونيني إلى عدة انقطاعات، ولكنهما كانا يعودان إلى اشتعال لا مفر منه كلما التقيا، إلى أن تزوج هو في العام 1970، وهو العام الذي فاز فيه سلفادور ألليندي بانتخابات الرئاسة وبدأت تتشكل الكارثة السياسية التي انتهت في ما بعد بالانقلاب العسكري.

ـ وهل يعرف أبي ذلك؟ ـ سألتُ مانويل.

ـ لا أظن. فقد كانت نيديا تشعر بالذنب مما حدث بيننا ومستعدة للحفاظ على السرّ مهما كلف الأمر، وكانت ترمي إلى نسيان ما جرى وأن أنساه أنا أيضاً. ولم تذكر ذلك إلا في شهر كانون الأول من العام الماضي، عندما كتبت لي عنك.

ـ الآن فهمتُ لماذا استقبلتني في بيتك يا مانويل.

ـ لقد علمتُ بأمر وجودك من خلال مراسلاتي المتباعدة مع نيني يا مايا، وكنت أعرف أنكِ حفيدتي لكونك ابنة أندريس، ولكنني لم أولِ الأمر أهمية، وفكرتُ في أنني لن أتوصل إلى اللقاء بك أبداً.

جو التأمل والحميمية الذي كان سائداً قبل دقائق تحول إلى توتر شديد. فمانويل هو أبو أبي، وتجري في عروقنا الدماء نفسها. لم تحدث ردود فعل دراماتيكية، لا شيء من المعانقات المؤثرة ولا من دموع التعارف، ولا شيء من الاختناق بعبارات عاطفية؛ أحسست بذلك التصلب المرير الذي عرفته في أزمنتي السيئة، ولم أشعر به قط في تشيلوي. امّحت شهور المزاح والدراسة والتعايش مع مانويل، وتحوّل فجأة إلى شخص مجهول يكشف لي عن ممارسته الزنا مع جدتي.

انتهى الأمر ببلانكا إلى القول متنهدة:

ـ رباه! لماذا لم تخبرني بهذا كله من قبل يا مانويل؟ حتى الرواية التلفزيونية تبدو قاصرة أمام هذا.

كسر قولها السحر ونقى الهواء. تبادلنا النظرات على ضوء الشمعة الضارب إلى الصُّفرة، ابتسمنا بخجل ثم بدأنا نضحك بتردد في أول الأمر، وبعد ذلك بحماسة، من عبثية الحياة وعدم أهمية المسألة، فما دام الأمر لا يتعلق بالتبرع بعضو أو وراثة ثروة، فليس مهماً من هو جدي البيولوجي، والشيء الوحيد المهم هو المحبة، وهذه موجودة لدينا لحسن الحظ.

ـ بوبو هو جدي ـ رددت عليه.

فأجابني:

ـ لا أحد يشك في ذلك يا مايا.



من خلال رسائل جدتي نيني التي تكتبها لمانويل عبر مايك أوكلي، علمتُ أنهم وجدوا فريدي مغمياً عليه في أحد شوارع لاس فيغاس. حملته سيارة إسعاف إلى المستشفى نفسه الذي كان فيه من قبل حيث تعرفت إليه أولمبيا بيتفورد في واحدة من تلك المصادفات السعيدة التي تتوصل إليها **أرامل في سبيل يسوع** بقوة الصلوات. ظلّ الفتى في وحدة العناية المركّزة، يتنفس من خلال أنبوب متصل بآلة عالية الضجيج، بينما الأطباء يحاولون السيطرة على نزلة صدرية مضاعفة، أصيب بها عند أبواب فرن إحراق الجثث وكان عليهم بعد ذلك أن يستأصلوا كليته المعطوبة منذ الضرب الذي تلقاه في المرة السابقة، ومعالجة الأمراض الكثيرة التي سببتها له الحياة الخبيثة. نقل بعد ذلك إلى سرير في الطابق الذي تعمل فيه أولمبيا. وفي أثناء ذلك عبأت هي قوى يسوع المخلّصة ومواردها الخاصة لتحول دون أن تصل يد خدمة حماية الطفولة أو القانون إلى الصبي. وإلى أن حان موعد خروجه من المستشفى، كانت أولمبيا بيتفورد قد حصلت على تصريح قضائي يخولها تولي مسؤوليته، متعللة برابطة قرابة وهمية، وهكذا أنقذته من إرساله إلى مركز تأهيل شبابي أو السجن. يبدو أن الضابط آرانا قد ساعدها في ذلك بعد أن علم أنهم قد

أدخلوا إلى المستشفى صبياً له مواصفات فريدي فذهب لرؤيته مستغلاً بعض لحظات فراغه. وجد أن أولمبيا تمنع الدخول مصممة على فرض رقابة على زيارات المريض الذي كان لا يزال ضائعاً في ميدان القلق بين الحياة والموت.

خشيت الممرضة أن يكون في نية آرانا اعتقال ربيبها، ولكن الضابط أقنعها بأنه لا يرغب إلا في أن يطلب منه معلومات عن صديقة له تدعى لورا بارون. وقال لها إنه مستعد لمساعدة الصبي، وقد اتفقت معه على ذلك، ودعته لتناول عصير في الكافيتريا والتحدث هناك. أوضحت له أنه في أواخر السنة الماضية جاء فريدي إلى بيتها بالمدعوة لورا بارون، وهي مدمنة ومريضة، واختفى بعد ذلك. ولم تعد تعرف شيئاً عنه إلى أن خرج من غرفة العمليات بكلية واحدة ووُضع في صالة من طابقها. أما بشأن لورا بارون، فلا يمكنها أن تقول له إلا أنها اعتنت بها بضعة أيام وما إن استعادت الفتاة القليل من عافيتها حتى جاء أقرباء لها للبحث عنها وأخذوها معهم، ربما إلى برنامج لإعادة التأهيل، مثلما نصحتهم هي نفسها. وأنها تجهل إلى أين ذهبوا وليس لديها رقم الهاتف الذي أعطتها إياه الفتاة للاتصال بجدتها. ونبهت آرانا بنبرة قابلة للجدل إلى أنه لا بد من ترك فريدي بسلام، لأن الفتى لا يعرف شيئاً عن تلك المدعوة لورا بارون.

عندما خرج فريدي من المستشفى، أخذته أولمبيا بيتفورد إلى بيتها ووضعته بين أيدي فريق **الأرامل** المسيحيات الرهيب. كان الفتى قد أمضى حتى ذلك الحين شهرين من الانقطاع عن المخدرات ولم تكن قواه الضئيلة تتيح له أكثر من مشاهدة التلفزيون. وبنظام تغذية **الأرامل** القائم على الفواكه راح يسترد قواه، وعندما قدّرت أولمبيا أنه صار قادراً على الهرب إلى الشارع والعودة إلى جحيم الإدمان، تذكرت رجل الكرسي ذي عجلات الذي تحتفظ ببطاقة التعريف به بين صفحات كتابها المقدس، فاتصلت به. سحبت مدخراتها من المصرف، واشترت تذاكر السفر واقتادت فريدي مع قوة معززة

من ثلاث نساء إلى كاليفورنيا. وقد حضرن، على حدّ قول جدتي، يرتدين ثياب يوم الأحد، إلى الجحر الذي بلا تهوية، بالقرب من سجن الأحداث، حيث يعمل بياض الثلج الذي كان ينتظرهن. ملأتني القصة بالأمل، لأنه إذا كان هناك شخص في هذا العالم قادراً على مساعدة فريدي فإنه مايك أوكلي.

❖ ❖

حضر دانييل غودريتش وأبوه ندوة للمحللين النفسانيين اليونغيين في سان فرانسيسكو، حيث كان الموضوع الأساسي هو *كتاب أحمر* (*Liver Novus*) الصادر حديثاً لكارل يونغ، بعد أن ظل محفوظاً لعقود في صندوق خزنة بسويسرا، محجوباً عن عيون العالم ومحاطاً بسر كبير. وقد اشترى السير روبرت غودريتش، بسعر الذهب، واحدة من النسخ الفاخرة الخاصة، مطابقة تماماً للنسخة الأصلية، سيرثها دانييل. وقد انتهز هذا الأخير بطالة يوم الأحد وذهب إلى بيركلي لزيارة أسرتي، وحمل معه صوراً لمروره في تشيلوي.

وقد أصرت جدتي، بأفضل التقاليد التشيلية، على استضافته في بيتها تلك الليلة وخصصت له حجرتي التي كانت قد طُليت بلون أكثر هدوءاً من لون مانجا طفولتي الصارخ، وجُردت من التنين المجنح المعلق بالسقف، ومن صور الأطفال سيئي التغذية التي كانت معلقة على الجدران. دُهل الضيف بطرافة جدتي وببيت بيركلي الكبير، وبدا له أكثر تداعياً، وروماتزمية، وتلوناً مما توصلت أنا إلى وصفه له. كان المستأجر الهندي قد استخدم برج النجوم لتخزين بضائع، ولكن مايك أرسل عدداً من منحرفيه التائبين لكشط القذارة وإعادة التلسكوب إلى مكانه. وتقول نيني إن ذلك طمأن بوبو الذي كان يهيم من قبل على وجهه في البيت متعثراً بصناديق وحزم من الهند. امتنعت عن إخباره بأن بوبو موجود في تشيلوي، لأنه قد يكون قادراً على التجوال في عدة أمكنة في الوقت نفسه.

ذهب دانييل مع نيني للتعرف إلى المكتبة، والهيبين المسنين في شارع

تلغراف، وأفضل مطعم نباتي، والمنتدى التشيلي، وللتعرف بالطبع أيضاً على مايك أوكلي. وقد كتب لي دانييل: «الأيرلندي مغرم بجدتك، ولا أظن أنها، هي أيضاً، غير مهتمة بأمره»، ولكنني أجد صعوبة في تصور أنه يمكن لجدتي أن تأخذ بياض الثلج على محمل الجد، لأنه بالمقارنة مع جدي بوبو لا يبدو أكثر من شيطان بائس. ولكن الصحيح أن أوكلي ليس سيئاً تماماً، لأن كل شخص هو شيطان بائس بالمقارنة مع جدي بوبو.

وفي شقة مايك كان فريدي قد تغير كثيراً كما يبدو خلال هذه الشهور، لأن وصف دانييل له لا يتوافق مع الصبي الذي أنقذ حياتي مرتين. ففريدي في برنامج مايك لإعادة التأهيل، شخص متزن وبصحة جيدة ظاهرياً، لكنه مكتئب، ليس له أصدقاء، لا يخرج إلى الشارع، ولا يريد أن يدرس أو يشتغل. أوكلي يقول إنه بحاجة إلى الوقت، وعلينا أن نؤمن بأنه سيخرج قُدماً، لأنه مازال فتياً جداً وهو طيب القلب، وهذا أمر يساعد على الدوام. لم يُبدِ الفتى أي اهتمام بصور تشيلوي وبأخباري، ولولا الإشارة إلى أن إحدى يديه فقدت إصبعين، لظننت أن دانييل قد خلط بينه وبين شخص آخر.

وصل أبي في ظهيرة ذلك اليوم، قادماً من إحدى الإمارات العربية، وتناول الغداء مع دانييل. إنني أتصور الثلاثة في مطبخ البيت القديم، وفوط المائدة البيضاء المهترئة من كثرة الاستخدام، وإبريق الخزف الأخضر نفسه للماء، وزجاجة نبيذ ***سوفينيون بلان*** الذي يفضله أبي، وعبق «حساء السمك» الذي تحضره جدتي، وهو تنويع تشيلي ***للشيوبينو*** الإيطالي والـ *bouillabaisse* الفرنسي، مثلما تصفه هي نفسها. وانتهى صديقي إلى القول، بسخرية، إن أبي سهل الدمعة، لأنه تأثر عندما رأى صوري، وأنني لا أشبه أحداً من أسرتي الضيقة. عليهم أن يروا مارتا أوتير، أميرة لابونيا. لقد أمضى دانييل يوم ضيافة بديعاً وغادر بفكرة أن بيركلي هي بلد من العالم الثالث. لقد انسجم مع جدتي، مع أنني الشيء الوحيد المشترك بينهما، إضافة إلى ضعفهما أمام

مثلجات النعناع. وبعد تقديرهما للمخاطر، اتفقا على تبادل أخبارهما بالهاتف، فهو وسيلة أقل خطورة طالما تجنبا الإتيان على ذكر اسمي في مكالماتهما.

ـ طلبتُ من دانييل أن يأتي إلى تشيلوي في عيد الميلاد ـ أخبرتُ مانويل.

ـ في زيارة، أم ليأخذك، أم للبقاء هنا؟ ـ سألني.

ـ لستُ أدري يا مانويل.

ـ وماذا تفضلين؟

ـ البقاء هنا! ـ أجبته دون تردد، ومفاجئة إياه بتصميمي.



منذ أن تبينّا صلة القرابة بيننا، صار مانويل ينظر إليّ بعينين تبللهما دمعتان، وقد جاءني يوم الجمعة بشوكولا من كاسترو. فقلت له: «أنتَ لستَ خطيبي يا مانويل، وأخرج من رأسك أنك ستحل محل بوبو». وردّ عليّ: «لا يخطر لي شيء من هذا أيتها الغرينغية البلهاء». علاقتنا مازالت كما في السابق، لا شيء من التملق وكثير من المكر، ولكنه صار يبدو شخصاً آخر، وقد لاحظت بلانكا ذلك أيضاً. آمل ألا يلين كثيراً ويتحول إلى عجوز خرف. لقد تغيرت العلاقة بينهما أيضاً. فمانويل يقضي عدة ليالٍ كل أسبوع في بيت بلانكا ويتركني مهجورة وحدي، دون رفقة أخرى سوى ثلاثة خفافيش، وقطين مهووسين، وكلب أعرج. لقد أتيحت لنا فرصة للتحدث عن ماضيه الذي لم يعد تابو، ولكنني لم أجرؤ بعد على فتح الموضوع بنفسي؛ أُفضّل الانتظار إلى أن يأخذ هو زمام المبادرة، وهو أمر يحدث بشيء من التواتر، فبعد إزاحة الغطاء عن علبة باندورة، صار مانويل بحاجة إلى البوح والفضفضة عن نفسه.

رسمتُ لوحة دقيقة إلى حدّ بعيد للمصير الذي لقيه فيليبه بيدال، وذلك بفضل ما يتذكره مانويل وشكوى زوجته التفصيلية في النيابة الرسولية للتضامن، حيث يحتفظون في أرشيفهم برسالتين كتبهما هو نفسه إليها قبل

اعتقاله. وقد خرقتُ قواعد السرية، وكتبت إلى نيني من خلال دانييل الذي أوصل إليها الرسالة، كي أطلب منها تفسيرات. فردّت عليّ عبر الواسطة نفسها وبهذا أكملتُ المعلومات الناقصة.

ففي فوضى الأيام الأولى بعد الانقلاب العسكري، ظن فيليبه ونيديا بيدال أن بقاءهما متخفيين يمكن أن يتيح لهما العيش بصورة طبيعية. كان فيليبه بيدال يدير برنامجاً سياسياً في التلفزيون خلال سنوات حكم سلفادور ألليندي الثلاث، وهو سبب أكثر من كافٍ لاعتباره مشبوهاً من قبل العسكريين. ومع ذلك لم يجرِ اعتقاله. وكانت نيديا تعتقد أن الديمقراطية ستعود سريعاً، أما هو فكان يخشى من أنها ستكون دكتاتورية طويلة النفس، لأنه في ممارسته للصحافة كتب تحقيقات عن حروب وثورات وانقلابات عسكرية، وكان يعرف أن العنف عندما ينفلت لا يعود بالإمكان كبحه. وقبل الانقلاب كان يتوجس بأنهم يجلسون على برميل بارود جاهز للانفجار، وقد نبه الرئيس في حديث خاص، بعد مؤتمر صحفي. فسأله الرئيس ألليندي: «هل تعرف شيئاً لا أعرفه يا رفيق بيدال؟». فأجابه دون مقدمات: «لقد جسست نبض البلاد وأظن أن العسكريين سيتمردون». فقال له ألليندي بلهجة مهيبة: «لدى تشيلي تقاليد ديمقراطية طويلة، ولا وجود هنا لمن يستولي على السلطة بالقوة. إنني أدركُ خطورة هذه الأزمة يا رفيق، ولكنني أثق بقائد القوات المسلحة وبشرف جنودنا، أعرف أنهم سيؤدون واجبهم»، قال ذلك كمن يتحدث إلى الأجيال التالية. وكان يشير إلى الجنرال أغوسطو بينوشيت الذي عينه الرئيس نفسه قائداً للجيش قبل وقت قريب، وهو رجل ريفي، من أسرة عسكريين محترفين، أوصاه بتعيينه سلفه الجنرال براتس الذي أقيل بضغوط سياسية. لقد أعاد الصحفي بيدال نشر تلك المحادثة حرفياً في عموده الصحفي. وبعد تسعة أيام من ذلك، في يوم الثلاثاء 11 أيلول، سمع من المذياع آخر كلمات للرئيس يودع بها الشعب قبل أن يموت، ودوي القنابل

تتساقط على قصر لامونيدا، مقر الرئاسة. عندئذ هيأ نفسه لكل ما هو أسوأ. لم يكن يؤمن بخرافة السلوك الحضاري للعسكريين التشيليين، لأنه درس التاريخ، وفيه ما يكفي من الأدلة على العكس. كان يحدس أن القمع سيكون رهيباً.

أعلن المجلس العسكري حالة الحرب، وكان من إجراءاته الفورية فرض رقابة على وسائل الاتصال. لم يعد يجري تداول أخبار وإنما إشاعات لا تحاول الدعاية الرسمية إسكاتها لأنها ملائمة لنشر الرعب. وكان الكلام يدور عن معسكرات اعتقال ومراكز تعذيب، وآلاف آلاف المعتقلين والمنفيين والقتلى، وعن دبابات تجتاح أحياء عمالية، وجنود يُعدمون رمياً بالرصاص لرفضهم الانصياع وتنفيذ الأوامر، وعن معتقلين يجري إلقاؤهم إلى البحر من طائرات هيلوكبتر وهم مقيدون إلى قطع من قضبان سكك الحديد وبطونهم مبقورة كي يغرقوا. دَوَّن فيليبيه بيدال ملاحظات عن الجنود المسلحين لخوض حرب، وعن الدبابات، وهدير الشاحنات العسكرية، وأزيز طائرات الهيلوكبتر، والناس الذين يجري اقتيادهم بالضرب. نزعت نيديا ملصقات مغني الاحتجاج عن الجدران وجمعت الكتب، بما في ذلك الروايات غير المؤذية وذهبت لتلقي بها إلى المزبلة، لأنها لم تدر كيف تحرقها دون أن تلفت الانتباه. لقد كان حذراً بلا جدوى، فهنالك مئات المقالات والوثائق والتسجيلات التي تشي بعمل زوجها الصحفي.

فكرة وجوب اختفاء فيليبيه جاءت من زوجته نيديا؛ فهكذا يكونون أكثر طمأنينة، واقترحت عليه أن يذهب إلى الجنوب، حيث له عمه. وقد كانت عمته دونيا إغناثيا ثمانينية متميزة جداً، تستقبل منذ خمسين عاماً محتضرين في بيتها. ثلاث خادمات يكدن يكن هرمات مثلها، يتعاونَّ معها في مهمتها النبيلة بمساعدة مرضى نهائيين من عائلات متميزة على الموت، لأن عائلاتهم لا تستطيع أو لا تريد تحمل مسؤوليتهم. لا أحد يزور ذلك المنزل باستثناء ممرضة وكاهن، يأتيان مرتين كل أسبوع لتوزيع أدوية وخبز قربان،

لأنه من المعروف أن الموتى هناك يعانون. لم يكن فيليبه بيدال يؤمن بشيء من ذلك، ولكنه في إحدى رسائله إلى زوجته أبدى موافقته على أن قطع الأثاث تتحرك وحدها في الليل، وأنه لا يستطيع النوم بسبب صفق أبواب وخبط على السطح لا تفسير لهما. قاعة الطعام تُستخدم في أحيان كثيرة كحجرة مأتمية لتسجية الموتى، وفيها خزانة ممتلئة بأطقم أسنان اصطناعية ونظارات وعلب أدوية يخلّفها النزلاء عند مغادرتهم إلى السماء. استقبلته دونيا إغنائيا بذراعين مفتوحين. لم تكن تتذكر من يكون فيليبه بيدال وظنت أنه مريض آخر أرسله الرب، ولهذا فوجئت بمظهره المعافى.

كان البيت تحفة كولونيالية، من الطين والقرميد، معتنى به، وله فناء داخلي. الغرف تطل على رواق تذوي فيه شجيرات معفرة بالغبار وتنقر هناك دجاجات مفلتة. كانت الدعائم والأعمدة الخشبية منحنية، وفي الجدران فجوات والنوافذ مخلعة من كثرة الاستخدام والهزات الأرضية، والسقف يقطر من عدة ثقوب، وتيارات الهواء والأرواح الهائمة تحرك عادة تماثيل القديسين التي تزين الحجرات. كان البيت عتبة متقنة للموت، فهو جليدي، رطب، كالح كمقبرة، ولكنه بدا فاخراً لفيليبه بيدال. فالغرفة التي خُصصت له بحجم بيته كله في سنتياغو، فيها مجموعة أثاث ثقيل، ونوافذ بقضبان حديدية، وسقف مرتفع جداً حتى إن لوحات المشاهد التوراتية تُعلق مائلة من أجل التمكن من رؤيتها وتقديرها من تحت. وتبين له أن الطعام ممتاز، لأن العمة شرهة لا تبخل بشيء على محتضريها الذين يظلون خامدين في أسرّتهم، يتنفسون ويحشرجون ويكادون لا يتذوقون لقمة واحدة.

من ذلك المخبأ في الريف حاول فيليبه أن يحرك الخيوط كي يوضح وضعه. لقد كان بلا عمل، فقد جرى الحجز على قناة التلفزيون، وصحيفته دُمرت وأُحرق مبناها حتى الأساس. كان قلمه ووجهه مرتبطين بصحافة اليسار، ولا يمكن له أن يحلم بالحصول على وظيفة في مهنته، ولكن لديه

بعض المدخرات ليعيش بضعة شهور. مشكلته المباشرة هي تقصي إن كان اسمه في القائمة السوداء، والهروب من البلاد إذا كان كذلك. كان يرسل رسائل مشفرة واستشارات متكتمة بالهاتف، لكن أصدقاءه ومعارفه يرفضون الردّ عليه أو يدوخونه بالاعتذارات.

بعد انقضاء ثلاثة شهور اعتاد على شرب نصف زجاجة بيسكو في اليوم، وكان مكتئباً ويشعر بالخجل من نفسه، فبينما هناك آخرون يناضلون في السرية ضد الدكتاتورية العسكرية، يأكل هو كأمير على حساب عجوز معتوهة تضع ميزان الحرارة في فمه في كل لحظة. كان يموت من الضجر. يتجنب مشاهدة التلفزيون كيلا يسمع البيانات والمارشات العسكرية، ولا يقرأ، لأن الكتب في البيت كلها من القرن التاسع عشر، ونشاطه الاجتماعي الوحيد هو الصلاة المسائية التي تصليها الموظفات والعمة من أجل أرواح المحتضرين، وعليه أن يشارك فيها، لأنها الشرط الوحيد الذي فرضته عليه دونيا إغناثيا لتوفير الإقامة له. كتب في تلك الفترة عدة رسائل لزوجته، روى لها فيها تفاصيل عن حياته هناك، وقد استطعت قراءة اثنتين من تلك الرسائل في أرشيف النيابة الرسولية للتضامن. بدأ يخرج قليلاً، حتى الباب أول الأمر، وبعد ذلك إلى المخبز الذي على الناصية وإلى كشك الصحف، وسرعان ما صار يقوم بجولة حتى الساحة وصالة السينما. وفوجئ بأن الصيف قد تقدم وأن الناس يستعدون للإجازات بمزاج طبيعي، كما لو أن دوريات الجنود الذين يضعون الخوذ ويحملون البنادق الآلية هي جزء من المشهد المديني. مرّ الاحتفال بأعياد الميلاد وبدأ العام 1974 وهو بعيد عن زوجته وابنه، ولكنه في شهر شباط، وكان قد مضى عليه خمسة شهور وهو يعيش مثل فأر، دون أن يظهر ما يشير إلى أن الشرطة السرية تبحث عنه، قرر أن الوقت قد حان ليرجع إلى العاصمة ويعيد إلصاق الأجزاء المفتتة من حياته وأسرته.

❖ ❖

ودّع فيليبه بيدال دونيا إغناثيا والخادمات اللاتي ملأن حقيبته بقوالب الجبن والحلوى، وكن متحمسات لأنه المريض الوحيد ـ خلال نصف قرن ـ الذي بدل أن يموت ازداد وزنه تسعة كيلوغرامات. وضع نظارة بعدستين ملونتين وقص شعره الطويل وشاربه، فلم يعد من الممكن التعرف إليه. رجع إلى سنتياغو وقرر أن يشغل وقته في كتابة مذكراته، لأن الظروف مازالت غير ملائمة للبحث عن عمل. بعد شهر من ذلك خرجت زوجته من عملها، ومرت لأخذ ابنها أندريس من المدرسة وشراء شيء من أجل العشاء. وعندما وصلت إلى الشقة وجدت الباب مخلوعاً والقط ملقى عند العتبة ورأسه مهشم.

قامت نيديا بيدال بالجولة المعهودة للسؤال عن زوجها، مثلها مثل مئات الأشخاص الآخرين المغمومين الذين يقفون بالدور أمام مراكز الشرطة، والسجون ومراكز الاعتقال، والمستشفيات ومستودعات الجثث. اسم زوجها غير وارد في القائمة السوداء، وهو غير مسجل في أي مكان، ولم يُعتقل قطّ، لا تبحثي عنه يا سيدتي، من المؤكد أنه ذهب مع عشيقة إلى ميندوثا. وكان يمكن لتجوالها أن يتواصل لسنوات لو أنها لم تتلق رسالة.

في تلك الأثناء كان مانويل آرياس في فيلا غريمالدي التي دُشنت قبل قليل من ذلك كثكنة لجهاز مخابرات DINA، في إحدى زنازين التعذيب، ينحشر واقفاً بين معتقلين آخرين غير قادرين على الحركة. وبينهم كان فيليبه بيدال الذي يعرفه الجميع من خلال برنامجه التلفزيوني. أما بيدال فلم يكن يعرف بالطبع أن زميله في الزنزانة مانويل آرياس هو أبو اندريس، الطفل الذي يعتبره هو نفسه ابنه. بعد يومين اقتادوا فيليبه بيدال إلى التحقيق ولم يرجع.

كان من عادة السجناء التواصل بالطرق والخرمشة على الحيطان الخشبية التي تفصل بينهم، وهكذا علم مانويل أن بيدال قد أصيب بسكتة قلبية وهو على سرير التعذيب الكهربائي. وأن جثته قد أُلقيت في البحر مثل آخرين كثيرين. تحول الاتصال بنيديا إلى هاجس يؤرقه. فأقل ما يمكن أن يفعله لتلك

المرأة التي أحبها كثيراً هو الحيلولة دون أن تقضي حياتها في البحث عن زوجها وأن يطلب منها أن تهرب من البلاد قبل أن يُخفوا آثارها هي أيضاً.

لقد كان إرسال الرسائل إلى خارج السجن مستحيلاً، ولكن جرت في تلك الأيام، بمصادفة إعجازية، أول زيارة للصليب الأحمر، لأن التنديد بخرق حقوق الإنسان كان يعم العالم. فكان لا بد من إخفاء المعتقلين، وتنظيف الدماء، ورفع حواجز التفتيش. وقاموا بعلاج مانويل كيفما اتفق مع معتقلين وآخرين في حالة لا بأس بها، وجعلوهم يستحمون وأعطوهم ثياباً نظيفة، وعرضوهم على المراقبين مع تحذيرهم بأن أسرهم ستعاني عاقبة أي تهور منهم. استغل مانويل الفرصة كي يرسل رسالة إلى نيديا بيدال خلال الثواني القليلة التي تمكن خلالها من الهمس بجملتين لأحد أعضاء لجنة الصليب الأحمر.

تلقت نيديا الرسالة، وعرفت ممن هي آتية ولم تشك في صحتها. اتصلت بكاهن بلجيكي يعمل في النيابة الرسولية للتضامن، كانت تعرفه من قبل، فرتب الأمر لإدخالها مع ابنها إلى سفارة هندوراس، حيث أمضيا شهرين بانتظار الحصول على تصريح بمغادرة البلاد. كان مقر الإقامة الدبلوماسي ذاك ممتلئاً حتى آخر ركن منه بحوالي خمسين رجلاً وامرأة وطفلاً ينامون على الأرض ويُبقون الحمامات الثلاثة مشغولة طيلة الوقت، بينما السفير يسعى إلى تأمين ملجأ لهم في بلدان أخرى، لأن بلده امتلأ ولا يمكنه استقبال مزيد من اللاجئين. بدت المهمة بلا نهاية، لأن آخرين ممن يلاحقهم النظام كانوا يقفزون بين وقت وآخر عن السور، من الشارع، ويحطون في فناء السفارة. توصل السفير إلى موافقة كندا على استقبال عشرين شخصاً، منهم نيديا واندريس بيدال، فاستأجر حافلة، ووضع عليها لوحة دبلوماسية وعلمين هندوراسيين، وقادها بنفسه يرافقه الملحق العسكري والعشرين لاجئاً إلى المطار ثم إلى باب الطائرة بعد ذلك.

قررت نيديا أن تُؤَمّن لابنها حياة طبيعية في كندا، بلا خوف ولا كراهية

ولا أحقاد. لم تكذب عندما قالت له إن أباه قد مات بسكتة قلبية، لكنها سكتت عن التفاصيل المرعبة، لأن الطفل كان صغيراً جداً على استيعابها. وراحت السنون تمضي دون أن تجد الفرصة ـ أو المسوغ المناسب ـ لتوضح له ظروف ذلك الموت. ولكنني بعد أن قمتُ بنبش الماضي، صار على جدتي نيني أن تفعل ذلك. وعليها أن تخبره أن فيليبه بيدال، الرجل الذي يضع صورته دوماً على الكوميدينو إلى جانب سريره، لم يكن أباه.

❖ ❖

وصلنا طرد بريدي على عنوان **حانة الميت**، وقبل أن نفتحه عرفنا من الذي أرسله، لأنه آت من سياتيل. وضم الرسالة التي كنت بحاجة شديدة إليها، رسالة طويلة ومليئة بالتفاصيل، ولكن بلا اللغة العاطفية التي كان يمكن لها أن تنهي شكوكي بشأن دانييل. وكان يضم كذلك الصور الملتقطة في بيركلي: جدتي بمظهر أفضل مما كانت عليه في العام السابق، إذ صبغت شعرها الشائب، يتأبط ذراعها أبي ببدلته كطيار، إنه وسيم على الدوام. وصورة لمايك واقفاً ومتشبثاً بجهاز المشي، بصدر وذراعي مصارع وساقين ضامرتين بفعل الشلل. وصور للبيت السحري المظلل بأشجار الصنوبر في يوم خريفي مضيء؛ وصور لشاطئ سان فرانسيسكو فيه لطخات أشرعة بيضاء. أما فريدي فليس له سوى صورة فورية واحدة، ربما تم التقاطها في لحظة سهو من الصبي الذي لا يظهر في الصور الأخرى كما لو أنه يتجنب الكاميرا متعمداً. ذلك الكائن ذو العينين الجائعتين، بارز العظام والحزين، كان مثل أشباح مبنى براندون ليمان. والتحكم بإدمانه قد يتطلب سنوات من مسكيني فريدي، هذا إن توصل إلى التخلص من الإدمان. وحتى ذلك الحين سيظل يعاني.

وكان في الطرد كذلك كتاب حول المافيا، سأقرؤه فيما بعد، وتحقيق صحفي طويل من إحدى المجلات حول أكبر مزيف دولارات مطلوب في العالم، وهو أمريكي في الرابعة والأربعين من العمر، يدعى آدم تريفور، تم

اعتقاله في شهر آب، بمطار ميامي، عندما حاول الدخول إلى الولايات المتحدة بشخصية مزورة، قادماً من البرازيل. وكان قد هرب من البلاد مع زوجته وابنه في منتصف العام 2008، مغافلاً مكتب التحقيقات الفيدرالي والانتربول. وقد احتُجز في سجن فيدرالي. وبسبب احتمال أن يقضي بقية حياته في زنزانة، قدّر أنه من الأفضل له التعاون مع السلطات مقابل الحصول على حكم بالسجن لمدة أقصر. ويمكن للمعلومات التي قدمها تريفور أن تؤدي إلى تفكيك شبكة دولية قد تؤثر على الأسواق المالية من وول ستريت حتى بكين، كما يقول المقال.

بدأ تريفور صناعته للدولارات المزيفة في ولاية جورجيا في الجنوب ثم انتقل إلى تكساس، بالقرب من الحدود النفوذة مع المكسيك. وقد ركّب آلته لتزييف الأوراق النقدية في قبو مصنع للأحذية مغلق منذ عدة سنوات، بمنطقة صناعية نشطة جداً في النهار وميتة في الليل، وهو الوقت الذي يستطيع فيه نقل مواده دون لفت الانتباه. وكانت أوراقه النقدية متقنة تماماً كما أكد الضابط آرانا في لاس فيغاس، لأنه حصل على قصاصات الورق نفسه بلا نشاء مثلما هو ورق النقود الحقيقية، وقد طور تقنية عبقرية لتركيب شريط الضمان المعدني؛ بحيث لا يمكن لأكبر أمين صندوق خبرة أن يكتشف التزييف. أضف إلى ذلك أن جزءاً من إنتاجه كان أوراقاً من فئة الخمسين دولاراً، وهي نادراً ما تخضع للتدقيق نفسه التي تخضع له أوراق النقد عالية القيمة. وتكرر المجلة ما قاله آرانا: كانت الدولارات المزيفة تُرسل دوماً إلى خارج الولايات المتحدة، حيث تخلطها عصابات إجرامية بأوراق حقيقية قبل وضعها في التداول.

وفي اعترافاته أقر آدم تريفور بخطأ إعطائه نصف مليون دولار لأخيه في لاس فيغاس كي يخبئها، وقد جرى اغتيال ذلك الأخ قبل أن يتمكن من إخباره أين خبأ الغنيمة. وما كان بالإمكان اكتشاف أي شيء لو أن الأخ ـ

وهو تاجر مخدرات ضئيل الأهمية أطلق على نفسه اسم براندون ليمان ـ لم يبدأ بالإنفاق من تلك النقود. وكان يمكن أن تنقضي سنوات دون اكتشاف الأمر في بحر الأموال التي يجري تداولها نقداً في كازينوهات نيفادا، غير أن براندون ليمان استخدم تلك الأوراق في رشوة رجال شرطة أيضاً، ومن هذا الأثر بدأ مكتب التحقيقات الفيدرالي بحل عقد القضية.

أبقت إدارة شرطة لاس فيغاس فضيحة الرشى تحت السيطرة إلى هذا الحد أو ذاك، ولكن تسرب شيء من ذلك إلى الصحافة، وجرت عملية تطهير سطحية من أجل تهدئة سخط الجمهور، وجرت إقالة عدة ضباط فاسدين. وينهي الصحفي ريبورتاجه بفقرة أرعبتني:

> نصف مليون دولار مزيفة ليست بالمسألة الخطيرة. والقضية المهمة هي العثور على بلاكات طباعة الأوراق النقدية التي أعطاها آدم تريفور لأخيه ليخبئها، قبل أن تقع تلك البلاكات بيد جماعات إرهابية أو بعض الحكومات، مثل حكومتي كوريا الشمالية وإيران، المهتمة بإغراق السوق بدولارات مزيفة وتخريب الاقتصاد الأمريكي.



جدتي وبياض الثلج مقتنعان بأنه لم يعد هناك وجود للخصوصية، وصار يمكن معرفة أشد الأمور الحميمة في حياة أي شخص، ولم يعد بإمكان أحد التخفي لأنه يكفي استخدام بطاقة ائتمان، أو الذهاب إلى طبيب الأسنان، أو الصعود إلى قطار، أو الاتصال بهاتف كي يترك أحدنا أثراً لا يُمحى. ومع ذلك، يختفي كل عام مئات آلاف الأطفال والبالغين لأسباب مختلفة: الخطف، الانتحار، القتل، الأمراض الذهنية، الحوادث. وهناك كثيرون يهربون من العنف المنزلي أو القانون، ويدخلون في طائفة ما أو يسافرون بهوية أخرى، وهذا كله دون ذكر ضحايا تجارة الجنس أو من يُستغلون في أعمال

سخرة كالعبيد. فهناك حالياً، على حدّ قول مانويل، سبعة وعشرون مليون عبد، على الرغم من أن العبودية قد أُلغيت في العالم بأسره.

في العام الماضي كنتُ واحدة من أولئك الأشخاص المختفين وكانت جدتي نيني عاجزة عن العثور عليّ، بالرغم من أنني لم أفعل شيئاً خاصاً للتخفي. فهي ومايك يعتقدان أن حكومة الولايات المتحدة، بحجة الإرهاب، تتجسس على كل حركاتنا ونوايانا، ولكنني أشك في قدرتها على دخول بلايين الرسائل الإلكترونية والأحاديث الهاتفية، فالفضاء مشبع بكلمات بمئات اللغات، ومن المستحيل تنظيم وحل رموز الرطانة المتنوعة في برج بابل هذا. «بل يمكنهم عمل ذلك يا مايا، لديهم التكنولوجيا وملايين البيروقراطيين التافهين الذين تتمثل مهمتهم الوحيدة في التجسس علينا. وإذا كان على الأبرياء أن يتوخوا الحذر، فالمسوغ أكبر في أن تكوني أنت حذرة، خذي بنصيحتي»، ألحت نيني وهي تودعني في سان فرانسيسكو، في شهر كانون الثاني. وقد تبين أن أحد أولئك الأبرياء صديقها نورمان، ذلك العبقري المقيت الذي ساعدها في خرق بريدي الإلكتروني وهاتفي المحمول في بيركلي، فقد عمد إلى نشر نكات ومزاح عن بن لادن في الانترنت، وقبل مضي أسبوع واحد ظهر عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي في بيته لاستجوابه. لم يفكك أوباما آلية التجسس المنزلي التي أقامها سلفه، ولهذا فإن أي حذر يبدو قليلاً، هذا ما تؤكده جدتي، ومانويل آرياس يوافقها الرأي.

لدى مانويل ونيني رموز خاصة للتحدث عني: الكتاب الذي يعمل على تأليفه هو أنا. ولكي يعطي جدتي فكرةً عن كيفية تقدمي في تشيلوي، مثلاً، يقول لها مانويل إن الكتاب يتقدم بأفضل مما هو متوقع، ولم يتعثر بأي مشكله جدية والتشيلويين المنغلقين عادة، بدؤوا بالتعاون. ويمكن لجدتي أن تكتب إليه بقدر أكبر من الحرية طالما هي لا تفعل ذلك من كمبيوترها الخاص. هكذا علمتُ بانتهاء إجراءات طلاق أبي، وأنه مازال يطير إلى الشرق

الأوسط، وأن سوزان قد رجعت من العراق وحوّلوها للعمل في جهاز أمن البيت الأبيض. وقد حافظت جدتي على التواصل معها، لأنهما توصلتا لأن تكونا صديقتين، على الرغم من الصدامات التي عرفتاها في البدء، حين كانت الحماة تتدخل بكثرة في خصوصية الكنة. وأنا أيضاً كتبتُ إلى سوزان فور تطبيع وضعي. فأنا لا أريد خسارتها لأنها كانت طيبة معي.

واصلت نيني عملها في المكتبة، ومرافقة المحتضرين مع جمعية **هوسبيس**، ومساعدة أوكلي. وتحول «نادي المجرمين» إلى خبر في صحافة الولايات المتحدة بعد كشف اثنين من أعضائه عن هوية سفاح ارتكب سلسلة جرائم قتل في أوكلاهوما. فمن خلال استنتاج منطقي توصلا إلى ما لم تستطع الشرطة التوصل إليه بتقنيات تحريها الحديثة. وقد استثارت الشهرة سيلاً من طلبات الانتساب إلى النادي. فرأت نيني أن تتقاضى رسوماً شهرية من الأعضاء الجدد، أما أوكلي فيؤكد أن ذلك سيُفقد النادي مثاليته.

ـ يمكن لبلاكات آدم تلك أن تسبب كارثة في النظام الاقتصادي العالمي. إنها المعادل لقنبلة ذرية ـ قلتُ لمانويل.

ـ لقد صارت في قاع خليج سان فرانسيسكو.

ـ لسنا متأكدين من ذلك، ولكن حتى لو كانت هناك، فإن مكتب التحقيقات الفيدرالي لا يعرف الأمر. ماذا سنفعل يا مانويل؟ إذا كانوا يبحثون عني من قبل من أجل حزمة أوراق نقدية مزيفة، فالمسوغ أكبر للبحث عني الآن من أجل تلك البلاكات. سوف يتحركون بجد للعثور عليّ.

❖ ❖

الجمعة 4 كانون أول 2009. يوم الشؤم الثالث. منذ يوم الأربعاء لم أذهب إلى العمل، ولم أخرج من البيت، ولم أخلع البيجاما، وفقدت الشهية، وأمضيت الأيام في شجار مع مانويل وبلانكا، أيام بلا سلوى، أيام في جبل روسي من الانفعالات. قبل لحظات من إمساك الهاتف في يوم

الأربعاء اللعين ذاك كنتُ أحلق عالياً، في نور السعادة، بعد ذلك جاء السقوط دفعة واحدة، مثل عصفور اخترق سهمٌ قلبه. أمضيت ثلاثة أيام خارجة عن طوري، أندب بصوت صارخ غرامياتي وأخطائي وآلامي، أما اليوم فقلت أخيراً: «كفى!»، واستحممت تحت دوش مديد استنفدتُ معه ماء الخزان، غسلتُ الحزنَ بصابون وجلست بعد ذلك تحت الشمس على الشرفة ألتهم خبزاً محمصاً مع مربى البندورة الذي صنعه مانويل، وكانت له فضيلة إعادة الرشد إليّ بعد نوبة جنوني الغرامي المثيرة للذعر. استطعت الإحاطة بوضعي بشيء من الموضوعية، بالرغم من أنني أعرف أن مفعول الخبز المحمص سيكون مؤقتاً. بكيتُ كثيراً وسأواصل البكاء قدر ما يتطلبه الأمر، حزناً على نفسي وعلى حبي اليائس، لأنني أعرف ما الذي سيحدث إذا حاولت تصنع الشجاعة، مثلما فعلت حين مات بوبو. أضف إلى ذلك أن أحداً لا يهتم ببكائي، فدانييل لا يسمعه، والعالم يواصل دورانه دون تأثر.

لقد أخبرني دانييل غودريتش أنه «يقدّر صداقتنا ويرغب في أن نظل على اتصال»، وأنني فتاة استثنائية وبلابلابلا؛ وباختصار، أنه لا يحبني. لن يأتي إلى تشيلوي في عيد الميلاد، وكان هذا اقتراحاً مني لم يقل شيئاً بشأنه، مثلما لم يخطط قط لنلتقي مجدداً. لقد كانت مغامرتنا في شهر أيار رومانسية جداً، وسيتذكرها إلى الأبد، وكلام ومزيد من الكلام، ولكن له حياته في سياتيل. حين تلقيت هذه الرسالة على العنوان البريدي juanitocorrales@gmail.com ظننتُ أن هنالك سوء تفاهم، أو تشوشاً بسبب بُعد المسافة، فاتصلتُ به هاتفياً، إنها مكالمتي الأولى، ولتذهب إلى الجحيم إجراءات جدتي الأمنية. كانت محادثة قصيرة، مؤلمة، من المستحيل إعادة تذكرها دون أن أتلوى من العار والمهانة، فقد كنت أتوسل، وهو ينسحب.

ـ إنني قبيحة، وبلهاء، وكحولية! ودانييل محق في أنه لا يريد أي علاقة بي ـ قلت منتحبة.

ـ لا بأس يا مايا، اجلدي نفسك ـ نصحني مانويل وهو يجلس إلى جانبي مع قهوته ومزيد من الخبز المحمص.

ـ أهذه هي حياتي؟ الانحدار إلى عمق ظلمات لاس فيغاس، والبقاء على قيد الحياة، والعثور على النجاة مصادفة هنا في تشيلوي، والدخول في حب دانييل بكل روحي وفقدانه على الفور. إنه الموت، والانبعاث، والحب، ثم العودة إلى الموت من جديد. ما أنا إلا كارثة يا مانويل.

ـ هيا يا مايا، لا تبالغي، فهذا ليس أوبرا. لقد ارتكبتِ خطأً، ولكنك لست المذنبة، بل كان على ذلك الشاب أن يكون أكثر حذراً بشأن مشاعرك. أي صنف من الأطباء النفسانيين هذا! إنه متلاعب.

ـ أجل، متلاعب وسكسي جداً.

ابتسمنا، ولكنني انخرطت فوراً في البكاء من جديد، فقدم لي منديلاً ورقياً كي أنف أنفي واحتضنني.

ـ إنني نادمة على ما فعلته بكمبيوترك يا مانويل ـ تلعثمتُ وأنا أغمر وجهي في سترته.

ـ لقد نجا كتابي، لم أفقد شيئاً يا مايا.

ـ سأشتري لك كمبيوتراً آخر، أعدك.

ـ وكيف ستفعلين ذلك؟

ـ سأطلب قرضاً من ميّالوبو.

ـ ولا بأي حال! ـ حذرني.

ـ سيكون عليّ إذاً أن أخرج لبيع ماريجوانا دونيا لوثيندا، فمازالت هناك بعض الشتول في حديقتها.

ليس الكمبيوتر المحطم هو الشيء الوحيد الذي عليّ أن أستعيده، لأنني انقضضتُ كذلك على رفوف الكتب، وساعة السفينة، والخرائط، والأطباق، والكؤوس وأشياء أخرى كانت في متناول غضبي. وكنت أصرح مثل طفلة

عمرها سنتان، إنها النوبة العصبية الأشد صخباً في حياتي. خرج القطان هاربين من النافذة، واختبأ فاكن تحت المنضدة مذعوراً. وعندما جاء مانويل في حوالي الساعة التاسعة ليلاً، وجد بيته مدمراً كما في إعصار وأنا على الأرض مخمورة تماماً. وهذا هو الأسوأ، ما يُخجلني أكثر من أي شيء آخر.

اتصل مانويل ببلانكا التي جاءت من بيتها مهرولة مع أنها لم تعد في سنّ تسمح لها بالهرولة، وتدبرا الأمر في ما بينهما لإعادة الحيوية إليّ بقهوة قوية جداً، وغسلي، وتنويمي في فراشي، وجمع الحطام المتناثر. لقد شربت زجاجة نبيذ وبقايا فودكا وليكور ذهبي كانت في الخزانة، كنت مسممة بالكحول حتى النخاع. رحت أشرب دون تفكير. أنا التي كنت أتبجح بأني تجاوزت مشاكلي، وبأني قادرة على التخلي عن العلاج النفسي والكحوليين المغفلين لأن لدي فائضاً من قوة الإرادة ولأني غير مدمنة في الواقع، مددتُ يدي إلى زجاجات الشراب بطريقة آلية فور صدّ جوال سياتيل لي. أُقرّ بأن السبب كان صادماً، ولكن ليست هذه هي المسألة. لقد كان مايك أوكلي محقاً: الإدمان يترصد على الدوام بانتظار فرصته.

ـ كم كنتُ حمقاء يا مانويل!

ـ لا شيء من الحماقة يا مايا، هذا ما يسمى حباً للحب.

ـ كيف؟

ـ ما تعرفينه عن دانييل قليل جداً. وقد أحببتِ السعادة التي أحدثها فيكِ.

ـ هذه السعادة هي الشيء الوحيد الذي يهمني يا مانويل. لا يمكنني العيش من دون دانييل.

ـ بل تستطيعين العيش من دونه بالتأكيد. لقد كان ذلك الشاب المفتاح لفتح قلبك. وإدمان الحب لن يدمر صحتك ولا حياتك مثلما يفعل المخدر والفودكا، ولكن عليكِ أن تتعلمي التمييز بين هدف الحب، وهو في هذه الحالة دانييل، واستثارة الشعور بانفتاح قلبك.

ـ أوضح يا رجل، إنك تكلمني مثلما يتكلم معالجو أوريغون النفسانيون.

ـ أنت تعلمين أنني أمضيت نصف حياتي منغلقاً بالكامل يا مايا. وقد بدأت لتوي الآن بالانفتاح، لكنني لا أستطيع اختيار مشاعري. فمن الثغرة نفسها التي يدخل منها الحب، يتسرب الخوف خارجاً. ما أريد قوله لك إنك إذا كنت قادرة على الحب كثيراً، فإنك سوف تعانين كثيراً أيضاً.

ـ سأموت يا مانويل. لا يمكنني تحمّل هذا. إنه أسوأ ما جرى لي.

ـ لا يا غرينغيتا، إنها نكبة مؤقتة، مجرد شعرة صغيرة في الذيل بالمقارنة مع مأساتك في العام الماضي. وقد قدّم إليك ذلك الشاب الجوال جميلاً، بمنحك الفرصة للتعرف على نفسك بصورة أفضل.

ـ ليست لدي أدنى فكرة لعينة عمن أنا يا مانويل.

ـ إنك في الطريق لاكتشاف ذلك.

ـ وهل تعرف أنت من هو مانويل آرياس؟

ـ ليس بعد، ولكنني بدأت أخطو الخطوات الأولى. أنت متقدمة عليّ في هذا المجال ومازال أمامك وقت أطول بكثير مني يا مايا.

❖ ❖

تحمّل مانويل وبلانكا بكرم يُضرب به المثل أزمة هذه الغرينغية السخيفة، مثلما خطر لهما أن يسمياني. لقد تفهما بكائي، وتأنيبي الذاتي، وحسرات إشفاقي على نفسي وإحساسي بالذنب، ولكنهما كبحا بشدة كلماتي البذيئة وشتائمي والتهديد بمواصلة تكسير ممتلكات الغير، وهي في هذه الحالة ممتلكات مانويل. ووقع بيننا شجاران صاخبان كنا نحن الثلاثة بحاجة لهما. فلا يمكن للمرء أن يكون تأملياً على طريقة «الزِن» دوماً. وقد امتلكا لباقة عدم الإتيان على ذكر سكرتي أو تكاليف الدمار، فهما يعرفان أنني قادرة على الإقدام على كفارة لنيل الصفح. وعندما هدأتُ ورأيت الكمبيوتر على الأرض، أحسست بوميض رغبة في إلقاء نفسي إلى البحر.

كيف يمكن لي النظر إلى وجه مانويل؟ وكم يحبني جدي الجديد هذا ليتحملني ولا يلقي بي إلى الشارع! ستكون هذه آخر نوبة عصبية في حياتي، لقد صرت في العشرين. يجب أن أحصل على كمبيوتر آخر مثل هذا.

نصيحة مانويل بفتح مشاعري ظلت ترن في ذهني، لأنه كان يمكن لها أن تصدر عن جدي بوبو أو عن دانييل غودريتش نفسه. آي! لا أستطيع كتابة اسمه دون أن أنخرط في البكاء! سأموت حزناً، فأنا لم أعانِ مثل هذا الحزن من قبل... غير صحيح، لقد عانيت أكثر منه، بل ألف مرة أكثر، عندما مات بوبو. ليس دانييل هو الوحيد الذي حطم قلبي، كما في أغاني الرانتشيرا المكسيكية التي تدندن بها نيني. فعندما كنتُ في الثامنة قرر الجدان أن يأخذاني إلى الدنمرك كي يقطعوا بصورة سليمة تخيلاتي بأنني يتيمة. وكانت الخطة تتلخص بتركي مع أمي أسبوعين لتتعرف كل منا على الأخرى، بينما يقومان هما بالسياحة على البحر المتوسط ويرجعان لأخذي بعد أسبوعين لنعود معاً إلى كاليفورنيا. سيكون ذاك هو أول اتصال مباشر لي مع مارتا أوتير، ومن أجل إعطائها انطباعاً جيداً ملأا حقيبتي بملابس جديدة وهدايا عاطفية، مثل علبة صغيرة تضم بعض أسناني اللبنية وخصلة من شعري. أما أبي الذي عارض الرحلة في البدء ولم يتراجع إلا بضغوط مركبة من الجدين ومني، فقد حذرنا من أن مثل هذه التمائم من الأسنان والشعر لن تلقى التقدير: الدنمركيون لا يميلون إلى هواية جمع أجزاء من البدن.

وعلى الرغم من امتلاكي عدة صور لأمي، إلا أنني كنت أتخيلها على هيئة ثعالب البحر التي في أكواريوم مونتيري، بسبب اسم عائلتها «أوتير». ففي الصور التي أرسلتها إليّ في بعض أعياد الميلاد تبدو نحيلة، أنيقة وبشعر فضي، ولهذا كانت مفاجأتي برؤيتها في أودنسه بدينة بعض الشيء، وببنطال تمرينات رياضية، وشعر مصبوغ بلون النبيذ الأحمر. كانت متزوجة ولها ابنان.

مدينة أودنسه، وفق كتيب الدليل السياحي الذي اشتراه بوبو في محطة

كوبنهاغن، هي مدينة ساحرة بجزيرة فُوين، في وسط الدنمراك، ومهد الكاتب الشهير هانز كريستيان أندرسون الذي تشغل كتبه حيزاً بارزا في رفوفي، إلى جانب كتاب *الفلك للمبتدئين*، لأنهما يندرجان ضمن حرف (أ). وقد كان ذلك سبباً في جدال، لأن بوبو أصر على الترتيب الأبجدي، بينما جدتي التي تعمل في مكتبة بيركلي أكدت على أن الكتب ترتب حسب موضوعاتها. ولم أعرف قطّ إن كانت جزيرة فوين ساحرة مثلما يؤكد الدليل السياحي، لأننا لم نتمكن من معرفتها. كانت مارتا أوتير تسكن في حي بيوته متماثلة، مع بقعة عشب أمامها، ويتميز بيتها عن البيوت الأخرى بوجود حورية بحر من الجبس تجلس على صخرة، مثل تلك التي أملكها في كرة بلورية. فتحت لنا الباب بتعبير من المفاجأة، كما لو أنها لا تتذكر أن نيني قد كتبت إليها قبل شهور تخبرها بالزيارة، وكررت ذلك قبل خروجنا من كاليفورنيا، واتصلت بها هاتفياً في اليوم السابق من كوبنهاغن. استقبلتنا بمصافحة يدوية رسمية، ودعتنا للدخول وقدّمت لنا ابنيها، هانز وفالهيلم، أولهما في الرابعة والآخر في الثانية من العمر. طفلان شديدا البياض إلى حدّ يلمعان معه في الظلام.

البيت من الداخل مرتب، بلا هوية، وكئيب، بالأسلوب نفسه الذي لغرفة الفندق في كوبنهاغن، حيث لم نتمكن من الاستحمام لأننا لم نعرف أين هي صنابير الحمام، وإنما هناك سطوح دقيقة من الرخام الأبيض. وكان طعام الفندق متقشفاً مثل الديكور، حتى إن جدتي شعرت بأنها ضحية غش، وطالبت بتخفيض متذرعة أمام منضدة الاستقبال بأنهم «يتقاضون منا ثروة مع أنه لا يوجد حتى كرسي هنا!»، إذ لم يكن هناك سوى منضدة طويلة من الفولاذ وترتيب زهر من نبتة خرشوف في أنبوب زجاجي. الزينة الوحيدة في بيت مارتا أوتير هي استنساخ رسم للملكة مرغريت، وهو رسم جيد؛ ولو لم تكن مرغريت ملكة لكانت محل تقدير أكبر كممثلة.

جلسنا على صوفا من بلاستيك رمادي غير مريحة، جدي الذي يبدو

ضخماً بحقيبتي التي عند قدميه، ونيني التي تثبتني من ذراعي كيلا أخرج راكضة. لقد أزعجتهما طوال سنوات للتعرف إلى أمي، ولكنني كنت مستعدة في تلك اللحظة للهرب مرعوبة من فكرة بقائي أسبوعين مع تلك المرأة المجهولة وذينك الأرنبين الأبيضين اللذين هما أخواي. عندما ذهبت مارتا أوتير إلى المطبخ لصنع قهوة، همستُ لبوبو بأنهما إذا تركاني في هذا البيت فسوف أنتحر. وهمس هو بالشيء نفسه لزوجته، وخلال أقل من عشر دقائق قرر كلاهما أن هذه الرحلة كانت خطأ؛ وكان من الأفضل أن تظل حفيدتهما على اعتقادها بأسطورة أميرة لابونيا طوال ما تبقى من حياتها.

عادت مارتا أوتير حاملة القهوة في فناجين صغيرة جداً تخلو من ممسك، وخفَّ التوتر قليلاً في طقس تداول السكر والكريما. جلس أخواي شديدا البياض لمشاهدة برنامج عن الحيوانات في التلفزيون دون صوت، كيلا يزعجا، فقد كانا حسني التربية، وبدأ الكبار بالحديث عني كما لو أنني ميتة. أخرج جدي من حقيبته اليدوية ألبوم صور عائلية وراح يشرح لأمي تلك الصور واحدة واحدة: مايا في السنة الثانية من عمرها عارية، متكورة في يد واحدة من يدي بول ديتسون الثاني الكبيرتين، ومايا في الثالثة من العمر بلباس هاواي وتحمل قيثارة أُوكْلال، ومايا في السادسة وهي تلعب كرة القدم. وفي أثناء ذلك كنت أتفحص باهتمام رباط حذائي الجديد. علّقت مارتا أوتير أنني أشبه كثيراً هانز وفالهيلم، مع أن التشابه الوحيد هو أننا ثلاثتنا من ذوي القائمتين. أظن أن مظهري كان سراً أدخل الراحة إلى أمي، لأنني لا أبدي بوضوح جينات أبي الأمريكية اللاتينية، ويمكن أن أُعتبر، في لحظة تسرع، اسكندينافية.

بعد أربعين دقيقة، بدت طويلة كأربعين ساعة، طلب جدي الهاتف من أجل استدعاء سيارة أجرة وسرعان ما ودعناها دون أن نذكر شيئاً عن الحقيبة التي كانت تزداد وزناً حتى صارت بثقل فيل. وعند الباب قبّلتني مارتا أوتير قبلة خجولة على جبهتي وقالت إننا سنظل على اتصال وإنهم سيذهبون إلى

كاليفورنيا بعد سنة أو اثنتين، لأن هانز وفالهيلم يريدان زيارة ديزني وورلد. فأوضحتُ لها: «ديزني وورلد في فلوريدا». فأسكتتني جدتي بقرصي.

وفي سيارة الأجرة أعربت جدتي عن رأيها بحماسة قائلة إن غياب أمي هو أبعد ما يكون عن الكارثة، بل هو بركة، لأني ترعرعت مدللة وحرة في بيت بيركلي السحري، بجدرانه ذات الألوان وبرجه الفلكي، بدل أن أترعرع في جو المنمنمات الدنمركية. أخرجت من حقيبتي الكرة الزجاجية التي تضم حورية البحر، وعند نزولنا تركتها على مقعد التاكسي.

بعد زيارتنا لمارتا أوتير أمضيتُ شهوراً من الاكتئاب. وفي عيد الميلاد لذلك العام أحضر لي مايك أوكلي هدية كي يواسيني، وكانت سلة مغطاة بمنديل مطبخ مربع. حين رفعتُ المنديل وجدت كلبة صغيرة بيضاء بحجم ثمرة كريب فروت تنام بوداعة فوق منديل مطبخ آخر. «اسمها ديزي، ولكن بإمكانك أن تغيري الاسم»، قال لي الأيرلندي. أحببت ديزي حباً عظيماً، فكنت أعود راكضة من المدرسة كيلا أضيع دقيقة واحدة من مرافقتها، كانت حافظة أسراري، وصديقتي، ودميتي، تنام في فراشي، وتأكل من طبقي، وتظل بين ذراعي، لم يكن وزنها يزيد على كيلوغرامين. لقد كان لذلك الحيوان فضيلة طمأنتي وإشعاري بالسعادة، حتى إنني لم أعد إلى التفكير في مارتا أوتير. عندما أكملتْ ديزي عاماً من عمرها، أحست بنزوتها الأولى، وكانت الغريزة أقوى من الخوف، فهربت إلى الشارع. لم تتمكن من الوصول بعيداً، فقد صدمتها سيارة عند الناصية وقتلتها على الفور.

وجدت جدتي نفسها عاجزة عن نقل الخبر إليّ، فأخبرت بوبو الذي ترك عمله في الجامعة كي يأتي إليّ في المدرسة. أخرجوني من الدرس وعندما رأيته ينتظرني عرفتُ ما حدث قبل أن يتمكن من إخباري. ديزي! لقد رأيتها تركض، ورأيت السيارة، ورأيت جسد الكلبة الصغيرة الخامد. أحاطني جدي بذراعيه الهائلتين، وضمني إلى صدره وبكى معي.

وضعنا ديزي في علبة ودفناها في الحديقة. أرادت جدتي الحصول لي على كلبة أخرى، ولكن جدي قال لها إن المسألة ليست في إحلال أخرى محلها وإنما في العيش من دونها. «هذا الحب موجود فيكِ يا مايا وليس في ديزي. يمكنك منحه لحيوانات أخرى، وما يفيض لديك قدميه إليّ»، هكذا ردّ ذلك الجد الحكيم. ذلك الدرس عن الحداد والحب أفادني الآن، فالصحيح أنني أحببت دانييل أكثر من حبي لنفسي، ولكن ليس أكثر من حبي لبوبو وديزي.

❖ ❖

أخبار سيئة، سيئة جداً، مطر فوق بلل، مثلما يقولون هنا عندما تتراكم النكبات. فمسألة دانييل أولاً، ثم تلتها بعد ذلك هذه المصيبة. فما كنت أخشاه قد حدث، وعثر مكتب التحقيقات الفيدالي على آثاري ووصل الضابط آرانا إلى بيركلي. هذا لا يعني أنه سيأتي إلى تشيلوي، كما يقول مانويل ليطمئنني، ولكنني خائفة، لأنه إذا كان قد تكلّف مشقة البحث عني منذ شهر تشرين الثاني من العام الماضي، فلن يتراجع الآن بعد أن توصل إلى تحديد مكان أسرتي.

لقد حضر آرانا إلى باب بيت الجدين، بملابس مدنية، ولكنه لوح بإشارته الشرطية في الهواء. كانت جدتي في المطبخ، فأدخله أبي ظناً منه أن الأمر يتعلق بشيء مرتبط بمنحرفي مايك أوكلي. وقد جوبه بمفاجأة مقيتة عندما علم أن آرانا يقوم بالتحقيق في قضية تزييف نقود وأنه يريد توجيه بعض الأسئلة إلى مايا بيدال الشهيرة بلقب لورا بارون. وأضاف أن ملف القضية قد أُغلق عملياً، ولكن الفتاة في خطر وهو مضطر إلى حمايتها. كان يمكن لذعر نيني وأبي أن يكون أسوأ بكثير لو لم أكن قد أخبرتهما بأن آرانا شرطي محترم وكان يعاملني بطريقة جيدة دوماً.

سألته جدتي كيف استطاع التوصل إليّ، ولم يجد آرانا مانعاً من شرح

الأمر لها. شمخ بأنفه ككلب صيد، كما علقت هي نفسها في رسالتها إلى مانويل. بدأ الشرطي بتتبع الأثر عبر الوسيلة الأساسية: كمبيوتر إدارة الشرطة. فبحث فيه عن الفتيات المختفيات خلال العام 2008. بدا له من غير الضروري البحث في السنوات السابقة، لأنه حين تعرف إليّ أنتبه إلى أنني لم أعش في الشارع زمناً طويلاً؛ فالمراهقون الضائعون يكتسبون بسرعة هيئة خذلان لا يمكنه الخطأ بها. وجد في القائمة عشرات البنات، ولكنه اقتصر على من هن بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من العمر، في نيفادا والولايات المتاخمة لها. كانت هناك صور للفتيات في معظم الحالات، وإن كانت بعضها ليست حديثة. وقد كان بارعاً في الفراسة وتمكن من اختزال القائمة لتقتصر على أربع فتيات فقط، استحوذت إحداهن على اهتمامه، لأن تاريخ التبليغ عن اختفائها يتوافق مع التاريخ الذي تعرّف فيه على ابنة أخت براندون ليمان المزعومة في حزيران 2008. وبعد دراسته الملف والمعلومات المتوافرة توصل إلى أن المدعوة مايا بيدال هي من يبحث عنها، وهكذا عرف اسمي الحقيقي، وحيثياتي وعنوان الأكاديمية في أوريغون وأسرتي في كاليفورنيا.

تبين أن أبي، خلافاً لما توقعته، قد بحث عني لشهور ووزع معلومات عني على كل مفوضيات الشرطة والمستشفيات في البلاد. أجرى آرانا اتصالاً هاتفياً بالأكاديمية، وتحدث مع آنجي للحصول على التفاصيل التي تنقصه، وهكذا وصل إلى بيت أبي القديم، حيث قدم إليه ساكنوه الجدد عنوان بيت الجدين الكبير متعدد الألوان. «من حسن الحظ أنهم كلفوني أنا بالقضية وليس ضابطاً آخر، لأني مقتنع بأن لورا، أو مايا، هي فتاة طيبة، وأرغب في مساعدتها قبل أن تتعقد أمورها. إنني أفكر في إثبات أن مشاركتها في الجريمة كانت تافهة»، قال لهما الضابط وهو ينهي شروحه.

وبالنظر إلى موقف آرانا التصالحي، دعته نيني مشاركتهما الجلوس إلى

المائدة، وفتح أبي أفضل زجاجة نبيذ لديه. أعرب الشرطي عن رأيه في أن الحساء يبدو رائعاً في عصر يوم ضبابي من تشرين الثاني، أهو طبق تقليدي من بلاد السيدة؟ لقد انتبه إلى لكنتها. فأخبره أبي إنه طبيخ طيور على الطريقة التشيلية، والنبيذ كذلك تشيلي، وإن أمه وهو نفسه قد ولدا في تلك البلاد. أراد الضابط أن يعرف إن كانا يذهبان بكثرة إلى تشيلي، فأوضح له أبي أنهما لم يفعلا ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً. لكن جدتي المتيقظة لكل كلمة من كلمات الشرطي، وجهت ركلة بقدمها تحت المنضدة إلى ابنها كيلا يكثر من الكلام. فكلما كان ما يعرفه آرانا أقل يكون أفضل. لقد شمت رائحة أكذوبة في كلام الضابط فاتخذت وضع التأهب. كيف يمكن أن يكون ملف القضية قد أُغلق ماداموا لم يجدوا الأموال المزيفة ولا بلاكات الطباعة؟ فقد قرأت هي أيضاً تحقيق المجلة حول آدم تريفور ودرست طوال شهور تجارة الأموال المزيفة دولياً، وصارت تعتبر نفسها خبيرة وتعرف القيمة التجارية والإستراتيجية للبلاكات.

أبدت نيني استعدادها للتعاون مع القانون، كما أعربت هي نفسها، وقدمت لآرانا معلومات يمكن له أن يحصل عليها بنفسه. قالت له إن حفيدتها قد هربت من أكاديمية أوريغون في حزيران من العام الماضي، وأنهما بحثا عنها دون جدوى، إلى أن تلقوا مكالمة من كنيسة في لاس فيغاس فذهبت هي بنفسها لإحضارها، لأن والد مايا كان طائراً في رحلة حينذاك. وجدتها في ظروف بالغة السوء، لا يمكن معها التعرف إليها، وبدت قاسية جداً رؤية الصغيرة التي كانت جميلة ورياضية وذكية وقد تحولت إلى مدمنة مخدرات. وعند هذه النقطة من روايتها لم تعد جدتي قادرة على الكلام من الحزن. فأضاف أبي أنهم وضعوا ابنته في عيادة إعادة تأهيل في سان فرانسيسكو، ولكنها قبل انتهاء البرنامج بأيام هربت من جديد ولا علم لهم إلى أين ذهبت. فمايا قد بلغت العشرين من العمر، ولا يمكن لهم منعها من تدمير حياتها إذا كان هذا ما تسعى إليه.

لن أعرف أبداً مقدار تصديق الضابط آرانا لهما. «من المهم أن أعثر سريعاً على مايا. هناك مجرمون مستعدون لإلقاء القفاز في وجهها»، قال لهما، ولفت انتباههما بصورة عابرة إلى عقوبة التستر والتواطؤ في جريمة فيدرالية. شرب الضابط بقية النبيذ، وأبدى إعجابه بالكريم كراميل، وشكرهما على العشاء، وقبل أن يغادر ترك لهما بطاقته، فقد يحصلان على أخبار عن مايا بيدال أو يتذكران أي تفصيل يمكن أن يكون مفيداً للتحقيق. «اعثر عليها أيها الضابط، أرجوك»، توسلت إليه جدتي عند الباب وهي تمسك بياقة سترته، وخداها مبللان بالدموع. وما كاد الشرطي يذهب، حتى مسحت دموع بكائها التمثيلي، وارتدت معطفها، وأخذت أبي من ذراعه وحملته في سيارتها الخردة إلى شقة مايك أوكلي.



فريدي الغارق في صمت مطبق منذ وصوله إلى كاليفورنيا، استيقظ من سباته حين سمع أن الضابط آرانا يجول متشمماً في بيركلي. لم يكن الصبي قد قال أي شيء عما كانت عليه حياته منذ اليوم الذي تركني فيه بين ذراعي أولمبيا بيتفورد، في تشرين الثاني من السنة السابقة حتى يوم عملية استئصال كليته، بعد سبعة شهور من ذلك، ولكن الخوف من أنه يمكن لآرانا أن يعتقله أطلق لسانه. روى لهم أنه بعد أن ساعدني لم يستطع الرجوع إلى مبنى براندون ليمان، لأن جو مارتن والصيني كانا سيقطعانه إلى أشلاء. لقد كان يربطه إلى المبنى حبل التلهف السري إلى المخدر، لأنه لن يجد في أي مكان آخر تلك الوفرة من المخدرات، غير أن مجازفة الاقتراب كانت كبيرة جداً. فهو لن يتمكن أبداً من إقناع القاتلين بأنه لم يشارك في هروبي، مثلما فعل بعد موت براندون ليمان، حين أخرجني من النادي الرياضي في الوقت المناسب بالضبط لإنقاذي منهما.

ومن بيت أولمبيا ذهب في حافلة إلى قرية على الحدود له فيها صديق،

وعاش هناك بمشقة لبعض الوقت، إلى أن صارت حاجته إلى العودة لا تطاق. ففي لاس فيغاس يعرف الميدان، ويمكنه التنقل بعينين مغمضتين، ويعرف من أين يحصل على المخدرات. اتخذ الاحتياطات بالبقاء بعيداً عن ملاعبه القديمة، لتجنب جو مارتن والصيني، وعاش على التهريب والسرقة والنوم في العراء، بينما المرض يشتد عليه، حتى انتهى به الأمر في المستشفى وبعد ذلك بين ذراعي أولمبيا ببتفور.

في الوقت الذي كان لا يزال في الشارع، عُثر على جسدي جو مارتن والصيني في سيارة محروقة في الصحراء. وإذا كان الصبي قد أحس بالراحة لتحرره من المجرمين، فإن ذلك الإحساس لم يدم، فحسب الإشاعات في عالم المدمنين والمنحرفين، كان لجريمة إحراقهما سمات عملية انتقام شرطية. وكانت قد ظهرت في الصحافة أول الأخبار عن فساد في إدارة الشرطة ولا بد أن عملية الاغتيال المزدوجة لشريكي براندون ليمان مرتبطة بذلك. ففي مدينة رذائل ومافيات، تكون الرشوة سائدة، ولكن المال المتداول في هذه الحالة كان مالاً مزيفاً، فتدخل مكتب التحقيقات الفيدرالي. وقد حاول الضباط الفاسدون كبح الفضيحة بكل الوسائل، والجسدان المحروقان في الصحراء تحذير لمن يفكر في التكلم أكثر من اللازم. كان المذنبون يعرفون أن فريدي قد عاش مع براندون ليمان، ولن يسمحوا لصبي مدمن أن يدمرهم، على الرغم من أنه لا يستطيع تحديد شخصياتهم لأنه لم يرهم شخصياً قطّ. وقال فريدي إن براندون ليمان قد كلف واحداً من أولئك الشرطيين بتصفية جو مارتن والصيني، وهذا يتفق مع ما أخبرني به خلال رحلتنا إلى بياتي، ولكنه ارتكب بلاهة الدفع له بأوراق نقدية مزيفة معتقداً أنها ستدخل التداول دون أن تُكتشف. وقد جرت أموره بصورة سيئة، إذ اكتُشفت النقود المزيفة فانتقم الشرطي بكشف الخطة لجو مارتن والصيني اللذين قتلا براندون ليمان في ذلك اليوم بالذات. لقد سمع فريدي تلقي المجرمين تعليمات بالهاتف لقتل

ليمان، واستنتج أن من وجه تلك التعليمات هو الشرطي. وبعد أن شهد الجريمة هرع مسرعاً إلى النادي الرياضي ليحذرني.

بعد شهور من ذلك، عندما اختطفني جو مارتن والصيني من الشارع واقتاداني إلى الشقة لإجباري على الاعتراف بمكان بقية الأموال، ساعدني فريدي من جديد. لم يجدني الصبي مقيدة ومكممة على ذلك الفراش بالصدفة، وإنما لأنه سمع جو مارتن يتكلم بالهاتف المحمول ويقول للصيني بعد ذلك إنهم قد عرفوا مكان لورا بارون. فاختبأ في الطابق الثالث، ورآهما حين جاءا بي كما رآهما يغادران وحدهما بعد قليل. انتظر أكثر من ساعة متردداً حول ما عليه عمله، إلى أن قرر أخيراً الدخول إلى الشقة لمعرفة ما الذي فعلاه بي. كان ينقصه أن يعرف إن كان الصوت الذي أمر في الهاتف بقتل براندون ليمان هو نفسه الذي أخبر القاتلين بعد ذلك بمكان وجودي، وإن كان ذلك الصوت هو الشرطي الفاسد في حال أن الاتصالين أجراهما الشخص نفسه، ذلك أنه يمكن كذلك أن يكون الاتصالان من شخصين مختلفين.

لم يتوصل مايك أوكلي وجدتي إلى شيء كثير في تأملاتهما، ولم يكن بإمكانهما اتهام الضابط آرانا دون أدلة، ولكنهما لم يستبعداه كذلك كمشبوه، مثلما لم يستبعده فريدي من شكوكه، ولهذا كان يرتجف. فالرجل ـ أو الرجال ـ الذي صفى جو مارتن والصيني في الصحراء سيفعل به الشيء نفسه إذا أمسكوه. فقالت نيني إنه لو كان آرانا هو ذلك الفاسد الوغد، لقام بالتخلص من فريدي في لاس فيغاس، أما مايك فرأى أنه سيكون من الصعب قتل مريض في المستشفى وتحميه متمرسات **أرامل في سبيل يسوع**.

❖ ❖

ذهب مانويل إلى سنتياغو من أجل فحوص سيجريها له الدكتور بوغا، ورافقته بلانكا. وفي أثناء ذلك جاء خوانيتو كورّاليس للبقاء معي في البيت، كي ننهي دفعة واحدة الجزء الرابع من هاري بوتير. كان قد انقضى أسبوع منذ انتهيت

من دانييل، أو بكلمات أدق، منذ أن انتهى هو مني، وكنتُ ما أزال أمضي متباكية، منومة، بإحساس من تعرضت لضرب بعصا، ولكنني عدت إلى العمل. كنا في الأسابيع الدراسية الأخيرة قبل عطلة الصيف ولا يمكن لي التغيب.

يوم الخميس، التاسع من كانون الأول، ذهبتُ مع خوانيتو لشراء صوف من بيت دونيا لوثيندا، لأني كنت أنوي حياكة واحد من لفاعاتي المريعة من أجل مانويل، وهو أقل ما يمكن تقديمه إليه. أخذتُ معي ميزاننا كي نزن الصوف، وهو أحد الأشياء التي نجت من هجومي التدميري، لأن أرقام ميزانها امحت بفعل سواد الزمن، ولكي أُحلي يومها حملت لها معي قالب حلوى كمثرى، مع أنه خرج معي مضغوطاً، ولكنها ستحبه بكل الأحوال. كان باب بيتها قد انسد تماماً في زلزال 1960 فأصبحت تستخدم منذ ذلك الحين الباب الخلفي، مما يتطلب المرور من الفناء، حيث شتول الماريجوانا والموقد وبراميل صفيح أصبغة الصوف، وسط فوضى دجاجات طليقة، وأرانب في أقفاص وعنزتان كانتا تعطيان حليباً في الأصل لصنع الجبن، وهما تستمتعان الآن بشيخوخة دون واجبات. كان **فاكن** يلحقنا بتقافزه الجانبي وأنفه يشم الهواء، وهكذا عرف ما حدث قبل دخولنا إلى البيت وراح ينبح بتسرع. وسرعان ما حذت حذوه كلاب الجوار، وبعد قليل كانت كلاب الجزيرة كلها تنبح.

وجدنا دونيا لوثيندا في الداخل على كرسيها القش إلى جانب المدفأة المطفأة، ترتدي ثوب الخروج إلى القداس، وفي يدها مسبحة، وشعرها الأبيض القليل مثبت جيداً بعقيصة، وكانت باردة. فعندما أحست أنه يومها الأخير في هذا العالم، هندمت نفسها بنفسها كيلا تزعج الآخرين بعد موتها. جلستُ على الأرض إلى جانبها، بينما ذهب خوانيتو ليخبر الجيران الذين بدؤوا بالتوافد يجتذبهم كورال الكلاب.

لم يعمل أحد من سكان الجزيرة يوم الجمعة من أجل المشاركة في السهر على الجثمان، وذهبنا جميعنا يوم السبت إلى الجنازة. أحدثت وفاة دونيا

لوثيندا المئوية ببلبلة عامة، لأن أحداً لم يكن يظن أنها بشر فانية. ومن أجل السهر على جثمانها أحضرت الجارات كراسي وراحت الجموع تتوافد شيئاً فشيئاً، إلى أن ملأت الفناء والشارع. وضعوا جثمان العجوز فوق المنضدة التي كانت تأكل وتزن الصوف عليها، في تابوت عادي بسيط، يحيط به خليط أزهار في علب وقوارير بلاستيكية: ورد، أورتينسا، قرنفل، زنبق. كان التقدم في السن قد اختزل حجم دونيا لوثيندا، بحيث إن جسدها لم يكن يشغل سوى نصف صندوق التابوت، وكان رأسها على الوسادة أشبه برأس طفلة. وقد وضعوا على المنضدة شمعدانين من الصفيح فيهما أعقاب شموع، وصورة من حفل زفافها ملونة يدوياً، ترتدي فيها ثوب الزفاف، وتمسك بذراع جندي بزي قديم جداً، هو أول أزواجها السبعة، قبل أربعة وتسعين عاماً.

وقاد نائب الجزيرة العام النساء في صلاة وتراتيل ناشزة، بينما الرجال يجلسون إلى موائد في الفناء، يخففون حزن حدادهم بلحم خنزير مع البصل والبيرة. وفي اليوم التالي وصل الكاهن المتجول، الملقب سراً بالماريات الثلاث بسبب عظاته الطويلة التي تبدأ بماريا واحدة وتنتهي بثلاث، وترأس قداساً في الكنيسة المزدحمة بالناس ودخان الشموع والأزهار البرية مما جعلني أرى رؤى ملائكة يسعلون.

كان التابوت قبالة المذبح فوق منصة معدنية، تغطيه قطعة قماش سوداء عليها صليب أبيض وشمعدانان، وتحته حوض مغسلة «تحسباً من تفزر الجسد» كما أوضحوا لي. لست أدري ما الذي يعنيه هذا، ولكنه بدا لي قبيحاً. صلى الحشد وأنشد فالسات تشيلويّة على أنغام قيثارتين، وبعد ذلك أخذ الماريات الثلاث الكلمة ولم يُفلتها طيلة خمس وستين دقيقة. بدأ بامتداح دونيا لوثيندا وسرعان ما انحرف إلى موضوعات أخرى سياسية، وحول صناعة السلمون، وكرة القدم، بينما رؤوس المؤمنين تترنح نعساً. لقد جاء الكاهن إلى تشيلي قبل خمسين عاماً ومازال حتى الآن يتكلم بلكنة أجنبية.

وعند تناول خبز القربان بدأت دموع عدد من الأشخاص تسيل، وانتقلت العدوى إلينا وانتهى الأمر أخيراً حتى بعازفي القيثارة إلى البكاء.

حين انتهى القداس وقُرعت نواقيس الجنازة، حمل ثمانية رجال التابوت الذي لا يزن شيئاً يذكر، وخرجوا بخطى مهيبة إلى الشارع تتبعهم القرية كلها حاملة الأزهار التي كانت على منضدة التسجية. وفي المقبرة، بارك الكاهن دونيا لوثيندا مرة أخرى، وفي اللحظة التي كانوا يُنزلونها إلى الحفرة بالضبط، وصل نجار المراكب وابنه يلهثان وهما يحملان بيتاً صغيراً لوضعه على القبر، صنعاه على وجه السرعة، ولكنه متقن تماماً. وبما أنه لم يكن لدونيا لوثيندا أقرباء أحياء، وكنت أنا وخوانيتو من اكتشفنا جسدها الميت، فقد اصطف الناس ليقدموا لنا التعزية بمصافحات من أيديهم القاسية والمتقرحة من العمل، قبل أن يذهبوا في جماعة إلى حانة الميت ليشربوا كؤوس إنهاء الحزن المعهودة.

كنتُ آخر من غادر المقبرة، حين بدأ ضباب البحر بالارتفاع. رحت أفكر في حالة الافتقاد الذي أشعرني بها غياب مانويل وبلانكا في ذينك اليومين من الحداد، وفكرتُ في دونيا لوثيندا المحبوبة من الجميع، وفي الوحدة التي كانت فيها، وفي مقارنة جنازتها بجنازة كارميلو كورّاليس، ولكنني كنت أفكر فوق ذلك كله بجدي بوبو. فجدتي تريد نثر رماده على جبل، أقرب ما يمكن من السماء، لكن أربع سنوات مضت ومازال الإناء الخزفي الذي يضم رماده فوق الكوميدينو في حجرتها ينتظر. نزلتُ عبر الطريق الجبلي باتجاه مغارة بينكويا آملة بالإحساس بوجود جدي بوبو في الهواء لأطلب منه الإذن بإحضار رماده إلى هذه الجزيرة، ودفنه في المقبرة باتجاه البحر وتعليم القبر بمجسم مصغر لبرج نجومه، ولكن جدي لا يأتي عندما أستدعيه، وإنما حين يرغب هو في المجيء، وقد انتظرته هذه المرة على قمة الجبل دون جدوى. مشيتُ متأثرة بشدة من انتهاء حب دانييل وخائفة من هواجس خبيثة.

كان المدّ البحري يرتفع، والضباب يزداد كثافة، لكن مدخل المغارة لا يزال يُلمح من أعلى، وأبعد قليلاً كانت تُرى كتل ثعالب البحر النائمة على الصخور. الهاوية هي منحدر من نحو ستة أمتار كدرب شديد الانحدار، نزلت منه مرتين من قبل برفقة خوانيتو. النزول عبره يتطلب رشاقة وحسن حظ، فما أسهل أن تزل القدم ليسقط المرء وتُدق عنقه، ولهذا حظروا على السياح النزول منه.



حاولت تلخيص أحداث هذين اليومين، مثلما رووها لي وأتذكرها، بالرغم من أن عقلي يعمل بصورة متوسطة بسبب الضربة التي تلقيتها. هنالك أمور غير مفهومة في الحادث، ولكن ليس لأحد هنا النية في التقصي بجدية.

وقفت للحظات طويلة أتأمل المشهد من أعلى. كان الضباب آخذاً بالانقشاع بسرعة، وكانت مرآة البحر الفضية، والصخور وذئاب البحر قد اختفت في رمادية الضباب. في شهر كانون الأول تكون هنالك أيام مضيئة وأيام أخرى باردة، مثل هذا اليوم، مع ضباب أو رذاذ مطر يهطل بصورة غير ملموسة، يمكن له أن يتحول في لحظات إلى وابل غزير. لقد طلع صباح ذلك اليوم بشمس مشعة وخلال فترة الصباح بدأ الضباب بالظهور. وكانت تطفو في المقبرة سحابة ضباب خفيف مانحة المشهد كآبة مناسبة لوداع دونيا لوثيندا، جدة القرية بأسرها. بعد ساعة من ذلك، وفي أعلى الجبل، كان العالم محاطاً بغلالة قطنية، كاستعارة شعرية لحالتي المعنوية. فالغضب والحنق وخيبة الأمل التي سيطرت عليّ حين فقدت مانويل، فتحت المجال لحالة من الحزن غير المحدد المعالم والمتبدل، مثل الضباب. هذا ما يسمى فطام الحب، وهو على حدّ قول مانويل آرياس، التراجيديا الأكثر ابتذالاً في تاريخ البشرية، ولكن لا بد من إدراك كم هي موجعة هذه الحالة. الضباب يبعث على القلق، فمن يدري أية أخطار تترصد على بُعد مترين، كما في روايات

الجرائم اللندنية التي تروق لمايك أوكلي، حيث يعتمد القاتل على حماية الضباب المتصاعد من نهر التايمز.

أحسستُ بالبرد، فقد بدأت الرطوبة باختراق سترتي، وشعرت بالخوف، لأن العزلة مطلقة. أحسست بحضور ليس هو حضور جدي بوبو، بل شيء متوعد بصورة مبهمة، مثل حيوان ضخم، فاستبعدت ذلك باعتباره مسخاً آخر من المخيلة التي تمزح معي مزاحاً خبيثاً، ولكن **فاكن** زمجر في تلك اللحظة. كان يقف متأهباً عند قدمي، وبر ظهره منتصب، وذيله متصلب، كاشفاً عن أنيابه. سمعتُ وقع خطوات خفية.

ـ من هناك؟ ـ صرخت.

سمعت خطوتين أخريين واستطعت تمييز شبح بشري يخفيه الضباب.

ـ ثبتي الكلب يا مايا، إنني أنا...

كان الضابط آرانا، تعرّفتُ إليه فوراً، على الرغم من الضباب ومن هيئته الغريبة، فقد بدا متنكراً كسائح أمريكي، ببنطال مربعات اسكتلندي، وقبعة بيسبول، وآلة تصوير تتدلى على صدره. داهمنا إحساس شديد بالإنهاك، وسكون جليدي: هكذا ينتهي عام من الهروب والتخفي، عام من انعدام اليقين.

ـ مساء الخير أيها الضابط، كنتُ بانتظارك.

ـ كيف ذلك؟ ـ قال وهو يقترب.

لماذا سأشرح له ما استنتجتُه من رسائل نيني وهو الذي يعرف الكثير. لماذا أقول له إنني ألمح كل خطوة قاسية يتقدم بها باتجاهي، وأحسب كم سيحتاج كي يصل إليّ، وأنتظر بغم هذه اللحظة. في الزيارة التي قام بها لأسرتي في بيركلي اكتشف أصولنا التشيلية، ولا بد أنه تأكد بعد ذلك من تاريخ مغادرتي عيادة إعادة التأهيل في سان فرانسيسكو. ولم يكن من الصعب عليه بأي حال، من خلال اتصالاته، أن يتحرى ويعرف أن جواز

سفري قد جُدد، ومراجعة قوائم المسافرين في تلك الأيام على رحلات شركتي الطيران الوحيدتين اللتين تطيران إلى تشيلي.

ـ هذه بلاد طويلة جداً أيها الضابط، كيف خطر لك أن تأتي إلى تشيلوي في أقصى جنوبها؟

ـ إنها الخبرة. أراكِ في حالة جيدة. فالمرة الأخيرة التي التقيت بك فيها في لاس فيغاس كنتِ مجرد متسولة تدعى لورا بارون.

كانت نبرة صوته لطيفة وعادية، كما لو أننا في ظروف طبيعية. أخبرني بكلمات قليلة أنه بعد أن تناول الطعام مع جدتي نيني وأبي، ظل ينتظر في الشارع، ورآهما يخرجان بعد خمس دقائق، مثلما توقع. دخل بسهولة إلى البيت، وقام بعملية تفتيش سريعة، فوجد مغلف الصور التي جاء بها دانييل غودريتش فتأكدت شكوكه بأنهم قد أخفوني في مكان ما. وقد استرعت إحدى الصور اهتمامه.

ـ صورة بيت تجره الثيران ـ قاطعته.

ـ بالضبط. وأنت تركضين أمام الثيران. تأكدتُ في «غوغل» من هوية الراية المعلقة على البيت، وبالبحث عن: «نقل بيت بالثيران في تشيلي»، خرجت لي تشيلوي. كانت هناك عدة صور وثلاثة فيديوهات لجر بيوت في «يوتيوب». من غير المعقول تصور كم هو سهل التقصي في كمبيوتر. بحثتُ عن الأشخاص الذين صوروا تلك المشاهد، وهكذا وصلتُ إلى المدعوة فرنسيس غودريتش، في سياتيل. أرسلت إليها رسالة قلت فيها إنني سأسافر إلى تشيلوي وسأكون شاكراً لها لو قدمت إلي بعض المعلومات، تحادثنا على الشات قليلاً وأخبرتني أنها ليست هي، وإنما أخوها دانييل من زار تشيلوي، وأعطتني عنوان بريده وهاتفه. لم يرد دانييل على أي من رسائلي، ولكنني دخلت إلى صفحته وفيها وجدت اسم هذه الجزيرة، حيث أمضى أكثر من أسبوع في شهر أيار.

ـ ولكن لا وجود في الصفحة لأي إشارة إليّ أيها الضابط، فأنا أيضاً رأيت الصفحة.

ـ لا، ولكنه يظهر معك في صورة من التي رأيتها في بيت أسرتك في بيركلي.

كانت تطمئنني حتى تلك اللحظة الفكرةُ السخيفة بأن آرانا لا يستطيع المس بي في تشيلوي دون تصريح من الانتربول أو من الشرطة التشيلية، ولكن وصفه للرحلة الطويلة التي قطعها للوصول إليّ أعادني إلى الواقع. فإذا كان قد تجشم كل تلك المشقات من أجل الوصول إلى ملجئي، فلا بد أن يكون لديه تصريح باعتقالي. كم يعرف هذا الرجل؟

تراجعتُ غريزياً، ولكنه أمسكني دون عنف من ذراعي وكرر لي ما كان قد أكده لأسرتي بأنه يسعى إلى مساعدتي فقط وأنه يجب عليّ الوثوق به. وقال إن مهمته تتلخص في العثور على النقود وبلاكات الطباعة، لأن المطبعة السرية قد أُتلفت، وآدم تريفور قد اعتقل وقدم المعلومات اللازمة حول تجارة النقود المزيفة. وقال لي إنه جاء إلى تشيلوي على نفقته الخاصة يدفعه والكبرياء المهني، لأنه قرر إغلاق ملف القضية شخصياً. فمكتب التحقيقات الفيدرالي لا يعرف شيئاً عني بعد، ولكنه نبهني إلى أن المافيا المتعاملة مع آدم تريفور لديها اهتمام حكومة الولايات المتحدة نفسه في الإمساك بي. وقال:

ـ وأنت تدركين أنه يمكن لأولئك المجرمين أن يعثروا عليك أيضاً، مثلما استطعت أنا فعل ذلك.

ـ لا يمكن لأحد أن يربط بيني وبين تلك القضية ـ قلت له متحدية، ولكن رنة صوتي كشفت عن خوفي.

ـ بل يمكن بالطبع. لماذا تظنين أن ثنائي الغوريلات ذاك، وأعني جو مارتن والصيني، قد اختطفاكِ في لاس فيغاس؟ وبالمناسبة، أحب أن أعرف كيف استطعتِ الهرب منهما، ليس مرة واحدة، وإنما مرتان.

ـ لم يكونا ذكيين أيها الضابط.

فقد أفادني في شيء ما كوني ترعرعت في كنف «نادي المجرمين»، مع جدة هذيانية وأيرلندي اعتاد أن يعيرني كتبه البوليسية وعلمني منهج شرلوك هولمز الاستنتاجي. كيف عرف الضابط آرانا أن جو مارتن والصيني قد طارداني بعد مقتل براندون ليمان؟ أو أنهما اختطفاني في اليوم نفسه الذي فاجأني هو فيه وأنا أسرق جهاز ألعاب الفيديو؟ لا تفسير لذلك إلا أن يكون هو نفسه من أمرهما في المرة الأولى بقتلي أنا وليمان، حين اكتشف أن الرشوة التي قُدمت إليه هي نقود مزيفة، وكان هو من اتصل بهما بالهاتف المحمول في المرة الثانية ليخبرهما أين يمكنهما أن يجداني وكيف ينتزعان مني الاعتراف بشأن النقود المخبأة. ففي ذلك اليوم في لاس فيغاس، عندما أخذني الضابط آرانا إلى المطعم المكسيكي ثم أعطاني عشرة دولارات، كان يمضي من دون زيه الشرطي، كما أنه لم يكن يرتدي ذلك الزي عندما زار أسرتي ولا في هذه اللحظة ونحن على الجبل في تشيلوي. والسبب في ذلك ليس كونه يتعاون متخفياً مع مكتب التحقيقات الفيدرالي، كما قال، وإنما لأنه أُقيل من إدارة الشرطة بسبب الفساد. فهو واحد ممن قبلوا الرشى وتعاون مع براندون ليمان؛ وقد اجتاز العالم من أجل الغنيمة، وليس بدافع حس الواجب، وأقل من ذلك حباً بمساعدتي. ومن خلال وجهي، أظن أن آرانا قد انتبه إلى أنه تكلم أكثر من اللازم، وجاء ردّ فعله قبل أن أتمكن من الانطلاق راكضة نحو الأسفل. فقد ثبتني بيدين كأنهما مخالب حديدية.

ـ لا تظني أنني سأذهب من هنا بيدين خاويتين، أليس كذلك؟ ـ قال لي متوعداً ـ ستعطينني ما أبحث عنه بالحسنى أو بالإكراه، ولكنني أُفضّل ألا أضطر إلى إلحاق الأذى بك. يمكن لنا التوصل إلى اتفاق.

ـ أي اتفاق تعني؟ ـ سألته مرعوبة.

ـ حياتك وحريتك. سأغلق ملف القضية، ولن يظهر اسمك في

التحقيق، ولن يعود أحد لسؤالك. وسوف أعطيك فوق ذلك عشرين بالمئة من الأموال. إنني كريم كما ترين.

ـ لقد خبأ براندون ليمان حقيبتين فيهما المال في مستودع بقرية بياتي أيها الضابط. وقد أخرجتهما أنا من هناك وأحرقت محتوياتهما في صحراء موجاف، لأني كنت خائفة من تهمة التواطؤ. أقسم لك، هذه هي الحقيقة.

ـ أتظنينني غبياً؟ النقود! البلاكات!

ـ ألقيتُ البلاكات في خليج سان فرانسيسكو.

ـ لا أصدقك أيتها العاهرة اللعينة! سأقتلك! ـ صرخ بي وهو يهزني.

ـ ليست لدي نقودك اللعينة ولا بلاكاتك اللعينة!

عاد **فاكن** إلى الزمجرة، ولكن آرانا ألقى به بعيداً بركلة وحشية. كان رجلاً متين العضلات، متدرباً على فنون القتال ومعتاداً على مواقف العنف، ولكنني لستُ رعديدة، وقد واجهته بعمى اليأس. كنت أعرف أن آرانا لن يُبقي عليَّ حية بأي حال. لقد لعبتُ كرة القدم منذ طفولتي، ولدي ساقان قويتان. وجهتُ ركلة إلى خصيتيه، ولكنه انتبه إليّ وتمكن من تفاديها فأصابت ركلتي ساقه. وربما كنت سأكسر عظمها لو لم أكن أنتعل صندلاً، لكن الصدمة هشمت أصابع قدمي ووصل الألم إلى دماغي كوميض أبيض. واستغل آرانا ذلك الوضع ليقطع أنفاسي بلكمة وجهها إلى معدتي، ثم انقض عليّ ولم أعد أعي شيئاً، ربما أفقدتني الصواب اللكمة الثانية في وجهي، لأن أنفي مكسور وسيكون عليّ استبدال الأسنان التي فقدتها.

❖ ❖

رأيت وجه جدي بوبو الغائم على خلفية بيضاء شفافة، طبقات وطبقات من الغازات تطفو في الهواء، طرحة عروس، ذيل مذنب. إنني ميتة، فكّرتُ سعيدة، واستسلمت للذة الطفو مع جدي في الهواء، لا جسدية، طليقة. خوانيتو كورّاليس وبيدرو بيلانتشواغي يؤكدان أنه لم يكن

هناك أي رجل زنجي يضع قبعة، ويقولان إني استيقظت للحظة، عندما كانا يحاولان حملي، ولكنني عدت إلى غيبوبتي مجدداً.

استعدتُ الوعي من بنج التخدير في مستشفى كاسترو، ووجدت مانويل إلى جانبي، وبلانكا في الجانب الآخر والشرطي لورينثو كاركامو عند طرف السرير. «عندما تتمكنين فقط يا سيدتي، أريدك أن تجيبي على بعض الأسئلة، ما رأيك؟»، كانت تلك هي تحيته الودودة. ولم أستطع عمل ذلك إلا بعد يومين من ذلك، يبدو أن الضربة كانت قاضية بصورة جدية.

توصلت تحريات الدركيين إلى أن سائحاً، لا يتكلم الإسبانية، قد وصل إلى الجزيرة بعد جنازة دونيا لوثيندا، ذهب إلى حانة الميت، حيث اجتمع الناس، وعرض صورة لي على أول من صادفه عند الباب، وهو خوانيتو كورّاليس. أشار له الطفل إلى درب المغارة الضيق والصاعد، وانطلق الرجل في ذلك الاتجاه. ذهب خوانيتو كورّاليس للبحث عن صديقه بيدرو بيلانتشوغاي، وقررا اللحاق به معاً بدافع الفضول. وفي أعلى الجبل سمعا نباح **فاكن**، فقادهما الصوت إلى المكان الذي كنتُ فيه مع الغريب ووصلا في الوقت المناسب لرؤية الحادث، بالرغم من أنهما لم يكونا متأكدين مما رأياه بسبب بُعد المسافة وكثافة الضباب. وهذا ما يفسر تناقض أقوالهما في التفاصيل. فحسب أقوالهما أنني كنتُ أنا والرجل المجهول منحنيين عند حافة الهاوية ننظر إلى المغارة، وأن الرجل تعثر، فحاولتُ تثبيته، وفقدنا توازننا واختفينا عن ناظريهما. ومن أعلى، لم يكن الضباب الكثيف يسمح برؤية المكان الذي سقطنا فيه، ولأننا لم نرد على نداءاتهما، نزل الصبيان ممسكين بالصخور البارزة والجذور التي في الجبل. لقد فعلا ذلك مرات من قبل، وكانت الأرض جافة إلى هذا الحد أو ذاك مما سهّل عليهما النزول، لأن الصخور حين تكون مبتلة تصبح زلقة جداً. تقدما بحذر شديد خوفاً من ذئاب البحر، ولكنهما أدركا أن معظم تلك الحيوانات قد نزلت إلى الماء، بما في ذلك الذكر الذي يحرس إناثه عادة من فوق إحدى الصخور.

أوضح خوانيتو أنه وجدني ملقاة على الحزام الرملي الضيق بين فوهة المغارة والبحر، وأن الرجل هوى فوق الصخور وكان نصف جسده في الماء. أما بيدرو فقال إنه يشك في أنه رأى جسد الرجل، لأنه ارتعب حين رآني مغطاة بالدم ولم يستطع التفكير. حاول أن يحملني، ولكن خوانيتو تذكر دورة الإسعافات الأولية التي قدمتها ليليان تريفينو، فقرر أنه من الأفضل عدم تحريكي وأرسل بيدرو للبحث عن مساعدة، بينما ظل هو معي يثبتني بقلق لأنه يمكن للمد البحري أن يصل إليّ. ولم يخطر له مساعدة الرجل لاستنتاجه أنه كان ميتاً، إذ لا يمكن لأحد أن يبقى حياً بعد السقوط على الصخور من ذلك الارتفاع.

تسلق بيدرو المنحدر كقرد وذهب راكضاً إلى مركز الدرك، حيث لم يجد أحداً. فتوجه من هناك لإطلاق صوت الإنذار في حانة الميت. وخلال دقائق قليلة جرى تنظيم حملة إنقاذ، فتوجه عدد من الرجال إلى الجبل وبحث أحدهم عن الدركيين اللذين جاءا بسيارة الجيب وتوليا مسؤولية الوضع. لم يحاولا رفعي بحبال مثلما حاول أن يفعل بعض من شربوا أكثر مما يجب، لأني كنت أنزف بغزارة. قدم أحد الحاضرين قميصه ليلفوا به رأسي المهشم وارتجل آخرون حمالة، ريثما يصل زورق الإسعاف الذي تأخر قليلاً لأنه اضطر إلى الالتفاف حول نصف الجزيرة. بدؤوا البحث عن الضحية الأخرى بعد نحو ساعتين وبعد أن هدأت حماسة نقلي، ولكن الظلام كان قد خيم حينئذ واضطروا إلى الانتظار حتى اليوم التالي.

تقرير الدركيين المكتوب يختلف عما توصلا إليه في تحرياتهما، ويعتبر عملاً بارعاً في الإغفال والحذف.

ضابطا الصف الموقعان أدناه، لورنثيو كاركامو خيمينث وهوميلدي غاراي رانكيليو، يشهدان بأنهما قد أنجدا يوم أمس،

الخميس 9 كانون الأول 2009، المواطنة الأمريكية مايا بيدال، من كاليفورنيا، وهي تقيم بصورة مؤقتة في هذه القرية، بعد تعرضها للسقوط في الموقع المسمى هاوية بينكويا، شمالي شرق الجزيرة. والسيدة المذكورة موجودة بحالة مستقرة في مستشفى كاسترو الذي نُقلت إليه بطائرة هيلوكبتر تابعة للأسطول بطلب من الموقعين على هذا التقرير. اكتشفَ وجودَ السيدة المصابة القاصرُ خوان كورّاليس، أحد عشر عاماً، والقاصرُ بيدرو بيلانتشوغاي، أربعة عشر عاماً، وكلاهما من أهالي هذه الجزيرة، وكانا قرب الهاوية المذكورة. وعند استجوابهما حسب الأصول، قال الشاهدان إنهما رأيا سقوط ضحية أخرى غريبة من الجنس المذكر. وقد عُثر على آلة تصوير في حالة سيئة على الصخور المسماة مغارة البينكويا. ولأن آلة التصوير المذكورة من ماركة كانون، فإن الموقعين أدناه يستنتجان أن الضحية كان سائحاً. ويقوم جهاز الدرك في الجزيرة الكبرى حالياً بالتحري عن هوية ذلك الغريب. ويعتقد القاصران كورّاليس وبيلانتشوغاي أن الضحيتين انزلقا في الوهدة المذكورة، ولكنهما غير متأكدين من ذلك نظراً لقصور الرؤية بسبب ظروف المناخ الضبابية. لقد سقطت السيدة مايا بيدال على الرمل، أما السيد السائح فسقط على الصخور ومات بفعل الارتطام. وعند ارتفاع المد البحري حمل الماء الجسد إلى عمق البحر بفعل التيار ولم يُعثر عليه.

ضابطا الصف الموقعان أدناه يطالبان مرة أخرى بإقامة حاجز أمن عند الموقع المسمى هاوية بينكويا بسبب ظروفها الخطرة، قبل أن تفقد سيدات أخريات وسائحون آخرون حياتهم، مما يلحق الضرر بسمعة الجزيرة المذكورة.



لا وجود لكلمة واحدة حول أن الغريب كان يبحث عني وفي يده صورة لي. كما أنه لا يُشار كذلك إلى أنه لم يأت من قبل قطّ سائح بمفرده إلى جزيرتنا، حيث لا يوجد الكثير من وسائل الجذب، باستثناء حفلات الكورانتو؛ والسياح يأتون دوماً في مجموعات تنظمها وكالات السياحة البيئية. ومع ذلك، لم يضع أحد تقرير الشرطيين موضع الشك، ربما لأن الأهالي لا يريدون مشاكل في الجزيرة. البعض يقولون إن أسماك السلمون قد أكلت الغريق وربما سيقذف البحر في أحد الأيام عظامه المعروقة إلى الشاطئ، وآخرون يعتقدون موقنين بأن السفينة الشبح ***كاليوتشي*** هي التي أخذته، وفي هذه الحالة لن نجد منه حتى قبعة البيسبول التي كان يعتمرها.

استجوب الدركيان الصبيين في المخفر بحضور ليليان تريفينو وأوريليو نيانكوبيل اللذين حضرا للحيلولة دون تخويف الصغيرين، مع وجود نحو عشرة من أهالي الجزيرة مجتمعين في الفناء بانتظار النتائج، على رأسهم إدوفيخيس كورّاليس التي خرجت من هوتها العاطفية التي غاصت فيها بعد إجهاض أثوثينا، فقد خلعت عنها الحداد واستعدت للنضال. لم يستطع الصبيان إضافة شيء جديد إلى ما كانا قد صرحا به. جاء الدركي لورينثيو كاركامو إلى المستشفى ليوجه إلي أسئلة حول كيفية سقوطنا، ولكنني حذفت من أقوالي مسألة الصورة، وهو تفصيل كان سيُعقّد الحادث. وكان استجوابه لي بعد يومين من الوقائع، وكان مانويل آرياس قد علمني في أثناء ذلك أن الجواب الوحيد الذي عليّ تقديمه هو أنني كنت مشوشة الذهن بسبب الإصابة في رأسي، ولم أعد أتذكر ما الذي جرى. لكنني لم أكن بحاجة إلى الكذب، لأن الدركي لم يسألني إن كنتُ أعرف السائح المزعوم، فقد كان مهتماً بتفاصيل المكان والسقوط، من أجل مسألة حاجز الأمان الذي يطالب به منذ حوالي خمس سنوات. «هذا الخادم للوطن نبه رؤساءه إلى خطورة الهاوية المذكورة، ولكن هكذا هي الأمور يا آنسة، يجب أن يموت غريب بريء كي يستمعوا إلى رأي أحدنا».

وستتولى القرية كلها، حسب مانويل، تشويش الآثار ودفن الحادث من أجل حماية الصبيين وحمايتي من أية شكوك. ولن تكون المرة الأولى التي يتعرضون فيها للخيار بين الحقيقة المجردة التي لا تنفع أحداً أحياناً، والصمت المتكتم الذي يمكن أن يساعد جماعتهم، وقد اختاروا الخيار الثاني.

❖ ❖

وعلى انفراد مع مانويل رويت روايتي للأحداث، بما في ذلك الصراع البدني مع آرانا، وكيف أنني لا أذكر شيئاً عن أننا قد تدحرجنا معاً إلى الهاوية؛ بل يبدو لي أننا كنا بعيدين عن الحافة. لقد قلّبت ذلك المشهد ألف مرة في ذهني دون أن أدرك كيف حدث. فبعد غيابي عن الوعي، كان يمكن لآرانا أن يكون قد استنتج أنني لا أملك البلاكات وأن عليه تصفيتي، لأنني أعرف أكثر مما يجب. فقرر أن يلقي بي إلى الهاوية، ولكنني لست خفيفة وفي ما هو يبذل الجهد فقد توازنه أو ربما هاجمه **فاكن** من الخلف وسقط معي. لابد أن ركلة آرانا قد شوشت الكلب لدقائق، ولكننا نعرف أنه استرد وعيه فوراً، لأن الصبيين توجها إلى المكان بسبب نباحه. ومن دون جسد آرانا الذي يمكن أن يقدم بعض الآثار، أو تعاون الصبيين اللذين يبدو أنهما مصممان على الصمت، لا توجد طريقة للإجابة على هذه التساؤلات. ولستُ أفهم كذلك كيف أن البحر حمله هو وحده إذا كنا كلانا في المكان نفسه، ولكن من الممكن أنني لا أعرف قدرة تيارات تشيلوي البحرية.

ـ ألا تظن أن للصبيين علاقة ما في الأمر يا مانويل؟

ـ كيف؟

ـ يمكن أن يكونا قد سحبا جسد آرانا إلى الماء كي يحمله البحر.

ـ ولماذا يفعلان ذلك؟

ـ ربما لأنهما هما نفساهما دفعاه من أعلى الهاوية حين رأيا أنه يحاول قتلي.

ـ أخرجي هذا كله من رأسك يا مايا، ولن تكرري هذا الكلام ولو

مزاحاً، لأنه يمكن لك بذلك أن تدمري حياة خوانيتو وبيدرو ـ قال لي محذراً ـ. أهذا ما تريدينه؟

ـ بالطبع لا يا مانويل، ولكن من الجيد معرفة الحقيقة.

ـ الحقيقة هي أن بوبو قد أنقذك من آرانا ومن الوقوع على الصخور. هذا هو التفسير، ولا تسألي مزيداً من الأسئلة.

منذ أيام وهم يبحثون عن الجسد تحت إشراف القيادة البحرية والأسطول. جاؤوا بهيلوكبترات، وأرسلوا زوارق، القوا شِباكاً، ونزل غواصان إلى قاع البحر، ولم يجدوا الغريق، ولكنهم أخرجوا دراجة نارية من العام 1930، مرصعة بالرخويات والأصداف مثل منحوتة سريالية، وستكون أثمن قطعة في متحف جزيرتنا. جاب هوميلدي غاراي الشاطئ شبراً شبراً مع الكلب ليفنغستون دون أن يعثر على أثر للسائح التعيس. يُعتقد أنه يدعى دونالد ريشاردس، لأن أمريكياً بهذا الاسم قد حجز غرفة لليلتين في **فندق السفينة الشراعية الزرقاء** بمدينة أنكود، نام الليلة الأولى في الفندق واختفى بعدها. وبالنظر لعدم رجوعه، افترض مدير الفندق ـ حين قرأ خبر الحادث في الصحافة المحلية ـ أنه قد يكون الشخص نفسه، وأخبر الشرطة بذلك. وجدوا في حقيبته ملابس، وعدسة آلة تصوير ماركة كانون وجواز سفر باسم دونالد ريشاردس، صادر في فينكس بولاية أريزونا، عام 2009، ومظهره جديد، وليس فيه سوى سمة دخول دولية وحيدة، هي سمة الدخول إلى تشيلي يوم 8 كانون الأول، اليوم السابق للحادث. وحسب ما ورد في استمارة الدخول إلى البلاد فإن سبب الرحلة هو السياحة. وقد وصل ريشاردس المذكور إلى سنتياغو، وذهب منها بالطائرة إلى بويرتو مونت في يوم وصوله بالذات، وقضى ليلة في الفندق بأنكود وكان يفكر في المغادرة في اليوم بعد التالي. إنها رحلة غير مفهومة، لأنه ليس هناك من يسافر من كاليفورنيا إلى تشيلوي من أجل البقاء ثمان وثلاثين ساعة فقط.

جواز السفر يُثبت نظريتي في أن آرانا كان يخضع للتحقيق في إدارة شرطة لاس فيغاس ولا يمكنه بالتالي مغادرة الولايات المتحدة باسمه الحقيقي. والحصول على جواز سفر مزور كان أمراً سهلاً لشخص مثله. لم يأتِ أحد من القنصلية الأمريكية إلى الجزيرة ليلقي نظرة على موقع الحادث، بل اكتفوا بتقرير الدرك الرسمي. وإذا ما أزعجوا أنفسهم في محاولة البحث عن أسرة المتوفى لإبلاغها، فمن المؤكد أنهم لن يجدوها، لأنه بين الثلاثمئة مليون نسمة في الولايات المتحدة، يوجد بكل تأكيد آلافٌ ممن يدعون ريشاردس. ولا وجود لأي رابط يربط بيني وبين آرانا.

ظللتُ في المستشفى حتى يوم الأحد، وفي يوم الاثنين 13 كانون الأول نقلوني إلى بيت ليونيل شناك، حيث استقبلوني كبطلة حرب. كنتُ متوعكة، مع جرح من ثلاث وعشرين غرزة في جلد الرأس، ومضطرة إلى البقاء مستلقية على ظهري، ودون وسادة، وفي إضاءة معتمة بسبب الرجة الدماغية. كانوا قد حلقوا شعر نصف رأسي في غرفة العمليات من أجل خياطة الجرح، يبدو أن قدري أن أظل حليقة الرأس. فمنذ الحلاقة السابقة في شهر أيلول، نما شعري ثلاثة سنتمترات، وقد اكتشفتُ بذلك لون شعري الطبيعي. إنه أصفر بلون فوكسفاغن جدتي. وجهي مازال متورماً، ولكن طبيبة أسنان **ميّالوبو** فحصتني، وهي سيدة لها اسم عائلة ألماني، من أقارب آل شناك البعيدين. (وهل هناك أحد في هذه البلاد لا تربطه صلة بآل شناك؟). أبدت طبيبة الأسنان استعدادها لاستبدال أسناني. وقالت إنها ستكون أفضل من أسناني الأصلية، وعرضت عليّ تبييض الأسنان الأخرى المتبقية مجاناً، كتعويض لميّالوبو الذي ساعدها في الحصول على قرض مصرفي. إنها مقايضة الكرامبولا مرة أخرى وأنا المنتفعة.

يجب عليّ، بأمر من الطبيب، أن أظل مستلقية وهادئة، ولكن كان هناك استعراض دائم من الزائرين. فقد جاءت ساحرات **الروكا** الجميلات،

وكان مع إحداهن طفلها حديث الولادة، وعائلة شناك كلها، وأصدقاء مانويل وبلانكا، وليليان تريفينو وعشيقها الدكتور بيدراثا، وأناس كثيرون من الجزيرة، وفريق كرة القدم، والأب لوثيانو ليون. «لقد جئتك بمسحة المحتضرين الأخيرة يا غرينغيتا»، قال لي ضاحكاً، وسلمني علبة شوكولا. ثم أوضح لي أن ذلك السر المقدس صار يسمى اليوم مسح المرضى، دون حاجة لأن يكونوا محتضرين كي يتلقوه. وباختصار، لا شيء من الراحة لي.

تابعت يوم الاثنين ذاك الانتخابات الرئاسية وأنا في الفراش، مع **ميّالوبو** الذي يجلس عند قدمي، وكان منفعلاً جداً وشبه مترنح، لأن مرشحه سيباستيان بينيرا، الملياردير المحافظ يمكن أن يكسب الانتخابات، ومن أجل الاحتفال بفوزه جهز **ميّالوبو** زجاجة شمبانيا فقط. قدم لي كأساً منها فانتهزت الفرصة لأقول له إنني لا أستطيع الشرب، لأني كحولية. فهتف قائلاً: «يا للأسف يا غرينغيتا! فهذا أسوأ من كون المرء نباتياً». لم يحرز أي من المرشحين ما يكفي من الأصوات، وستكون هنالك جولة أخرى في شهر كانون الثاني، ولكن **ميّالوبو** أكد لي أن صديقه سوف يفوز. بدت لي شروحه السياسية مشوشة بعض الشيء: إنه يقدّر الرئيسة الاشتراكية ميتشيليه باتشيليت لأنها شكلت حكومة رائعة ولأنها سيدة راقية جداً، ولكنه يمقت أحزاب يسار الوسط التي ظلت في السلطة عشرين عاماً وقد جاء الآن دور اليمين. أضف إلى ذلك أن الرئيس الجديد هو صديقه، وهذا أمر مهم جداً في تشيلي، حيث يجري ترتيب كل شيء من خلال العلاقات وصلة القربى. نتيجة التصويت أفقدت مانويل معنوياته لأسباب عديدة، منها أن المرشح بينيرا جمع ثروته في كنف دكتاتورية بينوشيت، بينما ترى بلانكا أن الأمور تغيرت كثيراً. فهذه البلاد هي الأكثر ازدهاراً في أميركا اللاتينية والرئيس الجديد سيكون أخرق جداً إذا ما أراد التجديد. والوضع ليس على هذا النحو، لأنه يمكن أن يقال أي شيء عن بينيرا باستثناء كونه أخرق. إنه براعة مذهلة.

اتصل مانويل هاتفياً بجدتي وأبي ليخبرهما بالحادث الذي وقع لي، دون أن يرعبهم بتفاصيل مخيفة حول حالتي الصحية، فقررا المجيء لقضاء فترة أعياد الميلاد معنا. لقد أخرت جدتي طويلاً جداً اللقاء ببلادها، وأبي يكاد لا يتذكرها. وقد حان الوقت ليأتيا. استطاعا التكلم مع مانويل دون تعقيدات رموز وتلميحات، فمع موت آرانا تلاشى الخطر، ولم يعد عليّ الاختباء، ويمكنني العودة إلى البيت فور تمكن ساقيّ من حملي. إنني حرة.

صفحات أخيرة

قبل عام كانت أسرتي تتألف من شخص ميت: جدي بوبو، وثلاثة أحياء: جدتي، وأبي، ومايك أوكلي، أما الآن فهي تتألف من قبيلة، وإن كنا متفرقين بعض الشيء. هذا ما أدركتُه في فترة أعياد الميلاد التي لا تُنسى والتي قضيناها للتو في بيت أشجار السرو الذي بلا أبواب. كان ذلك يومي الخامس في جزيرتنا بعد قضائي فترة نقاهة لمدة أسبوع في بيت ميّالوبو. لقد حضرت جدتي ومعها أبي في اليوم السابق يحملان أربع حقائب، لأني طلبت منهما أن يُحضرا كتباً، وكرتي قدم، ومواد تعليمية للمدرسة، ونسخ DVD لأفلام هاري بوتير، وهدايا أخرى لخوانيتو وبيدرو، وجهاز كمبيوتر محمول لمانويل، وسأدفع قيمتها في المستقبل كيفما أستطيع. كانا ينويان الذهاب إلى فندق، كما لو أن هذا المكان هو باريس. فالنزل الوحيد المتوافر في الجزيرة هو حجرة وبيلة فوق أحد محلات بيع السمك. ولهذا نمت أنا وجدتي في سرير مانويل، ونام أبي في سريري، وذهب مانويل للنوم عند بلانكا. وبحجة الحادث والراحة الإجبارية، لم يسمحوا لي بالمشاركة في عمل أي شيء، ودللوني مثل «غواغوا»، هكذا يسمون الأطفال حديثي الولادة في تشيلي. مازلتُ في حالة مريعة. فعيناي محاطتان ببقعتين بنفسجيتين، وأنفي متورم مثل باذنجانة، وهنالك جرح كبير في الرأس، فضلاً عن أصابع القدم المكسورة والكدمات في أنحاء الجسم التي بدأت تتحول إلى اللون الأخضر، ولكن صارت لدي أسنان مؤقتة.

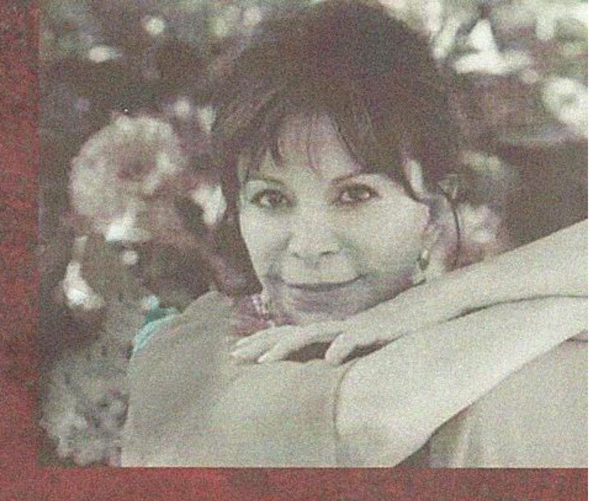
أثناء مجيئهما في الطائرة، أخبرت جدتي ابنها بالحقيقة بشأن مانويل آرياس. ولأن أبي كان محتجزاً بحزام الأمان، لم يستطع أن يثير فضيحة، ولكنني أظن أنه لن يسامح أمه بسهولة على إبقائه مخدوعاً طيلة أربعة وأربعين عاماً. اللقاء بين مانويل وأبي كان حضارياً، تصافحا، وتلا ذلك عناق بليد وخجول، دون أي شيء من التفسيرات المطولة. وما الذي يمكن أن يقولاه؟ عليهما أن يتعارفا خلال الأيام التي سيقضيانها معاً، وإذا كان ثمة تجانس فستقوم بينهما صداقة وفق ما يسمح به بُعد المسافة بين مكاني إقامتهما. فالمسافة بين بيركلي وتشيلوي هي أشبه برحلة إلى القمر. حين رأيتُهما معاً انتبهتُ إلى التشابه بينهما، وأدركت أن أبي سيكون بعد ثلاثين عاماً عجوزاً وسيماً مثل مانويل.

لقاء جدتي نيني مع مانويل، عشيقها القديم، لم يكن جديراً بالتدوين أيضاً: قبلتان فاترتان على الخدين، مثلما يفعل التشيليون، وهذا كل شيء. كانت بلانكا شناك تراقبهما، مع أنني أخبرتها مسبقاً بأن جدتي شديدة السهو، ولابد أنها قد نسيت تماماً غرامياتها المحمومة مع مانويل آرياس.

حضّر مانويل وبلانكا عشاء ليلة الميلاد ــ خروف، ولا شي من السلمون ـ وزينت جدتي البيت بأسلوبها المبتذل بأنوار مصابيح عيد الميلاد وبعض الأعلام الورقية المتخلفة عن الاحتفالات بالعيد الوطني. افتقدنا كثيراً مايك أوكلي الذي يمضي عيد الميلاد من كل عام مع أسرتي منذ تعرفه على نيني. وعلى المائدة كنا نقاطع كلام بعضنا بعضاً صارخين بتسرع لنروي كلّ ما جرى لنا. لقد ضحكنا كثيراً ووجدنا من طيب المزاج ما يكفي لأن نشرب نخباً باسم دانييل غودريتش. ورأت جدتي أنه عليّ، فور نمو شعري على رأسي، أن أذهب للدراسة في جامعة سياتيل، وهكذا يمكنني أن ألقي أنشوطتي على ذلك الجوال المتهرب. ولكن مانويل وبلانكا استفظعا هذه الفكرة التي بدت لهما مريعة، ولأن لدي أموراً أخرى كثيرة أفعلها قبل أن

أعـود لأغطـس في الحـب. «وهـو كـذلك، ولكـنني أفكـر في مانويـل طيلـة الوقت»، قلتُ لهما والدموع تكاد تطفر من عيني مرة أخرى. فقالت جدتي: «ستشفين منه يا مايا. فالعشاق يُنسَون في طرفة عين». فغص مانويل بقطعة من لحـم الخـروف فتجمـدنا جميعنـا وظلـت شـوكات الطعـام بأيـدينا معلقـة في الفضاء.

وفي موعد تناول القهوة سألتُ عما جرى لبلاكات آدم تريفور التي كادت أن تكلفني حياتي. ومثلما كنتُ أتوقع، مازالت نيني تحتفظ بها، وهي لن تلقي بها أبداً إلى البحر وبخاصة الآن في ظل الأزمة الاقتصادية العالمية التي تهدد بإغراقنا جميعاً في الفقر. وإذا لم تقم جدتي بطباعة أوراق نقدية أو بيع البلاكات إلى إحدى المافيات، فإنها ستخلّفها ميراثاً لـي حين تموت، ومعها غليون جدي بوبو.



أنا مايا بيدال ، تسعة عشر عاماً ، الجنس أنثى ، عزباء ، وليس لي حبيب ، لانعدام الفرص وليس لأني متطلبة ، ولدت في بيركلي ، كاليفورنيا ، جواز سفر أمريكي ، لاجئة مؤقتة في جزيرة بجنوب العالم ، أطلقوا علي اسم مايا لأن جدتي نيني معجبة بالهند ، ولأنه لم يخطر لأبواي اسم آخر ، على الرغم من أنه كان لديهما تسعة شهور ليفكرا في اسم لي . ومايا بالهندية يعني (سحر ، وهم ، حلم) . وهي أمور ليس لها أي علاقة بطبعي . اسم آتيلا يناسبني أكثر ، لأني حيث أضع قدمي لا ينبت العشب أبداً .

لقد سببت لي مايا
هذه من الألم أكثر مما سببته
أية شخصية أخرى من شخصيات رواياتي .
لقد اضطررت أحياناً إلى أن أوجه إليها
بعض الصفعات لأعيد إليها رشدها ،
ورغبت في لحظات أخرى
أن احتضنها بقوة بين ذراعي
لأحميها من العالم
ومن تشوشات قلبها .

إيزابيل الليندي



